كزافيه دي مونتابين

بائعة الخبز

The Bread Seller



ترجمة:
طانيوس عبده

العنوان: بائعة الخبز
المؤلف: كزافيه دي مونتابين
ترجمة: طانيوس عبده
عنوان الكتاب بالأصل: *La Porteuse de Pain*
الطبعة الأولى: أكتوبر - تشرين الأول، 2023 (1000 نسخة)



hemingway books@hotmail.com
بيروت / لبنان
تلفون: 0096181816433

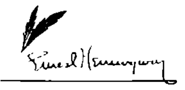
ISBN: 978 - 9922 - 691 - 86 - 2

كزافيه دي مونتابين

بائعة الخبز

ترجمة

طانيوس عبده



رؤية دار همنغواي:

احتفاءً بالأدب، اختِيرَ الأديب الأميركي إرنست همنغواي كاسم لدارنا.

أُسِّست دار همنغواي عام 2023، لإثراء القارئ العربي بأعمال أدبية وفق رؤية خاصة، نصّاً وروحاً، بمعايير فنية حديثة، وذلك ضمن سلاسل ثلاث:

- **كلاسيكيات**: تصدر بعضها بالعربية وبعضها بالإنگليزية، واسم السلسلة: *Classics*.
- **مختصرات**: بترجمة أدبية رفيعة للأعمال الفنية، واسم السلسلة: *Abridged Version*.
- **أفكار عظيمة**: وهي سلسلة لكتب فكرية تركت أثراً إنسانياً كبيراً، واسم السلسلة: *Great Ideas*.

The Hemingway Books House vision:

In honor of literature, the American writer Ernest Hemingway was chosen as the name of our publishing house.

Hemingway Books was established in 2023، to enrich the Arab reader with literary works following a special vision، in text and spirit, with modern artistic standards، within three series:

- Classics: some of them are published in Arabic and some in English. The name of the series is: *Classics*.

  Abridgements with fine translations of literary works. The name of the series is: *Abridged Version*.

  A series of intellectual books that have left a great human impact. The name of the series is: *Great Ideas*.

القسم الأوّل

في الساعة الثالثة من مساء اليوم الذي تبدأ فيه هذه الحكاية، أي في اليوم الثالث من سبتمبر (أيلول) سنة 1861، كانت امرأة تسير في الطريق المؤدية من بيت الغورت إلى الفورتفيل، وهي صبية لا تتجاوز الخامسة والعشرين من العمر، معتدلة القوام وضّاءة الجبين جميلة الوجه، تُشوِّق رؤيتها العيون.

ولها شعر أشقر طويل عقدته فوق رأسها الحاسر، وعينان زرقاوان تطاولت أهدابهما، وفم صغير محمرّ الشفتين تبسم منه عن أسنانٍ غايةٍ في الانتظام.

وكانت تحمل بيدها اليمنى آنيةً من الصفيح، وتمسك بيدها اليسرى يدَ طفلٍ يبلغ الثالثة من العمر، كان يسير مع أمه ببطءٍ وهو لا ينفكّ عن النظر إلى جواد من الخشب، كان قد ربطه بخيط طويل وجعل يجرّه وراءه.

وقد وقف فجأة وانتهر ذلك الجواد الخشبي، لأنه عثر بحجرٍ في الطريق وانقلب. فالتفتت إليه أمه، وقالت له برفق:

ـ كفى يا جورج، واحمل جوادك فقد تأخرنا في الطريق.

فامتثل الطفل وحمل الجواد تحت إبطه. ثمّ أمسك بيد أمه فواصلا السير.

ولبثا سائرين حتّى وصلا إلى دكّان بقّال، فاستقبلتها صاحبة الدكّان ببشاشة لأنها كانت من زبائنها، وقالت لها:

ـ إلى ماذا تحتاجين يا مدام فورتيه؟.

ـ إلى زيت البترول فاملئي لي هذه الآنية.

فدهشتْ صاحبة الدكان، وقالت لها:

ـ كيف ذلك ألم أملأها لك بالأمس؟.

قالت:

ـ هو ذاك، ولكنّ ولدي عثر بالآنية وهو يلعب، فسال ما فيها على الأرض.

فأخذتْ منها الآنية وهي تقول:

ـ يجب أن تحرصي كلّ الحرص حذراً من خطر الحريق، فإنّك إذا لم تضعي الزيت في محلٍّ لا يصل إليه ولدك عرّضتِ المعمل للحريق.

ـ لقد عنّفته تعنيفاً كثيراً، فبكى ووعدني أن يتوب.

ـ حسناً فعلتِ، ورجائي أن تكون توبته صادقة. أخبريني أيتها العزيزة، هل أنتِ مرتاحة إلى عملك الجديد؟.

ـ لا بُدَّ لي من الرضى. وإذا لم يكن لي من هذا العمل سوى السلوى عن أحزاني لكفى.

قالت:

ـ هو ذاك، ولكنّكِ لو اشتغلتِ بالخياطة لكان ربحكِ أجزل، وتعبكِ أقلّ.

ـ لقد صدقتِ، ولكنّي أقتصد كثيراً في نفقاتي، ولولا ذلك لما استطعتُ أن أعول ابني وابنتي.

ـ ألا تزال ابنتكِ عند المرضع في الريف؟.

ـ نعم، فهي في قرية جوانيي.

ـ إنّ ذلك يُكَلِّفكِ كثيراً من النفقات.

ـ ثلاثين فرنكاً في الشهر! فتأمّلي نكبتي بفقد زوجي، فإنّه كان من خيرة الرجال حباً ومروءة ونشاطاً، فإنّه كان يكسب ثمانية فرنكات في اليوم، فلمّا قَتَلَتهُ تلك الآلة قتلتْ هنائي.

وعند ذلك سالت مدامعها، فقالت لها صاحبة الدكان:

ـ لا تبكي أيتها الحبيبة، وتجمّلي بالصبر، فإنّكِ إذا بحثتِ تجدين كثيراتٍ أشدَّ شقاءً منكِ. ومع ذلك فإنّ صاحب المعمل نظر إليكِ بعين الرحمة، فقد علمتُ أنّه لولا زوجك لم تنفجر الآلة.

ـ هذه هي الحقيقة، وا أسفاه!.

ـ ومع ذلك فإنّ صاحب المعمل أحسن إليكِ بعد مماته، فنفحكِ بمبلغ من المال، وعيّنكِ لحراسة المعمل، ومثل هذا المنصب لا تتولاه النساء.

فأجابت الأرملة بلهجةٍ تبيّن منها الحزن العميق، قائلة:

ـ لا أنكر فضل المسيو لابرو صاحب المعمل عليَّ، فقد أحسن إليَّ كلَّ الإحسان، بالرغم ممّا عُرِفَ به من القسوة. غير أنّ زوجي قُتِلَ في معمله، فصرتُ أرى هذا المعمل شؤماً عليَّ. ولولا ولدي وبنتي لما رضيتُ الاستخدام في معملٍ سالت فيه دماء زوجي المنكود.

ـ يجب يا ابنتي أن تلتمسي لنفسكِ السّلوى والعزاء، فإنّك لا تزالين في مقتبل الشباب. وقد جمّلتكِ الطبيعة بخير ما تُجَمَّلُ النساء، ولا بُدَّ أن يهيم بك يوماً أحد الفتيان ويسألك الزواج به، فلا تردّيه.

فقالت الأرملة بلهجة دلّتْ على صدق العزيمة:

ـ معاذ اللّه أن أستبدل زوجي الحبيب!.

ـ هذا ما تقوله كلّ أرملة يا ابنتي، ثمّ تمضي الأيام فتُنسيها ما قالت، ومن كانت في مثل عمرك لا يطول زمن ترمّلها.

ـ ربما كنتِ مصيبةً فيما تقولين، فإنّ الأرملة قد تحتاج إلى الزواج، ولا سيّما حين يكون لها أطفال. أمّا أنا فلا أحتاج إلّا إلى ألفي فرنك.

ـ ماذا ستصنعين بهذا المال؟.

ـ وأيُّ فائدةٍ من البحث في هذا الموضوع؟ فإنّ هذه الثروة لا أنالها في الأحلام! ومن أين يأتيني هذا المال؟ ولذلك لا أجِدُ بُدّاً من البقاء في المعمل لإعالة ولدي وابنتي، ومن يعلم ما يخبّئه لنا المستقبل؟.

ـ لقد أصبتِ يا ابنتي، فتوكلي على الله فهو يلهمك طريق السَّداد، واعملي بنصيحتي فضعي زيت البترول في خزانة، كي لا تصل إليه يد ولدكِ.

ـ كوني مطمئنة، فإنّ خوفي شديد من النار.

وعند ذلك خرجتِ الأرملة من الدكان، وكان ولدها جورج الصغير يلاعب جواده الخشبي عند الباب، فنادته أمه فتأبّط الجواد، وسارت وإيّاه إلى المعمل الذي كانت بوّابةً فيه.

وقفت صاحبة الدكان تشيّعها بالنظر، وهي تقول في نفسها:

إنّي أعرف هذه المرأة طمّاعة أبيّة النَّفْس، فهي تنفر من الزواج لأنّها لا ترجو أن تجد زوجاً يوافقها. وما عساها تريد بالألفي فرنك، فإنّها لم تقُل لي شيئاً عن قصدها.

* * *

عرف القرّاء من محادثة المرأتين شيئاً عن حالة الأرملة، وأصلُ حكايتها أنّها كانت تشتغل بالخياطة قبل الزواج.

وقد تزوّجتْ وهي في الثانية والعشرين من عمرها عاملاً نشيطاً ميكانيكياً، يدعى بطرس فورتيه، كان يشتغل في معمل جيل لابرو، وقد قُتل زوجها منذ بضعة أشهر إثر انفجار آلة. وأراد صاحب المعمل التعويض على أرملة القتيل وولديها، فجعلها بوّابةً في معمله.

وقد رضيت حنّة بهذا المنصب لإعالة ولديها، ولكنّها كانت تتألّم لبقائها في هذا المعمل، إذ تتمثّل في كلِّ حينٍ مقتل زوجها.

أخطأتْ صاحبة دكان البقالة بما اتّهمت به حنّة من الطمع، فإنّها لم تكن تتمنّى نَيْلَ الألفي فرنك إلّا لإنشاء مخزن للخياطة، تستعين بربحه على تربية ولديها، وكانت تفكّر بذلك وهي سائرة إلى المعمل، مطرقة الرأس.

وفيما هي تسير ارتعشت، إذ سمعت صوتاً اضطرب له وجهها، ولكنّها لم تلتفت نحوه وأسرعت بالسير.

عاد الصوت إلى مناداتها يقول:

ـ ألم تسمعيني يا سيدتي إنّي عائد مثلك إلى المعمل؟ سأصحبك وأحمل عنك هذه الآنية.

التفتَ الغلام إلى الوراء، ورأى صاحب الصوت، فنادى أمه قائلاً:

ـ اسمعي يا أماه، إنّه صديقي جيرود الذي أعطاني الجواد.

وكان جيرود قد أدركَ الأرملة، فحمل الغلام وقبّله، ثمّ التفت إلى حنّة فقال لها:

ـ إنّ من يرى اضطرابكَ حين تكلّميني يحسبكِ خائفةً منّي! فلماذا هذا الاضطراب؟ وكيف لم تلتفتي حين ناديتكِ وقد عرفتِ أنّ الصوت صوتي؟ بل إنّك أسرعتِ الخُطى بعد أن كنتِ تسيرين على مهل! فلماذا تهربين مني؟ أيُّ إساءةٍ أسأتها إليكِ؟.

فأجابته حنّة بلسانٍ يتلعثم:

ـ إنّكَ مخطئ فيما تقوله، فإنّي لم أسمعكَ كما تتوهّم، ولم يكن إسراعي إلّا لأنّي تأخّرتُ في العودة إلى العمل.

ـ أحقٌّ ما تقولينه يا حنّة؟.

ـ كيف لا يكون حقاً وأنا أقوله لكَ؟.

ـ ليس ذلك بالبرهان المقنع، فإنّكِ تحاولين الابتعاد عنّي في كلِّ حينٍ، مع أنّكِ تعلمين أنّي حين أحدّثك أكون من أسعد الناس. ألا تعلمين ذلك يا حنّة؟.

قاطعته حنّة قائلةً:

ـ أسألُكَ يا سيدي ألّا تعود إلى أحاديثكَ السابقة، فإنّي لا أطيق سماعها.

ـ وأنا لا يروقني ما أراه من صدّكِ وحذركِ، فإنّي أحبّكِ بملء جوارحي، بل إنّي أعبدكِ عبادةً وأنتِ تعلمين.

فقاطعته الأرملة أيضاً قائلة:

ـ أعلمتَ السبب الذي دعاني إلى الإسراع؟ فإنّك عدتَ إلى تلك الأحاديث.

ـ أتحسبين أنّ لساني يستطيع كتمان ما يوحيه إليه قلبي؟ وكيف أطيق الكتمان وأنتِ أمامي؟.

ـ حنّة إنّي أحبّكِ، ويجب أن تتعوّدي منّي سماع هذه الأقوال، فإنّي لا أنفكُّ عن قولها كلّ ما لقيتكِ.

ـ وأنا لا أنفكُّ أيضاً عن أن أقول لكَ إنَّ هذا الحُبَّ ضربٌ من الجنون.

ـ ولماذا تدعينه جنوناً؟.

ـ لأنّي لا أتزوّج بعد ترمّلي.

ـ أتحسبين ذلك أكيداً؟.

ـ لا أقول ذلك على سبيل الظنّ والحسبان، بل إنّي واثقة ممّا أقول.

ـ وأنا واثقٌ بعكس ما تقولين، فإنّكِ لا تزالين في مقتبل الشباب وريعان الجمال، فكيف تطيقين العيش كلّ أيامك عيشة وحدة واعتزال؟.

ـ أرجوكَ يا مسيو جيرود ألّا تقول هذا القول.

ـ لماذا؟ ألأنّي أقول الحق؟.

ـ بل لأنّه يجب أن تتذكّر أنّه لم يمضِ بعد أكثر من خمسة أشهر على مقتل زوجي، وأن تتذكّر أنّه كان صديقكَ.

ـ ألعلّي أخون صديقي إذا أحببتُ امرأته بعد موته؟ ألعلّي أُسِيءُ إلى روحه إذا قلتُ لكِ إنّي أعتبر ولديه ولدين لي؟ تمعّني بالأمر قليلاً يا حنّة، فإنَّ صاحب المعمل قد جعلكِ بوّابةً وعيّن لك راتباً لا يكاد يفي بنفقاتكِ ونفقات ولديكِ، لا سيّما وأن أحدهما عند مرضعٍ في الريف. أمّا أنا فإنّي أكسب خمسة عشر فرنكاً في اليوم، أي أربعمائة وخمسين فرنكاً في الشهر، أي خمسة آلاف وأربعمائة فرنكٍ في العام. وهذا الراتب يكون خيرَ ثروةٍ لضمانة مستقبل ولديكِ، لا سيّما وأنّكِ من أهل الجد والاقتصاد. وفوق ذلك فإنّ آمالي عظيمة، وقد أصبح قريباً من الأغنياء، بل إنّي قد أغدو صاحب معمل، فتصبحين أسعد امرأة. وكلُّ ذلك منوطٌ بكِ، وبكلمةٍ تصدر من فمكِ، فلماذا لا تقولين هذه الكلمة؟... حنّة إنّي أحبّكِ، بل إنّي هائمٌ بكِ هياماً أقتحم به الصعوبات، فلا تدفعيني إلى إتيان ما لا أحبُّ أن آتيه.

فنظرتْ حنّة إليه محدّقةً، وقالت له بصوتٍ يضطرب:

ـ هذه هي المرة الرابعة التي تجاهر فيها بحبّكَ، حتّى لقد كدتُ أحسبكَ صادقاً بهذا الحب.

ـ أقسم باللّه إنّ حبّي لكِ صادق نزيه.

ـ دعني أتمّم حديثي، فلا شكَّ عندي أنّك صادق النية شريف الحب، ولكنّي لا أستطيع أن أجيبكَ اليوم إلّا بما أجبتكَ

به من قبل، وهو أنّي أحبُّ أن أبقى أرملةً ما حييت، فقد أحببتُ زوجي حبّاً وهبته فيه قلبي، وقد مات الزوج فمات القلب.

فظهرتْ علائم اليأس على وجه جيرود، وسالتْ دمعتان من عينيه، فقال بصوتٍ تخنقه العبرات:

ـ ولكنّي أعبدكِ، فكيف أدافع هذا القلب الذي لا ينبض إلّا بحبّك؟ وكيف تقسين هذه القسوة، وأنت تعلمين فعلها في قلبي الكبير؟.

ـ لا أنكر أنّكَ تتألّم لهذا القول، والحقُّ أنّي أتألّم أنا أيضاً لتألّمكَ، ولكنَّ ضميري وشرفي يقضيان عليَّ بأن أقول لكَ ما قلتُهُ، ورجائي أنّكَ لن تفكّر بي بعد الآن.

ـ ويحٌ لنفسي! وبمن أفكّر إذن؟.

ـ إنّكَ تستطيع أن تسلو كما أحببتَ، ورجائي إليكَ ألّا تعود إلى أقوالٍ لا أريد سماعها.

ـ إذن إنّكِ تحولين دون رجائي، وتقفلين في وجهي أبواب المستقبل؟.

ـ ذلك ما لا بُدَّ لي منه.

فقبض جيرود على يدها بعنف، وقال لها:

ـ حنّة إنّكِ قد تحتقرينني لأنّي عامل بسيط ليس لي غير راتبي، ولكنّي قد أصبح قريباً من أهل الثروة، فإذا أصبحتُ غنياً أترضين بي؟.

فأجابته الأرملة، وهي تحاول التخلّص منه، قائلة:

ـ لا تكلّمني بهذه اللهجة، فإنّكَ تخيفني.

ـ أترضين الثروة التي ستكون لكِ ولابنيكِ؟.

ـ اسكت!.

ـ كلا لن أسكت، فإنّكِ أسأتِ فهم كلامي، ولم تعلمي قَدر غرامي، إذن فاعلمي أنّي أهواكِ منذ خمسة أعوام، أيِ منذ أوّل يومٍ رأيتكِ فيه، فكان هذا الحب ينمو في قلبي كلَّ يوم وكلَّ ساعةٍ، حتّى ملأ جوارحي وبِتُّ في حبّكِ من أشدّ الناس شقاءً. وقد حافظتُ على الكتمان طول حياة زوجك، لأنّه كان يدعوني صديقه فكانت امرأته مقدَّسةً عندي. أمّا وقد مات وبِتّ حرّةً بعد موته، فلماذا تريدين أن أسكت؟ ولماذا تريدين أن تمدّي في حبل شقائي؟ فاعلمي يا حنّة أنّه لا بُدَّ لي منكِ، فقد كُتِبتِ لي في لوح المقدور، ولا سبيل إلى معاندة الأقدار.

ثمّ أخذ يدها فأدناها من فمه وهي تمانعه، وقبّلها قبلةً كادت تحرقها.

وعند ذلك قَدِمَ ولدها جورج، الذي كان يلاعب جواده في الطريق، فقال:

ـ ألا تذهبين يا أمّاه، فقد قلتِ إنّنا تأخّرنا. وأنتَ يا مسيو جيرود ألا تذهب معنا!.

فسار الثلاثة. وقال جيرود للأرملة:

ـ أعطني هذه الآنية لأحملها عنكِ.

قالت:

ـ أشكركَ فقد أوشكنا أن نصل، وفوق ذلك فليس فيها غير أربعة ليترات من زيت البترول، فلا يتعبني حملها.

فأظهر جيرود الدهشة، وقال:

ـ أتنيرين المعمل بزيت البترول؟.

ـ نعم، فإنّه رخيص الثمن.

ـ احذري، فإنّه شديد الخطر، وقد حرّم المسيو لابرو إدخال الزيوت المعدنية إلى معمله، فإذا عَلِمَ بما تعملين غضب غضباً شديداً.

ـ إنّي كنتُ أجهل ذلك، وسأعمل بنصيحتكَ منذ الغد.

وبعد هنيهة وصلوا إلى المعمل، فوقف جيرود عند باب غرفتها وقال لها:

ـ عندي كلمة أريد أن أقولها.

ـ ما هي؟.

ـ إني ألتمس منكِ أن تحددي الموعد الذي تختارينه، مهما كان بعيداً، فقد تعوّدتُ منكِ الوفاء بكلمتك. ألا تقولين كلمةً رجاءً؟.

ـ كلا يا جيرود.

فضرب الأرض برجله غاضباً، وقال:

ـ أتحرمينني حتّى من الرجاء؟.

فذُعِرتِ الأرملة لِمَا رأته من تغيّره الفجائي، وأسرعت بالدخول إلى غرفتها، ولكنَّ جيرود اعترضها قائلاً:

ـ لا تدفعيني إلى اليأس، فذلك خيرٌ لكِ.

وكان قد حال بينها وبين الباب، فقالت له:

ـ حسناً سنرى فيما بعد.

ـ أحقٌّ ما تقولين؟.

ـ من دون شك.

فتنهّد جيرود تنهُّدَ ارتياحٍ، وقال:

ـ أشكركِ أيتها الحبيبة، فقد رددتِ إليَّ الحياة.

دخلت حنّة إلى غرفتها، فوضعت آنية البترول في خزانةٍ وهي تقول:

ـ إنّ يد جورج لا تصل إليها في هذا المكان.

وعند ذلك مَدَّ جيرود لها يده، فتردّدت عن مصافحته، فقال لها:

ـ ما هذا التردّد؟ ألعلك حاقدةٌ عليَّ؟.

قالت:

ـ كلا... ولكن... أرجوك....

ـ ثِقي أيتها الحبيبة بأنّي لا أقول لكِ كلمةً لا ترضيكِ، ولكنّي أرجوكِ ألّا تنسي ما وعدتني به، فإنّي سأشتدّ بهذا الرجاء الذي علّلتُ به نفسي، وسأجيئكِ يوماً ما فأقول لكِ إنّي لا أقتصر على أن أقدّم لكِ حنوّي، بل إنّي أدفع لكِ ثروةً، فهل تقبلين في هذا اليوم أن تكوني امرأتي؟.

فأجابته بصوت يضطرب:

ـ ربّما رضيتُ من أجل أولادي.

ـ حسناً... هاتي يدكِ!.

ـ هذه هي.

فقبّل جيرود تلك اليد قبلةً حارّةً، وانصرف وهو يتنهّد تنهُّد ارتياح.

* * *

كان جيرود، الذي تقدّم لنا وصفه، نائب رئيس في المعمل، وهو لا يتجاوز الثلاثين من العمر، قويّ البُنية كثير النشاط منتظم الملامح، في عينيه بريق يدلّ على الذكاء، غير أنّ غلاظة شفته السفلى كانت تدلّ على استرساله في الشهوات.

وكان من أفضل العمال الميكانيكيين، وقد قدره صاحب المعمل فجعل يرقّيه منذ ستة أعوام، حتّى جعله نائب رئيس.

أمّا صاحب المعمل فقد كان من المخترعين في الصناعة، ومع ذلك فقد كان يستشير جيرود في أكثر اختراعاته. كما أنّ جيرود كان شديد الثقة بنفسه، يشتغل في النهار ويقضي الليل مُكِبّاً على مطالعة الكتب الخاصة بأشغاله، فكان كثير الشغف بالمال، حتّى أنّه كان يودّ جمع الثروة كيفما اتفق.

ولم يكن كاذباً في ما قاله لحنّة، فإنّه كان يحبّها، ولكنّه كان في جميع شؤونه يميل إلى الشيء الذي ما زال ممنوعاً عنه، حتّى إذا ناله ذهب الميل وانطفأت جذوة ذلك الحب.

وقد كان لكلام حنّة الأخير تأثير شديد عليه، زاده هياماً على هيامه، بل زاده اندفاعاً في طلب الثروة. فإنّه تذكّر أنّها لم تعلّله بالزواج إلّا حين علّلها بالثروة، فكان يناجي نفسه فيقول: حبّذا لو توفّقتُ إلى اختراعٍ في صناعتي، وكان لي من المال ما أستطيع به تنفيذه.

وكان يُحدّث نفسه بهذه الأقوال وهو ذاهب إلى غرفة صاحب المعمل، فلمّا وصل إليها لم يجده فيها، فطلب إلى أمين الصندوق أن يُخبره بقدومه حين يعود، وذهب إلى حيث يشتغل العمال لمراقبتهم، فدنا من كهل منهم يُدعى فنسانت، وقال له:

ـ لقد رأيتُ ولدكَ يا فنسانت و....

فقاطعه فنسانت قائلاً:

ـ ماذا قال لك عن امرأتي؟ ألعلّ المرض اشتد عليها؟.

ـ كلا، ولكنّه يسألك ألّا تبطئ بالعودة إلى المنزل حين انصرافك.

ـ ألم يقُل لك شيئاً غير هذا؟.

ـ كلا.

ـ ولكنّه لا يحتاج إلى أن يزيد على ما قال، فإنّه لا يستوقفكَ في الطريق ولا يسألني بلسانكَ ألّا أبطئ بالعودة إلى المنزل إلّا لاشتداد وطأة المرض على أمه، لذلك أرجوك أن تأذن لي بالذهاب إلى المنزل لأطمئن.

ـ إنّك تعلم نظام المعمل يا فنسانت، وتعلم يقيناً أنّ كلّ عامل يدخل إليه لا يستطيع الانصراف قبل دنو ساعة الانصراف.

ـ إنّي أعرف ذلك حقّ المعرفة، ولكن لكلّ قاعدة شذوذاً، فلو التمستَ من المسيو لابرو....

ـ إنّه ليس في غرفته، ولا سبيل لك إلى الذهاب من دون إذنه.

فشكا العامل سوء حظه، وعاد إلى العمل. لكنّه ما لبث بعد انصراف جيرود أن اشتدّت به الهواجس، فلم يُطِق صبراً إلى حين عودة صاحب المعمل، فخرج من مكانه وذهب إلى الباب الأكبر، وهناك طلب إلى حنّة أن تفتح له الباب ليمرّ.

فسألته قائلة:

ـ ألديكَ إذنٌ بالانصراف؟.

ـ كلا، ولكنَّ نائب الرئيس لقيه ولدي في الطريق، فقال له قولاً أوجستُ منه خيفةً على امرأتي المريضة، فلا أستطيع عملاً قبل أن أطمئنَّ عليها.

ـ ولكن لا أستطيع أن أفتح لك الباب إلّا بإذنٍ خاصّ، كما تعلم.

ـ وأنا لا أبالي بالنظام، فإنّي أريد أن أعلم ما جرى لامرأتي، ولا بُدَّ لي من الذهاب.

ـ أرجوكَ يا فنسانت ألّا تُلِحَّ عليَّ في ذلك، فإنّ الرئيس سيؤنّبني تأنيباً شديداً حين يعلم.

ـ ولكنّه غائب.

ـ إذن استأذن نائبه.

ـ لقد استأذنته فأبى.

فأبت حنّة أن تفتح له الباب، ولكنّه ما زال يستعطفها حتّى رأفتْ به وأذِنتْ له بالخروج، وهي تعلم أنّها تُخاطر بمنصبها.

وبعد هنيهة عاد جيرود إلى المكان الذي كان يشتغل فيه فنسانت فلم يجده، وأخبروه أنّه خرج من المعمل، فذهب إلى حنّة غاضباً وسألها عن العامل، فأخبرته كيف أنّها أشفقتْ عليه، وأنّه وعدها أن يعود مسرعاً.

قال جيرود:

ـ إنّكِ أسأتِ إليه وإلى نفسكِ بهذا الإشفاق. أمّا إساءتكِ إليه فلأنّه لن يعود إلى المعمل لأنّي سأطرده منه، وأما إساءتكِ إلى نفسكِ فلأنّ صاحب المعمل لا يتجاوز عن هذا الخطأ.

ـ ولكنّه سوف يعود ولا يعلم بذلك أحدٌ سواك، فهل تُسِيءُ إلى هذا الرجل المنكود؟ وما ذنبه إلّا خوفه على امرأته؟.

قال:

ـ إنّي أتجاوز عن ذنبه إكراماً لكِ، على ألّا تعودي إلى مثل هذا التسامح، فإنّي أنا المسؤول عن العمال، وأخشى أن يعود الرئيس قبل عودته.

وعند ذلك قُرِعَ الباب، فقالت:

ـ لقد زال الخطر، وهوذا فنسانت قد عاد.

ثمّ فتحتِ الباب، فظهرتْ على الاثنين علائم القلق لأنَّ الدّاخل لم يكن فنسانت كما توهّمتْ حنّة، بل كان المسيو لابرو صاحب المعمل.

أمّا صاحب المعمل، فإنّه أقفل الباب بعد دخوله، ومشى نحو جيرود وقال له بجفاء:

ـ أأنتَ الذي أذِنَ لفنسانت بأن ينصرف؟.

فاضطربت حنّة لهذا السؤال، ولزم جيرود الصمت. فهاج غضب صاحب المعمل لسكوته وقال له:

ـ أأنتَ الذي أذِنَ لفنسانت بالخروج من المعمل؟.

فلم يجد جيرود بُدّاً من الجواب، وقال:

ـ كلا، فإنّي أعلم يقيناً أنّي مسؤولٌ عن العمال.

ـ إذن لقد انصرف فنسانت من دون أن يستأذن منك؟.

ـ كلا، فإنّي لم أجده في المعمل، فأتيتُ إلى مدام فورتيه لأسألها إذا كانت قد رأته.

فالتفتَ صاحب المعمل إلى حنّة، وسألها بالنظر، فأجابته قائلة:

ـ نعم، لقد رأيته.

قال:

ـ إذن أنتِ التي فتحتِ له الباب؟.

فأجابته بالإيماء.

قال:

ـ ولكنّكِ تعرفين النظام، ويسوؤني أن تكوني أوّل من يعبث به، فأيُّ حجّةٍ اتّخذها فنسانت للذهاب؟.

فأجابه جيرود قائلاً:

ـ لقد توهّم أنّ المرض قد اشتدّ على امرأته، فأراد أن يطمئنَّ عليها.

ـ أكانت امرأته مريضةً كما يدّعي؟.

ـ ذلك لا ريب فيه يا سيدي.

ـ مهما يكن من الأمر، فإنّه كان يستطيع أن يصبر إلى أن أعود فلا أمنعه من تفقّد امرأته، ولكنّكم تعلمون حرصي على النظام، ولا أحبُّ أن يكون فنسانت مثالاً لسواه.

ثمّ التفت إلى حنّة وقال لها:

ـ لا يجب أن تفتحي الباب لفنسانت حين يعود، ويسوؤني أن أطرده فإنّه كان من خير العمال، ولكنّي أحب أن يكون عِبرةً لسواه. تعالَ يا جيرود!.

* * *

كان صاحب المعمل يدعى جيل لابرو، وهو في الخامسة والأربعين من عمره.

تزوّج وهو في الثانية والثلاثين من عمره امرأةً غنيّةً، فاستعان بمالها على إنشاء معمله، وتمكّن بفضل ذلك المال من تحقيق أمانيه، فاشتُهِرَ معمله شهرةً واسعةً.

ماتت امرأته بعد زواجه ببضعة أعوام، وتركت له طفلاً صغيراً يدعى لوسيان، فأرسله أبوه إلى أخته في الريف، وانصرف إلى إدارة معمله بهمّة لا تعرف الملل. وكان يزور ولده مرة واحدة في الشهر على فرط تولّعه به، لأنّه لم يكن يشغله غير خاطر واحد، وهو زيادة ما لديه من الثروة، لتأييد سعادة ذلك الولد.

بعد أن دخل إلى غرفته مع جيرود وباحَثَهُ بشأن العمال، قال له:

ـ إنّي أخطأتُ بتعيين هذه المرأة لحراسة المعمل، ولا بُدَّ لي من تعيين رجل في مكانها.

فارتعش جيرود لمّا سمعه، ولم يستطع معارضة رئيسه، فاكتفى بقوله:

ـ إنّ حنّة يا سيدي من أهل الأمانة والوفاء.

ـ إنّي أعلم منها ما تعلمه، ولكنّها ضعيفة لا تستطيع القيام بهذه المهمة.

وعند ذلك جاءه أمين الصندوق، فأعطاه ما كان لديه من الأوراق المالية والنقود كي يودعها في البنك، حسب عادته في كلِّ أسبوع.

وضع لابرو الأوراق على مائدته، وحاول جيرود الانصراف فاستوقفه صاحب المعمل، وقال له:

ـ ابقَ، فإنّي محتاجٌ إليك.

ثمّ أخذ قلماً وجعل يحسب المال، حتّى إذا فرغ من حسابه أمر أمين الصندوق بأن يدفع بعض المال للبنك، وأطلق سراحه بحيث بقي وحده مع جيرود.

وكان لصاحب المعمل ثقة تامة بذكاء جيرود وخبرته الصناعية، فأخبره بأنّه آخذٌ باختراع آلة صناعية سيكون

له منها ثروة عظيمة إذا فاز بإتمامها، واتّفق معه على أن يشاركه البحث عمّا أشكل عليه من تركيبها، على أن يكون له خُمس أرباح هذا الاختراع.

وافقه جيرود على ذلك والفرح يملأ قلبه. كشف له لابرو سرّ الاختراع، حتّى إذا تمّ وصفه قال له:

ـ ماذا ترى؟ ألا يمكن الفوز؟.

ـ بل إنّي أراه مضموناً.

ـ إذن ابدأ العمل، فإنّي سأُبقي المثال في غرفتي هذه، لأنّي أخاف أن يكتشف أحدٌ حذقٌ سِرَّنا إذا أخرجتُهُ إلى المعمل، وما عليكَ إلّا أن تشتغل كلَّ يوم ساعتين أو ثلاثاً في غرفتي.

ـ أصبتَ يا سيدي، وفوق ذلك فإنّكَ ستكون حاضراً عندما أُجري أبحاثي، فإذا توفّقتُ إلى الأمر أخبرتُكَ به في الحال.

قال:

ـ حسناً، وسنبدأ في العمل منذ الغد، فاذهب الآن إلى المعمل وابعث إليَّ بحنّة.

فذهب جيرود بنفسه إلى حنّة، وأبلغها بإرادة الرئيس، فارتجفت وقالت له:

ـ ألعلّه كلَّمكَ عنّي؟.

ـ نعم، وهو سيؤنّبكِ تأنيباً شديداً، فدعيه يقول ما يشاء، فإنّه على حِدَّةِ مزاجه طيّب السريرة. واحذري أن تجيبيه بما يثير غضبه، على أنّه مهما حدث فلا تنسي ما اتفقنا عليه.

ذهبت حنّة إلى رئيس المعمل، وذهب جيرود إلى غرفته، فجعل يسير فيها سيراً مضطرباً وهو يناجي نفسه، فيقول:

إنّ لابرو غير مخطئ. فما وراء هذا الاختراع غير الثروة، وهذا الذي كنتُ أبحثُ عنه فلا أجده، ولو ظفرتُ به لأعوزني المال لإنشاء معملٍ وصنع الآلات، ومن أين لي هذا المال؟.

وسكت هنيهة وهو مطرقٌ مفكّر، ثم قال:

إنّه يشاركني بالخُمس، فيكون لي من ذلك ربح جزيل. ولكن كيف أرضى بالخُمس إذا كنتُ قادراً على نيل الكُلّ؟ وإذا نِلتُ كلّ ذلك فكيف تجسر حنّة على رفض طلبي؟ وبَعْدُ فإنّ صاحب المعمل ساخطٌ عليها، وحبّذا لو طردها وباتت بلا عمل، لا تستطيع القيام بأود ولديها، فلا بُدَّ لها عند ذلك من الالتجاء إليَّ.

ثمّ ابتسم ابتسامةً دلّتْ على استفحال الشر في نفسه، وعاد إلى مراقبة العمال.

* * *

أمّا حنّة فإنّها ذهبت إلى غرفة صاحب المعمل، فمثَلتْ أمامه وقالت له:

ـ قيل لي أنّكَ دعوتني إليكَ يا سيدي.

ـ نعم، أنا أحبُّ أن أعرف السبب في تغيّبكِ عن العمل بعد ظهر اليوم، وكيف عهدتِ بحراسة الباب إلى أحد العمال، رغم معرفتكِ بأنَّ ذلك مخالف لنظام معملي.

ـ إنّي لم أبرح الباب إلّا لشراء حاجاتٍ لازمةٍ للمعمل.

ـ ولكن كان بوسعكِ أن تنتظري ساعة انصراف العمال. وفوق ذلك فإنّ ما أظهرتِهِ من الضعف في مسألة فنسانت دلّني دلالةً صريحةً على أنّه يستحيل عليَّ أن أعتمد عليكِ، ولا أكتمكِ إنّي ندمتُ على تعيينكِ في هذا المنصب.

نظرتْ إليه حنّة وقد جال الدمع في عينيها، وقالت بلهجةٍ دلّت على الأَنَفة:

ـ إنّي لم أسألكَ تعييني فيه يا سيدي، بل أنتَ الذي عينتني. وقد خَطَرَ لكَ أنّكَ تعوّضني بذلك عن مقتل زوجي، الذي قُتِلَ في خدمتك. وقد رضيتُ بهذه الخدمة لأنّه ليس لي ما يقوم بأود ولدي وابنتي. فإذا كنتَ ندمتَ لتعييني في هذا المنصب، فإنّ ندمي أشدُّ من ندمكَ لأنّكَ تُقرّعني بكلامٍ لا أرى أنّي أستحقّه.

ـ كيف ذلك؟ أتحسبين أنّكِ لم تعبثي بالنظام؟.

ـ إنَّ كلَّ ما فعلته هو أنّي اضطررتُ إلى الخروج من المعمل، بعد أن عيّنتُ مكاني صديقةً لي من العاملات للمراقبة. فهل يُعدّ ذلك ذنباً لا يُغتفر؟.

ـ هو ذاك! فإنّما عهدتُ بحراسة الباب إليكِ دون سواكِ. ولكن لندع هذا الخطأ، ولننظر في خطأكِ الثاني؛ فكيفَ تركتِ فنسانت يخرج من المعمل من دون إذن؟.

ـ لا أنكر أنّي أخطأتُ في ذلك، ولكنّك تعلم السبب الذي دفعني إلى قبول التماسه، ولا يستطيع رفض طلبه إلّا من قُدَّ قلبه من الصخر.

فأطرق صاحب المعمل هنيهة مفكّراً، ثمّ التفتَ إليها وقال:

ـ يسوؤني ما أراه من أنَّ بقاءكِ عندي مُحالٌ، فإنّكِ تحبّين الجِدال وأنا أحبُّ من عمالي الامتثال. غير أنّي لا أريدُ لكِ إلّا الخير.

وعند ذلك دخل أمين الصندوق، فدفع إليه بعض لوائح حسابية، ورأى حنّة فقال لرئيسه مشيراً إليها:

ـ أرجو سيدي أن يأمرها بأن لا تُدخل زيت البترول إلى المعمل، فإنّها لا تجهل ما في ذلك من الأخطار.

فوثب لابرو عن كرسيه، وقال:

ـ بترول!... أيوجد بترول في المعمل؟!.

قال:

ـ نعم يا سيدي! فإنّها تنير غرفتها بالبترول، وقد شممتُ رائحته أمس.

فهاج ثائر لابرو، وقال لها:

ـ أتجهلين أنّ إدخال زيت البترول مخالف لنظام المعمل؟.

قالت:

ـ لقد كنتُ أجهل ذلك.

ـ هذا مُحال.

ـ إنّي لا أكذب، وأيُّ فائدةٍ لي من الكذب وأنا أرى الكأس قد فاضت؟.

ـ لقد أصبتِ، فإنّي قد أتجاوز عن الخطأين الذين ارتكبتيهما، أمّا خطؤك بإدخال البترول إلى المعمل فهو خطأ لا يحتمل الغفران، فابحثي عن محل فإنّكِ مُقيمةٌ في هذا المعمل إلى آخر الشهر فقط.

فتنهدتْ حنّة تنهُّد القانطين، وقالت:

ـ إذن أنتَ تطردني من المعمل بعد أن قُتل زوجي فيه خلال خدمتك، كما يقتل الجندي في ساحة القتال؟! وماذا يكون من أمري؟ بل ما يكون من مصير ولدي وابنتي إذا طردتني؟ احذر يا سيدي، فإنّكَ لن تلقى خيراً بعد طردي.

فحدّق لابرو بها، وقال:

ـ ماذا تعنين بما تقولين؟.

وقال لها أمين الصندوق:

ـ ويحكِ، أتتوعدين؟.

قالت:

ـ كلا، إنّي لا أُنذِر ولا أتوعّد، بل إنّي أحتمل نكبتي بطردي، كما احتملتُ نكبتي بفقد زوجي. ولقد أخطأ، كما يقول المسيو لابرو، فلتقع تَبِعة هذا الخطأ على رأسي، وسأغادر هذا المعمل قبل انتهاء الشهر، فلا أُقِيم فيه غير ثمانية أيام، فتفضّل يا سيدي باختيار سواي.

فتوجّع صاحب المعمل لمصابها، وقال لها برفق:

ـ إنّي لا أطردكِ كما تتوهّمين، ولكنّي شعرتُ أنّي أخطأتُ بتعيينكِ في منصب لا يستطيع أن يتولّاه غير الرجال.

ـ كان يجب أن تعلم ذلك من قبل.

ـ هو ذاك. ولكنَّ رغبتي في نفعكِ حين عيّنتكِ حالت دون تفكيري في العاقبة. فابقي في منصبك إلى آخر الشهر، ولا بُدَّ لي في ذلك الوقت من أن أجد لكِ عملاً يوافق عواطفك.

فأشهقتْ حنّة بالبكاء، وقالت:

ـ كلا، بل إنّي سأبرح المعمل بعد ثمانية أيام، فإنّي ما

لقيتُ فيه غير الشقاء، وما سِرتُ في رحابه إلّا وخُيّل لي بأنّي أمشي على أرضٍ صُبغت بالدماء... كلا، إنّي لن أقيم في هذا المعمل، فقد بات شؤماً عليَّ.

ثمّ غطّتْ وجهها بيدها وانصرفت قانطةً، فشيّعها صاحب المعمل بنظره وهو يقول:

ـ مسكينة! إنّها لم تفعل ما فعلته إلّا وهي تعتقد أنّها محسنةٌ لحنوِّ قلبها. لا أدري كيف خَطَرَ لي أن أعيّنها لمراقبة المعمل.

فأجابه أمين الصندوق قائلاً:

ـ إنّكَ تنطق بما يوحيه إليكَ قلبكَ السليم يا سيدي.

ـ كلا، بل إنّي مَدِينٌ لهذه المرأة التي قُتل زوجها في خدمتي، وسأعيّنها في خدمة أختي، وذلك سهل ميسور.

ـ لا تتسرّع يا سيدي بالإحسان إلى هذه المرأة، وتذكّر أنّها توعّدتكَ.

ـ أتحسبُ أنّها توعّدتني؟.

ـ بل إنّي واثقٌ ممّا أقول، فإنّها كانت تحبُّ زوجها حبّاً عجيباً، وقد قُتِلَ في معملك. ثمّ حَسِبت أنّكَ تطردها فباتتْ حاقدةً عليكَ. لذلك أسألكَ أن تحذر.

ـ إنّك تبالغ في حذرك من هذه المرأة، فإنّها امرأة منكودة وأمٌّ شقية، ولا بُدَّ لي من مساعدتها، فإذا لم أرسلها

إلى أختي أعطيتها مبلغاً من المال تستعين به على تربية ولديها.

ثمّ غيّر الحديث، فقال له:

ـ هل جئتني بحساب الصندوق؟.

قال:

ـ نعم، وهذا هو.

فنظر في الحساب الذي قدّمه إليه، وقال:

ـ أيوجد في الصندوق 7123 فرنكاً وثلاثون سنتيماً؟.

ـ نعم يا سيدي، وسأُحضِر لكَ هذه القيمة.

ـ ولماذا لا تُبقيها في صندوقكَ؟.

ـ لأنّي قلتُ لكَ قبل الآن يا سيدي إنّي أخاف التَّبِعة، لأنّي لا أنام في المعمل. وسأُحضِر لكَ المال فتضعه في صندوقكَ الخاصّ، كما تفعل في كلّ مساء.

ـ حسناً، جئني به.

أمّا حنّة، فإنّها أقامت في غرفتها تذرف الدموع السخينة لنكبتها الجديدة، واضطرارها إلى اعتزال الخدمة.

وبقيت على ذلك إلى أن انصرف العمال، فجاءها جيرود مستعلماً عمّا جرى، فأخبرته بما عزمت عليه من مبارحة العمل.

فارتعش جيرود، وقال:

ـ لقد كان ما خِفتُ أن يكون، فإنّ الرئيس لامَكِ فلم تحتملي اللوم، وأثرتِ سخطه بالاعتراض.

ـ إنّه طردني من الخدمة.

ـ ولكنّكِ هيّجتِ غضبه من دون شك.

ـ ذلك لأنّه وحشيُّ الأخلاق، فإنّه لامني لوماً قد أكون أستحقّه، ولكنّه كان يستطيع أن يكون ألين جانباً وأرقّ عاطفة. وعلى الجملة، فإنّي سأبرح هذا المعمل بعد ثمانية أيام.

ـ إلى أين تذهبين بعد ثمانية أيام؟ وماذا تصنعين؟.

ـ لا أعلم، ولكن لا بُدَّ لي من العمل لأعول ولدي وابنتي.

ـ لا تسترسلي إلى اليأس يا حنّة، فإنّ الرئيس قد يرجع عن عزمه، فإنّه لم يقُل ما قاله إلّا في ساعة غضب.

ـ كلا، فإنّي مسافرة.

ـ أحقٌّ ما تقولين؟.

ـ ليس في هذا الوجود ما يثنيني عن عزمي.

ـ وأنا، ما يكون مصيري؟ ألا أراكِ بعد رحيلكِ؟.

ـ ذلك خيرٌ لكَ، تذكّر ما كنتُ أقوله لكَ، ومتى طال عهد الفراق نسيتني.

ـ وأنتِ اذكري أيضاً ما قلتُهُ لكِ، وهو أنّي لا أستطيع أن أعيش لحظةً بعيداً عنكِ. غداً سأُباحِث الرئيس بشأنكِ، وأتوسّل إليه أن يرجع عن قصده.

ـ إنّي لا أريد أن تفعل ذلك.

ـ ولكنّكِ لا تعلمين مصيركِ وما ينتظركِ من الشقاء... حنّة، إنّكِ واثقةٌ من حبّي، فلماذا لا تبادلينني هذا الحب فنعيش معاً عيشة السعداء؟.

فبدت على حنّة علائم الأَنَفة، وقالت:

ـ أتسألني أن أعيشَ وإياك، وأكونَ خليلةً لكَ؟ إنّكَ تحتقرني يا جيرود بهذا الاقتراح.

ـ إنّي أقسم لكِ بكلِّ طاهر في الأرض، وكلِّ مقدَّس في السماء، أنّه لا تمضي الشهور العشرة الأولى من حدادكِ حتّى تكوني امرأتي أمام اللّٰه والناس.

وكان جورج ولد حنّة الصغير يسمع الحديث، وهو لا يفهم معناه، ولكنّه رأى علائم الحزن باديةً على وجه جيرود، فالتفت إلى أمه وقال:

ـ لا تكدّريه يا أمي فإنّه صديقي، وهو الذي أحضر لي جوادي، ومتى صار غنياً كما يقول أحضر لي ما هو خيرٌ منه، أليس كذلك يا صديقي جيرود؟.

فعانقه جيرود وهو يقول:

ـ من دون شكٍّ يا بُنيّ. سأُحضِر لكَ كلَّ ما تشتهيه.

ثمّ عاد إلى محادثة حنّة، فقال:

ـ حنّة... تمعّني في الأمر، وثقي بحبّي وحنوّي، فإنّي أعرض عليك الحياة والسعادة لكِ ولولديكِ، اللذين أحبُّهما كما تحبينهما. فإذا رفضتِ طلبي فإنّما تسيئين إليّ وإلى ولديكِ إساءةً لا تُغتفر، بل إنّكِ تدفعين بهما إلى هاوية الشقاء. أنتِ لا تستطيعين القيام بأودهما وأود نفسك مهما اشتغلتِ، وهل تطيقين أن تريهما جائعَين عاريَين؟.

فوضعت حنّة يدها على جبينها، وقالت:

ـ إنّكَ تُمثِّلُ لي المستقبل بهذا الخطر كي تُضعِف عزيمتي.

ـ بل لأقول لكِ الحقّ الذي لا ريب فيه. ولكنّي سأنقذكِ من هذا الخطر المخيف ولا أدع للشقاء سبيلاً إليكِ، لأنّكِ ستكونين امرأتي.

ـ ربّاه، ربّاه!... إنّه لا يشفق عليَّ... إنّه لا يسكت... إنّه لا ينصرف!.

ـ إنّي أريد أن أبرهن لكِ صدق حنوّي بامتثالي، فسأذهب ولكنّي لا أذهب إلّا للاهتمام بمستقبلكِ ومستقبلِ ابنيكِ.

ثمّ تركها عُرضة للاضطراب الشديد، وانصرف. فجلست على كرسيٍّ واهيةَ القوى، وجعلت تناجي نفسها فتقول:

لقد أصاب فيما قاله، فإنّي لا أجد أمامي غير الشقاء! وكيف أستطيع إعالة ولديَّ، ودفع أجرة مرضع ابنتي؟ بل كيف أربّي ولدي جورج وأنا لا أملك درهماً؟... ربّاه إنّ هذا الرجل يَعرِض عليَّ النعيم والسعادة، وما هما إلّا مستقبل ابني وابنتي، فكيف أرفض اقتراحه؟ وإذا رضيتُ بالزواج منه، ألا أكون أثيمةً بعد أن أقسمتُ لزوجي على سرير الموت أنّي لن أتزوج سواه؟.

* * *

كان المسيو لابرو، بعد موت زوجته، يبيت في معمله. ولم يكن عنده خادمة ولا خادم، فإنّ حنّة كانت تنظّم غرفته بعد خروجه منها. وكان يأكل في مطاعم المدينة، فيعود عادةً إلى غرفته في الساعة الحادية عشرة، فيشتغل ساعة أو ساعتين ثمّ ينام.

ولم يكن ينام في المعمل سواه، بالإضافة إلى حنّة، التي كانت تنام مع ولدها في الغرفة الكائنة أمام باب المعمل الأكبر.

ولم يكن يغيب عن معمله إلّا حين يذهب إلى الريف لتفقّد ولده، فإذا عاد لا يدخل من الباب الكبير، بل من بابٍ صغيرٍ كان يحتفظ بمفتاحه في جيبه.

في صباح اليوم التالي للحادثة التي رويناها، أقبل جيرود إلى المعمل وعليه علائم الاهتمام الشديد، ففرّق الأعمال

إلى العمال، وذهب إلى غرفة المسيو لابرو فاشتغل فيها إلى المساء بذلك الاختراع الذي أطلعه صاحب المعمل على سرّه.

وفي المساء خرج من المعمل، ولم يذهب إلى المطعم الذي كان يجتمع فيه مع رفاقه، بل سار إلى جهة النهر طلباً للوحدة والاعتزال، ولم يَعُدْ إلى غرفته إلّا عند انتصاف الليل.

وفي صباح اليوم التالي جاء إلى المعمل وهو مصفرّ الوجه، فدهشت حنّة لما رأته من اضطرابه، وقالت له:

ـ ماذا أصابكَ؟.

فأجابها بصوت مضطرب قائلاً:

ـ لا شيء، لا شيء... كنت أريد أن أقول لكِ... ولكن كلا... فالأفضل تأجيل ذلك... إلى اللقاء مساءً، فإنّي داخل إلى المعمل.

ثمّ تركها وانصرف، فازداد اندهاش حنّة وقالت:

تُرى ماذا يريد أن يقوله لي؟ وما هذه الهيئة المضطربة؟ فإنه كان يشبه المجانين.

أمّا جيرود بعد أن أتمّ شغله، دخل إلى غرفة صاحب المعمل وهو يبذل جهداً عنيفاً لإخفاء اضطرابه، فجعل يشتغل بذلك الاختراع، بينما كان صاحب المعمل يكتب الرسائل إلى عملائه.

وعند ذلك دخل إليه أمين الصندوق، وقال له:

ـ لقد أحضرتُ المال من المصرف.

فقال له:

ـ دعه الآن عندكَ، وعُد إليَّ حين أفرغ من عملي.

فخرج أمين الصندوق، وسمع جيرود الحديث فارتجف لذِكر المال، ووضع يديه على وجهه كي لا يظهر اضطرابه، ثمّ عاد إلى العمل.

وبعد هنيهة دخلت حنّة تحمل ورقة زرقاء، وقالت:

ـ لقد ورد إليكَ نبأ برقيّ يا سيدي.

فأخذ لابرو الرسالة منها، ولم يكَد يتلو ما فيها حتّى اصفرّ وجهه، وقال:

ـ ربّاه! ولدي مريض، وقد يكون في خطر.

ثمّ التفتَ إلى جيرود، وقال له:

ـ وَرَدَ إليّ نبأ برقيّ من أختي، تخبرني فيه بأنّ ولدي مريض، وتسألني أن أسافر إليها في الحال. فاجمع يا جيرود رسوم الاختراع كي أضعها في الخزانة الحديدية.

فاتّقدت عينا جيرود من السرور، وأخذ يجمع تلك الأوراق.

أمّا لابرو فإنّه قَرَع جرساً لمناداة حنّة، وقام إلى الباب فنادى أمين الصندوق وأخبره باضطراره إلى السفر. ثمّ أمر

أن يأخذ من المال ما يحتاج إليه لنفقات المعمل مدة غيابه، ويردّ إليه الباقي.

فخرج أمين الصندوق مسرعاً لتنفيذ الأمر. وبعد هنيهة أقبلت حنّة، فقال لها:

ـ مُرِي السائق أن يُعِدَّ لي المركبة، وعودي إليَّ في الحال.

فذهبت حنّة، وعادت بعد بضع دقائق، وكذلك أمين الصندوق، فإنّه بعد أن فَرِغ من حسابه عاد إلى رئيسه، فقال له:

ـ إنّي أبقيتُ عندي خمسة آلاف فرنك، وأرجو ألّا أحتاج إلى أكثر منها في مدة غيابك.

ـ حسناً، فإني سأعود بعد يومين، إلّا إذا طرأ على صحة ولدي ما يدعوني إلى التأخّر، فكم أحضرتَ لي من المال؟.

ـ 127 ألف فرنك قبضتها من البنك، يُضاف إليها إيراد اليوم وهو 11 ألف فرنك أخذتُ منها 5 آلاف، فيكون الباقي 133 ألف فرنك. فإذا أضيف هذا المبلغ إلى ما في صندوقك الآن كان المجموع 190 ألفاً و253 فرنكاً.

فأخذ لابرو المال من دون أن يعدّه، ووضعه في صندوقه.

وكانت حنّة تنظر في خلال ذلك إلى جيرود، فترى في وجهه علائم لم ترها من قبل.

أمّا جيرود، فإنّه كان قد جمع رسوم الاختراع فدفعها إلى رئيسه، الذي وضعها في الصندوق أيضاً، وقال له:

ـ سنعود إلى الاشتغال بها بعد عودتي.

ـ حسناً يا سيدي. أليس لديك أوامر تصدرها إلي؟.

ـ نعم، فاصبر هنيهة.

ثمّ التفت إلى حنّة، وقال لها:

ـ أرجوكِ يا مدام فورتيه ألّا تتماهلي لحظةً في مراقبة المعمل، وسأهتمّ بشأنكِ بعد عودتي، فكوني واثقة أنّي لن أدعكِ من غير عمل. ورجائي أن تنسي ما كان بيننا كما نسيتُهُ أنا.

فدهشتْ حنّة لهذا الرفق الذي لم تكن تتوقعه، ولم تُجِب بحرف.

وكان أمين الصندوق يراقبها، ويقول في نفسه: لم يبقَ ريبٌ عندي في أنّ هذه المرأة تكره الرئيس وتريد الانتقام منه، فإنّ قصدها ظاهر للعيون.

ومضى لابرو في حديثه، فقال:

ـ إنّي أرجوكِ أيضاً أن تضعي لي بعض الملابس في حقيبة، وأضيفي إليها ردائي الكبير، وغطاءً من أغطية السفر.

انصرفت حنّة من دون أن تفوه بكلمة. فقال صاحب المعمل بعد خروجها:

ـ إنّي أخاف أن تكون حاقدةً عليَّ، فإنّي أسأتُ إليها

ولمتها لوماً شديداً. ولكنّها أثارت سخطي باعتراضها، كأنّها لا تريد أن تعتقد أنّها أخطأتْ، ولكنّي سأهتم بشأنها في كلّ حال، فإنّي لا أريد لها إلّا الخير.

وعند ذلك أخبر كلّاً من أمين الصندوق وجيرود بما يجب أن يفعلاه في غيابه. ثمّ ركب المركبة التي أُعِدّت له، وسافر بها إلى الريف حيث كان ولده عند أخته.

* * *

وفي ساعة انصراف العمال جاء جيرود إلى حنّة، فحيّاها وحاول الانصراف، ولكنَّ حنّة استوقفته هذه المرة، وقالت له:

ـ ماذا كنتَ تريد أن تقول لي في هذا الصباح؟.

فارتعش جيرود، وقال:

ـ كنتُ أريد أن أخبركِ بأمور كثيرة.

ـ إذن قل ما تشاء.

ـ كلا، فقد تمعّنتُ في الأمر ووجدتُ أنّ الوقت لم يَحِن بعد، بل إنّي لا أجسر.

ـ لا تجسر؟.

ـ نعم، ولكنني إذا كنتُ لا أجسر على القول، فإنّي أجسر على الكتابة.

فدهشتْ حنّة لكلامه كما دهشت لهيأته، وقالت له:

ـ إنّك تخيفني! ما هذا الاضطراب الذي يتولّاك؟.

ـ لا تسأليني شيئاً الآن أيتها الحبيبة، وأجيبي عن مسألةٍ يجب أن أسألك عنها.

ـ ما هي؟.

ـ هل تمعّنتِ ملياً فيما قلتُهُ لكِ بشان حالتك ومستقبلك؟.

ـ نعم.

ـ وهل توافقين على ما اقترحتُهُ عليكِ؟.

ـ إنّي أوافق عليه حين تخبرني بما أبيتَ أن تخبرني به الآن، لأنّكَ لم تجسر على قوله.

ـ حسناً، اعلمي أنّ أمرنا كلينا سيتقرّر غداً.

ـ لماذا عيّنتَ الغد؟.

ـ لا تسأليني المزيد من التصريح، فإنّي لا أجيب، وليس الغد ببعيد.

وعند ذلك غادرها فجأةً، كأنه خشي أن يتمادى في القول ويجري به أبعد من هذا الشوط. ذهب وتعشّى مع رفاقه حسب عادته في كلّ ليلة، وهو يُظهر البشاشة إخفاءً لاضطرابه، حتّى إذا افترقوا عنه وأصبح وحده عادت إليه هواجسه، وقطّب جبينه شأن المفكّر المهموم.

وبعد هنيهة خرج من المطعم، وسار توّاً إلى المعمل،

ولكنّه لم يَسِر إليه عن طريق الباب الكبير، بل ذهب إلى ذلك الباب الصغير الذي كان يدخل منه عادةً صاحب المعمل.

وهناك وقف، وجعل يتلفّت تلفُّتَ السارق، حتّى إذا وَثِقَ من أنّ أحداً لا يراه، دنا من ذلك الباب وهو يقول: يجب أن أدخل من هذا الباب.

ثمّ أخرج من جيبه قطعةً من الشمع، فطبعها على قفل الباب وعاد إلى غرفته وهو خائص مضطرب، والعرق ينصبُّ من جبينه.

* * *

في تلك الساعة نفسها كان المسيو لابرو يقرع باب منزل أخته، التي أطلّت من النافذة في ظلام الليل، وقالت:

ـ من الطارق؟.

قال:

ـ هو أنا أيتها الأخت العزيزة، فكيف حالة لوسيان؟.

ـ اطمئنّ يا أخي، فقد زال الخطر بحمد اللّه. أنا قادمة لأفتح لكَ الباب.

ولما خلا بأخته، أخبرته أنّ ولده أصيب بحُمّى كانت شديدة الوطأة عليه، ولكنَّ الطبيب أكّد لها اليوم أنّ الخطر قد زال عنه.

ـ أين هو، فإني أريد أن أراه؟.

ـ هو في سريره، فاحذر أن توقظه لأنّه نائم.

وبعد أن تفقّد ولده واطمأنّ عليه، عاد إلى أخته فذهب وإياها إلى غرفة بعيدة عن الغرفة النائم فيها الغلام، فعَلِم منها تفصيل ما أصيب به ولده، وكلَّ ما قاله الطبيب.

حتّى إذا اطمأنّ عليه كلّ الاطمئنان، قرّر أن يعود في الغد إلى معمله، فيَصِل إليه في الساعة العاشرة من المساء.

وعند ذلك سألته أخته عن أعماله، وإذا كان راضياً عنها. فأجابها قائلاً:

ـ إنّي راضٍ كلَّ الرضى، لا سيّما وأنّي سائر في طريق الثروة.

ـ كيف تقول هذا القول وعهدي بكَ أنّكَ من الأغنياء؟.

ـ إنّي جمعتُ من المال ما يكفيني، ولكنّي أريد أن أجعل ولدي من أغنى الأغنياء.

ـ كيف ذلك؟ ألعلّك توفّقتَ إلى اختراع جديد؟.

ـ هو ذاك. وإنّي أرجو أن أنال بفضل هذا الاختراع كثيراً من الملايين في وقت قريب.

ـ كلّ ذلك ممكن، إلّا إذا توصّل أحدٌ قبلكَ إلى هذا الاخترع.

ـ ليس لي ما أخافه من هذا القبيل.

ـ هذا ما أرجوه لكَ، ولكنَّ المخترع مُعرَّضٌ لمثل هذه

الأخطار، فإنّه إذا باح بأقل شيء من اختراعه، واتّصل هذا القول بمخترعٍ سواه، فقد يسبقه إليه.

ـ لا تخشي ذلك، فإنّي أعمل بنفسي، ولا يعينني في اختراعي هذا غير رجل لي به ملء الثقة لطالما باحثْتُكِ عنه، هو جاك جيرود، وهو من الأذكياء النابغين في الصناعة، وأنا لا أخافه لأنّي أشركته بأرباح اختراعي، فبات أحرص عليه مني.

ـ أأخبرتَهُ بسرّ اختراعك؟.

ـ لم يكن لي بُدٌّ من ذلك، فإنّي وضعت الرسم وهو ينشئ الآلة.

ـ ما زلتَ واثقاً منه وقد أشركتَهُ بالفائدة فلا خوف منه. قل لي الآن، كيف حال تلك الأم المنكودة التي قُتل زوجها في المعمل؟ ألا تزال مستخدمةً في معملك؟.

ـ إنّكِ سألتني عنها حين كنتُ عازماً على مباحثتكِ بشأنها، فإنّها لا تزال في معملي، ولكنّي مضطرٌ إلى إبعادها عنه.

ـ كيف ذلك؟ أتعزلها من الخدمة؟.

ـ ذلك لا بُدَّ منه! وإنما أُقصيها بالرغم عنّي، فإنّي لا أنسى وفاء زوجها. ولكنها على شهامتها ووفائها لا تصلح لأن تتولّى مراقبة المعمل، فإنّ هذا المنصب يقتضي له شدة الرجال، ولا يفيد فيه حنوّ النساء.

ـ كان يجب أن تفكّر في ذلك قبل استخدامها؟.

ـ لقد أخطأتُ، فإنّ ذلك لم يخطر لي من قبل.

ـ أأخبرتها بفصلها عن الخدمة؟.

ـ نعم.

ـ ولكن ما عسى أن يكون مصير هذه المنكودة، وهي أمٌّ ولدين ولا ناصر لها؟.

ـ لم أُرِد مباحثتكِ بشأنها إلّا لضمان مستقبلها، فطالما سألتكِ أن تستخدمي امرأة تتولّى عنك أعمال المنزل، وكنتِ ترفضين.

ـ ذلك لأنّي أحبّ أن أتولّى شؤون بيتي بنفسي، وهذا أخصّ واجبات النساء.

ـ هو ذاك. ولكنّ حنّة ستكون معكِ رفيقةً سميرةً، وتساعدك في أعمال المنزل، فقد بلغتِ حدّاً من العمر تجب فيه الراحة لمن يستطيعها. وسيكون ولدها، وهو في الثالثة من العمر، رفيق ولدي لوسيان، فإنّ عمرهما واحد. ومتى كبر ولدها علّمته، فأكون بذلك قد وفيتُ ما عليَّ من الدَّين لهذه الأرملة. ورجائي أيتها الأخت العزيزة أن تقبلي اقتراحي، إذ لا بُدَّ من قبوله، فقد عاملتُ حنّة بجفاءٍ أخشى أن تحقد عليّ بعده، وأحبُّ حين عودتي إلى المعمل أن أخبرها بهذا النبأ، فأمحو ما ضيّعه جفائي على قلبها من أثر الحقد، فهل تقبلين؟.

ـ أقبلُ اقتراحكَ بملء الرضى، فإنّي أشفق على هذه المرأة وولديها أشد الإشفاق.

عانق لابرو أخته وشكرها، ثم انصرف كلٌّ منهما إلى مضجعه.

* * *

لَنَعُد الآن إلى المعمل، فإنّ ما سمعته حنّة من جيرود، وما رأته من اضطرابه، أثّر عليها تأثيراً عظيماً، لا سيّما وأنّها لم تفهم شيئاً من مقاصده، وأشكلتْ عليها معميّاته.

وفيما هي تفكّر في ذلك وفي مستقبلها وقد اسودّت الدنيا في عينيها، جاءها خادم مكتب صاحب المعمل يسألها مفتاح المكتب لتنظيفه، حسب عادته كلّ يوم. وكان هذا الخادم يدعى دافيد، وهو من أهل الفضول، وقد عَلِمَ بغضب صاحب المعمل على حنّة، ورأى اضطرابها فقال لها:

ـ ماذا أصابكِ؟ هل أنت مريضة؟.

ـ كلا.

ـ إذن ما هذا الاضطراب الذي يتولّاكِ؟.

ـ لستُ مضطربةً كما تتوهّم.

ـ هل عزمتِ على البقاء في البلد؟.

فأجابته بجفاءٍ، وقد استاءت لفضوله قائلة:

ـ لا أعلم الآن.

ـ أظنُّ أنّ المسيو لابرو سيمنحكِ مكافأةً قبل ذهابكِ، لأنّه من خير أهل الفضل.

ـ وأنا لستُ ممّن يلتمسون الصدقة.

ـ ومن قال لكِ أنّه يتصدّق عليكِ، فإنّه لا بُدَّ لكِ من التعويض شأن كلّ المستخدمين حين يُكرهونهم على الاعتزال. ولكن يظهر أنّكِ حاقدة على الرئيس.

فظهرت على حنّة علائم نفاد الصبر، وقالت له:

ـ أرجوكَ أن لا تباحثني في هذا الشأن. هذا مفتاح المكتب، فخذه وأرجعه إليَّ بعد تنظيمه.

فأخذ دافيد المفتاح، وخرج وهو يقول في نفسه: إنّها حاقدة أشدَّ الحقد على الرئيس، والويل له منها إذا تمكّنتْ منه.

أمّا حنّة فإنّها بعد انصرافه جعلت تبحث في غرفتها، فرأتْ آنية البترول، وقالت: إنّ هذه الآنية للمعمل، ولا بُدَّ لي من نقل البترول إلى زجاجاتٍ، آخذها إلى الغرفة التي سأقيم فيها بعد خروجي من هذا المحل المشؤوم.

وعند ذلك أحضرت زجاجات فارغة، وجعلت تفرغ فيها ما كان في الآنية، فلم تملأ الزجاجة الأولى حتّى قُرِعَ الباب.

كان الطارق أمين الصندوق، فدخل وقال:

ـ إنّي لا أزال أشمّ رائحة البترول.

ـ ذلك لأنّي أفرغه من الآنية، وهي للمعمل، كي أضعه في الزجاجات، وهي لي. كما أنّ البترول لي أيضاً، وسأستخدمه لإنارة غرفتي بعد مبارحتي المعمل، بحيث أكون حرّة ولا يخاف أحدٌ أن أحرق المعمل.

فأخفى أمين الصندوق غيظه، وقال لها:

ـ لا يخطئ من يخاف، فإنّ الأشرار كثيرون. ويوجد بين الناس من يصنع الشر من دون قصد، إلّا لميله الفطري إليه.

ثمّ تركها وانصرف حاقداً عليها، فعادت هي إلى إفراغ البترول في الزجاجات.

أمّا جيرود، فإنّه صبر في ذلك اليوم إلى أن انصرف العمال، فذهب إلى حنّة.

كان ولدها جورج يلاعب جواده في تلك الساعة، وهو من الخشب والكرتون. ويظهر أنّه كان ساخطاً عليه، إذ ضربه بقبضة كرباجه كأنّه يريد تأديبه، ولكنه تجاوز حدّ التأديب وشقَّ بطن الجواد.

بكى في البدء آسفاً لِمَا فعل، ثمّ خشي أن تعلم أمه بفعلته فتؤنبه، فكفّ عن البكاء وذهب إلى قطع مصورة من الجرائد، كانت أعطته إياها أمه، فوضعها جميعها في بطن جواده إخفاءً للشق. ولكن بقيت الثغرة ظاهرة، فلم يحفل بها وعاد إلى اللعب.

وكانت حنّة تنتظر قدوم جيرود بنفاد صبر، فإنّه قال لها بالأمس إنّ مستقبلهما سيتبيّن في الغد. فأقامت تنتظره جَزِعة حتّى حضر، وكان أوّل ما فعله أنّه دفع إليها رسالةً مختومةً تحمل اسمها.

عجبتْ حنّة لأمره، وقالت له:

ـ لماذا تكتب لي وأنتَ قادر على مكالمتي؟.

قال:

ـ لقد أوضحتُ لكِ ذلك بالأمس، إذ يوجد أمور تسهل كتابتها دون قولها، فخذي هذه الرسالة واقرأيها حين تصبحين وحدك، وتمعّني فيها بسرعة. واعلمي يقيناً أنّ مستقبلي ومستقبلكِ ومستقبل ولديكِ في يدكِ.

ثمّ خرج مسرعاً من دون أن يزيد حرفاً على ما قال. فدخلتْ حنّة إلى غرفتها، وفضّت تلك الرسالة، وقرأت ما يلي:

«أيتها الحبيبة

لقد ألمحتُ لكِ عن ثروة قريبة المنال، تضمن مستقبلنا ومستقبل ولديكِ. أمّا الآن، فإنّي أضمن لكِ هذا المستقبل ضماناً، إذ لم يبقَ لديَّ فيه شيء من الريب.

إنّي سأصبح غنياً غداً، ويكون لديَّ ما يكفيني للقيام بمشروع عظيم، إذ توفّقتُ إلى اختراعٍ أرجو أن أنال منه أعظم ثروة. ولديّ الآن نحو مائة ألف فرنك سأستعين بها على إظهار هذا الاختراع العظيم إلى الوجود.

تمعّني يا حنّة في مستقبل ولديكِ، فإنّ هذا الفكر يشجّعكِ. واعلمي أنّي أنتظركِ في الساعة الحادية عشرة من هذا المساء مع ولدك جورج عند جسر شارلتون، فأذهب بكما إلى محلٍّ أمين نسافر منه غداً إلى البلاد الأجنبية، حيث نلقى الثروة والسعادة.

فابرحي من دون أسفٍ هذا المنزل الذي طردكِ منه رئيسه، وتعالي إلى ذلك الرجل الذي لا يحبُّ سواكِ.

احذري أن تتأخّري، فإنّ تأخُّركِ يُلقي بي إلى مهاوي اليأس. ولكنّي موقنٌ أنّكِ ستحضرين.

في 7 سبتمبر (أيلول) سنة 1861، جاك جيرود».

لمّا أتمّت حنّة تلاوة هذه الرسالة، وقفتْ وقفةَ الحائر، ثمّ قالت في نفسها:

لا شكَّ في أنّ جاك قد فقد صوابه، فما هذا الاختراع الذي يقول إنّه توفّق إلى اكتشافه؟ ومن أين يأتي بهذه المبالغ العظيمة لتحقيق أمانيه؟ وكيف يكون لديه مائتا ألف فرنك، وهو لا يملك غير راتبه الحقير؟ ولماذا ينتظرني هذه الليلة عند جسر شارلتون؟... إنّه إمّا أن يكون فقد رُشده وجعل أمانيه حقيقةً راسخة، وإمّا أن يكون يبغي نصب شَرَكٍ لي، لاعتقاده أنّ العوز والفقر يُعميان عينيَّ عن إدراك قصده السافل. ولكن ساء فأله، ولا شكَّ أنّ هذه الرسالة فخٌّ منصوبٌ، لا يجب أن أتلقّاها بغير الاحتقار.

ثمّ دعكت الرسالة بيدها وألقتها غاضبة إلى الأرض، فأسرع ولدها جورج إلى التقاطها وحشا بها بطن جواده من دون أن تراه. وجعل يبحث علّه يجد ورقاً أيضاً ليسدَّ به شِقَّ بطن الجواد.

وكان الليل قد أقبل، فأضاءت حنّة مصباحها ودعت ولدها إلى النوم.

وكانت السماء قاتمة في تلك الساعة، وأخذت الأمطار تنهمر كأفواه القِرَب، ولعلع الرعد كالمدافع، فخاف جورج خوفاً شديداً. أشغلته أمه باللعب، وخرجت إلى المعمل بمصباحها فتفقّدته وعادت إلى ولدها، وكانت العاصفة قد بدأت، وفُتِحَت ميازيب السماء.

* * *

أمّا جيرود فإنّه أقام قسماً من الليل في المطعم، وفي الساعة الحادية عشرة ذهب إلى جسر شارلتون وهو يرجو أن يلاقي حنّة وولدها فيه، كما كتب لها.

لم يحفل بالعاصفة، فقد قال في نفسه إنّها إذا كانت تريد الحضور لا تحول الرياح والأمطار دون قصدها. ومتى أتت ذهبتُ بها إلى غرفتي، فتركتُها مع ولدها لفعل ما عزمتُ على فعله.

ولمّا وصل إلى المكان المعيّن ولم يجد فيه حنّة، جعل

يسير ذهاباً وإياباً وهو يكاد يجن من يأسه، إذ بات واثقاً بعد الانتظار الطويل من أنّها أبت موافقته على ما أراد.

ولكنّه كان قوي الإرادة ثابت العزيمة، فقال في نفسه:

سيّان عندي إن أتت أو لم تأتِ. سأفعل ما أريد فعله. هي لا تحبّني من دون شكّ، وما هي إلّا مسيئةٌ إلى نفسها. بل إنّها تحتقرني كما رأيتُ مراراً، ولكنها مسيئةٌ إلى نفسها، وسأعمل ما أريد عمله.

وفيما هو يناجي نفسه بهذه الأقوال، خطرتْ له تلك الرسالة التي كتبها إليها، فارتعش وقال:

ماذا أصنع بهذه الرسالة التي كتبتُها إليها، فقد تُطلِع عليها من يهمّهم أمرها، بل قد يجدونها عندها!.

وأطرق هنيهة مفكّراً مهموماً، ثمّ قال:

ولكن ليس في تلك الرسالة برهانٌ جليٌّ، وسأحوّل التهمة عنّي بتأخير سفري، فأسافر بعد أسبوع، أو بعد شهر.

وكانت العاصفة قد بلغت أشدّها، والمطر يتساقط سقوط مياه الشلال. وقد فات الأجل المضروب، فقال في نفسه:

فلأذهب إذن. إنّها لن تحضر ولن تكافئني عن غرامي إلّا بالاحتقار. فليمُتِ الحب في قلبي، وليَعِش في مكانه حب المال.

وسار تواً إلى المعمل من الباب الصغير، الذي صنع مفتاحاً له كما تقدّم، ففتحه ودخل إلى ردهة المعمل. وهناك نظر إلى الغرفة التي تقيم فيها حنّة، فرأى النور ينبعث من خلال زجاجها، فقال في نفسه:

إنّها لا تزال ساهرةً، وهي تضحك عليّ من دون شكٍّ لاعتقادها أنّي لا أزال أنتظرها تحت الأمطار عند الجسر. نعم لقد مات الحبُّ في قلبي، فأنا الآن لا أحبها بل أبغضها، وسوف ترى ما يكون.

وعند ذلك مشى إلى غرفتها، وكانت الرياح تحول دون سماع خطواته. دخل إلى المستودع الكائن بجانب تلك الغرفة، فأخذ أربعاً من زجاجات البترول التي كانت ملأتها حنّة في النهار، ودخل بها إلى معمل النجارة، حيث صبّ زجاجتين فوق نشارة الأخشاب وقطعها الجافة.

وبعد ذلك ذهب إلى مكتب رئيس المعمل، فكسر بابه ودخل تواً إلى الصندوق الحديدي، فعالجه وهو ميكانيكي بما لديه من الآلات حتّى فتحه، فأخذ ما فيه من الأوراق المالية ورسوم الاختراع ووضعها في جيبه.

ثمّ صب الزجاجتين الباقيتين من زيت البترول فوق المائدة، وقال في نفسه:

لأضع النار في المعمل أوّلاً، ثمّ أعود إلى هنا فأُتِمَّ ما أريد عمله.

وذهب إلى معمل النجارة، فأحرق زيت البترول والتهبت الأخشاب بسرعة البرق.

* * *

لِنَعُد الآن إلى المسيو لابرو صاحب المعمل، فإنّه بعد أن اطمأنّ على ولده بَرِح تلك القرية عائداً إلى باريس، فوصلها في الساعة الحادية عشرة، حيث تعشى في أحد فنادقها، ثمّ ركب مركبة وأمر سائقها بأن يذهب به إلى معمله.

وكانت العاصفة في أشدّ قوتها، فلم يتمكّن من الوصول إلى معمله إلّا بعد انتصاف الليل بنصف ساعة.

وكان جيرود في تلك الساعة قد أضرم النار في المعمل، وعاد إلى مكتب الرئيس لكي يُتِمَّ عمله فيه.

وحدث ذلك في الساعة نفسها التي دخل فيها لابرو إلى معمله، وسمعتْ حنّة صوت إقفال الباب من ورائه.

أمّا صاحب المعمل، فإنّه لم يكد يصل إلى الردهة حتّى رأى اللهيب في معمله، فأسرع راكضاً إلى جهة النار.

وكان جيرود قد أضرم النار في المكتب أيضاً، وألقى الصندوق الحديدي الذي اختلس منه المال في وسط اللهيب.

ورأى لابرو باب مكتبه مفتوحاً، فأيقن بأنّ النار لم تشتعل اتفاقاً، وأنّ يد مجرم قد أضرمتها، فانقضّ على الباب.

وعند ذلك خرج جيرود ورأى رئيسه هاجماً على الباب، فلم يجد بُدّاً من الاندفاع إلى النهاية، لا سيّما وأنّ صاحب المعمل كان يستغيث بملء صوته. جرّد جيرود خنجره وهجم على رئيسه هجوم الضواري، فأغمد الخنجر في صدره، وسقط المنكود قتيلاً.

وكانت حنّة قد دخلتْ في تلك اللحظة.

***

بعد ربع ساعةٍ أُشهِرَ أمر النار، وأقبل رجال المطافئ. ضمّت حنّة ولدها إلى صدرها، وهي تقول:

لقد قُضي عليّ القضاء المبرم، ونجح هذا الشقي في كيده وانتقامه، فإنّهم سيتهمونني بإضرام النار من دون شك. ولكن كلا... إنّي سأُبرِّئ نفسي، فإنّ لديَّ كتابه الذي أرسله إليَّ، وهو كافٍ للدلالة على سوء قصده.

ثمّ وضعت يدها على جبهتها، وقد خَطَرَ لها خاطرٌ ارتعدت له فرائصها، وقالت: ولكن أين الرسالة؟... إنّي دعكتُها وألقيتُها غاضبةً إلى الأرض! فهل يمكن أن تضيع؟... كلا، سأبحث عنها وأجدها، وستكون خير سلاحٍ لي أدافع به عن نفسي.

وكان يفصل بين المكان الذي كانت فيه وبين غرفتها مسافة مائتي متر، فحاولت الذهاب إليها للبحث عن

الرسالة، لكنّها لقيتْ قريباً منها طائفة من الرجال قادمين، وسمعتْ أحدهم يقول:

لا شكّ عندي في أنّ هذه الشقية مدام فورتيه قد أضرمت النار في المعمل انتقاماً من صاحبه، فقد سمعتها بأذني تهدّده بالسوء.

فعرفت حنّة أنّ هذا الرجل كان أمين الصندوق، وقالت في نفسها: لقد أصبح هذا الرجل من أعدائي، وهو يشهد عليَّ من دون شكٍّ، فلا بُدَّ لي من الرسالة لتبرئة نفسي.

ثمّ سارت مسرعةً إلى غرفتها، وتجنّبت أولئك القادمين. ولكنّها لم تكد تصل إليها حتّى رأت أنَّ اللهب قد اتصل بها، حيث مَدَّ اشتداد الرياح ألسنة النيران، فوصلت إلى جهات المعمل كلّها.

وكادت تجن من يأسها لوثوقها بأنّ ذلك البرهان، الذي كان سلاحها الوحيد، التهمته النار. فضَلَّ صوابها لخوفها من شر العاقبة، وضمّت ولدها إلى صدرها وهربت به راكضةً إلى جهة الخلاء.

أمّا ولدها جورج فقد كان شبه مغمىً عليه على صدر أمه، ولكنَّ يديه كانتا قابضتين على جواده المحتوي في جوفه على ذلك البرهان السديد، الذي يئست أمه من لقائه وهي لا تعلم أنّه في يدها.

* * *

كان ذلك المعمل مبنياً في مكانٍ بعيدٍ عن المنازل، وقد التهمت النار داخله ولا تزال أبوابه مقفلةً، بحيث اضطر الناس ورجال المطافئ إلى تسلّق جدرانه على السلالم.

وتنبّه الجميع في الحال إلى غياب حنّة، حارسة المعمل.

وكان جاك جيرود، ذلك الجاني الأثيم، قَدِمَ مع القادمين، وكان أوّل من اتّهم تلك المنكودة بقوله: إنّ الشقية أضرمتِ النار في المعمل انتقاماً، فهلمّوا بنا لإنقاذ صندوق الرئيس من النار.

فهَبَّ رفاقه، قائلين هلمّوا بنا إلى إنقاذ الصندوق. وركضوا جميعاً بقيادة جاك وأمين الصندوق إلى جهة مكتب صاحب المعمل.

أمّا جاك جيرود، فقد رأته حنّة يقتل الرئيس، وأيقن أنّه لا بُدَّ لها من إتّهامه، فهرب في البدء إلى جهة الخلاء. لكنّه لم يَسِر بضع خطوات حتّى عاد إليه رشده، وقال في نفسه: خير لي أن أتّهمها، فإنّ لديّ من القرائن ما يُثبتُ التهمة عليها.

وعند ذلك سمع الناس يصيحون النار النار، فانضمّ إليهم حتّى وصل إلى المعمل، ورأى النار قد اتصلت بغرفة حنّة نفسها. فتنهّد تنهُّد الارتياح، وقال في نفسه: إنّ الرسالة فُقِدتْ من دون شكّ، فلم يبقَ عليّ إلّا أن أُظهِر من الغيرة والنشاط والإخلاص والشجاعة ما ينفي عنّي التهمة التي ستلقيها حنّة على عاتقي.

وقد خَطَرَ له خاطر شيطاني حين صاح بأعلى صوته بالجماعة، قائلاً: لننقذ الصندوق.

وكانت النار قد اتصلت بالمكتب، واندلعت ألسنتها في كلّ مكان فيه. فقال له أمين الصندوق:

ـ إننا لا نستطيع الدخول كما أرى.

فأجابه جاك قائلاً:

ـ دعني أدخل.

ـ ماذا تريد أن تصنع؟.

ـ سوف ترى.

غادره عند ذلك، ووثب إلى النار غير هيّابٍ. وسمعوا صوته يقول بلهجة المذعور:

ـ يوجد جثة.

ثمّ عاد إلى رفاقه وهو يحمل جثة رئيسه لابرو، ووضعها أمامهم وهو يتكلّف الذعر، ويُظهر أنّه لم يعرف جثة ذلك المنكود وهو قاتله.

فلم يكد أمين الصندوق ينظر إليها حتّى صاح قائلاً:

ـ ويلاه إنها جثة رئيسنا صاحب المعمل.

فتظاهر جاك أنّه لم يسمع صوته، وعاد مسرعاً إلى المكتب وسط اللهيب. فسمعوا بعد هنيهة صوته وهو يستغيث ويقول:

ـ إني في المكتب... قُرب الصندوق... أنقذوني... أسرعوا إليَّ فإنّي أختنق.

حاول الناس أن يسرعوا لنجدته، غير أنّ سقوط الجدار واستفحال النار حالا دون قصدهم، فوقفوا آسفين يقولون:

ـ لقد التهبت النار جيرود، وذهب ضحية شهامته وغيرته.

وحاولوا مراراً أن يخترقوا النار لإنقاذه، فلم يتمكّنوا من ذلك لأن الجدران بجملتها قد سقطت.

* * *

عند ذلك أخذ رجال المطافئ يرسلون المياه، ولكن من دون جدوى. فإنّ المعمل بجملته استحال إلى رماد، فجعل أمين الصندوق يسير ذهاباً وإياباً بين الناس، وهو يقول:

ـ تبّاً لهذه الشقية، فهي التي أحرقت المعمل، وهي التي قتلت صاحبه، وهي التي كانت السبب في موت جاك.

وكرّر هذا القول مراراً إلى أن سمعه رئيس الشرطة، الذي قَدِمَ مع عناصره لتقديم النجدة. فدنا من أمين الصندوق، وقال له:

ـ من أنت؟.

ـ إنّي أمين صندوق هذا المعمل الذي التهمته النار.

ـ إنّي سمعتُ ما يدلّ على أنّ يداً أثيمة قد أضرمت النار، فهل تتّهم أحداً؟.

ـ نعم يا سيدي، اتبعني!.

وسار به إلى حيث كانت جثة صاحب المعمل، وكان أثر الجرح ظاهر في صدره. وقال له:

ـ انظر!.

فعرف رئيس الشرطة صاحب المعمل، وقال مستنكراً:

ـ من هذا؟ أهو صاحب المعمل؟.

ـ إنّه رئيسنا المنكود بعينه.

ـ من الذي تتهمه بقتله؟.

ـ حارسة المعمل.

ـ ماذا تدعى؟.

ـ حنّة فورتيه.

ـ على أي برهان تعتمد في اتهامها؟.

ـ إننا بحثنا عنها في كلّ مكان من المعمل فلم نجدها، وذلك يدلُّ أصدق دلالة على أنّها أضرمت النار وفرّت. وفوق ذلك فإنّها اشترت زيت البترول، وهي لم تشترِه إلّا لتُحرق به المعمل.

ـ ما الذي دعاها إلى ارتكاب هذه الجريمة؟.

ـ استياء صاحب المعمل منها، إذ أخبرها أوّل أمس بأنّه لا يقبلها في معمله إلّا ثمانية أيام فقط.

ـ لقد سمعتكَ تقول إنّه يوجد ميت آخر؟.

ـ نعم يا سيدي.

ـ من هو هذا الميت؟.

ـ هو جيرود، نائب صاحب المعمل. لقد اخترق اللهيب ودخل إلى المكتب بغية إنقاذ الصندوق، فالتهمته النار من دون شكّ، وحال تساقط الجدران دون إنقاذه.

ـ ألم تُبقِ النار على مكانٍ نستطيع أن نضع فيه جثة صاحب المعمل؟.

ـ لا يوجد غير مكان المركبات، فإنّه خارج المعمل.

التفت رئيس الشرطة إلى عناصره، وأمرهم بأن يذهبوا بالجثة إلى ذلك المكان. ثمّ عاد إلى أمين الصندوق وقال له:

ـ سأبدأ التحقيق العاجل، وسأبلغ النائب العام بخبر الحادثة في هذه الليلة، فاذكر لي كلّ ما تعلمه مما يُعيننا على التحقيق.

ـ سَلْ ما تشاء.

ـ لم يكُن المسيو لابرو متزوجاً، أليس كذلك؟.

ـ كلا يا سيدي، كان أرمل وله ولد.

ـ أله أسرة في باريس؟.

ـ لا أظنّ! ليس له غير ولده وأخته، أرملة برتين، وهي تقيم في قرية قرب بلوا. أما الولد فلا يزال حديث السن،

وهو يُقيم مع عمته. وقد ورد إلى المسيو لابرو نبأ برقيّ أمس من أخته، تخبره فيه بأنّ ولده مريض، فسافر في الحال على أن يعود بعد يومين أو ثلاثة.

ـ إذن كيف تعلل عودته الليلة؟.

ـ أظنّ أنّه لقي ولده معافى، فاضطر إلى الإسراع بالعودة لكثرة شواغله.

ـ أتعرف عنوان أخته بالتدقيق؟.

ـ نعم.

ـ إذن أرسل لها نبأ برقياً، وأخبرها بهذه الفاجعة، إذ لا بُدَّ من إخبارها.

ـ سأفعل يا سيدي.

وعند ذلك أرسل رئيس الشرطة سكرتيره إلى باريس ليخبر النائب العام بالحادثة، وعاد فوضع تقريراً مسهباً عمّا سمعه ورآه.

* * *

أجمع كلُّ من حضر الحريق، وسمع أقوال أمين الصندوق، على اتّهام حنّة بإضرام النار؛ فإنَّ كلَّ القرائن كانت تؤيّد التهمة، ولا سيّما فرارها.

أمّا حنّة فإنّها حملتْ طفلها، وسارت به هائمة على وجهها لا تعلم إلى أين، إلى أن أنهكها التعب فجلست على العشب تستريح، وهي ترى السماء لا تزال تتوهج بنيران المعمل.

وتحرّك ولدها على صدرها، ثمّ فتح عينيه وشكا لأمه ألم البرد، فقبّلته قبلاتِ حنوٍّ لا يدرك أسرارها غير الأمهات، وقالت له: إذا مشيتَ يا بني تدفأ، فهلمَّ بنا!.

أخذتْ بيده وسارتْ وإيّاه قانطةً، لا تعلم ماذا تصنع ولا إلى أين تسير.

وكانت تمشي وهي تناجي نفسها، فتقول: ترى لماذا هربتُ؟... أكان ذلك من الخوف؟... ولماذا أخاف؟ ألعلّهم يتهمونني حقيقةً؟... ألعلّهم لا يثقون بأقوالي إذا قلتُ لهم الحقيقة؟.

وهنا ارتعشتْ، فقد تذكّرت ما قاله لها جاك، وهو: إنّي اتّخذت جميع الوسائل اللازمة لثبوت التهمة عليكِ.

فقالت في نفسها: ربّاه! إنّه أصاب فيما قال، فإنّهم سيجدون زجاجات البترول فارغة، ويتذكّرون تلك الأقوال التي قلتُها لصاحب المعمل، وهي تشبه الوعيد، وهم يعلمون أنّه طردني من الخدمة، فيُثبتون التهمة عليَّ ويعزونها إلى الانتقام... رباّه! لقد قُضي عليَّ، ولا بُدَّ لي من الإمعان في الهرب.

وجعلت تسير مسرعةً مع ولدها إلى أن طلع الصباح وأشرقت الشمس، فتوقّفتْ فجأةً إذ رأت عن بعد جنديين وبينهما امرأة موثقة اليدين، فوجف قلبها وارتعدت فرائصها، إذ تمثّل لها أنّ الجنود سيقبضون عليها كما

قبضوا على هذه المرأة، ويبعدونها عن ولديها. وقد حادت عن طريق الجنديين، ووقفت مختبئة وهي ترتعش وتقول:

ربّاه إنّي بريئة، وذلك الوحش هو الذي ارتكب الجريمة، ومع ذلك فإنّي أنا التي تختبئ كأنّي صاحبة الجريمة. نعم إنّي بريئة، ولكنّي مخطئة أيضاً، فإنّي حارسة المعمل وكان يجب أن أبقى فيه وألّا أهرب، فكيف فاتتني هذه الحكمة؟ وفوق ذلك فإنّي كنتُ حاضرةً في غرفة صاحب المعمل حين جاءه أمين الصندوق بالمال وأخبره بمقداره، وهو المقدار نفسه الذي عيّنه جاك في كتابه إليّ، فكيف لم أفطن لذلك؟ وكيف لم أبقَ في المعمل لكي أصيح بالشرطة قائلة: هو ذا القاتل، وهو ذا السارق؟ بل كيف لم أتعلّق بثيابه حين رأيته يقتل الرئيس وفضحت أمره؟ نعم، إنّه كان قتلني كما قتل رئيسه، ولكن أليس الموت أفضل ألف مرة من هذه التهمة الشائنة؟.

قطع عليها ولدها حديث نفسها بقوله إنّه جائع. فسالت دموع تلك الأم المسكينة، وقالت له:

ـ صبراً يا بني، فإنّي سأشتري لكَ طعاماً حين نصل إلى أوّل قرية.

ـ لقد تعبتُ، فلا أستطيع مواصلة السير.

ـ سأحملكَ يا بني، فلن تتعب.

حملته وسارت به نحو ساعة وهي واهية القوى. قطّعت قلبها شكوى ولدها، إلى أن ظهرت لها منازل القرية، وأنهك التعب قواها، فأنزلت ولدها وقالت له:

ـ ألا تستطيع أن تمشي يا جورج، فقد وصلنا؟.

فحاول جورج أن يمتثل لأمه ولكنه لم يستطع، فقالت له:

ـ انتظرني في هذه الغابة لأذهب وأحضر لك الطعام.

ـ نعم.

ـ ألا تخاف وحدك؟.

ـ كلا.

ثمّ اضطجع على العشب وعانق جواده، فقالت حنّة في نفسها: سينام فلا يشعر بغيابي.

تركته وذهبت مسرعة إلى دكانٍ في القرية، ولم يكن معها غير بضعة دراهم فاشترت بها طعاماً.

وعادت إلى ولده فوجدته في مكانه نائماً نوماً عميقاً فلم توقظه، وجلست بجانبه تفكّر بما اتّفق لها، وبما ستصير إليه، إلى أن غلبها النعاس لِمَا عانته من التعب، فأطبقت عينيها ونامت بجانب ولدها.

* * *

لِنَعُد الآن إلى المعمل، فإنّ قاضي التحقيق جاء إليه بدعوةٍ من رئيس الشرطة، وبدأ تحقيقه فسأل أحد الجنود قائلاً:

ـ هل فتّشتم المعمل كما أمرتكم؟.

قال:

ـ نعم يا سيدي.

ـ ماذا وجدتم؟.

ـ زجاجات كان فيها زيت بترول.

ـ أحضرها إليّ؟.

فأحضر الجندي تلك الزجاجات، التي صبَّ جاك ما فيها على الأخشاب، ونادى قاضي التحقيق أمين الصندوق، فقال له:

ـ أتعرف هذه الزجاجات؟.

ـ نعم، رأيتُ حنّة فورتيه تملأها ببترول كانت تُفرغه من آنية، ولا سبيل إلى الانخداع بها فإنّها من الزجاجات الخاصة بالمياه المعدنية.

ـ أتذكر كم زجاجةً ملأتْ؟.

ـ رأيتُها وضعت خمس زجاجات على الأرض.

ـ حسناً، والآن أرجوكَ أن تجهد ذاكرتك، فتروي لي أقوال الوعيد نفسها التي قالتها حنّة فورتيه لصاحب المعمل، لا معناها.

ـ إنّي أرويها بالتدقيق، فإنّ حنّة بدلاً من أن تعتذر كما يجب أن تفعل، وبدلاً من أن تلتمس من المسيو لابرو

أن يغفر لها خطأها، أظهرتْ قِحَةً عظيمةً، وكلّمته بغِلظةٍ فقالت: «إنّك تطردني، فاحذر إذن فإنّ ذلك لا يعود عليك بالخير». وهو قول يظهر منه جلياً يا سيدي أنّها كانت حاقدة عليه، وأنّها لم تفعل ما فعلته إلّا بغية الانتقام.

ـ أتظنّ أنّ الانتقام وحده كان السبب في هذه الجريمة؟.

ـ هذا الذي أظنّه يا سيدي.

ـ أمّا أنا فإنّي أظنّ عكس ظنّك، فإنّ المسيو لابرو قال إنّه سيغيب يومين أو ثلاثة، أليس كذلك؟.

ـ هذا الذي قاله لي ولجاك جيرود.

ـ أيمكن أن يعلم أحد عودته الفجائية؟.

ـ كلا.

ـ وقد ثبت أنّه حين أصيب بالضربة القاتلة كان داخلاً إلى معمله، فإنّهم وجدوا قرب جثته حقيبة السفر، فلا شكَّ أنَّ الذي طعنه كان في مكتبه، وهو لا يتوقع أن يراه، فلماذا كان هذا القاتل في المكتب؟.

ـ لإحراقه.

فهز قاضي التحقيق رأسه، وقال:

ـ لم يكن ثمة فائدة من إضرام النار في المكتب، فإنّ النار التي شبّت في معمل الأخشاب كانت كافيةً للوصول إلى المكتب.

فأطرق أمين الصندوق مفكّراً، ولم يُجِب.

فقال له القاضي:

ـ أتعلم كم كان يوجد من المال في الصندوق؟.

ـ مائتا ألف فرنك. وكان يوجد أيضاً في صندوقي الخاص خمسة آلاف فرنك، ولكنَّ النار لم تلتهمها، فإنّي كنتُ مسؤولاً عن الخمسة الآلاف فرنك، فوضعتها في منزلي ولا تزال فيه.

ـ أكانت هذه الأموال ذهباً أم أوراقاً مالية؟.

ـ كانت كلها أوراقاً مالية، ما خلا ثلاثة آلاف فرنك.

ـ أكنتَ وحدكَ عالِماً بما يوجد في الصندوق؟.

فتمعّن هنيهة وقال:

ـ كلا، فقد كان يوجد في غرفة الرئيس اثنان حين أعطيته المال.

ـ من هما؟.

ـ جاك جيرود، وحنّة فورتيه.

فظهرتْ على قاضي التحقيق علائم الارتياح لاعتقاده بأنّه بدأ يكشف السر. وعاد أمين الصندوق إلى الحديث، فقال:

ـ نعم، نعم، إنّ حنّة كانت عارفة بوجود هذا المال في الصندوق، وكذلك جاك. غير أنّ ذلك قضى على جاك المنكود، فإنّ النار لم تلتهمه إلّا لأنّه كان عارفاً بوجود المال، فخاطر بحياته لإنقاذ الصندوق.

ـ كيف اتّفق وجود حنّة فورتيه في مكتب صاحب المعمل حين دفعتَ له المال؟.

ـ ذلك لأنَّ صاحب المعمل دعاها إليه كي يصدر لها أمراً بشأن سفره.

ـ أأنتَ واثقٌ من أنّها عرفتْ مقدار ذلك المال؟.

ـ كلَّ الثقة، فإنّي ذكرتُ القيمة بصوت مرتفع.

ـ أكان مفتاح المكتب مع حنّة؟.

ـ نعم يا سيدي، بل كانت تحمل جميع مفاتيح المعمل.

ـ أكانت تقيم في المعمل وحدها في الليل؟.

ـ نعم يا سيدي.

ـ هل لكَ أن تخبرني عمّا تعرفه من أخلاق هذه المرأة؟.

ـ كانت متكبّرة طمّاعة شديدة الحقد، وتظهر بمظاهر لا تنطبق على حالتها الفقيرة.

ـ ألها بنون؟.

ـ لها ولدان، أحدهما غلام يعيش معها، والثاني بنت تعيش عند مرضع في الريف.

ـ أحقٌّ ما قيل من أنّ زوجها قُتِلَ في المعمل؟.

ـ نعم يا سيدي، ولكنّه قُتِلَ بخطئه. ولم يعيّن صاحب المعمل امرأته لحراسة معمله إلّا لأنَّ زوجها قُتِلَ فيه، حتّى

إنّه حين طردها كان يفكّر بمكافأتها وتعيينها في خدمةٍ تَقِيها شرّ العوز، ولكنَّ هذه المرأة الشريرة كافأته عن إحسانه بالقتل.

فالتفتَ قاضي التحقيق عند ذلك إلى النائب العمومي وإلى رئيس البوليس، وقال لهما:

ـ ألا تريان ما رأيته؟ لم يبقَ مجالٌ للشكّ، وكنتُ مصيباً في ما أعتقده؛ وهو أنّ الجريمة لم تكن لمجرد الانتقام. كانت حنّة تريد أن تنتقم وتسرق معاً، فإنّها بعد أن أعدّتْ معدّات الحريق، ذهبت إلى الصندوق فكسرته وسلبت ما فيه، ثم أضرمتِ النار. ولمّا أرادت الخروج من مكتب المسيو لابرو فاجأها بدخوله، فطعنته تلك الطعنة القاتلة. ألا تريان ما أراه؟.

وافقه الاثنان على رأيه. ولكنَّ النائب العمومي اعترض قائلاً:

ـ بقي علينا أن نعلم إذا كان الصندوق الحديدي من الطراز الحديث، فإذا كان ذلك فلا بُدَّ من أن يكون لحنّة شريكٌ في الجريمة، فإنّ المرأة لا تستطيع وحدها كسر مثل هذا الصندوق.

فأجابه أمين الصندوق قائلاً:

ـ كلا يا سيدي. إنّ الصندوق كان من الطرز القديم، يسهل كسره بأقلِّ عنف. لطالما نبّهتُ المسيو لابرو إلى

ضرورة استبداله بسواه، فلم يفعل. أمّا حنّة فإنّها قوية البنية، لا يصعب عليها كسر مثل هذا الصندوق. إنّ السرقة ظاهرة في كلّ حال، لأنّه يوجد في الصندوق ثلاثة آلاف فرنك ذهباً، فلو كانت باقيةً فيه لصهرت النار ذلك الذهب وظهر سائله.

ثمّ التفت النائب إلى الطبيب الذي فحص الجثة، وقال له:

ـ هل عرفتَ حين فحصِكَ نوعَ السلاح الذي قُتِلَ به صاحب المعمل؟.

قال الطبيب:

ـ نعم، إنّه من نوع المُدى الكبيرة. ولكنَّ الشفرة أصابت قلب المطعون فقتلته في الحال.

ـ إذن يجب أن يكون الطاعن قد طعن بملء قوته! ولكن بقي عليَّ أمر لا يزال مشكلاً عليَّ.

فقال له:

ـ ما هو؟.

ـ كانت حنّة موقنةً من أنّ صاحب المعمل مسافر، فإذا كانت هي السارقة لوَجَبَ أن تكون آمنة مطمئنة، فلماذا تحمل السلاح؟.

فأجاب رئيس البوليس:

ـ ألا تزال تعتقد أنّه يوجد لها شريك؟.

ـ نعم، فإنّي لا أعتقد أنّ امرأة تستطيع وحدها إتيان مثل هذه الجرائم.

فقال قاضي التحقيق:

ـ قد تكون أحضرت ذلك السلاح كي تستعين به على كسر الصندوق. وعلى كلّ حال فإنّ الجريمة ثابتة عليها بدليل فرارها، ولكن يمكن أن يكون لها شريك؛ فهل تعرفون شيئاً عن علاقاتها؟ لقد كانت أرملة، فهل كان لها عشيق؟.

شهد كثيرون من الحاضرين بعفافها. وعند ذلك دخل أحد العمال تصحبه امرأة، فقال للقاضي:

ـ إنّ لدي برهاناً يا سيدي يدلّ أصدق دلالة على أنّ الجريمة كانت مدبَّرةً من قبل.

ـ كيف عرفت ذلك؟.

ـ من امرأتي، وهي بقّالة. هي التي باعت حنّة فورتيه البترول. هذه هي امرأتي، فسَلْها إذا شئت.

سألها القاضي قائلاً:

ـ أتعرفين حنّة فورتيه؟.

قالت:

ـ أعرفها حقّ المعرفة، فقد كانت من زبائني.

ـ أتذكرين أنّها اشترت منكِ زيت البترول؟.

ـ من دون شكّ. كان ذلك منذ أربعة أيام، بعد الظهر. جاءتني مع ولدها، فاشترت مقدار خمسة ليترات فاستغربتُ شراءها.

ـ لماذا؟.

ـ لأنّها اشترتْ قبل يوم واحد مقدار خمسة لترات أيضاً. وقد سألتها عن السبب، فقالت لي إنّ ولدها تعثّر بالآنية وهو يلعب فكبّ ما فيها.

ـ ماذا تعرفين من أخلاق هذه المرأة؟.

ـ إنّها طمّاعة.

وعند ذلك روت له جميع ما دار بينها وبين حنّة من الحديث، على ما بَسَطناه في مقدمة هذه الرواية. فلم يبقَ شكٌّ لدى القضاة بثبوت التهمة على حنّة فورتيه، وصدر الأمر بإلقاء القبض عليها.

* * *

في الساعة الأولى بعد ظهر اليوم نفسه، كان رجل لا يزال في مقتبل الشباب وقد ارتدى أجمل الملابس، ينزل من مركبة إلى محطة سانت لازار. وكان يحمل حقيبة سفر، فدنا من أحد موظفي المحطة وقال له:

ـ أليست الآن ساعة سير القطار إلى الهافر؟.

قال الموظف:

ـ نعم، ولكنَّ موعد قطع التذاكر فات، فإنّ القطار على وشك السفر.

فقطّب المسافر حاجبيه وقال:

ـ متى يسافر القطار القادم؟.

قال:

ـ في الساعة السادسة ونصف.

فخرج المسافر من المحطة إلى شارع أمستردام، وهو يقول في نفسه:

كنتُ أؤثر الإسراع بالرحيل، ولكن لا بأس. سأغتنم فرصة هذا التأخّر لآكل، فإنّي شديد الجوع.

وذهب إلى أحد المطاعم فأكل، وطلب أدوات الكتابة فأرسل نبأ برقياً إلى فندق في الهافر يدعى فندق الأميرالية.

وفي الساعة السادسة ونصف ركب القطار، وكان مقيماً في غرفة لم يكن فيها سواه، ففتح حقيبته وأخرج منها أوراقاً مختلفة جعل ينظر فيها بإمعان.

وكانت هذه الأوراق رسوم آلة ميكانيكية، وكان ينظر إليها ويبتسم ابتسامة الفوز.

وقد عرف القرّاء من دون شكٍّ أنَّ هذا المسافر إنما كان جيرود بعينه، وقد غيّر زيّه وصبغ شعره، فلم يعد من رآه يعرف أنّه ذلك اللص السفّاك الذي أحرق معمل رئيسه،

وعرّض مدام فورتيه المنكودة لتلك التهمة الهائلة.

وحكايته أنّه حين اخترق النار وتوارى بين اللهيب، موهماً رفاقه أنّه يريد إنقاذ الصندوق كما تقدّم، كان غرضه من هذه الحماسة أن يوهم الناس أنّه مات بالنار، ولذلك استغاث حين سقط الجدار لوثوقه أنّهم لا يستطيعون الوصول إليه. ولكنّه كان يعرف ذلك المكان الذي دخل إليه وجميع مخارجه حقّ المعرفة، وبعد أن استغاث بصوتٍ خافتٍ يدلّ على النزع، خرج من نافذة في الكنيسة تؤدّي إلى بيت لابرو، وخرج من ذلك الباب الصغير الذي كان يدخل منه صاحب المعمل حين يعود في الليل إلى منزله. ثم ذهب آمناً مطمئناً، وهو واثق بأنّ النار لن تُبقي على شيء في المعمل، وأنّهم سيعتقدون أنّه مات بالنار شهيدَ شجاعته وغيرته.

بعد ذلك تنفّس الصعداء، وسار توّاً إلى غرفته فغيّر ملابسه، ووضع الأموال والأوراق التي سرقها في منديلٍ خبّأه تحت ملابسه. وعند الفجر ذهب ماشياً إلى باريس، وهو لا يشعر بشيء من التعب.

وكان أوّل ما فعله حين وصل إلى باريس أنّه ذهب إلى حلاقٍ، فصبغ شعره بلون السواد بعد أن كان أشقر. ثمّ ذهب إلى محطة سانت لازار، وأرسل ذلك التلغراف الذي تقدّم لنا ذِكره إلى فندق الأميرالية في الهافر، وقد أمضاه باسم بول هرمان.

ولم يكن هذا الاسم الذي تسمّى به من مخترعاته، فقد وُجِدَ رجلٌ من رفاقه في المهنة كان يدعى بهذا الاسم وقد توفي، وكان جاك قد استولى على أوراقه لأنّه كان يعيش وإيّاه في غرفةٍ واحدة. وقد مات الرجل في المستشفى، وبقيت أوراقه في غرفة جاك. وكان بول هرمان يشبه جاك بعض الشبه، ما خلا لون شعره. فلمّا صبغ جاك شعره بات الشبه كثيراً بينهما.

* * *

لِنَعُد الآن إلى حنّة، فقد تركناها نائمةً بجانب ولدها في الغابة، حيث نامت نحو ساعتين.

لمّا صحت كانت الشمس قد ارتفعت، وجورج لا يزال نائماً وهو يعانق جواده، فجعلت حنّة تنظر إليه بحنوّ، والدموع تجول في عينيها. ثمّ إنّها لم تتمالك عن تقبيله، فلمّا قبّلته صحا. وكان أوّل ما فعله حين فتح عينيه أنّه شكا من الجوع.

فاحتضنته وجعلت تطعمه مما اشترته من دون أن تأكل، في حين أنّها كانت أشدَّ جوعاً من ولدها، ولكنّها لم تستطِع أن تُزاحم ولدها على طعامه.

وقد طال ذلك اليوم عليها حتّى حَسِبته دهراً، فإنّها لم تكن تريد أن تدخل إلى القرية في النهار. حتّى إذا أقبل الليل دخلت إلى القرية، وسألت فيها عن منزل الكاهن.

كانت هذه القرية تدعى شيفري، وكان الكاهن يدعى فيلكس لوجيه، وهو في الثامنة والخمسين من عمره، باسم الثغر، تدلّ ملامحه على السلامة وحسن الطويّة.

كان الكاهن يقيم في منزله مع أخته، وهي تزيده بعامين عمراً، ومع خادم لهما. وكان عندهما في ذلك اليوم ضيف فتى، وهو من المصوّرين.

فلما وصلتْ حنّة إلى منزل الكاهن سقطتْ جائعةً على الأرض، وقد خارت قواها واستنجدت بأهل المنزل، فلقيتها الخادمة وقد أشفقت عليها إشفاقاً عظيماً. وأسرعت إلى الكاهن تخبره بأمرها، فبادر إليها مع أخته، واعتنى بها وبطفلها عنايةً عظيمة كادت تُنسيها حزنها.

* * *

يتذكّر القرّاء أنّ أمين الصندوق أرسل إلى أخت صاحب المعمل رسالة برقية، يخبرها فيها بالنكبة التي داهمتها. فلم تكد تلك الأخت الثكلى تعلم بهذه الفاجعة حتّى أسرعت إلى باريس بذعر، وجاءت منها إلى المعمل فوجدته قاعاً صفصفاً، لم تبقِ النار منه على شيء.

ولَقِيت هناك أمين الصندوق ينتظرها، فأخبرها بجميع ما اتّفق لأخيها ولمعمله، وبأنّ حنّة فورتيه كانت الجانية في القتل والحريق.

لم تصدّق المرأة ما سمعته، وقالت:

ـ أتقتل تلك المرأة أخي، وهو لم يكن يريد لها إلّا الخير؟ إنّ ذلك لا يحتمل التصديق، وإنّ خطأ القضاء مشهور، فلا بُدَّ أن تكون التهمة خطأ، فإنّ المرأة لا تستطيع إتقان هذه المنكرات.

ـ إنّ الأدلة مجمعة على اتهامها بحيث لم يبق مجال للشك.

فلم تعترض أخت صاحب المعمل، ولكنّها كانت غير مقتنعة. فقال لها أمين الصندوق:

ـ إنّ قاضي التحقيق يريد أن يراكِ، وقد عَهِدَ إليَّ بإخباركِ.

ـ سأذهب إليه.

ـ والآن، فلنبحث في أعمال سيدي ورئيسي المأسوف عليه، فإنّ النار قد التهمت كلّ ما في المعمل، وذهبت الدفاتر فريسة لها، ولكنّي أستطيع تجديدها، فإنّي أذكر جميع الحسابات.

ـ هل كان يوجد مال في الصندوق ساعة الحادثة؟.

ـ وا أسفاه يا سيدتي! كان يوجد مبلغ عظيم.

ـ أَفُقِد؟.

ـ كلّه.

ـ إذن بات المعمل مَدِيناً.

ـ بمائتي ألف فرنك.

ـ مائتي ألف فرنك! ويلاه، كيف ندفعها؟ إنّ هذا مُحال إذ لا مال لي، ولا بُدَّ لاسم أخي أن يُهان.

ـ كلا يا سيدتي، من يجسر على إهانة رئيسي العزيز؟.

ـ دائنوه.

ـ إنّهم لا يبلغ الظلم منهم إلى هذا الحد، فإنّهم يعلمون أنّ أخاكِ كان مثال الشرف، وهم يعلمون نكبته فلا تجدين بينهم من يلومه، بل إنّهم يشفقون عليه. وفوق ذلك فإنّ المعمل كان مؤمَّناً عليه، وستدفع شركات التأمين ما يوازي ذلك الدَّين، بحيث لا يكون أخوكِ مديناً لأحد.

ـ هل أخبرتَ شركات التأمين؟.

ـ نعم، وجاء وكلاؤها في صباح اليوم.

فتنهّدت وقالت:

ـ إذن لم يبقَ لابن أخي شيءٌ من الثروة.

ـ ما خلا الأرض التي بُنِيَ عليها المعمل.

ـ ولكنَّ هذه الأرض لا تُباع بسهولة. على أنّ ابن أخي سيكون عندي، وسيكون مستقبله مضموناً بإذن الله. وفي كلِّ حال فإنّي أشكركَ لِمَا أظهرته من الغيرة والإخلاص.

* * *

وبعد أن احتفلوا بدفن صاحب المعمل، ذهبت أخته إلى قاضي التحقيق الذي استقبلها آسفاً لنكبتها، وقال لها:

ـ ابدأ فأقول يا سيدتي إنّ هذه النكبة الفادحة التي ألبستكِ ثوب الحداد سيُنتقَم لها، فإنّي أنتظر في ساعة أن تَرِدَني أخبار القبض على المرأة الجانية.

قالت:

ـ وا أسفاه! إنّ ذلك لا يُرجع لي أخي المفقود.

ـ هو ذاك يا سيدتي. إنّ هذا نكد الطالع، فإنّ الانتقام والحزن لا يردّان مفقوداً، وقد كنت أنتظر حضوركِ لأسألكِ عن زمن رجوع أخيكِ من عندكِ، فقد قيل لي إنّه ذهب لعيادة ولده.

ـ نعم يا سيدي، وأنا التي دعوته إليَّ. غير أنّه حين جاء ورأى أنّ الخطر زال عن ولده عاد في اليوم التالي، بحيث لم يُقِم عندي غير ليلة.

ـ أتعلمين بأيِّ قطار سافر؟.

ـ بقطار الإكسبرس الذي يسافر في الساعة الرابعة والنصف.

ـ إذن كان يجب أن يصل إلى باريس في الساعة التاسعة، وقد تأخّر فيها لأسبابٍ لم نعلمها بعد، فلمّا عاد إلى المعمل استقبلته تلك المرأة بالنار والخنجر.

ـ أواثقٌ يا سيدي من أنّ حنّة فورتيه هي القاتلة؟.

ـ لم يبقَ لديَّ شيءٌ من الشكّ. ألعلّكِ تعرفين هذه المرأة؟.

ـ نعم، فهي امرأة عامل قُتِلَ في معمل أخي. وكان أخي يهتمّ بمستقبلها كلّ الاهتمام.

ـ يظهر أنّكِ تجهلين بأنَّ أخاكِ طردها من الخدمة، لأنّه لم يكن راضياً عنها.

ـ كلا، إنّي لا أجهل ذلك. ولكنَّ أخي لم يكن مستاءً منها، بل كان يرى أنّ المنصب الذي كانت تتولّاه لا يليقُ إلّا بالرجال، لذلك أراد استبدالها وتعيينها في خدمةٍ تريحها. وقد طلب إليَّ يوم زارني أن أقيمها عندي.

ـ أكانت حنّة عارفةً بنوايا أخيكِ بشأنها؟.

ـ لا أظنّ.

ـ إذن لا شكَّ في أنّها فعلت ما فعلته بغية الانتقام.

ـ ألعلّكَ واثقٌ من ذلك؟.

ـ لقد قلتُ لكِ يا سيدتي إنّه لم يبقَ سبيل للشكّ، لا سيّما وأنّ فرارها قد ثبّت جريمتها.

ـ لا ريب في أنّ فرارها يحمل على الشبهات، ولكنّها قد تكون هربت لرعبها.

ـ ما الذي يدعوها إلى الرعب ما زالت بريئة؟ وفوق ذلك فإنّ شراءها البترول لا يدلّ على ثبوت الجريمة فقط، بل على أنّها ارتكبتها بعد التمعّن والتروّي.

ـ ما الذي دعا هذه الشقية إلى الجريمة؟.

ـ الانتقام والسرقة.

ـ ألعلّها سرقتْ؟.

ـ إنّ ذلك لم يثبت بعد، ولكنّه مُرجَّح. لقد قُتِلَ أخاكِ في الرِّواق المؤدّي إلى مكتبه حيث يوجد المال.

ـ وعلى الجملة فإنّكَ لا تتّهم غير حنّة فورتيه؟.

فنظر القاضي إليها نظرة الفاحص، وقال:

ـ إنّهم لم يتهموا سواها، فهل توجسين شكّاً بأحد؟.

ـ أرى بأنّه لا بُدَّ لي يا سيدي من أن أخبرك بكلِّ ما أعلمه وأفكّر به، فقد تداولت مع أخي مداولةً طويلةً يوم جاء لعيادة ولده، فإنّه اخترع آلةً ميكانيكيةً كان يرجو أن ينال منها ربحاً جزيلاً.

ـ هل أطلع أحداً على سرّ هذا الاختراع.

ـ نعم، لقد أطلع عليه رجلاً قد يكون خَطَرَ له أن يستأثر بالاختراع دونه، فارتكب الجريمة لتحقيق أمنيته.

ـ من هو هذا الرجل الذي ائتمنه سرّه؟.

ـ هو جاك جيرود، نائبه في المعمل.

ـ إذا كنتِ تتهمين جاك يا سيدتي فأنتِ مخطئة خطأ عظيماً.

ـ لماذا؟.

ـ لأنّه مات شهيد غيرته، وفي سبيل إنقاذ صندوق أخيكِ.

ـ إذن أرجوكَ أن تعذرني لاتهامه، فإنّي لم أكن عالمةً بموته، رحمة اللّه عليه.

ـ لا سبيل إلى تخطئتكِ، أنا أعذركِ لأنّكِ تحاولين مثلنا معرفة القاتل. هل لديكِ ما تخبرينني به أيضاً؟.

ـ كلا.

ـ إذن أنتِ مطلقة السراح يا سيدتي، وإذا حدث ما يدعو إلى سؤالكِ تشرّفتُ بالكتابة إليكِ.

* * *

لِنَعُد الآن إلى حنّة فورتيه، فإنّها لَقِيت في منزل الكاهن كثيراً من العناية. فبعد أن أكلت مع ولدها، أدخلوها إلى غرفة كي تستريح فيها بالرقاد. وعاد الكاهن إلى قاعة الاجتماع تصحبه أخته وضيفهما المصور، وهم يتحدّثون عن هذه المنكودة من دون أن يعلموا شيئاً من أمرها سوى أنها قادمة من أرتوفيل. وقد اتّفقوا على أنّ هيأتها تدلّ على السلامة، وأنّ الفقر أو الظلم قد دعاها من دون شك إلى المهاجرة مع ولدها. فقرّروا أن يساعدوها بما يتيسر من المال، كي تستعين به على مواصلة سفرها.

وفيما هم يتحدّثون، أقبل ساعي البريد يحمل إلى الكاهن جريدةً كانت تَرِدُ إليه في كلّ يوم. فأخذها وجعل يقرأ فيها، بينما كانت أخته تحادث المصور. وكان أوّل ما

لفت نظره في هذه الجريدة عنوانٌ كُتِبَ بحروف كبيرة، هو «مقتل فظيع». فجعل يقرأ باهتمام حتّى أتى على آخره، ثم صاح صيحة دهشٍ انتبه إليها المتسامران، وسألاه عمّا قرأه فأعاد قراءة المقالة بصوتٍ مرتفعٍ.

كانت هذه المقالة تتضمّن حادثة المعمل بتفاصيلها، واتّهام حنّة فورتيه بالقتل والإحراق. وذكرت الجريدة أوصاف حنّة بالتدقيق، وقالت إنّها هربت مع ولدها الذي يدعى جورج، وهو يبلغ الثالثة من العمر.

دهش الثلاثة دهشةً عظيمةً، لأنّهم أيقنوا أنّ هذه الأوصاف تنطبق على أوصاف المرأة التي لجأت إليهم، لا سيّما وأنّهم عَلِموا بأنّ الغلام ابنها، وأنّه يُدعى جورج. فقالت أخت الكاهن:

ـ لم يبقَ ريبٌ في أنّ هذه المرأة، بل هذه الذئبة المتلبّسة بلباس الحملان، هي صاحبة الجريمة الهائلة.

فقال لها أخوها:

ـ صبراً يا أختي، فإنّها في ضيافتنا ولا يجب أن نتسرّع باتّهامها، وسأعلم حقيقة أمرها.

ـ وإذا كانت مجرمة، أتُسلِّمها إلى القضاء؟.

ـ إنّي لا أشي بها ولا أدعها تُقِيم في بيتي، فليبحث عنها البوليس حتّى يظفر بها.

* * *

صبر الكاهن إلى أن صَحَتْ حنّة من رقادها، فاجتمع بها وقال لها:

ـ أرجو أن تكوني قد استرحتِ من عناء السفر.

قالت:

ـ نعم يا سيدي، فقد عادت إليَّ قِواي بفضلكَ.

ـ وبِتِّ قادرةً على مواصلة السفر، أليس كذلك؟.

فاحمرّ وجه حنّة وتلعثم لسانها، ولم تستطِع الجواب. فقال لها الكاهن:

ـ أظنّ بأنّك لم تحضري إلى هذه القرية بغية الإقامة فيها؟.

فأجابته بصوت مضطرب:

ـ بل هذا كان قصدي يا سيدي، فإنّي حين طرقتُ بابكَ كنتُ قادمةً لأتوسّل إليكَ أن تسعى لي بعمل يساعدني على القيام بأود ولدي وابنتي.

ـ ألكِ ولدان؟.

ـ نعم يا سيدي، أحدهما ولدي جورج الذي رأيته معي، والثاني ابنة تبلغ عاماً من العمر، وهي عند مُرضِعٍ في الريف.

ـ وأين أبُ ولديكِ؟.

ـ لقد مات.

ـ إذن أنتِ أرملة؟.

ـ نعم يا سيدي.

ـ ولكنّي لا أستطيع أن أجدَ لكِ عملاً إلّا إذا عرفتُ من أنتِ، فهل لديكِ أوراق رسمية تدلّ على اسمك، وشهادات تدلّ على سابق خدماتك؟ إنّك غريبة في هذه القرية، ولا يمكن إدخالكِ في خدمة أحدٍ من دون هذه الأوراق.

ارتجفت حنّة ولم تعلم بماذا تجيب، فلم يخفَ اضطرابها على الكاهن، وقال لها:

ـ ماذا تُدعَين؟.

ـ حنّة.

ـ وما اسم عائلتكِ؟ كنتِ متزوجةً، ولا بُدَّ أن يكون لك اسم عائلة.

ـ حنّة فورتيه.

ـ وأنتِ قادمةٌ من الفورتفيل؟.

فوقفت حنة مطربة وقالت:

ـ يظهر أنّكَ عارفٌ بجليّة الأمر.

ـ نعم أيتها الهاربة المنكودة. إنّي واقف على الحقيقة، وأعلم أنّ البوليس يبحث عنكِ في كلِّ مكان.

ـ لماذا يبحث البوليس عني؟ وبماذا يتهمونني؟.

ـ بإحراق معمل لابرو، وقتل صاحب المعمل.

ـ ولكنها تهمة زور! أُقسِمُ باللّه الذي يسمعني، وبولدي الذي لا أحبّ سواه في هذا الوجود، بأنّي بريئة من هذه التهمة.

تأثّر الثلاثة للهجتها لما تبيّنوه من صدقٍ فيها، ونظر كلٌّ منهم إلى الآخر. ثم التفتَ إليها الكاهن وقال:

ـ إذا كنتِ بريئةً كما تقولين، فماذا دعاك إلى الهرب؟.

ـ لماذا هربتُ؟... نعم إنّك مصيبٌ في اعتراضكَ، وهذا الذي يُرجِّح ثبوت التهمة عليّ. ولكنّي هربتُ لأنّه كان لديَّ برهانٌ جليٌّ على ثبوت براءتي.

ـ وأين ذهب البرهان؟.

ـ التهمته النار في ما التهمتْ. سأخبركَ يا سيدي بكلِّ ما اتّفق، فإنّ جميع الأدلّة تُثبت التهمة عليَّ، ولكنّي بريئة.

ـ كيف يمكن يا ابنتي أن أثق بما تقولين؟.

ـ لا شكَّ عندي في أنّ ذلك صعب، ولكنّي أتوسّل إليكَ يا سيدي أن تسمع حكايتي، ثمّ احكم عليَّ بما تشاء.

قصّت حنّة عليه بصوت يضطرب حكايتها، منذ قُتِلَ زوجها بانفجار في المعمل، إلى غرام جاك جيرود بها. وذكرتْ له أمر تلك الرسالة التي كتبها إليها، والتي يسألها فيها موافقته على الفرار. وأخبرته كذلك بما اتّفقَ لها حين

رأت الحريق وأسرعت إلى المعمل، فرأتْ جاك جيرود ورأتْ بجانبه جثة صاحب المعمل، إلى آخر ما عَلِمه القراء من أمرها.

ولمّا أتمّت حكايتها قالت له:

ـ لم أعلم إلى الآن معنى رسالته، وتلك الثروة التي كان يعرضها عليّ هي ثروة ذلك المنكود لابرو، التي كان عازماً على اختلاسها. أمّا سبب هربي فهو أنّي حين رأيتُ الجناية الفظيعة التي حدثتْ، وحين سمعتُ هذا الرجل يدعوني إلى الفرار معه، أو ينذرني بإلصاق التهمة بي، وحين رأيتُ أنّ النار التهمتْ غرفتي وذهبتْ تلك الرسالة التي هي كلّ براهيني على أنّه هو الجاني... حين رأيتُ ذلك كلّه كبر عليَّ الأمر، فهربتُ وأنا لا أعلم ماذا أفعل، ولا إلى أين أسير، فكان فراري أعظم مؤيّدٍ لتهمتي.

بعد أن أتمّت حديثها، قال لها الكاهن وقد وَثِقَ من صدقها:

ـ إنّ الأم التي تحلف بولدها لا تكذب، وقد وثقتُ من صدق قولكِ، إنّما أشكل عليَّ موت جاك جيرود. فقد قرأتُ في الجريدة أنّه مات بالنار شهيد غيرته، لأنّه اخترق عبابها كي ينقذ صندوق رئيسه. فإذا كان هو السارق وهو القاتل، فكيف يخاطر بحياته إلى درجة أن يموت بالنار؟.

قالت:

ـ أهو يموت؟... أهو يذهب شهيد غيرته؟... إنّ ذلك لا يحتمل التصديق.

ـ ولكنَّ الجرائد روت هذا الخبر، نقلاً عن سجل البوليس.

ـ إذن قُضِيَ عليَّ قضاءً مبرماً! فإذا كان جاك جيرود مات كما يقولون، فلا توجد قوة في الوجود تنقذني من التهمة والعقاب، إذ لم يكن لي غير رجاء واحد وهو أنّ ذلك الشقي الأثيم لا يجسر على إنكار جريمته أمامي. وقد مات هذا الأثيم، فماتت بموته آمالي.

ـ سكّني روعك يا ابنتي فإنك أخطأت دون شك بفرارك إذ كان يجب أن يجدوك في المعمل لأنك حارسة له فكان فرارك خطأ لا جريمة وما عدا ذلك فأنت بريئة كما يدل صوتك وعيناك.

ـ ولكنَّ القضاء لا يسمع هذا الصوت، ولا ينظر هذه النظرات.

ـ يجب أن تسرعي إلى القضاة من تلقاء نفسكِ، وتخبريهم أنّكِ بريئة. لا أدري ما يكون من تأثير ذلك عليهم، ولكنّي أرجو أن يحملهم على الاعتقاد ببراءتكِ.

ـ ولكنّي إذا سلّمتُ نفسي ألقوني في السجن، فأفترقُ عن ولدي.

ـ إنّ ذلك لا بُدَّ منه، وا أسفاه! أسرعي يا بنتي إلى تسليم نفسكِ، فإنّ ذلك خيرٌ لكِ من أن يقبضوا عليكِ، وربما كانوا قادمين إليك هنا.

ـ أيقبضون عليَّ هنا في منزلكَ؟.

ـ إنّ منزلي كمنازل بقية الناس.

فبكتْ حنّة بكاءً يحمل على الإشفاق، وقالت:

ـ ولكن ماذا أصنع بابنتي وهي عند المرضع؟ وبولدي وهو معي؟.

ورآها ولدها تبكي، فأسرع إليها وقال لها:

ـ لماذا تبكين يا أمي؟.

فضمّته حنّة إلى صدرها، وجعلت تقبّله وتغسل وجهه بدموعها. وعند ذلك قُرِعَ الباب الخارجي، وسُمِعَ لغطٌ من الخارج اضطربتْ له حنّة، وقالت:

ـ ويلاه، إنّهم قادمون للقبض عليَّ!.

وبعد هنيهة دخل إلى الحديقة نحو عشرين رجلاً، بينهم شيخ القرية وكثيرٌ من الجنود. دنا شيخ القرية من الكاهن، فحيّاه باحترامٍ وقال له:

ـ أسألكَ المعذرة يا سيدي لدخولي إلى منزلك مع الجند، فإنّي قادمٌ باسم القانون.

ذُعِرتْ حنّة لِمَا سمعته وتراجعتْ إلى الوراء، فالتصق

بها ولدها وأمسك بثوبها بإحدى يديه، فيما يمسك بالأخرى الخيط المعلّق به جواده. لفت هذا المنظر أنظار المصور، فأخذ مذكِّرةً بما رآه.

أمّا الكاهن فأجاب شيخ القرية قائلاً:

ـ إنّي أعلم السبب الذي أتيتم من أجله؛ إنّكم قادمون للقبض على امرأة تدعى حنّة فورتيه.

ـ هو ذاك يا سيدي. إنّها متهمة بثلاث جرائم؛ هي الحريق والسرقة والقتل.

مَشَتْ حنّة إلى الشيخ وقالت له:

ـ ذلك كذب وافتراء! إنّي بريئة.

ـ ليس من شأني الحكم في براءتك، فإنّ ذلك شأن القضاء. فهل أنتِ هي حنّة فورتيه؟.

ـ نعم، أنا هي.

ـ أما كنتِ حارسةَ معمل جيل لابرو في فورتفيل؟.

ـ نعم.

أشار الشيخ إشارةً إلى زعيم الجنود، الذي وضع يده على كتفها وقال لها:

ـ إنّي أقبض عليكِ باسم القانون.

فأجابته حنّة بلهجة القنوط قائلةً:

ـ ليقبضوا عليَّ وليزجّوا بي في أعمق السجون، وليحكموا عليَّ بالإعدام. ولكن ذلك كلّه لا ينفي براءتي أمام نفسي وأمام الله.

فأمر الزعيم جنوده أن يوثقوا يديها.

فذعرت وقالت:

ـ كلا، كلا. لا أريد أن أكون موثقة اليدين.

فجعل الطفل يبكي، وقال لها الكاهن:

ـ لا تقاومي يا ابنتي وامتثلي للجنود، فهذا حكم القانون.

أوثقوا يديها وأمروها بالمسير، فتعلّق بها ولدها وجعل يناديها ويقول:

ـ لا تذهبي يا أمّاه فإنّي خائف.

ـ لا تبكِ يا بني وتعال معي.

فاعترضها زعيم الجند قائلاً:

ـ كلا، إنّه لا يذهب معكِ.

فرُعبت حنة رعباً لا يوصف، وقالت:

ـ أتفرقونني عن ولدٍ وهو لا يزال طفلاً؟.

ـ ذلك لا بُدَّ منه، فقد صدر إليّ الأمر بالقبض عليكِ وحدكِ، وستذهبين أنتِ إلى السجن وولدكِ إلى ملجأ الأطفال، إلى أن تصدر أوامر أخرى.

فاصفرّ وجه حنّة حتّى بات كوجوه الأموات، وقالت:

ـ ولدي سيذهب إلى ملجأ الأطفال؟.

ثمّ التفتت إلى الكاهن، وبسطت له يد المتوسل وقالت:

ـ ألتمسُ منكَ يا سيدي الكاهن أن تتوسّط في أمري، وأن تخبر هؤلاء الجنود أنّ الأم يستحيل أن تفترق عن طفلها.

فأجابها الكاهن قائلاً:

ـ يجب أن تمتثلي للقانون يا بنتي، ولا تخشي على ولدكِ فإنّه لا يذهب إلى ملجأ الأطفال، بل سأبقيه عندي إلى أن تثبت براءتكِ كما أرجو. وإذا قدّر الله ولم تستطيعي كشف تلك الظلمات المكتنفة بالجريمة وحُكِمَ عليكِ، فإنّي أتعهّد لكِ بأنّي لن أتخلى عن ولدكِ جورج.

وتقدّمت أخت الكاهن منها، وقالت:

ـ لا تضطربي ولا تبكِ، فإنّ ولدكِ سيجد أمّاً تنوب عن أمه.

فشهقت حنة بالبكاء، وقالت:

ـ ربّاه! أقُضي عليّ ألّا أرى ولدي؟... ربّاه، إنّي بشر وذلك فوق قدرة البشر!.

وكان الولد لا يزال يبكي، فحملته أخت الكاهن وقالت له وهي تعانقه:

ـ إنّ أمّكَ يا بُني محتاجة إلى السفر، ولكنّها ستعود قريباً. فهل تريد أن تبقى معي؟.

ـ أأبقى معكِ ومع الكاهن.

قالت:

ـ نعم.

ـ أرضى إذا رضيتْ أمي ووعدتني أن تعود قريباً.

فقالت حنّة بلهجة القنوط:

ـ خذوه... خذوه. ورجائي أن تحبّوه وأن تذكروا له أمّه دائماً. نعم يا ولدي الحبيب، إنّي أرضى بأن تبقى مع الكاهن المحترم ومع أخته، فإنّهما سيقولان لكَ دائماً إنّ أمك التي تعبدكَ بريئة... أسمعت؟... إنّ أمك تعبدكَ، فلا تنسَها مدى الحياة.

ثمّ أخذته بين يديها فضمّته إلى صدرها، وقبّلته قبلاتٍ أسالتِ الدموع حتّى من عيون الجنود. ودفعته إلى الكاهن ثمّ هربت بسرعة إلى الجنود، كأنّها لم تعُد تطيق أن ترى ولدها.

سار بها الجنود، والمصور واقفٌ ينظر إلى هذا المنظر المؤثر ويقول:

ـ سأصور من هذه الحادثة أبدع رسم، وسيتحدّث به الناس.

* * *

أمّا جاك جيرود، عِلّة هذه النكبة، فإنّه سافر باسم بول هرمان على باخرة تسير من الهافر إلى سوثهامبتون، وذهب منها إلى لندن كي يسافر مع أوّل باخرة إلى أميركا.

قرأ جيرود ما كتبته الجرائد عن حريق المعمل، وعن توهّم الناس أنّه مات فيه، وعن اتّهام حنّة فورتيه، فاطمأنَّ وسُرَّ لهذه النتيجة. فلندعه الآن في مشاغله، ولنَعُد إلى حنّة فورتيه، فنقول:

إنّه حين اتصل بقاضي التحقيق نبأ القبض عليها، أمر بأن يأتوه بها، وتولّى تحقيق حادثتها كما يأتي، فقال:

ـ ما اسمكِ؟.

ـ حنّة فورتيه.

ـ وعمركِ؟.

ـ ستة وعشرون عاماً، فقدت وُلِدتُ في باريس في 15 أكتوبر (تشرين الأول) سنة 1853.

ـ هل أنتِ متزوجة؟.

ـ إنّي أرملة. وكان زوجي ميكانيكياً في معمل المسيو لابرو، الذي يتّهمونني بأنّي أحرقتُ معمله وقتلته وسرقتُ ماله.

ـ إنّكِ عالمةٌ بما يتّهمونكِ، فبماذا تجيبين؟.

ـ بكلمة واحدة وهي أنّي بريئة.

ـ إذا كنتِ بريئة كما تقولين، فلماذا هربتِ من المعمل مع ولدكِ، بدلاً من أن تستنجدي حين شبّت النار؟.

فسكتت حنّة ولم تُجِب.

فقال لها القاضي بلهجةٍ دلّتْ على نفاد صبره:

ـ ما بالكِ لا تجيبين؟.

ـ وأيُّ فائدةٍ من الجواب؟ فإنّكَ لا تثق بصدقي.

ـ ذلك لأنّكِ ستكذبين.

ـ كلا، بل لأنّ الحقيقة غير واضحة، وكلّ الأدلّة تثبت تهمتي. وكيف تثق بكلامي إذا لم يكن لديَّ حجّة تؤيده، لا سيّما وأنّكَ تعتقد بأنّي مجرمة وأنا بريئة؟.

ـ أتنكرينَ أنّكِ قتلتي صاحب المعمل؟.

ـ أنكر كلّ الإنكار.

ـ أتنكرين أيضاً أنّكِ كنتِ تكرهينه؟.

ـ من دون شك، ولماذا أكرهه؟.

ـ لأنّه طردكِ.

ـ كلا يا سيدي، إنّه لم يطردني ولكنّه قال لي إني لا أصلح لحراسة المعمل، وأنّه سيعينني في منصبٍ آخر.

ـ ألم تحقدي عليه بسبب موت زوجكِ في معمله؟.

ـ كيف أحقد عليه بسبب موتٍ لم يكن عليه شيء من

التَّبِعة فيه؟ وفوق ذلك فإنّ المسيو لابرو كان لي خير نصير بعد وفاة زوجي.

ـ أتنكرين أيضاً أنّكِ أحرقت المعمل؟.

ـ أنكر الإحراق كما أنكر القتل، فإنّي بريئة من هذا الذنب الفظيع.

ـ هاتي برهانكِ إنّ كنتِ صادقة.

ـ كيف تريد أن أبرهن؟.

ـ بدحض الأدلة التي تُثبت جريمتكِ، فإنّكِ اشتريت البترول مرتين في يومين، وأفرغته من الآنية إلى الزجاجة.

ـ هذا أكيد.

ـ وقد وُجِدتْ هذه الزجاجات فارغة في معمل الخشب وفي المكتب، بعد أن أفرغتِ ما كان فيها فوق الخشب.

ـ ذلك زورٌ أنكره كلّ الإنكار.

فنظر إليها القاضي نظرة ثانية من دون أن تخفض عينيها، وقال:

ـ إنّكِ كسرتِ الصندوق لتسرقي ما فيه، وقد عاد صاحب المعمل من دون أن تتوقعي قدومه، فقتلتيه لأنّه فاجأكِ.

ـ إنّ اليد التي وضعت البترول هي اليد نفسها التي قتلت، ولكنّها ليست يدي.

ـ أتحاولين إقناعي أنا؟.

ـ لقد قلتُ لكَ من قبل يا سيدي إنّكَ لا تثق بأقوالي.

ـ ألم تُنذِري لابرو قبل الحادثة بقولكِ «إنّ ذلك لا يعود عليك بالخير؟».

ـ نعم.

ـ ألم تكوني في مكتبه حين جاءه أمين الصندوق وأعطاه مائتي ألف فرنك، فوضعهما في صندوقه أمامك؟.

ـ نعم.

ـ إذن لقد سمعتِ الحديث، وعرفتِ بوجود المال في الصندوق.

ـ هو ذاك. وإنّي أذكر ما سمعته من أمين الصندوق، فهو لم يقُل مائتي ألف فرنك، بل كان يوجد أيضاً مائة فرنك وعشرون سنتيماً.

فأجابها القاضي بلهجة المتهكّم:

ـ إنّ ذاكرتكِ جيدة، وما تولَّدَ الذنب إلّا من هذه الذاكرة.

ـ ألا يمكن أن أذكر هذه الأرقام من دون أن يكون قصدي سرقة المال؟.

ـ ولكنَّ فراركِ كان من أشدّ الأدلة على جريمتكِ.

ـ لا تقل إنّ الجريمة دفعتني إلى الفرار، بل قُل الضعف، فقد راعني ما سمعته من وعيد القاتل.

ـ أتدّعين أيضاً أنّكِ تعرفين القاتل؟.

ـ نعم، وهو جاك جيرود.

ـ نائب رئيس المعمل؟.

ـ هو بعينه.

هزّ القاضي كتفيه، وقال:

ـ لو اتهمتِ غير هذا الرجل لأمكن النظر في التهمة، ولكنّكِ تتهمين رجلاً مات شهيد إخلاصه بالنار.

ـ نعم، لقد علمت أنّه مات.

ـ أتجسرين بعد ذلك على اتهامه؟.

ـ إنّي أجسر على قول الحق.

ـ ولكنّه قولٌ لا برهان عليه.

ـ لقد كان لديَّ برهان.

ـ ماذا جرى له؟.

ـ احترق بالنار حين احترق المعمل.

ـ تريدين القول إنّه ليس لديكِ برهان.

ـ هو ذاك يا سيدي، ولكن هل تريد أن تصغي إليَّ؟.

ـ قولي، فإنّني مُصغٍ.

فرَوَتْ له عند ذلك جميع ما اتّفق لها، كما روته للكاهن. ولكنَّ القاضي لم يثق بصدقها كما وثق الكاهن، وقال لها:

ـ لا عجب من حُسنِ اختراعكِ، فإنّ من يرتكب مثل

جرائمك لا يعجز عن التلفيق. ولكنّي أعجب، على ما أراه من سلامة عقلكِ وزلاقة لسانكِ، كيف أنّكِ تعثرين بمثل هذا الكتاب الذي أرسله إليك جاك جيرود، ثمّ تضربين به عرض الحائط وتلقيه إلى الأرض من دون اكتراث؟ ثمّ إنّي أعجب كيف أنّكِ تقولين إنّ صاحب المعمل كان محسناً إليكِ، ثمّ ترين رجلاً يقتله في معمله المحترق فلا تمدّين يد العون لنجدته ولا تستغيثين، ولكنّكِ قلتِ في نفسك إنّ جيرود قد مات فسأتّهمُهُ، عسايَ أنجو من القانون.

فعضّتْ حنّة يدها من اليأس، وقالت:

ـ إنّني طالما قلتُ في نفسي ما تقوله لي الآن، فإنّي أعلم أنّه ليس لديَّ برهانٌ على براءتي غير ما تدلّ عليه لهجتي من الصدق، فإذا كنت لم تتأثّر لقولي فقد قُضِيَ عليّ.

ـ من دون شكّ، إلّا إذا انقطعتِ عن الاسترسال في الكذب واعترفتِ بالحقيقة، فقد يرحمكِ القضاة.

ـ لا أستطيع أن أعترف بجريمةٍ لم أرتكبها.

فسئم القاضي سماع أقوالها، وقال لها:

ـ ألكِ ما تريدين إضافته على أقوالكِ السابقة؟.

ـ كلا.

ـ ألا تزالين مُصِرَّةً على إنكاركِ؟.

ـ من دون شكّ.

ـ إذن سأتلو عليكِ إقراركِ كي توقّعي عليه.

وبعد أن وقّعت على إقرارها، ذهبوا بها إلى سجن سانت لازار.

* * *

وكان الكاهن قد أفرغ جهده في التوسّط لها لدى القضاة وإقناعهم ببراءتها، ولكنّه بدلاً من أن يقنعهم ببراءتها كادوا يقنعونه بأنّها مجرمة، فلم يفُز لديهم إلّا بأنّهم أَذِنوا له بأن يربّي ولدها، فعاد إلى أخته حزيناً. وأشفقوا على هذا الطفل إشفاقاً عظيماً، حتّى أنهم اتّفقوا على تبنّيه إذا حُكِمَ على أمه بالسجن لأمدٍ طويل.

وبعد بضعة أيام حُكِمَ على حنّة بالسجن المؤبّد، فأُغمي عليها في الجلسة ولم تستفِق من إغمائها إلّا في سجن سانت لازار، ولكنّها أصيبت بحُمّى جعلت حياتها في خطر.

* * *

والآن، فلنتبع جاك جيرود إلى تلك السفينة التي سافرت به من لندن إلى أميركا.

كان راكباً في الدرجة الأولى، التي فيها كثيرٌ من المسافرين، بينهم رجل كهل أميركي وابنةٌ له حسناء، أُعجِبَ جاك إعجاباً شديداً بجمالها وأدبها، فكان لا ينفكّ عن النظر إليها حتّى احمرّ وجه الصبيّة، وباتت تجتنبه اتّقاءً لتلك النظرات.

وكان بين ركاب الدرجة الثانية رجلٌ من العمال، اختلط بِرُكّاب الدرجة الأولى قبل سفر الباخرة، فأشعل سيجارةً وجعل ينظر إلى المسافرين، بينما كان جاك واقفاً قرب الكهل الأميركي وابنته.

فلمّا عزمت الباخرة على الرحيل، أقبل أحد عمّالها وبيده ورقةٌ كُتِبَ فيها أسماء رُكّاب الدرجة الأولى، فجعل يقرأها بصوتٍ مرتفعٍ. وكلّما ذكر اسماً أجابه صاحبه للدلالة على أنّه من الركاب.

وقد ذكر اسم جمس مورتيمر وابنته نومي، فأجاب الكهل الأميركي وعرف بذلك جاك اسمه واسم ابنته. ثمّ ذكر اسم بول هرمان، وهو الاسم الذي تنكّر به جاك، فارتعش ذلك العامل الذي كان من ركاب الدرجة الثانية، وقال في نفسه:

ماذا أسمع؟... بول هرمان ابن خالي الميكانيكي الذي قيل لنا إنّه مات! فما هذا الاتفاق الغريب؟ ولكنّي عرفتُ ابن خالي على طول اغترابنا، ورأيتُهُ مرّتين، فلا أرى هذا الرجل المدعوّ باسمه يشبهه في شيء. فهل ذلك من قبيل الاتفاق بالأسماء، أم أنّ هنالك سراً خفياً؟.

* * *

وعند ذلك ذكر عامل السفينة اسم أوفيد سوليفو، وهو

اسم هذا العامل الذي نحن بصدده، فأجابه بما يدلّ على حضوره. ثمّ رفعت الباخرة مراسيها، وأقلعت من الميناء.

استاء سوليفو استياءً عظيماً لانفصاله عن ركاب الدرجة الأولى، ثمّ ضرب جبينه بيده كمن تذكّر أمراً، وقال:

إنّ ركاب الدرجة الثانية لا يحقّ لهم الذهاب إلى أماكن ركاب الدرجة الأولى، ولكنَّ هؤلاء يستطيعون المجيء إلينا. وعلى ذلك، فإنّي أرسل إلى بول هرمان من يُخبره باسمي، فيحضُر إليَّ.

وأقام كلٌّ من الركاب في غرفته. وسافرت الباخرة وسوليفو جالس يفكّر في هذا الاتفاق الغريب.

ثمّ صعد إلى ظهر السفينة، ودنا من المكان المخصّص لركاب الدرجة الأولى، وأقام ينتظر إلى أن اتّفق صعود ذلك الكهل الأميركي، فناداه بملء الأدب وقال له:

ـ أيأذنُ لي سيدي بأن أُثقِل عليه برجاء؟.

ـ تفضّل بقول ما تشاء.

ـ يوجد رجل بين ركاب الدرجة الأولى، ذُكِرَ اسمه بين أسماء المسافرين ساعة السفر، وهو اسم ابن خالٍ لي كُنّا نحسبه ميتاً. ولمّا كان نظام الباخرة لا يسمح لركاب الدرجة الثانية بالذهاب إليكم، فرجائي إليكَ أن تُخبره بأمري كي يأتي إليّ!.

ـ ماذا يدعى ابن خالك؟.

ـ بول هرمان.

ـ وأنتَ؟.

ـ أوفيد سوليفو.

ـ حسناً، أنا ذاهبٌ إليه في الحال!.

نزل الأميركي إلى القاعة العمومية، وسأل أحد موظفي الباخرة أن يُخبر بول هرمان بما انتُدِبَ إليه.

كان جاك جالساً في القاعة يقرأ معددات الكلم في كتاب إنكليزي، فلمّا دنا منه العامل وسأله إذا كان المدعو بول هرمان، ارتعش وقال له:

ـ نعم أنا هو، فماذا تريد؟.

قال:

ـ لا شيء يا سيدي سوى أنّ رجلاً من ركاب الدرجة الثانية يريد أن يراك.

قال:

ـ إنّي لا أرى أحداً من ركاب الباخرة، فمن هو هذا الرجل؟.

قال:

ـ إنّه يدعى أوفيد سوليفو، وهو ميكانيكي فرنساوي

وُلِدَ في ديجون من أعمال شاطئ الذهب، ويقول إنّكَ ابن خاله، وإنّه كان يحسبكَ ميتاً.

ـ ابن عمتي!... أوفيد سوليفو؟!.. حسناً، سأذهب إليه.

خرج جاك من القاعة، ولكنّه بدلاً من أن يصعد إلى ظهر السفينة ذهب إلى غرفته كي يخفي اضطرابه، وجعل يقول في نفسه:

ما هذا الاتفاق؟ أحقيقةٌ أنّ أوفيد سوليفو هو ابن عمّة بول هرمان الذي مات وتنكّرتُ باسمه؟ نعم! إنّي أتذكّر أنّ أم بول كانت من عائلة سوليفو، وأوراقه معي؛ فلأراجعها!.

وراجع أوراق بول هرمان، فوجد أنّ أمه من عائلة سوليفو حقّاً، فقال في نفسه:

والآن ماذا أصنع؟ إذا لم أذهب إلى لقائه وَلّدتُ في نفسه الشكّ، حتّى إنّه قد يستقصي عنّي ويفضح أمري. لا بُدَّ لي من أن أتلبّس بلباس الجرأة، وأن أذهب إليه فأُقنعه بأنّي بول هرمان. ولكن كيف يمكن ذلك وهو يعلم يقيناً بأنّ قريبه قد مات؟ في كلّ حال، إنّ نكد طالعي قاد هذا الرجل إليَّ، ولا بُدَّ لي من أن أراه.

ثمّ مسح العرق الذي كان ينصبّ من جبينه، وذهب إلى لقاء سوليفو. ولمّا رآه سوليفو بادره بقوله:

ـ أشكركَ لتلطّفكَ بالمجيء إليَّ، فإنّي وإن أكن لم أرَكَ

منذ عهد بعيد، فقد بِتُّ واثقاً من أنّ قلبي لم يخدعني، فإنّكَ بول هرمان، أليس كذلك؟.

ـ من دون شكّ.

ـ أأنت هو بول أونوريه هرمان، المولود في ديجون، وابن سيزار هرمان؟.

ـ وابن كلير سوليفو.

ـ أخت أبي؟.

ـ إذن أنتَ ابن خالي؟.

ـ إنّي لا أستطيع أن أصِفَ فرحي بلقياك، فقد كنّا نعتقد بأنّك من الأموات.

فضحك جاك وقال:

ـ كيف اتّصل بكم هذا النبأ؟.

ـ جاء أحد العمال من باريس إلى ديجون، فأقنع أمّكَ أنّكَ مُتَّ في المستشفى. فحاولت المنكودة أن تكتب إلى ذلك المستشفى لتتبين الحقيقة، ولكنّها أصيبت بالسكتة الدماغية لحزنها، وعاجلها الموت فماتت بعد موت أبيكَ بعامٍ، ولا بُدَّ أن تكون عارفاً بكل ذلك.

ـ نعم، نعم. لقد عرفتُ ذلك في حينه، فحزنتُ حزناً لا يوصف.

ـ ولقد ذهبتَ من دون شكّ إلى ديجون، وورثتَ ما خلّفته لكَ أمّكَ، ولكنّه مال قليل فيما أظنّ.

ـ هو ذاك، فلسنا من الأغنياء كما تعلم.

ـ ولكنَّ القليل خيرٌ من العدم. أمّا أنا فإنّي لم أرث شيئاً.

ـ كيف ذلك؟ أمات أبواك؟.

ـ منذ عامين، بحيث لم يبقَ أحد في المدينة من عائلة سوليفو سواي. كما أنّه لم يبقَ أحد من عائلة هرمان سواك. أتذكّر أنّي لم أركَ ولم تَرَني منذ ستة أعوام، ولو لم يُذكر اسمكَ أمامي لما عرفتكَ. ولكن ما هذا التغيّر الذي طرأ عليك بعد اجتماعنا الأخير في مرسيليا؟ وما هذه النعمة البادية آثارها عليكَ من ملابسكَ؟ فهل أثريت بعد افتراقنا؟.

ـ لستُ من أهل الإثراء، ولكنّي لا أشكو من حالتي، فقد توفّقتُ إلى اختراعٍ تمكّنتُ به من كسب شيءٍ من المال.

ـ لا أستغرب أن تكون من أهل الاختراع، فإنّي أذكر أنّك كنت أحذقنا في مدرسة شالوم، ثمّ في مدرسة الصنائع والفنون.

ـ نعم، إنّي لا أزال أذكر أيام هذه المدرسة. والآن أخبرني بماذا تشتغل؟.

ـ بمهنتي ذاتها.

ـ ما هي مهنتك؟.

ـ كيف ذلك؟ أنسيتَ مهنتي؟ ألا تعلم أنّي ميكانيكي؟.

فعضّ جاك شفته وقال:

ـ اعذرني، فإنّي مشتت البال.

ـ ذلك يتفق كثيراً.

ـ وإلى أين تسافر؟.

ـ إلى نيويورك لأشتغل بمهنتي نفسها.

ـ أترجو أن تجد عملاً فيها بسهولة؟.

ـ لا حاجة إلى إيجاده فقد وجدته، لأنّي سأشتغل في معمل رجل أميركي يدعى جمس مورتيمر.

ـ أتعرفه؟.

ـ أعرفه بالنظر، فهو ذلك الرجل الكهل المسافر على الباخرة، الذي كنتَ واقفاً بقربه وقرب ابنته الحسناء.

ثمّ قهقه ضاحكاً وقال:

ـ رأيتكَ تنظر إليها نظرة المفتون، وأعجبني ذوقكَ، فإنّها أجمل من مرغريت.

ـ من هي مرغريت؟.

ـ أنسيت مرغريت إيتا التي كانت مفتونةً بحبكَ؟.

فضحك جاك ضحكاً مغتَصَباً، وقال:

ـ كدت أنسى هذه الحادثة لتقادم العهد بها.

فدُهش سوليفو، وقال في نفسه إنّه نسي هذه الفتاة مع أنّ حبّه لها غير بعيد كما يقول. وأراه ينسى كلَّ أمرٍ، حتّى أنّه نسي مهنتي، فكيف ذلك؟

وقد رأى جاك اندهاشه، وعَلِمَ أنّه أخطأ خطأً ثانياً، فأسرع إلى تغيير الحديث، وقال:

ـ إذن أنتَ ذاهب إلى نيويورك للاشتغال في معمل جمس مورتيمر؟.

ـ هو ذاك، فقد اتّفقتُ مع وكيله، وجعلنا مدة الاتفاق ثلاثة أعوام. ويظهر أنّ جمس هذا من المخترعين، وقد توفّق إلى اختراع آلةٍ للصقل على طرز جديد سيكون لها شأن.

فارتعش جاك وقال له:

ـ آلة للصقل!.

ـ نعم، ولا بُدَّ أن تكون عارفاً بهذه الآلات، فإنّكَ اشتغلتَ بها في جنيف.

ـ هو ذاك، فإني أعرف دقائقها.

ـ وأنا أيضاً، ولذلك اتفقوا معي على راتبٍ قدره خمسمائة فرنك في الشهر.

ـ ما هي هذه الآلة؟ متى اخترعها الأميركي؟.

ـ إنّه لم يخترع، ولكنّه أصلح الآلات المعروفة.

ـ أتعرف تلك الإصلاحات التي أدخلها؟.

فأخبره بكل ما عرفه، ثمّ قاله له:

ـ أتريد أن أنصحكَ أيها القريب العزيز؟.

ـ بماذا؟.

ـ بأن تشارك هذا الرجل، فإنّكَ من أهل الاختراع كما تقول، ومن أهل اليُسر كما أرى، وهو من أغنى الأغنياء، فإذا شاركته فقد تتوفق إلى الزواج بابنته.

كان يحدّثه وهو ينظر إليه نظرة الفاحص. نزع جاك قبعته في تلك الساعة ليمسح العرق عن جبينه، وكان قد صبغ شعره منذ خمسة أيام وأوشك تأثير الصباغ أن يزول، فرأى سوليفو كلَّ ذلك، ولم يبقَ لديه شكٌّ في أنّ الرجل ينتحل اسم ابن خاله؛ فشعر قريبه كان أسودَ قاتماً.

قال في نفسه: لم يبقَ لي بُدٌّ من معرفة حقيقة أمر هذا الرجل.

أمّا جاك فصافح سوليفو واستأذن بالانصراف، على أن يقابله في فرصةٍ أخرى. ثمّ انصرف وهو يقول في نفسه: لا ريب في أنّ الرجل قد شكَّ بي كما رأيت من نظراته، وإذا كان ريبه الآن ضعيفاً فلا بُدَّ أن يشتدّ، وهناك الخطر.

أما سوليفو فقد أشعل سيجارة، وجعل يسير ذهاباً وإياباً على ظهر الباخرة وهو يقول:

كيف ذلك؟ إنّه لم يتذكّر أنّي ميكانيكي، ونحن نشتغل في مهنةٍ واحدةٍ! ولا يتذكّر سابق غرامه بمرغريت، وقد تحدّث الناس بأمرهما أعواماً! وشعره أشقر ولكنّه يصبغه،

في حين أنّ شعر بول أسود! وقد أصبح من أهل الثروة في ستة أعوام، ولا سبيل للعمال إليها في مثل هذا العهد القريب!... إذن لا شكَّ في أنّ هذا الرجل ينتحل اسم قريبي لشأنٍ سرّيّ، لا بُدَّ لي من الوقوف عليه، فهي فرصة يجب أن أغتنمها. لو كنتُ قادراً على السفر في الدرجة الأولى لَمَا فاتني شيءٌ من أمره، ولكن هذه هي الفرصة قد دَنَتْ.

ذلك أنّه رأى رجلاً يبلغ الخامسة والستين من العمر، يصعد إلى السفينة وهو يحمل كيساً من الجلد، فقال في نفسه:

إنّي أعلم ما يوجد في هذا الكيس، فقد فَتَحَهُ أمامي ورأيتُ فيه نحو ستين ألف فرنك من الأوراق المالية. فإذا تمكّنتُ من سرقة هذا الكيس، أخذتُ ما فيه وألقيتُهُ إلى البحر، فتمكّنتُ عند ذلك من مرافقة قريبي العزيز والسفر في الدرجة الأولى.

ثمّ جعل يسير ذهاباً وإياباً وقد لفت نظره رجلان، كانا مستندين إلى حافة الباخرة وهما يتحدّثان بصوت منخفض. وكان أحد الرجلين من أهل كندا، والآخر شاب يبلغ الخامسة والعشرين من عمره.

وقف بجانبهما وأصغى إلى الحديث، فسمع الشاب يقول للكندي:

ـ إذن أنتَ مُصابٌ بالحُمّى منذ عشرة أعوام، ولا يشفيكَ منها غير هذا الدواء؟.

فأجابه الكندي قائلاً:

ـ هو ذاك، فإنّي حين تشتدّ عليَّ وطأتها أشرب خمسَ نقاطٍ من الدواء، فيزول تأثيرها.

ـ ما هو هذا الشراب؟.

ـ هو عصير نبات معروف في جبالنا.

ـ كيف تدعون هذا العصير؟.

ـ إنّ له أسماء كثيرة، بينها إكسير الحقيقة.

وكان الفتى من الأطباء فقال له:

ـ إنّي لم أقرأ شيئاً عن هذا العصير، فكيف دُعي باسم إكسير الحقيقة؟.

ـ ذلك لأنّ له خاصة غريبة، وهي أنّه إذا وُضِعَ منه قَدْرُ ملعقة صغيرة في كأس شراب أو قهوة وشُرِبَ، يصاب شاربه بجنون وقتي يدعوه إلى الإباحة بكلّ أسراره. فإذا زال هذا الجنون، وهو لا يدوم أكثر من ربع ساعة، نَسِيَ شاربه كلّ ما قاله، فلا يذكر شيئاً منه.

فقال له الطبيب:

ـ الحقّ إنّه أغرب ما سمعت.

قال سوليفو في نفسه:

حبّذا لو تمكّنتُ من الحصول على هذا الإكسير، كنتُ سقيتُ منه ابن خالي العزيز، فيخبرني كيف استحال لون شعره، وكيف أصبح من أهل الثروة.

وعاد الاثنان إلى الحديث وسوليفو إلى الإصغاء، فقال الكندي:

ـ وإنَّ لهذا الإكسير، إكسير الحقيقة، مزايا أخرى، وهو أنّه يشفي الصداع والجراح وآثار الحروق، وكثيرٌ غير ذلك.

فخامر الشّكّ قلب الطبيب، فضحك وقال:

ـ إني أرى لإكسيركَ قوة الآلهة.

قال:

ـ لا تضحك أيها الطبيب، فإنّي لم أقُل لكَ غير الحقيقة. وإنّكَ تستطيع تجربة هذا الإكسير ما زِلتَ من الأطباء.

ـ ولكن أين أجده فأجربه.

ـ ألست ذاهباً إلى نيويورك؟.

ـ نعم.

ـ إذن اكتب هذا العنوان.

أخذ الطبيب دفتراً من جيبه، فأملى عليه الكندي هذا العنوان:

ـ شيشلينو، في شارع الحادي عشر، رقم 24.

فقال له الطبيب:

ـ ما معنى شيشلينو؟.

ـ هو اسم رجل من القرية التي وُلِدتُ فيها، وهو يقيم في نيويورك. وقد برح كندا بعد أن جلب من جبالها هذا الإكسير، وهو يبيعه بمقدار ثقله ذهباً.

ـ إنّه كثير الغلاء، ولكنّي سأشتريه.

سمع أوفيد الحديث، فكتب هذا العنوان وهو يقول في نفسه: وأنا أيضاً سأشتري هذا الإكسير، فأسقيه لقريبي وأعلم حقيقة أمره.

* * *

بينما كان هذا الحديث دائراً بين الكندي والطبيب، كان جاك قد نزل إلى قاعة الاجتماع، ووجد فرصة صالحة لمحادثة نومي ابنة الأميركي، ذلك أنّها كانت تعزف على البيانو أنغاماً فرنسية وهو جالس بقربها.

فلمّا فَرِغتْ من عزفها أظهر استحساناً عظيماً للنغم، ثمّ قال لها:

ـ يظهر يا سيدتي أنّكِ أقمتِ في فرنسا، بل في باريس نفسها.

فقالت له:

ـ كيف عرفتَ ذلك؟.

ـ من هذه الموسيقى الشجيّة التي سمعتُها، فإنّي لم أسمعها قبل الآن إلّا في أوبرا باريس، بلدي العزيزة.

ـ أأنت فرنسي؟.

ـ نعم يا سيدتي.

ـ لقد أصبتَ، فإنّي أنا أيضاً سمعتُ هذه النغمة في أوبرا باريس، فطُبِعتْ في ذهني.

ـ يظهر أنّ ذاكرتكِ عجيبة.

ـ إنّي أحفظ كلّ ما يروق لي سمعه، وليس في باريس إلّا ما يروق ويعجب.

ـ ألعلّكِ أقمتِ مدة طويلة في باريس يا سيدتي؟.

ـ ثلاثة أشهر فقط، بحيث أنّي لم أستطع في هذه المدة الوجيزة التمتّع بجميع مناظر عاصمة العواصم. وكنت أودّ أن أقيم فيها عاماً، ولكنّ أشغال أبي قضت علينا بالعودة إلى نيويورك.

ـ وأنا أيضاً يا سيدتي أبرح باريس إلى نيويورك، ولكن من دون أسف، فإنّي ميكانيكي، وأنا مسافر إليها لدرس ما يتعلّق بصناعتي في أشهر معاملها، ولا سيّما معمل مورتيمر.

نظرتِ الفتاة إليه مبتسمةً، وقالت:

ـ أتعني به معمل جمس مورتيمر؟.

ـ نعم يا سيدتي، فإنّ لصاحب هذا المعمل شهرة عظيمة في أوروبا، وهم يعتبرونه من النوابغ.

ـ أتعرف هذا الرجل الذي تُثني عليه هذا الثناء؟.

ـ كلا يا سيدتي، وكيف أعرفه وهذه هي المرة الأولى التي أسافر فيها إلى أميركا؟.

ـ ألعلك تريد زيارته في نيويورك؟.

ـ من دون شكّ، سيكون هو أوّل من أزوره.

فابتسمت نومي أيضاً، وقالت:

ـ إذن سيسرّكَ أن تجد من يعرّفكَ به؟.

ـ لا أجد سروراً أعظم من هذا.

ـ اعلم أنّي أنا سأتولى تعريفكَ به، واعلم أيضاً أنّ جمس مورتيمر يحب الفرنسيين.

ـ إنّي أقبل بملء الامتنان، فهل تعرفيه يا سيدتي؟.

ـ أعرفه وأحبه كثيراً، فهو أبي!.

تكلّف جاك الانذهال، وقال:

ـ أبوكِ يا سيدتي؟!.. حبّذا لو عرفتُ ذلك من قبل.

فضحكت نومي وقالت:

ـ أكنتَ تغيّر أقوالكَ فيه؟.

ـ إنّ أقوالي يا سيدتي لم تُعرّف إلّا عن بعض اعتقادي بهذا الرجل العظيم.

ـ إذن تفضّل يا سيدي بِذِكر اسمكَ.

ـ بول هرمان.

ـ تعالَ معي!.

* * *

وسارت الفتاة مع جاك إلى حيث كان يقيم أبوها مع بعض أصدقائه، فقالت له:

ـ أرجوكَ أن تأذن لي يا أبي بأن أعرّفك برجل مسافر خصيصاً إلى نيويورك للتعرّف بكَ، وهو ميكانيكي مثلكَ، يدعى السيد بول هرمان.

فاستقبله الأميركي بملء الاحتفال. وبعد أن فَرِغا من حديث المجاملات، شَرَعا بحديث الأشغال والآلات، فجعل الأميركي يُطنب بآلة الخياطة التي كانت مشهورةً بأنّها من صنع معمله. وقد أفاض في وصفها وبيان ما رَبِحه منها، حتّى إذا فَرِغ من حديثه، قال له جاك:

ـ إنّي أعرف هذه الآلة التي تتحدّث عنها حق المعرفة، ولكنّها على اشتهارها لا تزال غير تامة.

ـ أتجد فيها عيباً من العيوب؟.

ـ لا أجد فيها غير عيبٍ واحدٍ، هو أنّها ذات صوت يُقلق السمع.

ـ تريد أن تقول إنّ هذه الآلة يجب ألّا يكون لها صوت عند اشتغالها، وهو ما أشتغل به منذ خمسة أعوام من دون أن أظفر منه بنتيجة؟.

ـ ولكنّكَ لم تبحث البحث الأكيد.

ـ ألعلّكَ تمكّنتَ من إصلاحها؟.

ـ ربما.

ـ أتسمح لي أن أسألك كيف ذلك؟.

ـ من دون شك، وسأوضح لك أمر هذا الاختراع بالتفصيل.

ثمّ شرح له بالتدقيق كيف أنّه تمكّن من جعل هذه الآلة صامتة، فدهش الأميركي لما سمعه وقال له:

ـ إنّ اختراعكَ جليل، وعندي أنّه يجب أن تدعو هذه الآلة بالآلة الصامتة.

قال:

ـ بل إنّي أعاهدك على ألّا أبوح بهذا السر لأحد، وسأتخلّى لكَ عن أرباح هذه الآلة، فإنّها مدعوّة باسمكَ.

ـ ذلك أمر لا أقبله على الإطلاق.

ـ لماذا؟.

ـ لأنّ هذه الآلة ستأتي بأرباح عظيمة.

فابتسم جاك وقال:

ـ أظنّكَ تبالغ يا سيدي. ولكن على افتراض أنّ أرباحها ستكون كما وصفتَ، فإنّي لا أرجع عمّا تعهّدتُ به.

فقال الأميركي في نفسه: الحقّ أنّه حاذق نبيل، فلو كان شريكي على حذقه وذكائه، وتولّى إدارة معملي، لبلغتُ به أقصى غايات الفوز.

ثمّ قال له بصوت مرتفع:

ـ لا فائدة من الإلحاح، فإنّي لا أقبل اقتراحكَ إلّا بشرط.

ـ ما هو هذا الشرط؟.

ـ هو أن تشترك بأرباح هذه الآلة، التي اخترعتُها أنا وأتممتَها أنت.

فهز جاك رأسه وقال:

ـ إنّي أشكركَ لتبرّعكَ هذا، ولكن أيُّ فائدة من الاشتراك بهذه الأشغال الطفيفة؟ وفوق ذلك، فإنّي لا أعلم إذا كنت سأقيم في أميركا.

فقالت له الفتاة:

ـ ألعلّكَ انثنيتَ عن عزمكَ؟ فلقد قلتَ لي كما أذكر أنّكَ عازم على الإقامة طويلاً بيننا.

ـ إنّ هذا قصدي، ولكنّه يتعلّق بفوزي في بلادكم. فإنّي عازمٌ على الشروع بعمل هام، إذا أفلحتُ فيه فقد أنشئ معملاً في نيويورك.

ـ ألعلّكَ تستحسن مبدئياً إنشاء معمل عندنا؟.

ـ من دون شك.

فأجفل الأميركي، وخشي مزاحمته، فقال له:

ـ ألعلّكَ عازمٌ على الاشتغال باختراع جديد؟.

ـ نعم، وهو اختراع لا علاقة له بشيء في آلات الخياطة، فإنّي أشتغل بآلة للصقل.

وكان جاك قد عرف مقاصد الأميركي من أوفيد

سوليفو، وأنّه يشتغل بمثل هذه الآلة، فكان لكلامه أعظم تأثير على الأميركي. فاضطرب، ولكنّه أخفى اضطرابه، وقال:

ـ إنّ هذه الآلة اخترعوها في جنيف، وهي على أتمّ الإتقان فلا سبيل إلى البحث فيها.

فابتسم جاك وقال:

ـ إنّ الآلة المستعملة في جنيف إنّما تصقل الأجسام المسطّحة، وأما التي اخترعتُها فإنّها تصقل الأجسام المسطّحة والمقعّرة على السواء.

فشعر الأميركي أنّ الدم قد جمد في عروقه، وقال في نفسه: ألعلّه توفّق إلى ما توفّقتُ إليه؟ فإذا اتفق ذلك كان من غرائب الاتفاق. ثمّ قال له:

ـ تُرى أيمكن صقل الأجسام المعقرة كما تقول؟.

ـ ذلك ممكن، بدليل أنّي اهتديتُ إليه.

فاصفرّ وجه جمس، وقال في نفسه: إنّه مزاحم شديد من دون شك، ويجب أن أسرع إلى الاتفاق معه قبل أن يفوز بالسبق.

ثمّ قال له:

ـ أتأذن لي أيها الرصيف أن أكلّمكَ بحرية وجلاء؟.

ـ بل أرجوك.

ـ إذا كنتَ غير مخطئ فيما قلتَ، وهو ما أعتقده لأنّكَ برهنت لي عن ذكائكَ في الصناعة، فقد توفّقتَ إلى اختراع جليل ستنال به ثروة عظيمة في زمن قريب. ولكنّكَ ذاهب إلى نيويورك وأنتَ لا تعرف أحداً فيها، ولا بُدَّ لكَ من التمرّن على أخلاقنا وعاداتنا ومصطلحات عمّالنا، قبل أن تخاطر بمالك في سبيل إنشاء معمل وهو يكلّفك مالاً جزيلاً.

ـ هذا لا ريب فيه، ولكنّي لا أجد طريقة أخرى.

ـ بل يوجد.

ـ ما هي؟.

ـ أن تشاركني، فأعهد إليكَ بإدارة معاملي كلّها، فتبدأ في الحال بصنع آلة الخياطة الصامتة وآلة الصقل، وحينما نصل إلى نيويورك نوقّع على صك الشركة، فيكون لكَ نصف الأرباح، وفوق ذلك فإنّي أعطيكَ الآن حوالة بخمسين ألف ريال على صديقي ريشار دافيدسون، الصرّاف الشهير الجالس بيننا الآن.

فحاول جاك الاعتراض إخفاءً لسروره، ولكنَّ ابنة الأميركي تداخّلتْ بينهما، وقالت له:

ـ أرجوكَ يا سيدي أن تقبل، فإنّكَ إذا رفضتَ الاشتراك مع أبي فكأنّكَ ترفض صداقتنا.

فضحك الأميركي، وقال:

ـ هو ذا ابنتي قد اشتركتْ معي، وهي لا تكتم عنكَ مَيلها إلى صداقتكَ، فإنّنا هكذا نربّي بناتنا في أميركا. ولو لم تكن قد أثّرتَ عليها بأدبكَ لَمَا قدّمتْكَ إليَّ. أليس كذلك يا ابنتي؟.

فقالت:

ـ نعم.

ـ أتقبل إذن شراكتي أيها الرصيف؟.

ـ إنّ صداقة سيدتي خيرٌ عندي من كنوز الأرض.

فصافحه الأمريكي قائلاً:

ـ هو ذا شراكتنا قد عُقِدتْ، فقُل لي الآن: هل أنتَ متزوَج؟.

فاحمرّ وجه نومي، وابتسم جاك فقال:

ـ كلا يا سيدي.

ـ إذا سأخصّص لكَ قسماً في منزلي فتقيم فيه. أتقبل؟.

قال:

ـ أقبل يا سيدي، مع الشكر. ولا أدري كيف أعرب لك عن امتناني.

ثمّ قال في نفسه: لا تمضي ثلاثة أشهر حتّى أكون صهر هذا الأميركي الغني.

انقضى ذلك النهار، وجاك مع شريكه الجديد وابنته في أتمّ السعادة. لم يكن ينغّص على جاك نعيمه غير خيال أوفيد سوليفو، الذي كان يمرّ في ذاكرته من حينٍ لآخر.

* * *

في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم الثاني، كان الأميركي وابنته وجاك مجتمِعِين في القاعة العمومية يتحدثون. وكان حديثهم مقتصر على الشركة الجديدة، حتّى إذ فرغوا من ذاك الحديث صعدوا إلى ظهر السفينة للنزهة. وكان ظهر السفينة غاصّاً بالمسافرين، إذ صعدوا جميعهم للتفرج على باخرة عائدة من أميركا إلى أوروبا، وهي مارّة بالقرب من سفينتهم.

أمّا جاك فإنّه غادر الأميركي وابنته، اللذين كانا ينظران إلى السفينة، وذهب للبحث عن أوفيد سوليفو.

رآه بعيداً وهمّ بالذهاب إليه، ولكنّه توقّف فجأةً، إذ رأى سوليفو واقفاً وراء رجل، ورأى في يده خنجراً يحاول أن يخفيه.

ارتاب جاك في أمره، وجعل يراقبه. فرآه قد رفع رداء الرجل، وجذب كيساً من الجلد معلقاً بمنطقته.

قال جاك في نفسه: يظهر أنّ هذا القريب العزيز قد أضاف إلى مهنته اللصوصية، وهي خير فرصة للظفر، فكأنَّ الأبالسة قد أقبلت لنجدتي.

وعند ذلك أسرع حتّى بات على بُعد خطوتين منه، وهو لا يراه.

واتّفق في تلك الساعة مرور الباخرة القادمة من أميركا، والتصاقها بالباخرة التي يسافرون عليها، وكلتاهما فرنسيتان، فَعَلَتْ أصوات الباخرة والمسافرين بالتحية.

اغتنم سوليفو هذه الفرصة، وقطع بخنجره رِباط الكيس من دون أن ينتبه صاحبه إلى ما فعل. وأقفل يريد الرجوع إلى غرفته، فاعترضه جاك جيرود، وبادره بقوله:

ـ ماذا فعلتَ أيها اللص؟.

فاصفرّ وجه سوليفو، وقال له بلسان يتلعثم:

ـ ماذا تقول؟.

فقبض جاك على يده، وسار به إلى مكان معتزل، وقال له:

ـ أقول إنّي رأيتُ كلّ ما فعلتَ، وإنّكَ شقي محتال، وإنّي أريد في الحال أن ترجع الكيس الذي سرقته إلى صاحبه، وإنّكَ ارتكبتَ جريمة لا تستطيع أن تلتمس لها عذراً. ولا أدري ما يمنعني من أن أذهب بك إلى رُبّان الباخرة، كي يؤدّبكَ على هذه الجريمة التي دنّستَ بها عائلتنا.

قال:

ـ كلا... إنّكَ لن تفعل، بل إنّكَ ترحم ضعفي.

ـ أيُّ ضعفٍ هذا؟ فقد راقبتكَ ورأيتُكَ تسرق الكيس

من دون أن تضطرب يدكَ، ممّا يدلّ على أنّكَ متمرّن على السرقات من عهد بعيد.

ـ بل هي أوّل مرة! وإنّي أقسم لكَ على صدق ما أقول.

ـ اسكت وأعطني هذا الكيس.

أعطاه الكيس، فقال له جاك:

ـ أتدري ما يوجد في هذا الكيس؟.

فأجابه:

ـ نحو ستين ألف فرنك.

ـ حسناً، انتظرني هنا.

ـ ما تريد أن تفعل؟.

ـ أريد أن أردّ هذا المال إلى صاحبه.

ـ ولكن....

ـ كفى، ولا تَزِد كلمة!.

ثمّ ذهب جاك إلى الرجل الذي سُرِقَ منه الكيس، وقدّم له كيسه، وقال له:

ـ ألعلّ هذا الكيس لك يا سيدي؟.

فمدّ الرجل يداً تضطرب إلى الكيس، وقال:

ـ نعم! إنّه لي، وقد سُرِقَ منّي.

فقال له جاك:

ـ ممّا تشكو بعد أن رُدَّ إليك؟ هذا هو الكيس، فافتحه وابحث إذا كان مالك فيه لا يزال على ما كان عليه.

فأسرع الرجل إلى فتح كيسه، وعَدَّ ما فيه. ثم قال بملء الفرح:

ـ كلا، لا ينقص منه شيء. فإنّ ما فيه يبلغ ستين ألف فرنك، وهذا المال كلّ ثروتي التي جمعتها بعرق الجبين، وقد خصّصتها لابنتي. ولكن كيف وُجِدَ هذا الكيس بيدكَ؟.

ـ تفضل واتبعني لأخبركَ.

ثمّ أخذ بيده، وسار به إلى أوفيد سوليفو، الذي كان يراقب ما يجري وقد صُبِغَ وجهه بصُفرة الموت. فقال له:

ـ هذا هو الرجل الذي سرقكَ.

حاول الرجل أن يتكلّم، فقطع عليه جاك كلامه، وقال له:

ـ إنّي أعرف هذا الشقيّ، وأحبّ أن لا يُقبض عليه، مع أنّه يستحقّ العقاب. ولكنّي أؤثر أن يعترفَ لكَ بجريمته، ويلتمسَ منكَ العفو.

فنظر أوفيد إلى الرجل، وقال له بلهجة المستعطف:

ـ نعم، إنّي أعترف بجريمتي، وألتمس منكَ العفو.

فقال له الرجل بلهجة المحتقِر:

ـ إنّي أصفح عنكَ بشفاعة هذا السيد، فاذهب إلى حيث تريد. ولكنّي سأذكر وجهك السمج. إنّي ذاهب إلى

نيويورك، وأعرف المستر جمس مورتيمر الذي ستشتغل في معمله. لقد أخبرتَني منذ حين عن غايتكَ في السفر، فأصغيتُ إلى حديثكَ وأنا أعتقد أنّكَ من أخيار العمال. على أنّي لا أُنكِر أنّكَ ماهر، ولكنّكَ سافل، وكلمة منّي تكفي لتنبيه رئيسكَ.

فتمتم أوفيد بكلماتٍ لا معنى لها.

ومضى الرجل في حديثه، فقال:

ـ كان يجب عليَّ أن أفعل....

وعند ذلك تدخّل جاك، فقال:

ـ إنّ في ما حدث خيرُ عِبرة له، ورجائي أن تكتم أمر جريمته. وأُعِيد عليكَ القول إنّي أعرف هذا الرجل، وأهله من أخيار الناس، فإذا فضحتَ أمره هتكتَ ستر العائلة.

فأجابه الرجل:

ـ سأكتم أمره حرصاً على شرف عائلته، وإكراماً لكَ، فإنّكَ رددتَ إليّ ثروتي. ولكنّي أريد أن أعرف اسم هذا الرجل، فإذا أبى أن يُخبرني بحثتُ عنه في سجلّ أسماء المسافرين.

فقال له جاك:

ـ يدعى أوفيد سوليفو.

فاصفرّ وجه أوفيد من الرعب، وقال الرجل وقد ذُهِلَ لسماعه ذلك الاسم:

ـ إنّي أعرف هذا الرجل، وأذكر أنّه من عمال شاطئ الذهب. وقد صدر أمر لي مرةً بالقبض عليه في باريس بتهمة السرقة أيضاً.

فجعل جاك ينظر إلى أوفيد وهو مطرق الرأس، لا يجسر على الإنكار، ثمّ قال:

ـ لا أعرف من ماضي هذا الرجل ما تعرفه، ولكنّي احتراماً لعائلته سأتولّاه بحمايتي. وأرجوكَ أن تفي بما وعدتني به من كتمان أمره.

قال:

ـ سأفي بوعدي. إنّي مَدين لكَ بالامتنان، وسأكتم أمره. على أنّه إذا عاد إلى مثل هذه الفعلة المنكرة وعثرتُ به، عاملته من دون إشفاق.

ثمّ مد يده إلى جاك مصافحاً، وقال:

ـ لقد أحسنتَ إليَّ غاية الإحسان يا سيدي، فاذكر أنّكَ تستطيع الاعتماد عليَّ في كلّ شأن. أدعى رينيه بوسك، وأنا فرنسي. كنتُ من ضباط الشرطة، ثمّ أُحِلتُ على المعاش. سأقيم في الشارع الحادي عشر، رقم 56 في نيويورك.

فقال له جاك:

ـ لن أنسى اسمكَ ولا عنوانكَ يا سيدي، وربما اضطررتُ إلى الاستعانة بكَ يوماً ما، فإنّي سأقيم أيضاً في أميركا. والآن أرجوكَ أن تدعني مع هذا الرجل.

فتركه الرجل بعد أن نظر نظرة المحتقِر إلى أوفيد، وبقي جاك مع أوفيد وهو مطرق الرأس، فقال له:

ـ أهذا ما كنتُ آمل أن أراه منكَ؟ لقد لقيتكَ بعد هذا الفراق الطويل اتفاقاً، فإذا بكَ لص ماهر دنّستَ بخصائلك الشائنة عائلةً لم توصم يوماً بوصمة عار.

وكان جاك يتكلّم بصوت مرتفع، فقال أوفيد:

ـ مهلاً أيها القريب! فإنّي لم أُقدِم على ارتكاب هذه الجريمة إلّا وقد أغراني الفقر عليها، فإنّي لستُ من الأغنياء كما تعلم، وقد رأيتُ ثروة هذا الرجل فتولّاني الضعف وطمعتُ فيها. وفي كلّ الأحوال، فإنّي أشكركَ لأنّكَ حُلْتَ دون ارتكابي هذا الذنب.

ـ ألستَ آسفاً على المال الذي سرقتَه؟.

تردّد أوفيد في الجواب، فقال له جاك:

ـ لقد حاولتَ أن تنال الثروة كيفما اتفق، وذلك بدليل تردّدكَ عن الجواب.

ـ إنّ المال هو الرب الثاني.

ـ إنّ كيس ذلك الرجل لم يكن يحتوي إلّا على ستين ألف فرنك، وليس ذلك بثروة، فإذا امتثلتَ لي منحتُكَ ثروة.

ـ أحقٌّ ما تقول؟.

ـ من دون شك.

ـ إنني لكَ أطوعَ من البنان.

ـ أتمتثل لي بملء الإخلاص، وتكون طوعاً لي كما قلتَ؟.

ـ كيف لا أمتثل؟ فإنّي أصبحتُ منذ الآن في قبضة يدكَ، وإنّكَ في كلّ ساعة تستطيع الانتقام مني.

ـ ولكنّي لن أفعل.

ـ هو ذاك. وما حيلتي بذلك الرجل؟ فإنّه قد يخطر له أن يخبر رئيس المعمل بأمري.

ـ إذا فعل فأنتَ هالك، إذ سيبدأ رئيسكَ بطردكَ من المعمل، ثمّ ينفيكَ من الولايات المتحدة. على أنّي أضمن لك تكتّم الرجل، ورضى جمس مورتيمر عنكَ.

ـ أأنتَ تضمن لي ذلك؟.

فقال له جاك بصوت منخفض:

ـ اصغِ إليَّ، فإنّي قد حكمتُ عليكَ وعرفتكَ كأننا عشنا معاً منذ خلقنا، فإنّ سرقة اليوم لم تكن أوّل سرقاتك، ولا تحاول الإنكار، فما أنا من الذين يُعبَثُ بهم. لو أردتُ التخلّي عنكَ لذهبَ بكَ الرجل الذي سرقته إلى السجن. أمّا وقد منعتُهُ من أن يبوح بأمركَ، فلا بُدَّ لكَ من الامتثال لي في كلّ ما أريد.

ـ سأفعل ما تأمرني بفعله، فقُل ماذا تريد؟.

ـ أريد قبل كلّ شيء أن لا تكلّمني إلّا إذا كنا منفردَين مختَليين، وأن تَظهر أمام الناس كأنّكَ لا تعرفني، فإنّي لا أحبّ أن يُقال إنّه يوجد لص في عائلتي، ويسهل عليكَ فهم ما أقول حين تعلم أنّي شريك مورتيمر الذي ستشتغل في معمله.

فدُهش أوفيد دهشاً عظيماً، وقال:

ـ أأنتَ شريك مورتيمر؟.

ـ بل إنّي سأجتهد أن أكون صهره أيضاً، وربما تيسر لي ذلك في أقرب حين.

ـ أهنّئكَ بهذا الفوز المزدوج.

ـ نعم، إنّه كما تقول. فاعلم أنّ مركزي في عائلة مورتيمر يجعل لي نفوذاً عظيماً على حاضركَ ومستقبلكَ، وذلك منوط بسلوككَ، فكن مستقيم السيرة واعمل بإرادتي، أجعلك قبل شهر من رؤساء المعمل وأُضاعف راتبكَ، ولكنّي لا أفعل ذلك إلّا إذا كنتَ لي بملء إرادتكَ. وقد علمتُ بأنّكَ طمّاع، وأنّكَ تحبّ المال، فسأروي غِلَّ طمعكَ وسأُغنيكَ. أترضى بهذا الاقتراح؟.

ـ كيف لا أرضى؟ بل إنّي أرضى بملء الارتياح، وقد رأيتُ أنّكَ أنتَ أيضاً من أهل الطمع، وذلك ظاهر للعيان؛ فأنتَ محتاج إلى إخلاصي وطاعتي، وربما احتجتَ إلى

مشاركتي. أقول هذا وأنا لا أعلم شيئاً من أسبابه، ولا أحاول أن أعلم، فليس ذلك من شأني، فقد وهبتكَ نفسي وإرادتي، فقُل ماذا تريد أن أصنع؟.

ـ لا يجب أنّ تصنع شيئاً قبل وصولنا إلى نيويورك سوى أن تمتثل لما أوصيتكَ به، وهو أنّكَ تُظهر عدم معرفتي، فإذا احتجتُ إلى محادثتكَ أتيتُ إليكَ. ولا تنسَ أنّه في أوّل مرة يخطر لكَ عصياني سأعاملك من دون إشفاق.

ـ لماذا تُنذرني وقد أقسمتُ لكَ يمين الطاعة؟.

ـ إنّي لا أنذركَ بل أحذّرك. أمّا وقد اتفقنا على ذلك، فلنبحث في سواه؛ فقُل لي كم لديكَ من المال؟.

ـ شيءٌ لا يُذكر.

ـ إذن خذ هذه الدنانير، وأنفق منها عن سعة في الباخرة إلى أن نصل.

ـ أشكركَ يا بن خالي العزيز.

ـ هذه آخر مرة أريد أن أسمع فيها هذا اللقب، إلّا حين نكون وحدنا.

ثمّ تركه وذهب إلى مورتيمر وابنته، وكانا ينتظرانه في القاعة.

فلمّا خلا سوليفو بنفسه، قال:

لا أنكر أنّ هذا القريب العزيز قد استعمل معي القسوة،

وحرمني ستين ألف فرنك كنت قد غنمتها وباتت في يدي، ولكنّي قد أربح منه أضعافها متى عرفتُ حقيقة سرّه، إذ لا بُدَّ أن يكون له سرّ خفي. وفي كلّ الأحوال لا بُدَّ لي من الصبر إلى أن نصل إلى أميركا، ثم أسقيه من ذلك الإكسير الذي يدعوه أهل كندا إكسير الحقيقة. والويل له متى وقفتُ على سرّه.

وأقام جاك مدة السفر كلّها يُحادث جمس مورتيمر بالميكانيكيات والاختراعات، ويحادث ابنته بأرقِّ أحاديث الصبابة، فإنّها قد مالتْ إليه كلَّ الميل. وكان أبوها يرى ذلك منها ويتغاضى عنها، لأنّه كان يودّ أن يكون شريكُهُ صهرَهُ.

وفي اليوم التالي لوصولهم إلى نيويورك تولّى جاك إدارة المعامل، ودخل سوليفو فيها بصفة عامل بسيط. فلم يمضِ شهران حتّى عيّنه جاك نائب رئيس، براتبٍ قَدْره 100 ريالاً، أي تسعمائة فرنك في الشهر.

وفي الشهر الثاني طلب جاك من شريكه يد ابنته، فأجابه إلى ما طلب، فتزوجها جاك باسم بول هرمان، بعد أن أظهر أوراقاً رسمية دُهش لها سوليفو حتّى كادت ثقته تتزعزع.

ومرت الأيام، ونجحت أعمال المعمل، فنسي جاك كلّ ماضيه، حتّى ذنبه، الذي لم يذكره إلّا يوم قرأ في الجرائد الفرنسية أنّ المدعوّة حنّة فورتيه، المتهمة بقتل لابرو وإحراق معمله، قد ثبتت عليها التهمة وحُكِمَ عليها

بالسجن المؤبد. فلم يُقرّعه ضميره لهذا الحُكم، ولم يخالج قلبه شيءٌ من الرأفة بتلك المرأة التي ذهبت ضحية غدره، بل إنّه فَرِحَ بصدور هذا الحُكم عليها لوثوقه من النجاة. ولم يعد يفكّر بها بعد ذلك.

* * *

كان الكاهن وأخته والمصوِّر قد حضروا محاكمة حنّة فورتيه، وسمعوا كل تلك البراهين الناصعة المتفقة على إثبات جريمتها، وهم يعتقدون بارتكابها الجريمة.

قالت أخت الكاهن:

ـ لم أرَ امرأةً أشدّ منها دهاءً، ولعلّها تمكّنتْ من خديعتنا لسلامة قلوبنا.

فأجابها أخوها قائلاً:

ـ يجب علينا أن ننساها، وأن نهتمّ بتربية ولدها الذي بات كأنّه ولدنا، فلا يؤخذ هذا المنكود بذنب أمه.

وقد اتفقا على أن تتبنّى أخت الكاهن ابن حنّة، فتبنّته رسمياً وبات يدعى باسم جورج داريه، فأقام بينهما يتربّى أحسن تربية.

أمّا حنة فلقد تقدّم لنا القول إنه أُغمي عليها حين سمعت تلاوة الحُكم، وأصيبتْ بالحُمّى فنقلوها إلى مستشفى السجن. وكان الخطر عليها شديداً في البدء، ولكنّها تمكّنتْ من مقاومة هذا الخطر بفضل قوة بنيتها، فشُفِيتْ من علّتها ولكن ببطء.

غير أنّ الحُمّى أثّرت على دماغها، فذهب رُشدها ولم تَعُد تتذكّر شيئاً من الماضي والحاضر، فأُرسِلتْ إلى مستشفى المجانين. وكان جنونها هادئاً، فكان رئيس أطباء المستشفى يقول: إنّ هذه المرأة ستُشفى من جنونها من دون شك، ولكنَّ عهد جنونها قد يطول.

* * *

وبينما كانت حنّة المنكودة تُقاسي في باريس عذاب السجن، وقد ذهب عقلها لهول النكبة التي داهمتها، كان جاك جيرود يتنعّم بفوزه، وبما لَقِيه من احترام الناس.

فبعد أن مضى عام على زواجه بابنة شريكه الأميركي، وهو لم يتزوّج إلّا طمعاً بما لها، أفضى به الأمر إلى أنّه أحبّها، فبات لهذا اللص السفاك قلب يشبه قلوب الناس، وأصبح مفتوناً بحب امرأته.

وكان جاك منصرفاً إلى إدارة شؤون المعمل الداخلية، وشريكه يهتمّ بأعماله الخارجية، فكان دائم السفر إلى المدن الأميركية.

واتفق أنّه أصيب بِعِلّة في أحد الأيام وهو في إحدى المدن، فدعا إليه صهره، ولم يَجِدْ جاك بُدّاً من تلبيته، وأمر سوليفو أن يتأهب لمرافقته في هذا السفر.

وكان سوليفو قد ترقّى في المعمل حتّى بات مفتشاً

عاماً، ولكنّه كان يذوب حسداً من جاك، ولا يفكّر إلّا بأن يسقيه جرعة من إكسير الحقيقة. إلى أن أخبره جاك بعزمه على السفر وإياه، ففرح فرحاً عظيماً وقال في نفسه: لقد دنت الفرصة التي أنتظرها منذ عام، وسأغتنمها في الطريق.

وكان قد اشترى زجاجةً من ذلك الإكسير، فوضعها في حقيبته وسافر مع جاك. حتّى إذا اختليا في القطار، وضع جاك يده على كتف سوليفو وقال له:

ـ إنّنا وحدنا الآن، ويسرّني أن أحادثكَ محادثة الأقرباء.

فأجابه سوليفو قائلاً:

ـ هذا أوّل يوم عرف قلبي فيه السرور منذ عام.

ـ كيف ذلك؟ ألستَ راضياً عن العيش في نيويورك؟.

ـ كيف لا أكون راضياً وقد رقّيتني فيها إلى أعظم منصب أطمع به؟ لكنّي أردتُ بالسرور سرورَ المباحثة العائلية، فإنّكَ أكرهتني على أن أتظاهر بعدم اتصالنا بِصِلة نَسَب.

ـ ذلك لا بُدَّ منه كما تعلم.

ـ نعم، فقد عرفتُ السبب يوم كُنّا في الباخرة. أمّا الآن فقد أصبحتَ السيد المطلق، ولم يبقَ لديكَ ما تخشاه بعد أن أصبحتْ ثروة مورتيمر في يدك. ويخال لي أنّه لم يبقَ ما يحول دون المجاهرة بقرابتنا.

ـ أيُّ فائدة من ذلك؟.

ـ وإذا لم يكن من ذلك فائدة غير التقرّب منكَ، والتنعّم بمحادثتكَ من دون كلفة، لَكَفى.

ـ لا يحقّ لكَ أن تشكو، فإنّي إذا لم أجاهر بهذه القربى أمام الناس، فقد عاملتكَ معاملة الأخ.

ـ ذلك لا ريب فيه، وإنّي أشكركَ عليه. غير أنّي لا أؤاخذكَ إلّا بمبالغتكَ في التكتّم.

ـ قُلْ ما تريد بجلاء.

ـ أريد أن أقول إنّ التكتّم لا ينبغي أن يكون بين الأهل، فإنّكَ لم تَقُل لي شيئاً عن ثروتكَ التي نلتها بعد أن فارقتُكَ بخمسة أعوام، وكُنّا كلينا من صغار العمال.

ـ قلت لكَ فيما أتذكّر أنّي توفّقتُ إلى اختراع.

ـ هو ذاك. ولكنّكَ لم تقل لي ما هو هذا الاختراع.

ـ لا أعلم السبب في هذا الإلحاح! فإنّي بعت ذلك الاختراع، ولم يبقَ لي حقٌّ بأن أنسبه إلى نفسي.

حاول سوليفو أن يسأل عن السبب الذي يحمله على صبغ شعره، ولكنّه ارتدَّ مسرعاً، وأيقن أنّه بتصريحه هذا يخطئ خطأً لا يغتفره له جاك.

قال له جاك:

ـ ألا تزال تتهمني بالتكتّم؟ وهل بقي لديكَ ما تسألني عنه؟.

ـ كلا.

فغيّر جاك الحديث، وقال له:

ـ قُلْ لي كيف تقضي أوقات فراغكَ في نيويورك؟ هل توفّقتَ فيها إلى إيجاد بعض الأصدقاء؟.

ـ إنّ الصديق بعيد المنال في كلّ بلد، ولكنّي وجدتُ كثيراً من المعارف الذين جمعتني وإياهم موائد القمار.

ـ ألعلّكَ من المقامرين؟.

ـ لا أنكر ذلك، فالقمار عيبي الوحيد.

ـ احذر! فإنّه يلقي بكَ إلى هاوية الإفلاس.

ـ لا خوف عليّ من الإفلاس، فإنّي مفلسٌ. ولكنَّ الحظّ لا بُدَّ أن يسعدني يوماً كما يسعد سواي.

ـ تريد القول إنّه لا يسعدكَ الآن؟.

ـ هو ذاك.

ـ احذر! فإنّه قد لا يخدمك، فلا تلقَ في هذا القمار الشائن غير الخسران.

ولبثا يتحدّثان أحاديث مختلفة، إلى أن وقف بهما القطار في محطة المدينة التي كانا ذاهبين إليها.

وهناك لقي جاك عمّه، وقد أصيب بنزلة وافدة حالت بينه وبين القصد الذي كان قد سافر من أجله، وهو شراء معمل كان معروضاً للبيع. فتولّى جاك وسوليفو هذه

المهمّة، وفحصا الآلات فحصاً دقيقاً. ثمّ عادا إلى الفندق الذي أقاما فيه، وطلبا من صاحب الفندق أن يأتيهما بالعشاء إلى غرفتهما.

وبعد أن فَرِغا من العشاء، أخذ جاك يفحص موجودات المعمل الذي كان عازماً على شرائه، وهي مكتوبة بالتفصيل في دفترٍ، فكان منهمكاً في تثمينها كلّ الانهماك.

وبعد هنيهة جاءهما الخادم بالقهوة، فوضع معدّاتها على مائدة وراء المائدة التي كان جالساً عليها جاك، وتولّى سوليفو صبّها في الفنجانين.

اغتنم سوليفو فرصة انشغال جاك بفحص الدفاتر وعدم رؤيته له، فأخذ زجاجة إكسير الحقيقة وصبّ منها بضع نقط في فنجان جاك، ثمّ قدّم له الفنجان فشكره وشرب كلّ ما فيه.

وبعد هنيهة، بينما كان جاك يقرأ بإمعان، وضع يده فجأةً على جبينه، وجعلت عيناه تضطربان.

وكان سوليفو يراقبه، ففرح فرحاً عظيماً لوثوقه من أنّ ذلك هو بدء تأثير الإكسير. ولم يكن سوليفو مخطئاً في ظنّه، فإنّ جاك وقف بعد ذلك وقفةً غير مألوفة، وجعل ينظر نظرة الحائر إلى ما حوله.

قال له سوليفو، وقد تكلّف الانذهال:

ـ ماذا أصابكَ؟.

ـ إنّي شديد الظمأ، فاسقني كأساً من الخمر.

صَبَّ له سوليفو خمراً في كأسه، فشربها جاك جرعةً واحدة. وعند ذلك جعلت يداه ترتجفان، واحمرّ وجهه واتّقدت عيناه، فقال له سوليفو:

ـ ماذا أصابك العلك مريض؟.

فقهقه جاك ضاحكاً، وقال:

ـ أنا مريض؟!.. كلا، ولماذا تريد أن أكون مريضاً؟.

ـ خُيِّلَ لي أنّكَ تعبتَ لكثرة العمل، وبتَّ محتاجاً إلى الراحة.

ـ كلا، إنّي لا أحتاج إلى الراحة لأنّ العمل لا يتعبني، ولكنّي ظمآن فاسقني من أفخر أنواع الخمور ولا تبالي بالثمن، فإنّي من كبار الأغنياء.

فقال سوليفو في نفسه: آن الأوان.

ثمّ صبَّ له خمراً في كأسه، وقال له:

ـ قلتَ إنّكَ من الأغنياء، وإنّكَ لم تنَل هذه الثروة إلّا بفضل اختراعاتك من دون شك.

ـ نعم، فقد بِعته لعمي مورتيمر.

ـ لا أقصد اختراعكَ الأخير، بل اختراعكَ الأوّل الذي استنبطه قبل أن تعرف عمك.

فضحك جاك ضحكاً غريباً، وقال:

ـ هل رأيتُكَ في حياتي قبل التقائي بكَ في الباخرة؟ وهل كنتُ أعلم أنّه يوجد بين الناس من يدعى أوفيد سوليفو؟.

ثمّ مشى إلى أوفيد وعيناه تقدحان شرراً، وقال:

ـ أتحسب أنّي من مدينة ديجون، وأنّي أدعو بول هرمان؟... كلا أيها الأبله، فإنّ بول هرمان مات في المستشفى، وكنتُ أقيم وإياه في غرفةٍ واحدةٍ. فلمّا عَلِمتُ بموته في المستشفى، أخذتُ أوراقه من حقيبته وتسمّيتُ باسمه كي أنقذ نفسي مما يتهدّدني من الأخطار. ألم يخطر لكَ ذلك أيها الأبله، فحَسِبتني قريبكَ وأنتَ لم تَرَني في حياتكَ؟.

ثمّ مشى أيضاً إلى أوفيد مشية المتوعّد، بحيث اضطرّه إلى التراجع مذعوراً، وقال:

ـ ألم أحسن عملاً؟... ألم أفعل ما يفعله كلّ خبيث محتال طامع؟... إنّي أنا الذي أحرقتُ معمل لابرو في فورتفيل، وأنا الذي قتلتُ صاحب المعمل، رئيسي، وأنا الذي سرقتُ اختراعه، واختلستُ مائتي ألف فرنك من ماله. وأنا كذلك الذي عدتُ إلى المعمل المحروق، فتظاهرتُ بالغيرة المتناهية، وألقيتُ نفسي في وسط اللهيب بغية إنقاذ الصندوق كي أدرأ عنّي الشبهات، ثمّ وثبتُ من

النافذة ونجوتُ، والناس يحسبون أنّ النار التهمتني. فحَكَمَ القضاء على حنّة فورتيه بدلاً منّي... ومنذ تلك الساعة مُحِيَ اسم جاك جيرود من سِفر الوجود، وسافرتُ إلى إنكلترا باسم بول هرمان، وقَدِمتُ إلى نيويورك فالتقيتُ في الباخرة برجل يدعى أوفيد سوليفو، فأقنعته أنّي قريبه ولم ينتبه إلى صِباغ شعري، فلم يخامره شيءٌ من الشكّ. وقد عَلِمتُ منه أموراً كثيرة عن جمس مورتيمر وابنته، فتزوّجتُ البنت، وشاركتُ الأب، وأصبحتُ من أهل الملايين ومن أصحاب الشرف. نعم، إنّي الآن رجل شريف، وأنتَ لا تعرفني، ولا يوجد غير حنّة فورتيه التي تعلم أنّ جاك جيرود هو الذي ارتكب الجريمة، فيما يعتقد جميع الناس أنّ جاك جيرود مات تحت أنقاض المعمل.

أمّا الآن فإنّي بول هرمان، شريك جمس مورتيمر.

وعند ذلك وضع يده على صدره، فتنهّد تنهُّداً طويلاً، ثمّ سقط على الأرض لا يعي.

أسرع سوليفو إليه وقد ملأ الذعر قلبه، وخشي أن يكون قد مات. فوضع يده على قلبه، واطمأنّ لفوره إذ شَعَرَ بخفقانٍ شديدٍ، فابتسم ابتسامة المنتصر، وقال:

كلا، إنّه لم يمت، ولا شكَّ أنَّ ذلك من تأثير الإكسير. فمتى عاد إلى رشده لا يذكر شيئاً مما رواه عن نفسه، كما قال ذلك الكندي الذي أرشدني إلى هذا الإكسير العجيب.

نعم يا جاك جيرود، إنّكَ خبيث كما وصفتَ نفسكَ، ولكنّي سأنال نصيبي من ثروتكَ. نعم، إنّكَ ظفرتَ بي في تلك الباخرة بفضل تلك السرقة، وأنا قد ظفرت بك أيضاً بفضل هذا الإكسير. إنَّ ما قلتَهُ سيبقى مطبوعاً على صفحات قلبي لا أنساه ما حييت، وسنبقى قريبين إذا شئتَ، ولكنّي سأنال من مال عمّكَ أضعاف ما نلتَ.

ثمّ حمل جاك إلى السرير، وغطّاه وذهب إلى غرفته، فنام نوماً هادئاً.

وفي صباح اليوم التالي صحا من رقاده، وذهب إلى غرفة جاك فوجده لا يزال نائماً، فلم يوقظه مؤثِراً أن يستيقظ من تلقاء نفسه، وجلس إلى المائدة وجعل ينظر في قائمة موجودات المعمل.

وما زال على ذلك إلى أن صحا جاك من رقاده، فنظر إلى ما حوله نظرة الحائر، وقال:

ـ أين أنا؟.

فأجابه سوليفو:

ـ في مدينة كنجستون، في فندق النجوم.

ـ لماذا نمتُ من دون أن أخلع ملابسي؟.

ـ كيف ذلك؟ ألا تذكر شيئاً؟.

فنهض جاك من سريره، وقال:

ـ لا أذكرى سوى أنّي كنتُ أشتغل، وأنّكَ كنتَ بجانبي.

فابتسم سوليفو، وقال:

ـ هو ذاك. ولكنّكَ بينما كنت تشتغل نهضتَ فجأةً وقد جحظتْ عيناك، ومشيتَ إليَّ مشية المتوعّد، فانهلتَ عليَّ بالشتائم حتّى حسبتُ أنّكَ جُنِنتَ.

فوثب جاك إلى أرض الغرفة وهو يرتعد، وقال:

ـ ما هذا الذي أصابني؟.

ـ إنّ الذي أصابكَ يشبه بدء السكتة الدماغية، فإنّكَ تُجهِد نفسكَ بالعمل، وذلك خَطَرٌ عليك.

فأطرق جاك مفكراً، ثمّ قال:

ـ لماذا لم تحضر لي طبيباً؟.

ـ لأنَّ الحكمة قضت عليّ بذلك، فإنّكَ كنت تقول أقوالاً لم أحبَّ أن يسمعها رجل غريب.

فاصفرّ وجه جاك، وقال في نفسه: تُرى ماذا قلت؟... وما هذا الجنون؟.

ثمّ التفت إلى سوليفو، وقال له:

ـ هل كتبتَ أثمان الموجودات؟.

ـ نعم، فلم يبقَ إلّا أن تراجعها، بحيث أننا نستطيع أن نذهب عند الظهر إلى المعمل.

أنجزا أعمالهما في ذلك اليوم. وفي اليوم التالي عادا إلى نيويورك، فكان أوّل ما فعله سوليفو أنّه أخذ ورقة، وكتب عليها ما يأتي:

«نيويورك، في 23 يونيو (حزيران) سنة 1863

سيدي مدير مستشفى جنيف

لقد اتصل بي سنة 1856 أنّ المدعو بول هرمان، من أهل ديجون، وهو ميكانيكي قريب لي، توفّي في المستشفى الذي تتولّى إدارته. ولكنّنا لم نعلم رسميّاً خبر موته، بحيث إنّنا لا نزال مشكّكين.

رجائي إليكَ يا سيدي أن تتفضّل بإخبارنا عن حقيقة أمر بول هرمان، فإذا كان مات، كما أُشِيع، فأرسل إلينا نبأ موته مسجَّلاً. وقد أرسلتُ لكَ في طيّه مائة فرنك للنفقات التي يقتضيها هذا البحث، فإذا زادت القيمة عن النفقات، فأرجو أن تعتبر الزيادة إعانةً للمستشفى. وتفضّل بقبول احترامي.

دافيد ساليفو

الشارع الثاني، رقم 55، نيويورك»

وبعد شهر من ذلك، وَرَدَ جواب مدير المستشفى، وفيه تفصيلُ وفاةِ بول هرمان مسجَّلةً في المحكمة، ففرح به سوليفو فرحاً عظيماً، وقال:

لطالما قبض عليَّ جيرود، وقد جاء دوري الآن، فقد بات مُلْكَ يدي.

* * *

مضى على هذه الحوادث التي رويناها تسعة أعوام، وجاءت تلك السنة الهائلة، سنة 1870.

ففي الخامس من نوفمبر (تشرين الثاني) في ذلك العام، كانت جنازةٌ خارجةٌ عند الظهر من كنيسة قرية شفري، يسير وراءها الكاهن الوجيه، الذي لجأتْ إليه حنّة يوم فرارها، وقد احمرّتْ عيناه من البكاء. وكان يصحبه رجل في الخامسة والثلاثين من العمر، وغلام في الرابعة عشرة وهو بلباس التلامذة.

فكان الرجل ذلك المصوِّر الذي عرفناه، والغلام جورج بن حنة، الذي تبنّته أخت الكاهن، فبات يدعى جورج داريه.

وكان جورج قد أُدخِل في مدرسة هنري الرابع في باريس. فلمّا نَشَبَتْ تلك الحروب الهائلة بين الألمانيين والفرنسيين سنة 1870، جاء به الكاهن إلى قرية شفري حيث يقيم.

وبعد أن سكن ثائر الحرب، أعاد المصور إتيان جورج إلى مدرسته، وعاد هو إلى عمله في شارع رين. إلى أن

ورده كتاب من الكاهن يخبره فيه بوفاة أخته، فجاء بجورج من المدرسة وأسرع به إلى القرية، حيث حضرا جنازتها.

ولمّا رَجِعوا إلى المنزل، قال الكاهن للمصوّر:

ـ إنك تعلم يا بنيّ أنّ أختي جعلت جورج وريثها، وجعلتني وصيّاً على الغلام.

ـ نعم.

ـ وأنا سأقتدي بأختي، فقد كتبتُ ما أملكه لهذا الغلام الذي أحببناه بملء الحنوّ. وقد عيّنتكَ وصيّاً عليه، فهل ترضى بهذه الوصاية؟.

ـ من دون شكّ، فإنّي أحبّه أيضاً كما تحبّونه.

ـ أشكركَ يا بني، فإنّي أعرف طهارة قلبكَ، وكنتُ واثقاً من قبولكَ، لذلك سأجعلكَ وصياً عليه منذ اليوم، وأعطيكَ كتاباً باسمه تحفظه عندكَ، فلا تسلّمه إياه إلّا حين يبلغ الرابعة والعشرين من عمره، فإنه يجب أن يعرف الحقيقة بجملتها حين يبلغ هذا العمر. أتعِدُني ألّا تدعه يعلم شيئاً قبل بلوغه هذا العمر؟.

قال:

ـ إنّي أعِدُكَ وعدَ صادقٍ.

فأعطاه الكاهن كتابين، وقال له:

ـ يتضمّن أحد هذين الكتابين وصيتي، أما الآخر

فلجورج وفيه بيان حكايته. أرجو بعد موتي أن تبيع كلّ موجوداتي ما خلا المكتبة، التي ستبقى لجورج.

ـ سأنفّذ كل ما أمرتني به. ألكَ ما توصي به غير هذا؟.

ـ كلا، فإنّي أموت الآن مطمئنّاً على مستقبل جورج.

وبعد بضعة أيام توفي الكاهن أيضاً، وأنفذ المصوّر الوصيّة.

* * *

في ذلك اليوم نفسه الذي مات فيه الكاهن، ماتت أيضاً زوجة جاك جيرود، تاركة لهذا المنافق المحتال بنتاً في الثامنة من عمرها، هزيلة الجسم ضعيفة الدم.

وقد أَسِفَ هذا اللص عليها أسفاً عظيماً، لأنّه كان يحبّها حباً صادقاً، فلم يتعزَّ عنها إلّا ببنتها.

وكان سوليفو لا يزال ملازماً له، وقد عَرِفَ سرّه كما تقدّم، وظلّ تسعة أعوام من دون أن يبوح له بكلمة من هذا السر، كان جاك يواصل إحسانه إليه خلالها، فيلجمه ويعطيه كلّ ما يطلبه.

ولكنَّ سوليفو كان من كبار المقامرين، وكان سيّئ البخت في المقامرة. غير أنّ جاك كان لا يتأخّر عن سداد دينه، فلا يجد سوليفو حجّةً لمناصبته العداء وتهديده بذلك السر الرهيب.

يتذكّر القرّاء أنّ جيل لابرو، صاحب المعمل الذي

أحرقه جاك، مات قتيلاً وترك غلاماً في الثالثة من عمره، لم يخلّف له من الثروة غير أرض المعمل. وقد رُبِّيَ هذا الولد عند عمّته إلى أن بلغ العاشرة من عمره، فأدخلته إلى مدرسة هنري الرابع، حيث يوجد جورج بن حنّة، فقضت الصدفة أن يجتمع الولدان، ابن الضحية وابن القتيل، وأن يكونا صديقين لا يفترقان.

وكان ابن لابرو يدعى لوسيان، وقد سَمِعَ مراراً حكاية قتل أبيه من عمته. ولم تكن عمّته تعتقد أنّ حنّة فورتيه هي القاتلة، بالرغم من الأدلة التي تُثبت جريمتها، بل كانت واثقة من أنّ مقترف الجريمة هو جاك جيرود، فطُبِعَتْ أقوال العمّة في ذاكرة الصبي، وكان أهمّ شاغلٍ له بعد درسه كشف سرّ مقتل أبيه.

أمّا وقد أظهرنا للقرّاء الآن جميع أعضاء هذه الرواية، فلنَعُد إلى حنّة فورتيه، التي تركناها مجنونةً في مستشفى السجن، فقد حدثتْ حادثة كانت السبب في شفائها من ذلك الجنون، وإليكم تفصيل الحادثة.

في مدة حصار باريس، أصيب المستشفى الذي كانت فيه حنّة فورتيه بثلاث قنابل، سقطت واحدة منها في المكان المُعَدِّ للمجانين، فأحرقته وخرّبت جدرانه.

وكانت حنّة واقفةً تنظر إلى النار تلتهم ذلك المستشفى، فذكّرتها تلك الحادثة بحادثة إحراق المعمل، وعادتْ إليها ذاكرتها في الحال فشُفِيَتْ من الجنون.

وقد أنقذوها كما أنقذوا جميع المسجونات، ونقلوهنَّ إلى سجنٍ آخر. فوضعتْ حنّة رأسها بين يديها، وجعلت تفتكر في ماضيها، فتذكّرت كلَّ ما مَرَّ بها.

دخل الطبيب إليها في اليوم التالي، فرأى أنّها تغيّرت تغيراً فجائياً، وأنَّ عينيها لا تدلّان على شيءٍ من الجنون.

فأقبل إليها يريد أن يسألها، ولكنّ حنّة قاطعته قائلة:

ـ ألستَ طبيباً يا سيدي؟.

فذُهل الطبيب، وقال:

ـ نعم.

ـ إذن أنا هنا في المستشفى؟.

ـ هو ذاك.

ـ لماذا لم يضعوني في السجن، فإنّه محكومٌ عليَّ.

ـ لأنّكِ في مستشفى المجانين، وهو خاصٌّ بالسجن فكأنّكِ فيه.

ـ إذن لقد كنت مجنونة؟.

فتردد الطبيب في الجواب، ولكنَّ حنّة تولّت عنه الكلام، وقالت:

ـ نعم، كنت مجنونة، فلا تحاول إخفاء ذلك عنّي. على أنّي شُفِيتُ كما يظهر. لقد تمزّق ذلك الحجاب الذي كان يغطي عينيَّ، وتبدّدت الظلمات فعُدتُ إلى تذكّر الماضي.

نعم! لقد حكموا عليَّ بالسجن المؤبّد، لأنّهم اتّهموني بالسرقة والإحراق والقتل، وقد أغمي عليّ حين سمعتُ هذا الحكم الجائر، فلا أعلم ما جرى لي بعد ذلك، حتّى خُيِّلَ لي أنّي نمتُ نوماً طويلاً. فقُل لي أيها الطبيب: كم مضى من الزمن على جنوني؟ وكم مضى عليَّ وأنا في هذا المستشفى؟.

فأجابها الطبيب قائلاً:

ـ إنّكِ هنا منذ 14 مارس (آذار) سنة 1862.

ـ وفي أيِّ سنة نحن الآن؟.

ـ في سنة 1871.

فوضعت حنّة يدها على جبينها، وقالت:

ـ ربّاه! أمضى عليَّ تسعة أعوام وأنا مجنونة؟ ألم يسأل عنّي أحدٌ خلال هذه المدة؟.

ـ كلا.

فشهقت حنّة بالبكاء، وقالت:

ـ كان لي ولدان، أحدهما يدعى جورج، والآخر بنت تدعى لوسي؛ فماذا جرى لهما؟... ربّاه! ألا يزالان في قيد الحياة؟.

ـ لا أستطيع أن أجيبك على هذا السؤال. ولكنّكِ إذا كتبتِ للّذين أقمتِ عندهم ولديكِ أجابوكِ.

ـ نعم، نعم! سأكتب، ولكنّي أحبُّ أن أعلم ماذا يصنعون بي؟.

ـ وأنا أحبُّ أن أسألكِ في البدء: كيف عاد إليكِ صوابكِ؟.

ـ لا أعلم سوى أنّي رأيتُ النار تلتهب في الجدران، فتذكّرت للحال حريق معمل فورتفيل.

ـ هذا هو السبب في عودة صوابكِ، فإنّ ذلك يتّفق كثيراً.

ـ أتظن أنّي شفيت تمام الشفاء؟.

ـ هذا ما أرجوه.

ـ إذن أرجوك أن تجيبني عمّا عساهم يصنعون بي.

ـ سيرجعونك إلى السجن بعد أن أقدّم تقريري عن شفائكِ، حسب الحكم الذي صدر عليكِ.

ـ لقد حكموا عليَّ بالسجن المؤبّد، وقد يكون ولداي لقيا حتفهما من دون أن أراهما. ربّاه، أبعِد هذا العذاب عنّي!.

وعند ذلك جعلت تبكي بكاءً يقطّع القلوب من الإشفاق، فتركها الطبيب آسفاً عليها. وبقيت وحدها، فجعلت تقول: إنّي تركتُ ولدي جورج عند الكاهن في قرية شفري، وقد وعدني هذا الكاهن الجليل أن يعتني به،

وهو موفٍ بوعده من دون شكّ. فإذا كان ذلك، فإنّ عمر ولدي جورج الآن أربعة عشر عاماً، وعمر ابنتي لوسي اثني عشر عاماً. أمّا ابنتي، فلا بُدَّ من أن تكون مرضعتها قد أشفقت عليها وربّتها... ربّاه، أيتاح لي يوماً أن أراهما؟!.

وبعد أسبوعٍ كتب الطبيب تقريره عن شفاء حنّة، فأُرسِلت إلى السِّجن. وتمكّنت في السجن من الكتابة إلى الكاهن، وإلى مرضع ابنتها. ثمّ صبرت ثلاثة أيام على أحرّ من الجمر.

وفي اليوم الرابع وَرَدَ كتابٌ من كاهن قرية شفري، يقول فيه إنّ الكاهن الذي كان قبله في القرية توفّي، وإنّه لا يعلم شيئاً عن الحادثة التي ترويها.

وفي اليوم التالي وَرَدَ إليها الكتاب نفسه الذي كتبته إلى المرضع، الذي تسألها فيه عن بنتها. وقد كتبتْ إدارة البريد عليه: «يُرجَع لأنّ صاحبه غير معروف».

فكادت المنكودة تجنّ من يأسها، وأصيبت بنوبة عصبية، حتّى إذا استفاقت منها قالت: لا بُدَّ لي من أن أجد ولدي وابنتي، فإنّي لا أعدم وسيلةً أستطيع بها الفرار من هذا السجن.

ولم تخطر لها في بال صعوبة الفرار من مثل هذا السجن، بل إنّها لم تفكّر في طريقة الفرار، غير أنّها لم تيأس. ثمّ أخذت تُمعن فكرها في سبل الفرار، فمَضَتِ

الأيام وكرّت الشهور وتوالت الأعوام وهي لا تهتدي إلى مرادها.

وقد أقامت في السجن سبعة أعوام، فوق الأعوام التسعة التي أقامتها في المستشفى. وكانت حَسَنَة السلوك والسيرة، فرأف بها مدير السجن واقترح عليها أن يُدخلها في العمل في المستشفى.

وافقت حنّة على ذلك الاقتراح شاكرةً، فقد كان للممرضات امتياز عظيم على السجينات، لا سيّما أنهنّ يقبضن راتباً شهرياً كسائر المستخدمين.

وبعد سنة رُقّيتْ، فباتت رئيسة الممرضات. وعيّنوا لها غرفة خاصّة قرب الصيدلية، وجعلوا برفقتها راهبة تقيم في غرفة مجاورة لها.

كانت واجبات حنّة تقضي عليها أحياناً بالذهاب إلى الإدارة وإلى الصيدلية وغيرها، بحيث كانت تستطيع الذهاب حيث شاءت في المستشفى، لا سيّما حين تكون مرتدية ثوبها الرسمي.

وكانت منقبضة الصدر منكسرة النَّفْس، تبدو الكآبة على وجهها. إلى أن أشرق وجهها يوماً بنور البِشر، كأنّها ظفرتْ بحلّ اللغز الذي تبحث عنه، وهو فرارها من السجن والبحث عن ولديها. ذلك أنّها علِمتْ أنّ الراهبات المقيمات في المستشفى كُنَّ يصلّينَ كلَّ يومٍ في كنيسته،

ما خلا أيام الأحد، حيث كُنَّ يذهبن إلى كنيسة المدينة، فيخرجنَ في الساعة الثالثة ويرجعن في الثامنة. فقالت حنّة في نفسها: لا بُدَّ لي من أن أخرج كما تخرج الراهبات، بدلاً من إحداهنَّ!. ولمّا خطر لها هذا الخاطر أخذت تسعى في تنفيذه.

وكانت قد أقامت في المستشفى ثلاثة أعوام بِصِفة رئيسة للممرضات، بحيث باتت شبه طبيب، فأخذت من الصيدلية زجاجة من شراب يُخدّر الأعصاب فيُطيل النوم، ودخلت بها إلى غرفة الراهبة التي كانت مجاورة لغرفتها، وأفرغت نصف هذه الزجاجة في زجاجة من خمر الكنكينا، كان تشرب منها الراهبة كلّ ليلة قبل رقادها للتقوية.

وأقامت تنتظر إلى الساعة العاشرة، وهو موعد نوم الراهبة. إلى أن دَنَتْ تلك الساعة، فنادتها الراهبة وكأس الخمر بيدها، وقالت لها:

ـ غداً يوم الأحد، ويجب أن أذهب صباحاً إلى الكنيسة، فأرجو أن توقظيني باكراً.

قالت:

ـ سأفعل.

فشربتِ الراهبة كلّ ما في الكأس، وعادتْ حنّة إلى غرفتها.

وفي الساعة السادسة من الصباح، دخلت حنّة إلى

غرفة الراهبة فيلومين، فرأتها مستغرقة في رقادها، فتركتها وذهبت إلى رئيسة الراهبات وقالت لها:

ـ إنّ الأخت فيلومين منهمكة في تضميد جرح أحد الجرحى، وقد أرسلتني إليكِ ترجوكِ ألّا تنتظريها، فإنّها ستتبعكِ إلى الكنيسة متى فرغت من شغلها.

قالت رئيسة الراهبات:

ـ حسناً. قولي لها إننا سنسبقها إلى الكنيسة.

فعادت حنّة مسرعةً إلى غرفة الراهبة، وخلعت ملابسها العليا ثم لبست ثياب الراهبة، وقالت: لأذهب الآن، واللّه الحامي.

وبعد ربع ساعة ذهبت الراهبات إلى الكنيسة، وقد أخبرت الرئيسة بوّاب المستشفى أنّه لا يزال يوجد راهبة.

فلمّا خرجتْ حنّة، وهي بملابس الراهبة فيلومين، لم يعترضها البوّاب لأنّه كان ينتظر خروج الراهبة المتأخرة، كما أخبرته الرئيسة، وباتت حنّة مُطلَقَةَ السّراح بعد ذلك السجن الطويل.

لِنَرجِع الآن أربعة أشهر إلى الوراء، ولنذهب إلى نيويورك، إلى جاك جيرود، أو بول هرمان؛ صاحب المعامل الشهيرة والملايين الكثيرة، فنقول:

كان جاك قد بلغ في هذا العهد الثالثة والخمسين من

عمره، وكانت ابنته ماري قد بلغت الثامنة عشرة، وهي فتاة شقراء، نحيفة الجسم جميلة الوجه، غير أنّ اصفرار وجهها وضعف بُنيتها كانا يدلّان على أنّها مصابة بِعِلّة الصدر، مثل أمّها، التي ماتت بهذه العِلّة. غير أنّ هذه العِلّة لم تكن قد تمكّنت من الفتاة، بل كانت واقفة معها موقف المُنذر، ولذلك كان أبوها يوافقها في كلّ ما أرادت، حَذَراً من استحكام العِلّة بها، وهو يحبّها حبّاً لا يوصف.

في ذلك اليوم كانت الفتاة جالسة مع أبيها وأوفيد سوليفو، الذي تظاهر جاك بقرابته وبات من أهل المنزل. فالتفتت ماري إلى أبيها، وقالت له:

ـ كم تبلغ ثروتكَ يا أبي؟.

نظر كلٌّ من سوليفو وجاك إلى رفيقه نظرة المنذهل. أمّا ماري فإنّها صَبرَت هنيهة، ثمّ قالت بلهجة دلّت على نفاد صبرها:

ـ لماذا لا تجيبني؟... ابدأ بمجاوبتي ثمّ انذهل بعد ذلك من سؤالي، فإنّ أوفيد عالِمٌ بكل أعمالك، وأنتَ لا تكتم عنه شيئاً من أمورك، فأجبني عمّا سألتكَ عنه.

ـ ولكن لماذا تريدين أن تعلمي مقدار ثروتي؟.

ـ لماذا؟... لأني أريد!.

ـ ليس هذا البرهان يا بنتي.

ـ وأنا أجده برهاناً كافياً، فإنّي أريد أن أعلم مقدار ثروتكَ.

ـ إذن فاعلمي يا بنتي أنّ مبلغ إيرادنا مائة ألف ريال في العام.

ـ وعلى ذلك يكون مقدار ثروتكَ عشرة ملايين ريال، ما عدا المعمل فيما أظنّ.

ـ هو ذاك.

ـ كم يساوي المعمل؟.

ـ مليون ريال. ولو كان لسواي لاشتريته بهذا المقدار.

ـ إذن يجب أن تبيعه بهذا المقدار.

فنظر أبوها إليها نظرة المنذهل، وقال:

ـ أتريدين أن أبيع معملي؟.

ـ نعم.

ـ ولكن....

ـ لا تعترض! فإنّكَ غني عظيم، ولا حاجة لك إلى المعامل بعد هذه الثروة. بل إنّي أريد أن تُسرع ببيعه، فإنّ لديَّ مشروعاً لا يمكن تأجيله.

ـ ما هو هذا المشروع؟.

ـ أن نذهب إلى فرنسا فنعيش فيها.

فدهش الرجلان، وقالا بصوتٍ واحدٍ:

ـ فرنسا؟!...

ـ نعم فرنسا، بلاد أبي؛ فإنّي فرنسية، وأحبّ فرنسا وأريد أن أراها، وأرغب أن أعيش وأموت فيها.

ـ ما دخل الموت يا بنتي في حديثك؟.

فضحكت ماري، وقالت:

ـ إنّي لا أحبّ أن أموت من دون شك، وإنّي لا أريد السفر إلى فرنسا إلّا لأنّي أحبّ الحياة، فإنّ الضجر سوف يقتلني هنا، وبتُّ أشعر بأنّ باريس تجذبني إليها كما يجذب المغناطيس، بل أشعر بأنّي إذا كنتُ في باريس تمكّنتُ من التنفّس بسهولة لا أشعر بها الآن.

ـ ولكنّي لا أجد يا بنتي ما يمنعنا من الذهاب إلى فرنسا، والإقامة فيها شهرين أو ثلاثة.

ـ كلا، كلا! ليس هذا الذي أريده، بل أريد أن تُصفّي أعمالكَ وتجمع ثروتكَ، فنسافر إلى فرنسا، حيث نقيم فيها بقيّة العمر من دون عودة إلى نيويورك.

فاعترضها سوليفو قائلاً:

ـ أنبيع هذا المعمل ونبرح نيويورك؟... ما هذا الرأي؟.

قالت:

ـ إنّكَ مخيّر بالبقاء في نيويورك، أمّا أنا فإنّي أريد السفر إلى فرنسا، وإذا لم أسافر إليها أموت.

فقال لها أبوها:

ـ ألا تزالين تذكرين الموت؟... ما هذه الأفكار المظلمة التي تتولّاكِ اليوم؟.

ـ لا أعلم ما يجول في نفسي، ولكنّي أشعر بأنّ الضجر يقتلني.

ثمّ جعلت تشهق بالبكاء، فضمّها جاك إلى صدره وهو يكاد يذوب حنوّاً. فكفكف دمعها، وقال بصوت متهدّج:

ـ سكّني روعكِ يا بنتي... ماري، لا تبكي! فإنّ بكاءكِ يقطع قلبي. سأفعل كلّ ما تريدينه، اطمئني يا بنتي سنذهب إلى فرنسا... ولكن، ماذا نصنع في باريس؟.

ـ نعيش فيها عيشة بذخ تناسب ثروتكَ، فنشتري قصراً جميلاً في أحسن شوارع المدينة، ونذهب إلى الملاعب، ونفتح قصرنا للزائرين.

ـ ولكنّنا لا نُقيم فيها شهرين حتّى نملّها.

ـ إنّي لن أشعر بالملل في تلك العاصمة الكبرى.

ـ أمّا أنا فأملّ من غير عمل.

ـ وأيُّ فائدةٍ لكَ بعدُ من العمل، بعدَ أن أصبحتَ غنياً؟.

ـ إنّي لا أريد الشغل الآن للكسب، ولكنّي تعوّدتُ العمل حتّى ألفته، ولا صبر لي عنه.

فنظرتْ ماري إليه، وقالت له وهي تبتسم:

ـ إذا كنتَ قد بعتَ معملكَ هنا، فما الذي يمنعكَ من أن تنشئ مثله في باريس؟ فإنّكَ من مشاهير المخترعين، وقد وصلتْ شهرتك إلى أوروبا كما أعلم من جرائدها، فستنال من الشهرة في فرنسا ما نِلتَه في أميركا. هلمَّ يا أبي ووافقني على اقتراحي، وأسرع في بيع معملكَ ما أمكن. وأنتَ يا أوفيد، ألا تسافر معنا؟.

فأجابها سوليفو:

ـ سوف نرى.

فظهرت علائم الجزع على ماري، وقالت بجفاء:

ـ كما تشاء، فإنّي أرى من عينيكَ أنّكَ ستبذل جهدكَ لتمنع أبي من تحقيق هذه الأمنية. ومع ذلك فإنّه سيوافقني رغماً عنكَ، فإنّي أحب أن أسافر إلى فرنسا لأنّ هواء هذه البلاد يُحييني، وإذا أبي أبى أن يذهب بي إليها أموت من دون شك. أَعَلِمتَ الآن أنّه يستحيل عليه أن يرفض طلبي؟ فكفَّ عن الاعتراض، واعلم أنّنا سنسافر بعد أسبوع.

ثمّ قامت فبرحت القاعة، وهي تمسح دموعها.

ولما خلا جاك وسوليفو، قال سوليفو:

ـ هل عزمتَ على تحقيق أمنيتها؟.

ـ وهل تجد سبيلاً لعصيانها؟ فإنّي إذا لم أوافقها مَرِضتْ وماتتْ من دون شكّ.

ـ إذن ستسافر بعد أسبوع؟.

ـ هو ذاك.

فهزّ سوليفو كتفيه، وقال:

ـ إنّ الحنوّ مُستَحبّ، ولكن ليس إلى هذا الحد.

ـ غير أنّ ماري مصيبة في اقتراحها؛ فأيُّ شأنٍ بقي لي في هذه البلاد؟ من الخير بالنسبة لنا أن نعود إلى بلادنا فنعيش فيها بقية أيامنا. إنّي أعرف رجلاً ثرياً يرغب بشراء معملي، فسأذهب إليه.

ـ وأنا أريد أن أكلِّمكَ.

ـ تكلّم.

ـ ليس هنا.

ـ لماذا؟.

فخفض سوليفو صوته، وقال:

ـ لأنّي لا أحبّ أن يسمع أحد حديثنا.

ـ ما هذا الشأن الخطير الذي تريد أن تحدّثني به؟.

ـ سوف تعلم، فهلمَّ بنا إلى غرفتكَ الخاصة، فلا يسمعنا فيها أحد.

تململ جاك، ثمّ قال:

ـ هلمَّ واتبعني.

حتّى إذا وصلا إلى تلك الغرفة، أقفل جاك بابها وقال له:
ـ إنّنا وحدنا الآن، فقُلْ ما تريد.

لنتحدّث إذن:

ـ قُلْ لي: هل أنتَ عازمٌ عزماً أكيداً على مبارحة أميركا؟.

ـ نعم.

ـ لا بأس، ولكن ماذا تريد أن تصنع بي؟.

ـ تسافر معنا.

ـ لا يروق لي أن أرجع إلى بلادٍ تقبض عليّ الشرطة فيها حين تشاء.

ـ لا تخَف، فقد سقط الحق عليكَ بذهاب المدة.

ـ هو ذاك، ولكنّي أؤثر أن أبقى في هذه البلاد.

ـ ابقَ فيها، يمكن أن أتوسّط لكَ في خدمة من يشتري المعمل براتب معين وبجزء من الأرباح، فهل يوافقكَ ذلك؟.

ـ كلا.

ـ إذن ماذا تريد؟.

ـ أريد أن أشتري معملكَ.

فقهقه جاك ضاحكاً، ثمّ قال له:

ـ كنتُ أحسبكَ معدماً فقيراً، فإذا بكَ أصبحتَ من أهل الملايين.

ـ كلا، فليس لديَّ دراهم على ما تعهدني، بل إنّي مَدين بخسارة أمس، ومع ذلك فإنّي سأشتري معملكَ.

ـ ما هذا اللغز؟.

ـ ليس هناك ألغاز، فإنّكَ ستمضي لي صكّ بيع المعمل، ثمّ تمنحني خمسين ألف ريال لأديره، وذلك ثمن سكوتي.

فوقف جاك غاضباً، وقال:

ـ ويحكَ! أيُّ سكوتٍ تعني؟ فإنّي لا أكتم أمراً ولا أخاف شيئاً.

ـ هل أنتَ واثق ممّا تقول أيها القريب العزيز؟... ابحث في ماضيكَ، واعلم يقيناً أنّكَ لا تستطيع الرجوع إلى فرنسا إلّا إذا رضيتُ أنا أن ترجع.

لم يفهم جاك شيئاً من مقاصد سوليفو، وقال له:

ـ ماذا تريد بما تقول؟.

ـ أقول إنّ من كان يدعى جاك جيرود، لا يجسر على أن يذهب إلى فرنسا إلّا إذا بقي اسمه مكتوماً.

فلمّا سمع جاك اسمه يلفظ أمامه، وثب إلى سوليفو فقبض على ذراعه، وقال له:

ـ ويحكَ! ما هذا الاسم الذي ذكرتَهُ؟.

ـ إنّي ذكرتُ اسمكَ الحقيقي، فكفى أيها القريب العزيز! اخلع ثياب التنكّر، إنّكَ تدعى جاك جيرود، وأنتَ

الذي أحرقتَ المعمل في فورتفيل، وسرقتَ صاحبه لابرو وقتلته. ثمّ أخذتَ أوراق بول هرمان المتوفي في جنيف في 15 أبريل (نيسان) سنة 1856، وتنكّرتَ باسمه.

فذُعر جاك ذعراً عظيماً، وقال بصوت مختنق:

ـ من يقول هذا القول؟.

ـ أنا.

ـ وأيُّ حُجّةٍ لكَ على إثباته؟.

ـ لديَّ كثير من الحجج، بينها شهادة المستشفى الرسمية بوفاة بول هرمان.

ـ ذلك كذبٌ ونِفاق.

ـ كفى تبالُهاً يا بن الخال، فإنّي عارف بكلِّ شيء. ومع ذلك فإنّكَ تستطيع الذهاب إلى فرنسا من دون أن يعترضكَ أحدٌ، بشرط أن أكتم أمركَ. فإذا كتمته لن يعلم أحدٌ بجريمتك، ولن يخطر لأحد أنّ تلك المرأة المنكودة مسجونة بالنيابة عنكَ.

كان جاك قد تمالك نفسه، فقال له:

ـ إنّي ذاهبٌ بالرغم عن إباحتك، وأي عِقابٍ أخافه بعد ذهاب المدة.

فضحك سوليفو، وقال:

ـ إنّ سقوط العقاب بذهاب المدة يصحُّ في جرائم

السرقة والإحراق والقتل، وأما اختلاس الأسماء فلا ينطبق على هذه المادة من القانون. فإذا بلغ الحكومة مبلغٌ بأمركَ قبضتْ عليكَ، وبحثت في حاضركَ وماضيكَ.

فارتعد جاك، وقال:

ـ أتكون أنتَ ذلك المُبلِغ؟.

ـ ذلك منوط بكَ، فإذا لم تكترث لي أبلغتُ الحكومة حقيقة أمركَ، وإذا أجبتني إلى طلبي كتمتُهُ. ولا يجب أن تستاء لما تسمعه مني الآن، أو تحسبني من أهل الطمع. فإنّي أعرف سرّكَ المكتوم من عهدٍ بعيدٍ يتصل بعهد زواجكِ، فلو كنتُ أريد الاستفادة من هذا السر لاغتنمتُ الفرصة. أمّا الآن، فإنّكَ مزمعٌ على السفر، وقد قضيتُ معظم عمري مرؤوساً، فأصبح يحقُّ لي بعد هذا الصبر أن أكون رئيساً. وأنتَ غنيٌّ، فاعطني معملكَ وخمسين ألف ريال لأُدّبر بها العمل، أو أضطرُّ مكرهاً إلى فَضِحِكَ، وإظهار اسمك الحقيقي بما لديَّ من البراهين. فهل اشتريتَ سمعتكَ وراحتكَ بهذا المبلغ الزهيد بالقياس إلى ثروتكَ؟ ثمَّ ما يكون من مصير ابنتكَ إذا جرَّدتكَ الحكومة من أموالكَ، وزجّت بكَ في ظلمات السجون؟ تمعّن في الأمر تجد أنّه خيرٌ لكَ أن نبقى صديقين.

وقف جاك ونظر إليه نظرة المفترس، وهو يقول:

ـ ماذا عليَّ لو قتلتكَ الآن؟.

ـ إنّ ذلك لا يفيدكَ، فإنّي كتبتُ وصيّتي وأودعتها عند

أحد المسجِّلين، وفيها حكايتكَ بالتّفصيل والأدلّة القاطعة على صحة ما رويته عنكَ، بحيث لا يمضي على قتلي يومان حتّى تُفتح الوصية ويُعرف أمرك.

فقال جاك بلهجة القنوط:

ـ لقد فُزْتَ عليَّ أيها الشقي.

ـ لا تعجب لفوزي، إذ إنّكَ فُزْتَ قبلي. والآن، على ماذا عزمت؟.

ـ تعال معي.

ـ إلى أين؟.

ـ إلى دافيدسون، صاحب المصرف الذي أُودِعُ أموالي عنده. وبعد ساعة أعطيكَ خمسين ألف ريال، ويكون المعمل لكَ.

ـ لقد أحسنتَ ونهجتَ مناهج الحكمة. أمّا الآن، وقد حدث ما حدث، فلا بُدَّ من افتراقنا. ولكنّي أرجو أن نبقى صديقين متصلين بالمراسلة.

وفي ذلك اليوم نفسه أصبح المعمل ملكاً لأوفيد سوليفو. ويعد أسبوع سافر جاك مع ابنته ماري إلى الهافر. وفي آخر الشهر كانا مقيمين في قصر جميل بجوار حديقة مونسو.

وكان لجاك جيرود، أو بول هرمان، كثير من العلاقات مع رجال المعامل، وأصحاب المصارف، وأهل الاختراع

في باريس. وقد زاره الكثير منهم حين كانوا يسافرون إلى أميركا، كما أنّه كان مشهوراً بالثروة والاختراع، ففتح أبواب قصره لزائريه. ولم يكَد يختلط بالناس حتّى أشيع أنّه عازم على إنشاء معمل عظيم في ضواحي باريس لاختراعاته.

شَرَعَ جاك بالبحث عن أرض صالحة لبناء المعمل، فوجد على ضفاف السين في كوريفوا أرضاً موافقة، تبلغ مساحتها عشرة آلاف متر مربع، فاشتراها لفوره وأخذ يهتمّ بشؤون البناء.

ولكنّه لم يكَد يشرع بالبناء حتّى أقيمت قضية بشأن هذه الأرض، تتعلّق بحقّ المرور فيها. فاضطرّ جاك إلى البحث عن محامٍ ماهرٍ للتخلّص من هذه القضية، واستشار أحد أصدقائه من أصحاب المصارف، فأرشده الصرّاف إلى محامٍ فتى، اشتُهِر شهرةً واسعةً في باريس على حداثة سنّه.

قال:

ـ أرشدني إلى عنوانه كي أذهب إليه من فوري.

قال صديقه:

ـ إنّه يدعى جورج داريه، عنوانه في شارع بونابرت، رقم 19.

شكره جاك، وذهب إلى ذلك المحامي الفتى، وهو

لا يخطر له في بالٍ أنّه ابن حنّة فورتيه، تلك الضحية التي أقامت في السجن من أجله عشرين عاماً.

* * *

ويتذكّر القرّاء أنّ جورج بن حنّة، الذي تبنّته أخت الكاهن باسم جورج داريه، وعهد به الكاهن إلى المصور إتيان كاستل، كان يتلقّى دروسه في مدرسة هنري الرابع في باريس.

وقد درس الحقوق ونبغ فيها، وكاد يبلغ الخامسة والعشرين من العمر في ذلك العهد، ولكنّه كان منذ عامين معدوداً من المحامين.

وكان يقيم في شارع بونابرت، وقد فرش مكتبه خير فرش، غير أنّ الذي كان يلفت الأنظار في ذلك المكتب تلك المكتبة التي أهداها إليه الكاهن، وعمودٌ من خشب الأبنوس، وُضِعَ في أعلاه ذلك الجواد الخشبي الذي كان يلاعبه في حداثته. وقد جلله بالسواد، واحتفظ به إلى الآن، لأنّه اعتبره تذكاراً من أمّه كلاريس، إذ لم يكن يعلم أنّ أمّه هي حنّة فورتيه.

ولم يكن عنده من الخدم غير طبّاخة في الخامسة والأربعين من عمرها، فكان لا يأكل خارج البيت إلّا حين يدعوه القَيّم عليه، المصوّر إتيان كاستل.

وبينما كان جورج يُراجع أوراق قضية، دخلتْ إليه

خادمته برفقة ورقة زيارة كُتِبَ عليها اسم بول هرمان. وبعد هنيهة دخل إليه جاك جيرود، فالتقى هذا الشقي بعد واحد وعشرين عاماً بابن ضحيته.

وكان جاك قد تجاوز الخمسين من عمره، وابيضَّ شعره لأنّه لم يَعُد يصبغه، فلم يستطِع أحدٌ منهما أن يعرف الآخر. بدأ جاك الحديث، فقال:

ـ أرسلني إليكَ صرّافي أدورهلبرجر، أحد زبائنكَ. أنا فرنسيّ الأصل، أتيتُ حديثاً من أميركا، لأنّ صحة ابنتي ورغبتها بالإقامة في فرنسا دعتني إلى الرجوع إلى الوطن. ولكنّي على كوني من أهل الثروة، لم أستطِع العيش من غير عمل لتعوُّدي مشاقّ الأعمال، فاشتريتُ أرضاً في كوريفوا. وما كدتُ أبدأ بإنشاء معملٍ فيها، حتّى اضطررتُ إلى إيقاف البناء لتعرُّض بعض المشاغبين لي.

وعند ذلك بَسَطَ له تفاصيل القضية، وعرض عليه أوراقها، ففحصها جورج وقال له:

ـ إنّكَ مصيب، وستربح القضية من دون شكّ.

ـ أتريد أن تتولّاها؟.

ـ من دون شكّ. ولكنّي أحتاج إلى توكيل منك.

ـ اكتب ما تريد أن تكتبه، فأوقّع عليه.

فكتب جورج التوكيل. وبعد أن أمضاه جاك، قال له:

ـ أكون ممتناً لكَ إذا تكرّمتَ بزيارتي لإفادتي.

فشكره جورج لهذه الدعوة، وافترقا.

وبعد شهر أيقن أخصام جاك أنّهم خاسرون، فباشر البناء. وكان جورج قد زاره مرتين، فاستُقبِل فيهما خير استقبال.

❊ ❊ ❊

كان جاك يضطر في أكثر الأحيان إلى الإقامة خارج منزله للاهتمام ببناء معمله الجديد، فكانت ابنته تقيم وحدها في المنزل. ولكنّها لم تكن تضجر لأنّ أكثر بنات أصحاب أبيها كُنَّ يزرنها. على أنّ هواء باريس لم يوافقها، فقد ظهرت عليها آثار العِلّة الصدرية. وكان أبوها يرى هذه الدلائل فيصاب بالذعر، ويأتيها بالطبيب رغماً عنها، إذ كانت تعتقد أنّها معافاة سليمة، وتضحك من رعب أبيها، لا سيّما حين كان الطبيب يقول أمامها أقوالاً تدعو إلى الاطمئنان. ثمّ يكتب العلاج، إذ لا بُدَّ من كتابته، وينصرف.

وكانت ماري تحب البهرجة، وقد اختارت لخياطة ملابسها أشهر خيّاطة في باريس، وهي مدام أوغستين.

وكانت هذه الخيّاطة، على كثرة العاملات عندها، مضطرّةً إلى تعيين عاملات، كانت ترسلهن إلى بيوت زبائنها. وكان بين عاملاتها فتاة تدعى لوسي، وهي من خير

العاملات، حاولت أن تأتي بها إلى مخزنها، ولكنّ لوسي أبت إلّا أن تشتغل في غرفتها في جزيرة سانت لويس.

كانت هذه الفتاة تبلغ الثانية والعشرين من العمر، وهي جميلة الوجه رشيقة القوام ساحرة اللحظ، تدلّ عيناها على السلامة والطهارة.

وكانت جميع العاملات يحببنها ويحترمنها لحسن سمعتها، إذ لم يكن يزورها أحد. ولكنَّ صاحباتها كُنَّ يعلمن أنّ لها جاراً رسّاماً يدعى لوسيان لابرو، يحبّها ويريد الزواج بها.

* * *

عرف القرّاء أنّ لوسيان لابرو هو ابن لابرو، صاحب المعمل الذي قتله جاك جيرود واتُّهِمتْ به حنّة. وحكايته أنّه حين ماتت عمته كان قد بلغ الحادية والعشرين من عمره، وقد علّمته خير تعليم. ولكنّه كان وحيداً لا مُعين له، فلم يَفُز الفوز الذي يقتضيه علمه لعدم وجود الواسطة، فجعل يشتغل بالرسم ويعيش من عمله.

وقد قادته الصدفة إلى المنزل الذي تقيم فيه لوسي الخيّاطة، فاستأجر غرفةً فيه. وكان يراها أكثر الأيام على السُّلّم، فبدأ حبّهما بالسلام فالابتسام فالكلام، على حدّ قول الشاعر:

«نظرةٌ فابتسامةٌ فسلام
فكلامٌ فموعدٌ فلقاء».

إلى أن تمكّن منهما الحب، وكان حباً طاهراً نقيّاً لا يُراد به غير الزواج.

وقد قال لها لوسيان يوماً:

ـ إنّي أحبك يا لوسي حباً صادقاً، ومتى انتظمتْ حالي وبتُّ غنياً تزوجتُ بك. أترضين أن تنتظري؟.

فأجابته قائلة:

ـ إنّي أحبك كما تحبني، وأنتظر قَدْر ما تشاء. ولكن لماذا تتمنّى الثروة؟ إنّكَ مجتهد نشيط، وأنا لستُ كسلى، فإذا اشتغلنا معاً كان لنا ما يزيد عن نفقاتنا. ولكنّي أرى أنّكَ لا ترضى بذلك، فلماذا؟.

ـ لا أرضى لسببين: أوّلهما أنّنا متى تزوجنا يكون لكِ من أشغال البيت ما يلهيكِ عن غيرها من الأشغال. والثاني هو اعتقادي أنّ الرجل يجب عليه وحده أن يشتغل لإعالة امرأته وبنيه، وليس للمرأة غير أشغال البيت.

ومضى على ذلك عام، فكانت لوسي صابرةً خلافاً للوسيان الذي بدأ يسأم، لأنّ أرباحه لبثت قليلة لا تكفي العائلة. فإذا تزوّج يحلّ به الشقاء مع أوّل ولد تلده له امرأته.

وكان كلا العاشقين قد حكى حكايته للآخر. وقد

عرفنا حكاية لوسيان، أمّا حكاية لوسي فهي قصيرة تُحكى بسطرين، وهما أنّ مرضعةً جاءت يوماً إلى ملجأ الأطفال بطفلة يبلغ عمرها عاماً ونصف العام، فرُبِّيَتْ في الملجأ إلى أن شبّتْ، فخرجتْ منه واشتغلتْ بالخياطة.

ولا بُدَّ أن يكون القراء قد عرفوا أنّ لوسي هذه كانت ابنة حنّة فورتيه، وأخت جورج المحامي.

* * *

في الساعة التاسعة من صباح أحد الأيام، كانت لوسي قد أتمّت خياطة ثوب، فحملته وخرجت به من غرفتها كي تذهب به إلى مدام أوغستين.

وكانت غرفة لوسيان بجانب غرفتها، فدخلت إليه قبل ذهابها، فاستقبلها فرحاً مسروراً بلقائها. غير أنّها تأثّرت تأثّراً عظيماً لِمَا رأته من اصفرار وجهه، فقالت له:

ـ ما هذا الاصفرار الذي يتولّاكَ يا لوسيان؟ إنّكَ لا تزال ساهراً تشتغل كما أرى! أَمَا رجوتُكَ أن تكفَّ عن إجهاد نفسكَ بالعمل؟.

قال لوسيان:

ـ يسوؤني أنّي لم أستطع الامتثال طلبكِ، فإنّ لدي رسوماً يجب أن أسلمها إلى صاحبها في أقرب حين.

ـ ولكنَّ هذا الإجهاد قد يقتلك.

ـ ماذا تريدين أن أصنع؟ فإنّي لم أدع معملاً إلّا ولجت بابه، فلم ألقَ من أصحابه غير الوعود. وأخاف أن يذهب العمر قبل تحقيق هذه الوعود.

وقد ساد السكوت هنيهة بينهما، إلى أن عادت لوسي إلى الحديث، فقالت:

ـ إنّي أراكَ مسترسلاً إلى اليأس يا لوسيان، وما هذا شأن المحبين. فهل أقلعتَ عن حبي؟.

ـ ما هذا القول الجائر يا لوسي؟ أنتِ تعلمين أنّي أحبكِ بملء جوارحي. ولكن ماذا تريدين أن أصنع؟.

ـ أريد أن تصنع ما يصنعه سواكَ ممّن هم أقل كفاءة منكَ، وأريد أن تعمل بقول الشاعر العربي:

أخلِقْ بِذِي الصبر أن يحظى بحاجته

ومدمنُ القَرعِ للأبوابِ أن يَلِجَا

أريد أن تذهب في كلّ يوم إلى هذه المعامل، وألّا تملَّ السؤال، فلا بُدَّ من أن تُجاب إلى ما تطلب.

ـ ولكنّي إذا قضيتُ النهار جائلاً باحثاً عن عمل ثابت، لا أستطيع العمل لأعيش.

ـ ألم أقُل لكَ إنّي مقتصدة بعض الدنانير؟ فلماذا لا تأخذها؟ إنّي أعطيها إلى خطيبي اليوم، وزوجي في الغد.

ـ كلا! إنّي لا أقبل ذلك على الإطلاق.

ـ ما هذا العِناد يا لوسيان؟ أتأبى عليّ لذة مساعدتك لأنّي امرأة؟.

ـ كلا... كلا. قلتُ لكِ مراراً إنّي لا أقبل.

ـ إذن لماذا لا تلجأ إلى أصحابكَ الذين كنتَ وإياهم في المدرسة؟ فإنّهم جميعهم من الأغنياء.

ـ لقد اجتمعتُ بهم كلهم، فكانوا يستقبلونني بملء البشاشة إلى أن يعلموا بعُسري فيصدّون عنّي، حتّى اضطررتُ إلى اجتنابهم.

ـ أعاملوكَ كلهم بهذا الجفاء، حتّى ذلك الفتى الذي كنت تمدحه أمامي؟.

ـ أتعنين جورج داريه، رفيقي في مدرسة هنري الرابع؟.

ـ نعم. هل لقيته؟.

ـ كلا. إنّي لا أعلم أين يقيم، لأنّي لم أرَه منذ ستة أعوام.

ـ ألعلّه في باريس؟ ماذا كان يدرس في المدرسة؟.

ـ علم الحقوق.

ـ إذا كان من المحامين كانت معرفة محلّه يسيرة.

ـ من دون شكّ. ولكنّه سيكون مثل سواه من بقية الأصحاب.

ـ من يعلم؟ ربما يكون من أهل المروءة. إنَّ قلبي يحدّثني بأنّه سيكون من خير أصدقائك، فاذهب إليه يا لوسيان. إنّي أرجوك.

ـ سأمتثل لأمركِ أيتها الحبيبة، وأبحث عنه منذ اليوم.

فابتسمت لوسي، وقالت:

ـ لقد دخلتُ إليكَ منقبضة الصدر من اليأس، وأنا أخرج الآن وملء قلبي الرجاء بوعدك!. توكّل على اللّٰه، وسنلتقي في هذا المساء.

ثمّ بسطت جبينها لخطيبها فقبّلها، وانصرفت بالثوب إلى مدام أوغستين.

كانت هذه الخياطة الشهيرة تقيم في شارع سانت أونوريه، فذهبت لوسي إليها، ودخلت بثوبها إلى قاعة التجربة، فوجدتْ فيها مدام أوغستين مع سيدة جميلة شقراء، تبلغ الثامنة عشرة من عمرها.

كانت هذه السيدة من أفضل زبائن مدام أوغستين كما يظهر، لأنّها كانت تقيس لها الثوب بنفسها. فلمّا رأت مدام أوغستين لوسي قد دخلتْ إليها، ابتسمتْ لها وقالت:

ـ أتيتِ حين الحاجة إليكِ، فإنّي سأعطيكِ شغلاً مستعجلاً يقتضي له كثيرٌ من سلامة الذوق، وهو ثوب رقص، أي هذا الثوب الذي تريني أقيسه للسيدة ماري هرمان.

فقالت ابنة جاك:

ـ أهذه هي المدموازيل التي ستتولّى خياطة ثوبي؟.

فأجابتها الخياطة قائلة:

ـ نعم، إنّها أمهر العاملات عندي وأسلمهنَّ ذوقاً، وستخفف عنكِ عبء الحضور إليّ، إذ تذهب إلى منزلك فتقيس لكِ الثوب حين إتمامه.

فقالت لها ماري:

ـ إذن سأنتظركِ في قصر أبي، فإنّي أكون فيه دائماً في الصباح. وأرجو أن تنجزي خياطة الثوب في أقرب حين.

ثمّ انصرفت وهي تبتسم للوسي. وشيّعتها مدام أوغستين إلى الخارج بملء الإكرام.

وعادت الخياطة ففحصت الثوب الذي جاءت به لوسي، وأثنت عليها لإتقان صنعه، قائلة:

ـ هذا هو السبب الذي دفعني إلى أن أعهد إليكِ بخياطة ثوب السيدة هرمان، التي يصعب إرضاؤها. هل رأيتها قبل الآن؟.

ـ كلا.

ـ إنّها أميركية، وأبوها من أهل الصناعة والاختراع، وهو من أصحاب الملايين. وقد برح نيويورك ليستوطن باريس. أمّا ابنته فصعبة الإرضاء، كما قلتُ لكِ، وهي معذورة في ذلك بسبب مرضها، فهي مصابة بِعِلّة الصدر من دون أن تعلم. أرجو أن تعتني بثوبها كلّ العناية، وهذا هو عنوانها فاكتبيه.

كتبت لوسي العنوان وانصرفت. أمّا لوسيان، فكان كلّ همّه أن يعلم إذا كان جورج داريه في باريس، ويكفي لذلك أن يقرأ أسماء المحامين في الجدول المُعلّق في سراي الحقانية، فإذا كان من المحامين فلا بُدَّ أن يكون اسمه مكتوباً في الجدول.

وقد تغدّى لوسيان في غرفته، ثمّ ذهب تواً إلى المحكمة فلَقِيَ رجلاً بملابس المحامين، وسأله عن مكان الجدول كي يرى إذا كان اسم جورج داريه مكتوباً فيه. فأجابه المحامي قائلاً:

ـ لا حاجة إلى مراجعة الجدول. إنّ جورج داريه من زملائي، وهو يقيم في شارع بونابرت، رقم 19.

شكره لوسيان، وانصرف مسروراً برجائه، ليقابل ذلك الصديق القديم.

أمّا جورج داريه فكان جالساً في مكتبه، وهو منهمك في مراجعة أوراق. فجاءت الخادمة وأخبرته بزيارة إتيان كاستل، المصوّر والوصيّ عليه.

أسرع جورج إلى لقائه، وقال له معاتباً:

ـ مضى أسبوعان من دون أن أراك.

فأجابه المصور بلهجة المؤنّب:

ـ هو ذاك، فإنّي كنت منهمكاً بإتمام رسم. ولكنَّ

المسافة بين منزلي ومنزلكَ غير بعيدة؛ ألم تكن تستطيع أنتَ زيارتي؟.

ـ لا تلُمني، فإنّ أشغالي كثيرة في هذا الأيام.

ـ هذا الذي أتمنّاه. أنا لا ألومكَ، بدليل أنّي قادم للغذاء عندكَ. والآن، اعلم أنّي فَرِغتُ من الرسوم التي كنتُ أصنعها، وبقي عليّ رسمُ حادثةٍ أخذتُ مذكِّراتٍ بها منذ واحد وعشرين عاماً، في منزل خالك كاهن شفري، وأريد أن تساعدني.

ـ مُر بما تشاء، فإنّي طوعٌ لك فيما تريد.

ـ إنّكَ تحتفظ كما أعلم بتذكار قديم من عهد الحداثة، هو جواد من الخشب والكرتون كنت تلاعبه.

ـ هو ذاك، فإنّه تذكار من أمي، أعطتني إياه حين كنت طفلاً، وأنا أحتفظ به الآن كأجَلِّ الآثار.

ـ إنّي أريد أن تسلفني هذا الجواد كي أُتِمَّ به الرسم.

فدهش جورج، وقال:

ـ ماذا تريد أن ترسم؟.

ـ حادثة محزنة مؤثرة، وهي جنود دخلوا إلى منزلٍ للقبض على امرأة متهمة بجريمة، كانت قد لجأت إلى هذا المنزل. وأعضاء هذا الرسم كثيرون، وهم المرأة المقبوض عليها، والجنود، وعُمدة البلدة، وخالك الكاهن، وأنا، وأنتَ.

ـ أنا؟.

ـ نعم، أنتَ. وقد كنتَ تبكي كأنّكَ كنتَ تتوسل الجنود كي يعفوا عن تلك المرأة المنكودة.

ـ هل حدثت هذه الحادثة، أم هي من مخترعاتك؟.

ـ بل حدثتْ حقيقةً.

ـ وأنا كنتُ فيها؟.

ـ من دون شكّ.

ـ ذلك عجيب، إذ يُقال إنّ حوادث الحداثة تنطبع في ذاكرة الأطفال، فلا يمحوها مرور الأيام. ولكنّي لا أذكر شيئاً ممّا تقول، فكم كان عمري في ذلك العهد؟.

ـ ثلاثة أعوام ونصف العام.

ـ إنّي لا أتذكّر شيئاً من ذلك العهد.

ـ راجع ذاكرتكَ.

ـ راجعتُها ولم أتذكّر.

ـ سأعينكَ على التذكّر، فقد جرت الحادثة في الحديقة، وكان بجانبكَ جوادكَ الخشبي. لذلك أردتُ أن آخذ منك هذا الجواد كي يكون الرسم طبيعياً.

ـ سأعطيكَ إياه بملء الرضى. ولكنّكَ قلتَ لي إنّ صور أمي وخالي وصورتكَ ستكون في هذا الرسم.

ـ وصورتكَ أنتَ أيضاً.

ـ ماذا تريد أن تصنع بهذا الرسم؟ أتريد بيعه؟.

ـ لماذا تسألني هذا السؤال؟.

ـ لأنّه لا يوجد عندي إلى الآن صورةٌ من صُنعِكَ.

ـ يظهر أنّكَ أصبحتَ من الأغنياء، فأنتَ تعلم أنّي أبيع رسومي بأغلى الأثمان.

فابتسم جورج، وقال:

ـ إنّي أعلم ما تقول، ولكنّي أعلم أيضاً أنّكَ ستعاملني معاملة الأصدقاء.

فضحك المصور، وقال:

ـ ألم تعلم أنّي لم أُعِدَّ هذا الرسم إلّا لأجعله هديةً لك، ولم أخبركَ بذلك في البدء لأنّي أحببتُ أن أباغتكَ به؟ فأَعِدَّ له مكاناً منذ الآن.

شكره جورج، وقال له:

ـ أرى أنّ هذه المرأة التي قبضوا عليها لها الدور الأوّل في رسمكَ، وقد قلتَ لي إنّ الحادثة حقيقة، فهل تقول لي ماذا جَنَتْ هذه المرأة؟.

ـ اتّهموها بثلاث جنايات، هي الإحراق والسرقة والقتل.

ـ مسكينة! لقد حاكموها من دون شكّ.

ـ هو ذاك.

ـ وبماذا حُكِمَ عليها؟.

ـ بالسجن المؤبّد.

ـ ذلك يدلّ على أنّها كانت مجرمة حقّاً.

ـ من دون شكّ، فإنّ القضاة أيّدوا جريمتها بالبراهين.

ـ أتعرف اسمها؟.

ـ كنتُ أعرفه، ولكنّي نسيته لتقادم الأيام.

عند ذلك دخلت الخادمة، فقطعتْ عليهما الحديث، وقالت:

ـ يوجد بالباب فتى يريد مقابلتك، وهو يدعى لوسيان لابرو.

* * *

ظهرت على جورج علائم الفرح والانذهال، وقال:

ـ إنّه صديق لي من أيام التلمذة، لم أرَه منذ خمسة أعوام، فهل تعرفه؟.

فأجابه المصور قائلاً:

ـ أظنّ أنّي أعرف اسمه.

ـ أتأذن لي أن أقابله بحضوركَ؟.

ـ لا آذنُ لكَ فقط، بل أرجوك.

فاستقبل جورج صديقه بسرور صادق، وعرّفه بالوصيّ عليه. ثمّ دار بينهما الحديث، فقال له جورج:

ـ ألعلّكَ مقيم في باريس أيها الصديق؟.

ـ نعم، وذلك منذ سنتين.

ـ لقد كنتُ أعهدُ بكَ الميل إلى الميكانيكيات، فلا بُدَّ أن تكون الآن رئيساً لأحد المعامل.

ـ كلا، وأسفاه!.

ـ كيف ذلك؟ ألم تبلغ بعد هذا الشأن، على ما أعهده بك من المهارة والحذق؟.

ـ ذلك لأنّ هذه المهارة التي تصفني بها لم تفدِني في شيء، لأنّها غير مقرونة بالتوفيق، بحيث اضطررتُ بعد استنفاد الحِيَل إلى نسخ رسوم الآلات لأعيش منها.

ـ ألم يتوسّط لكَ أحد في المعامل؟.

ـ عملتُ كلّ ما يُعمل، حتّى إذا قنطتُ أتيتُ إليكَ.

ـ كان يجب أن تبدأ بي، فإنّي لا أأسف إلّا على أمر واحد، وهو تأخُّركَ بقدومكَ إليّ. سأهتمُّ بشأنكَ منذ الغد.

ـ هل خَطَرَ لكَ خاطر؟.

ـ نعم. هل ترضى أن تتولى إدارة معمل خاص بإنشاء آلات السكك الحديدية؟.

ـ ذلك كلّ ما أطمع فيه.

ـ إذن فاعلم أنّي أرجو أن أوفق إلى تعيينكَ في هذا المنصب، ذلك أنّي عرفتُ واحداً من زبائني، وهو فرنسي

الأصل، عاد من نيويورك إلى باريس فأنشأ فيها معملاً عظيماً، لأنّه من كبار الأغنياء. وقد خدمته خدمةً جليلةً، فهو لا يخيّب رجائي من دون شكّ. أمّا هذا الرجل فيدعى بول هرمان.

ـ بول هرمان؟!.. أهو شريك جمس مورتيمر في نيويورك.

ـ هو بعينه! كيف عرفتَ اسمه؟.

ـ لأنّه أشهر رجال الصناعة؛ فهو مخترع آلة الخياطة الساكتة، ومخترع آلة الصقل التي كان أبي يشتغل فيها، كما أخبرتني عمّتي.

ـ إذن ستغدو يد هذا الرجل اليمنى.

ـ لا أعلم كيف أشكركَ أيها الصديق! إذ نجحتَ في سعيكَ المحمود، أحييتَ ميت الرجاء في قلبي.

ـ أرجو أن يكون النجاح مضموناً. لا تقُل كلمة لأحد عن اجتماعنا، واعتمد عليَّ. إنّكَ ستتغدّى معنا، فنُتِمَّ الحديث على الغداء.

ـ ولكن....

فقاطعه جورج قائلاً:

ـ لا تعترض ولا تعتذر، فإنّي لا أقبل لكَ عذراً.

وقال إتيان المصور:

ـ قلتَ لنا منذ هنيهة إنّ أباكَ كان مخترعاً، فهل أنتَ ابن جيل لابرو، الذي احترق معمله منذ نيف وعشرين عاماً؟.

ـ نعم يا سيدي! وإنَّ أبي المنكود مات قتيلاً في ذلك الحريق.

فدُهش جورج، وقال له:

ـ إنّكَ لم تذكر لي شيئاً عن هذه النكبة من قبل.

ـ ذلك لأنّي كنتُ أجهل تفاصيلها، فقد كتموها عنّي في بدء عهودي كي لا يؤثّر عليّ الاضطراب أثناء دروسي، ولم أعلم بهذه الحادثة الهائلة إلّا بعد وفاة عمتي.

سأل إتيان لوسيان إذا كان قد عَرِفَ أباه من قبل، فأجاب:

ـ كلا، لكنّي سمعتُ الناس يتحدّثون بهذه الحادثة، فطُبِعَ اسم هذا الرجل الشريف في ذاكرتي.

ثمّ قال في نفسه: ما هذا الاتفاق الغريب؟ أيكون ابن القاتلة صديق ابن المقتول.

وقال جورج:

ـ وهل عوقب المجرم؟.

فأجابه لوسيان:

ـ إنّ الجاني كان امرأةً، وقد عُوقِبَتْ بالسجن المؤبد.

ـ امرأة؟.

ـ نعم، وقد هربت بعد ارتكاب الجناية، ولجأت إلى منزل كاهن في قرية قريبة من باريس.

فنظر جورج إلى إتيان نظرة السَّائل، فأجابه إتيان قائلاً:

ـ هو ذاك. إنّ هذه المرأة هي المرأة نفسها التي كنتُ أحدِّثُكَ عنها من قبل، والتي لها الدور الأوّل في الرسم الذي أصنعه.

فقال له لوسيان:

ـ هل عرفتَ هذه المرأة يا سيدي؟.

ـ لقد رأيتُها وكلّمتُها.

ـ أين كان ذلك؟.

ـ في قرية شفري، في منزل كاهنها، وهو خال جورج.

ـ ما هي صفاتها؟.

ـ إنّها بارعة الجمال، جذّابة العينين. وكان يظهر عليها أنّها شديدة العذاب.

ـ لقد أنكرتْ جريمتها، أليس كذلك؟.

ـ كُلَّ الإنكار. هي تعتقد بأنّها بريئة.

ـ ربما كانت صادقة في ما تدّعيه.

ـ ولكنّهم حكموا عليها.

ـ ذلك لا يدلُّ دلالة صادقة على ثبوت الجريمة، فإنّ خطأ القضاء مشهور في كلّ البلاد.

ـ غير أنّ الأدلّة كانت كثيرة قاطعة.

ـ وهذه الأدلة قد تكون كاذبة. فهل تتبعتَ مجرى القضية يا سيدي؟.

ـ بملء الاهتمام.

ـ ماذا كان اعتقادك بتلك المجرمة؟.

ـ أنّها قد تكون مذنبة.

ـ تقول إنّها قد تكون، فكأنّكَ لا تجسر على الجزم كما جزم القضاة؟.

فتمعّن إتيان هنيهة، ثمّ قال:

ـ ذلك ممكن، بل قد يكون مرجحاً.

ـ أما أنا فإنّي قرأتُ أوراق القضية، وقد حفظتْ عمتي جميع الجرائد التي أسهبت في هذا الموضوع، فاعتقدتُ بعد تلاوتها أنّ هذه المرأة بريئة. وكان هذا اعتقاد عمتي أيضاً، إذ كانت تقول قبل موتها إنّه لا يمكن أن تكون حنّة فورتيه مرتكبة الجرائم الثلاث.

فقال جورج:

ـ أتدعى هذه المنكودة حنّة فورتيه؟.

قال:

ـ نعم.

فسأل المصور:

ـ أتعلم ماذا كان دفاعها؟.

قال:

ـ نعم، كانت تتّهم نائب رئيس المعمل بالقتل، وهو يدعى جاك. وقالت إنّ هذا الرجل كان يُظهِر لها الحب، ويدعوها إلى مبارحة فرنسا بالأموال المسروقة، وإنّه كتب لها كتاباً، كما تقول، يتضمّن البرهان الجليّ على سوء قصده. ولكنّها لم تستطع إظهار هذا الكتاب.

فقال له لوسيان:

ـ هو ذاك! إنّي واثق من أنّ الكتاب قد كُتِبَ، وأنّ الجاني هو جاك جيرود دون سواه.

ـ ألعلّكَ نسيتَ أنّ هذا الرجل مات شهيد غيرته وإخلاصه؟.

ـ كلا، فإنّي وعمتي لا نثق بأنّ هذا الرجل مات. وسأبذل جهدي في سبيل معرفة القاتل، وإطلاق سراح تلك المنكودة المحكوم عليها ظلماً.

ـ وأيُّ فائدةٍ من إيجاد القاتل، بعد أن مضى على الحادثة واحد وعشرون عاماً؟ إنّ الحكومة لا يحقُّ لها مقاضاته لفوات المدة القانونية.

ـ لا أبالي بمحكمة القضاة، فإنّي أنتقم لنفسي.

ـ أتعلم إذا كانت حنّة فورتيه باقية في قيد الحياة؟.

ـ كلا، ولكنّي سأعلم.

فقال له جورج:

ـ إنّكَ إذا أحببتَ تولّيتُ عنك هذه المهمة، وذاك سهل عليَّ لكثرة اتصالي بالمحاكم والقضاة.

ـ أشكركَ لإخلاصكَ أيها الصديق. والآن، فقد بحثنا كثيراً في شأني، وأظهرتَ لي من المروءة ما قيّدني بجميلكَ، فلنبحث في شأنكَ؛ فهل أنتَ راضٍ عن حالتكَ؟.

ـ كلّ الرضى! فإنّ المسيو إتيان، الوصيُّ عليَّ، لا يزال من خير أصحابي، وقد عرف الزبائن باب مكتبي، فأنا دائم الشغل، دائم الفوز. وما عساي أتمنّى بعد ذلك؟!.

ـ زوجة تشاركك في هذا النعيم.

فضحك جورج، وقال:

ـ لا يزال الوقت فسيحاً لديَّ للبحث في شأن الزوجة. وأظنّ أنّي سأبقى عازباً، كما بقي المسيو إتيان، فإنّي لا أزال إلى الآن أؤثر العزوبة على الزواج. فهل أنتَ على هذا الرأي؟.

فاحمرّ وجه لوسيان، وقال:

ـ كلا، ولكنّي لا أستطيع الإقدام على هذا الأمر الذي يدعونه الزواج، إلى أن يتحسّن حالي.

رأى جورج احمرار وجه صديقه، فقال:

ـ أرى أنّ هذا هو الذي يمنعك الآن من الزواج؟.

ـ هو ذاك. فإنّي، عدا عن فقري، ليس لديَّ مركز يضمن نفقاتي، وكذلك لوسي التي ستغدو امرأتي، فإنّها فقيرة مثلي.

ـ من هي هذه الفتاة؟.

ـ هي صبية يتيمة، رُبِّيتْ في ملجأ اليتامى، فلا تعرف اسم عائلتها. ولكنّها طاهرة القلب، مُجِدَّةٌ في العمل، تشتغل كالنحلة.

ـ أتحبّها؟.

ـ بملء جوارحي، فلا سعادة لي إلّا بقربها.

ـ إذن أرجو أن أراكَ سعيداً في أقرب حين، إذ لا يعوزك في سبيل هذه السعادة غير المنصب الذي ستتولّاه قريباً، إن شاء اللّه. وأنا أدعو نفسي مُقَدَّماً إلى عرسكَ.

* * *

أقام لوسيان عند صديقه إلى الساعة الحادية عشرة، ثمّ ودّعه وسار عائداً إلى غرفته، وهو يكاد يطير سروراً، لِمَا لَقِيه عند صديقه من الحفاوة والرجاء.

وكانت لوسي تنتظر عودته بملء الجزع، وهي منقبضة الصدر كئيبة النَّفْس.

وبقيت تشتغل وتنتظر حتّى سمعت وقع خطواته على

السُّلّم، فأسرعت إلى فتح باب غرفتها، ونادت بصوت منخفض قائلة:

ـ أهذا أنتَ يا لوسيان؟.

فأسرع لوسيان إليها، وقال:

ـ نعم أيتها الحبيبة.

قالت:

ـ لقد عذبتني كثيراً بهذا الانتظار، فقد طال غيابك حتّى أنّي خفتُ عليك خوفاً شديداً.

ـ لقد أخطأتِ بهذا الخوف يا لوسي، فإنّي لم ألقَ غير السعادة. أتأذنين لي أن أدخل إلى غرفتكِ وأخبركِ بِمَا حدث لي؟.

ـ ادخل! فإنّي أسمع حديثكَ وأشتغل.

دخل لوسيان، وجلس على كرسي بجانب لوسي، التي قالت له:

ـ أرأيتَ صديقكَ جورج داريه؟.

ـ نعم.

ـ كيف استقبلكَ؟.

ـ بما كان يحدثّكِ به قلبك، فقد لقيتُهُ خير صديق عند الملمّات.

ـ ألعلّكَ تعشّيتَ عنده؟.

ـ هو ذاك، فإنّي خارج الآن من منزله.

ـ أوعدكَ بإيجاد عملٍ لكَ؟.

ـ وعدني أن يجعلني مديراً لمعمل عظيم، يُبنى الآن في ضواحي باريس. فإنّ صاحب هذا المعمل، وهو من كبار الأغنياء، لا يخيّب لجورج رجاءً.

دقّتْ لوسي يداً بيد، وقالت:

ـ ربّاه! ما هذه السعادة؟ لقد صَدَقَ حديث قلبي. والآن، اذهب يا لوسيان واسترِح بالرقاد، وفوق ذلك فإنّي لا أحبّ أن يرانا الجيران معاً في مثل هذه الساعة.

* * *

كان جورج داريه، وهو ابن حنّة، طاهر القلب طيب السريرة حسن المروءة. وقد أثّرت عليه حالة صديقه، وبقيت هذه الصداقة راسخة في نفسه من عهد الحداثة.

في صباح اليوم التالي، كان أوّل ما فعله أنّه ذهب مسرعاً إلى منزل بول هرمان، أي جاك جيرود، فلَقِيَ خادم غرفة جاك واقفاً عند السلالم، وسأله عن سيده، فأجابه أنّه مسافر.

استاء جورج لهذا الاتفاق، وقال له:

ـ ألعلَّ غيابه يطول؟.

ـ لا أعلم يا سيدي. ولكنَّ الآنسة ماري لا بُدَّ أن تكون

عارفة بنوايا أبيها، وهي تستقبلكَ يا سيدي بملء الارتياح من دون شك. فهل تريد أن أخبرها بقدومك؟.

وكان جورج قد اختلط كثيراً بهذه العائلة، وعَرِفَ حقّ المعرفة شدّة نفوذ ماري على أبيها. فنظر إلى الخادم، وقال:

ـ إذا كنتَ واثقاً من أنّي لا أزعجها بهذه الزيارة، فأعطها رقعة زيارتي.

تفضّل إذن يا سيدي، واتبعني إلى قاعة الاستقبال.

وذهب الخادم إلى سيدته بالرقعة، فأقبلت مسرعة إلى حيث كان جورج، ومدّتْ إليه يدها مصافحة، وقالت:

ـ إنّي على يقين بأنّ زيارتكَ ليست لي، ولكنّي أستقبلكَ بملء الارتياح. فاجلس أمامي ولنتحدّث.

قال:

ـ كيف أنتِ يا سيدتي؟.

ـ إنّي بخير وعافية. لم ألقَ من الصحة ما ألقاه في هذه الأيام.

وعند ذلك فاجأها السعال، فقطع عليها الكلام. حتّى إذا خفّت وطأته، قالت:

ـ إنّي لا أشكو غير هذا السعال، ولولاه لكنتُ بخير.

وكان جورج يعلم أنّها مصدورة، كما يعلم ذلك جميع الذين كانوا يزورون أباها. ولكنّها لم تكن تعلم شيئاً عن علّتها، وتحسب أنّ هذا السعال عارض زائل.

فقال لها:

ـ ألعلّكِ تتعالجين يا سيدتي؟.

قالت:

ـ إنّي لا أصنع غير هذا. لقد زهق الأطباء نفسي بأدويتهم، وليس في الأمر ما يحتاج إلى هذه العلاجات، فإنّ هذا السعال غير متأتٍّ إلّا عن التهاب بسيط في الحلق. فلندع هذا الحديث، وأخبرني عنك: هل أنتَ قادم لزيارة أبي؟.

ـ نعم يا سيدتي.

ـ إنّه مسافر، وسيغيب ثلاثة أسابيع. أي أنّه لا يعود إلى باريس إلّا في أوّل الشهر القادم، بحيث أنّي أشعر بضجر عظيم، فإنّي لم أتعوّد الوحدة. قُل لي ماذا تريد من أبي، فإنّي أكاتبه ويكاتبني في كلّ يوم، وسأذكر له زيارتك وأسبابها إذا أردتَ.

ـ لا بأس من الانتظار يا سيدتي، فأوضح له أسباب هذه الزيارة. غير أنّي أجد نفسي سعيداً باجتماعي بكِ، فإنّي أرجو مساعدتكِ في شأنٍ لي.

ـ قُل يا سيدي، فإنّي أساعدكَ خير مساعدة. فما هو هذا الشأن الذي تريده؟.

ـ أريد أن تساعديني في تعيين فتى حاذق في معمل أبيكِ، وهو قد تخرّج من مدرسة الصنائع والفنون.

ـ ألعلَّ هذا الفتى من أصدقائك؟.

ـ كان صديقاً منذ أيام التلمذة، وقد أصيب بنكبة فادحة في أوّل عمره، فقُتِلَ أبوه، وسُرِقَ ماله، ورُبِّيَ عند عمته، ولكنّها كانت فقيرة بحيث أنّه لا يستطيع أن يعيش من غير عمل.

ـ إنّكَ تسألني يا سيدي أن أساعدكَ في عمل إنساني، أشترك فيه وإياك بملء الرضى. فليعتمد صديقكَ عليَّ، فإنّي أضمن الفوز. سيعود والدي في اليوم الثاني من الشهر القادم، فقُل له أن يزورني في الثالث من ذلك الشهر.

شكرها جورج، وانصرف من عندها وهو واثق كلّ الثقة من نجاحها. وذهب تواً إلى منزله، فكتب إلى صديقه لوسيان عمّا اتّفق، فاطمأنّ بال لوسيان بفضل هذا الصديق الصادق، ولم يبقَ له غير الانتظار.

* * *

وعلى ذلك، فقد اجتمع أعضاء هذه الرواية على مسرح واحد، وبدأت حوادثها الغريبة. فإنّ ابنة جاك جيرود التقت بجورج بن حنّة، وستلتقي بلوسي الخياطة، ابنتها أيضاً، وبلوسيان بن لابرو.

وقد أفلتت حنّة فورتيه من سجنها. ولبث جاك جيرود آمناً مطمئناً، لا يخشى العواقب وظهور جريمته الهائلة.

* * *

تقدَّم لنا القول إنّ أشخاص هذه الرواية ظهروا على مسرح واحد، وأوشك أن يتصل بعضهم ببعض؛ فإنّ جورج بن حنّة لَقِيَ لوسيان بن لابرو، وعشق لوسيان لوسي أخت جورج، وطلبت ابنة جاك جيرود السّفّاك أن تقابل لوسيان ابن ذلك الذي قتله أبوها، وهربت حنّة فورتيه من السجن، وذهبت تبحث عن ولديها جورج ولوسي، وكلاهما لا يعلمان أنّهما أخوان، ولا يعرفان اسمي أبيهما وأمهما.

أما أمهما حنّة فورتيه، فقد تقدّم لنا القول إنّها هربت من السجن بملابس الراهبات. وقد عَرِفَ القراء أنّها على كونها مسجونة كانت رئيسة الممرضات في مستشفى السجن، وكان لها راتبٌ أسوةً بسائر الممرضات.

وقد أخذت ما كان معها من فضلات ذلك الراتب، وذهبت إلى بائعة ملابس جاهزة، فقالت لها:

ـ إنّي ذاهبة لزيارة امرأة فقيرة، وأريد أن أشتري لها ثوباً يدفئها. إنّ قامتها مثل قامتي، فأعطني ثوباً على قياسي.

فأعطتها البائعة الثوب، ودفعت حنّة ثمنه وانصرفت. فجعلت تمشي حتّى وصلت إلى مكانٍ خلا من الناس، فأسرعت إلى خلع الثوب الرهباني الذي كانت تلبسه، ولبست الثوب الذي اشترته، وأسدلت شعرها على جبهتها وصدغيها إخفاءً لوجهها. ثمّ سارت تواً إلى محطة السكة الحديدية.

وقبل أن تصل إليها سمعت صوت الجرس يُقرَع فيها، فركضت مسرعة إلى قاعة الانتظار، وقالت لأحد الموظفين:

ـ إنّي أريد السفر إلى باريس، فمن أين أشتري التذكرة؟.

فأرشدها الموظف إلى محل بيع التذاكر، وحثّها على الإسراع لأنّ القطار كان على وشك السفر.

أمّا حنّة فإنّها وثبت وثباً إلى شباك بيع التذاكر، فاشترت تذكرة وأسرعت إلى مكان الدرجة الثالثة في القطار، ودخلت إلى غرفة كانت فيها فتاة وأمها. وعند ذلك صفّر القطار وسافر.

وكانت حنّة تتمعّن في أمرها، وتضع خطة جديدة، إذ إنّها كانت تعلم أنّهم سيعلمون قريباً بأمر فرارها من المستشفى. ولم تكن مخطئة في ظنّها، فهي كانت رئيسة الممرضات في المستشفى، وقد لاحظوا في الحال أنّ جميع الممرضات قد حضرن ما خلاها، فحَسِبوا أنّها لم تستيقظ بعد.

ذهبت إحدى الممرضات للبحث عنها في غرفتها فلم تجدها. وبعد هنيهة عادت الراهبات من الكنيسة، وكانت الرئيسة منذهلة لعدم حضور الراهبة فيلومين، التي تنكّرت حنّة بملابسها. فذهبت إلى غرفة تلك الراهبة ووجدتها نائمة، ولكنَّ نومها لم يكن طبيعياً. ثمّ رأت أنّ ثيابها

غير موجودة في الغرفة، وأنّه يوجد بدلاً منها ثياب حنّة الممرضة.

وبعد هنيهة تيقّنوا من هرب حنّة، فهاج المستشفى لفرارها. ولم تكن إلّا ساعة حتّى انتشر خبر فرارها في القرية.

وقد عَلِموا بعد البحث أنّها سافرت إلى باريس، ولم يسافر منها منذ ساعة غير قطار واحد. فأرسلوا تلغرافاً إلى إدارة الشرطة في باريس، يسألونها فيه منع كلّ امرأة من ركاب الدرجة الثالثة من الخروج من المحطة. وسافر مندوب من قِبل المستشفى، كان يعرف حنّة، بالقطار السريع.

لم يكد يصل التلغراف حتّى أسرع رجال الشرطة وبَلَغُوها حين وصول القطار. ولكنَّ حنّة نجت منهم، إذ توقّعت تدخّل الشرطة، وذلك حين وصل القطار إلى سانت دنيس، حيث نزلت في محطتها. فأخذ حارس الباب تذكرتها من دون أن ينظر إليها، فذهبت إلى باريس ماشيةً ودخلتها بعد ساعة.

وهناك تنشّقت نسيم الحرية، واعتمدت على أن لا تستريح قبل أن تبحث عن ولدها. فسارت تواً إلى محطة فنسانت، وهناك ركبت القطار المؤدي إلى شفري، حيث تركت ولدها جورج عند الكاهن.

ولم تكن تخاف أن يعرفوها، فإنّها تغيّرت تغيّراً عظيماً

منذ عشرين عاماً، وجنت تسعة أعوام، وبلغت الثامنة والأربعين من عمرها؛ فكيف يمكن أن يعرفوها؟

غير أنّها كانت تخاف أمراً واحداً، وهو أنّه لا بُدَّ لها من السؤال لتعلم ما جرى لولدها، فكانت تخشى أن تلفت أسئلتها الأنظار، فعوّلت على أن تنهج منهج الحكمة والتروي.

وقد وصلت إلى شفري، وذهبت إلى بيت الكاهن وقلبها يخفق خفوقاً عظيماً، حتّى خُيّل لها أنّه سيخرج من صدرها. وكانت كلّما دنت من منزل الكاهن يتمثّل لها الماضي، فرأت أخت الكاهن تضمّ ولدها إلى صدرها، وذكرتْ ذلك اليوم الهائل الذي وصلتْ فيه إلى منزل الكاهن، وهي خائرة القوى يضنيها الجوع، وولدها جورج بين يديها.

ولما دخلتْ إلى منزل الكاهن طرقت بابه، ففتحتْ لها امرأة عجوز، وقالت لها:

ـ ماذا تريدين؟.

قالت:

ـ أريد أن أرى كاهن قرية شفري.

قالت:

ـ إنّه في الكنيسة، فاذهبي إليه.

فذهبت حنّة إلى الكنيسة، وصبرت إلى أن انتهت الصلاة وتفرّق الناس. وعندما حاول الكاهن أن ينصرف، دنت حنّة منه واستوقفته. فوقف الكاهن، وقال لها:

ـ ماذا تريدين يا ابنتي؟.

قالت:

ـ أريد أن أكلِّمكَ يا سيدي، فقد أتيتُ من باريس خصيصاً لهذا الغرض.

ـ قولي يا ابنتي ماذا تريدين؟.

ـ لقد عهدتْ إليَّ امرأة في باريس أن أسألكَ عن بعض الأمور.

ـ ماذا تريدين أن تسألي؟.

ـ عن سلفكَ الكاهن السابق، الذي كان كاهن هذه القرية سنة 1861.

ـ أتعنين به الكاهن لوجيه الذي خلفتُهُ؟ لقد مات في سنة الحرب، وخلفتُهُ سنة 1871.

ـ ألم يكن له أخت؟.

ـ نعم، ولكنها ماتت قبله.

ـ ألم تكن أخته تتولّى تربية غلام؟.

ـ نعم، وهو ولدها كما قيل لي.

فارتعدت حنّة، وقالت في نفسها: إنّه ولدي.

ثمّ أخفت اضطرابها، وقالت:

ـ أتعلم ما جرى لهذا الغلام؟ فإنّي ما أتيت إلى شفري إلّا للسؤال عنه.

فهزّ الكاهن رأسه، وقال:

ـ إنّي لا أستطيع أن أفيدكَ في هذا الشأن إفادةً تُذكر، فإنّي حين أتيتُ إلى هذه القرية عَلِمتُ أنّ ابن أخت الكاهن جاء إلى القرية لحضور مأتم خاله، ثمّ عاد إلى باريس مع أحد أصدقاء الكاهن. ولا أعلم غير هذا.

ـ ألّا تعرف على الأقل اسم صديق الكاهن الذي أتى لحضور مأتمه؟.

ـ كلا.

ـ ربما كان عمدة القرية يعرفه؟!.

ـ لقد مات من عهد بعيد، وقد خلفه اثنان إلى الآن.

ـ وخادمة الكاهن ماذا جرى لها؟.

ـ ماتت قبله وقبل أخته.

ـ إنّ أخت الكاهن كانت أرملة، أليس كذلك؟.

ـ نعم.

ـ أماتت في شفري؟.

ـ نعم.

ـ إذن لا بُدَّ من أن يكون اسمها مقيَّدٌ في الكنيسة في سِجلّ الأموات، ومكتوباً على ضريحها.

ـ لقد تهدّم وضاع كلّ شيء في زمن الحرب، فقد حدثت هنا جملة معارك، فتهدّمت دار الحكومة، وثلاثة أرباع منازل القرية، واحترقت دفاتر الكنيسة بجملتها.

فقالت حنة بلهجة القنوط:

ـ إذن لا أستطيع أن أعلم شيئاً!.

ولم يكن في كلام حنّة ما يحمل على الريبة، غير أنّ اضطرابها وإلحاحها دعتا الكاهن إلى الانذهال، فقال لها:

ـ أيُّ فائدة شخصية لك بهذه الأسئلة؟.

فارتعشت حنّة، وقالت في نفسها: أسهبتُ في القول كما يظهر، فولّدتُ في قلبه الشّكّ. ثمّ قالت له:

ـ لقد قلتُ لكَ يا سيدي الكاهن إنّي لا أسأل هذه الأسئلة لنفسي، بل لصديقة عهدتْ إليَّ بالإلحاح في سبيل معرفة ما جرى لهذا الغلام. وإنما أردتُ معرفة اسم أخت الكاهن كي أعرف اسم ولدها.

ـ يظهر أنّ لصديقتك فائدة في إيجاد هذا الغلام، فما هي؟.

ـ لا عِلم لي بشيء من ذلك، وكلّ ما في الأمر أنّهم عهدوا لي بقضاء مهمة، وأنا أحاول قضاءها.

ـ وأنا لا أعلم غير ما قلته لكِ، فاسألي في القرية فقد تجدين من يخبركِ بما تريدين معرفته.

ثمّ تركها وانصرف. فركعت المنكودة عند باب الكنيسة، وقالت:

ربّاه! ماذا أصنع؟ إنّي لا أستطيع أن أسأل أحداً عن ولدي حَذَرَ الافتضاح، وهذا الكاهن شكّك بي! ولكنّي عَلِمتُ منه أمراً جديراً بالاعتبار، فإنّه قال لي إنّ ابن أخت الكاهن أتى إلى القرية لحضور مأتم خاله الكاهن، وقالت لي أخت الكاهن إنّها ستّربي ولدي جورج وكأنّه ولدها. إذن لا بُدَّ أن يكون هذا الفتى ولدي، وهو في باريس؛ فأين أجده فيها؟ إنّي قد أستطيع السؤال عنه، ولكنّي أخاف أن يعلموا بأمري؛ فإنّي هاربة من السجن والشرطة يبحثون عنّي، فإذا ظفروا بي أعادوني إلى السجن.

وعند ذلك وقفت، وقالت:

ـ كلا، إنّي لن أجبُن ولن أضعف، ولا بُدَّ لي من أن أجد ولدي في باريس. أمّا الآن فلأبدأ بالبحث عن ابنتي.

وعادت إلى باريس في الساعة العاشرة من الليل، فلم تخرج من شارع الباستيل، وهي عازمة أن تركب القطار في صباح اليوم التالي وتذهب إلى جوانيي، حيث تركت ابنتها عند المرضع.

وفي صباح اليوم التالي سافرت إلى جوانيي، وذهبت إلى منزل المرضع التي عهدت إليها ابنتها لوسي منذ عشرين عاماً.

وكانت واثقة من أنّها لن تجد تلك المرأة، لأنّها كتبتْ لها وهي في السجن، فأرجعتْ إليها إدارة البريد كتابها، بعد أن كُتِبَ عليه أنّها لم تجد المرسَل إليه. ولكنّها كانت ترجو أن تقف من الناس على ما يرشدها إلى ابنتها.

وكان أسفها عظيماً حين وجدت أنّ ذلك المنزل الذي كانت فيه المرضع أُنشِئ في موضعه منزل كبير. فطرقت الباب وسألت البوابة، قائلة:

ـ اسمحي لي أن أسألكِ عن هذا المنزل؛ فمتى تغيّر بناؤه؟.

قالت:

ـ منذ ستة أعوام.

ـ هل أنتِ من أهل القرية؟.

ـ إنّي أقيم فيها منذ اثني عشر عاماً.

ـ ألم تعرفي امرأة تدعى أرملة فريمي، كانت تخصص منزلها لتربية الأطفال.

ـ نعم أذكرها، فقد بنوا هذا المنزل الكبير على أنقاض منزلها.

ـ ماذا جرى لها؟.

ـ لقد ماتت في سنة الحرب.

ـ ألم يكن لها ولد؟.

ـ نعم.

ـ أين يقيم؟.

ـ في المقبرة.

ـ أمات ولدها؟.

ـ نعم، ولكن من دون أن يأسف عليه أحد. فهل أنتِ من أهله؟.

ـ كلا، لكنّي كنتُ أرجو أن أعلم منه ماذا جرى بطفلةٍ كانت تربيها أمه، وهي ابنة امرأة اضطرت إلى مغادرة فرنسا.

ـ أكان ذلك من عهدٍ بعيد؟.

ـ منذ اثنين وعشرين عاماً.

ـ إنّي لم أكن مقيمة في جوانيي في ذلك العهد، وحين عرفتُ أرملة فريمي لم يكن عندها أطفال. ولكن إذا لم تكن عائلة الطفلة قد أخذتها، فإنّ معرفة مكانها ميسور.

ـ كيف ذلك؟.

ـ ذلك أنّ أرملة فريمي لا بُدَّ أن تكون أخبرت الحكومة بأمر الفتاة، حين تأخّر أهلها عن دفع ما عليها والسؤال

عنها، فوضعتْها الحكومة في أحد الملاجئ. وعلى ذلك يجب أن تسألي إدارة الشرطة.

فتمكّن اليأس من قلب تلك المنكودة، وقالت في نفسها: لقد فشلتُ هنا، كما فشلتُ في شفري. وإذا سألتُ الشرطة، فلا بُدَّ أن يسألوني بأيِّ حقٍّ أطلب تلك الفتاة المفقودة.

وكانت البوابة تراقب حنّة، فقالت لها:

ـ يظهر يا سيدتي أنّكِ فهمتِ ما قلتُهُ لكِ.

قالت:

ـ هو ذاك، وسأعملُ بنصيحتكِ.

ثمّ شكرتها وانصرفت قانطةً، فلم تذهب إلى إدارة الشرطة، بل جعلت تجول بين أهل القرية وتسألهم الأسئلة المختلفة، فلا تقف منهم على شيء.

حتّى إذا يئست من العثور على ابنتها، عوّلت على الرجوع إلى باريس للتفتيش فيها عن ولدها جورج.

وفي صباح اليوم التالي وصلت إلى باريس، وقد أنهكها التعب وهَدَّ الشقاء حيلها. ولم تعلم إلى أين تذهب، فإنّها كانت تخشى في كلّ لحظة أن تفاجئها الشرطة.

وكان لا يزال باقياً معها شيء من النقود، فاستأجرت غرفة وفرشتها أبسط فرش، ودفعت قسطاً مقدَّماً من أجرة

الغرفة، بحيث لم يبقَ لديها ما يكفيها إلّا لقوت يومين أو ثلاثة. ورأت أنّها لا بُدَّ لها من البحث عن عمل تعيش منه، فتركت غرفتها وذهبت لتشتري عشاءها، فرأت على قيد خمسين خطوة من غرفتها بائع خمر كَتَبَ على باب دكانته هذا العنوان: «ملتقى الخبّازين». فدخلت إلى ذلك الدكان.

***

كان لوسيان لابرو يشتغل بملء الجِدّ، وهو ينتظر بفارغ الصبر أن يحين ذلك اليوم الذي يستطيع فيه الذهاب إلى ذاك المعمل، الذي سعى صديقه جورج بتعيينه فيه.

وقد عمل بوصية جورج، فلم يخبر أحداً بما اتّفق له، ما خلا خطيبته لوسي. ومع ذلك فإنّه لم يخبرها باسم صاحب المعمل. ولم تكن لوسي من أهل الفضول، فلم تسأله عن اسمه. وكان جُلُّ ما تتمنّاه أن يسرع خطيبها بالدخول إلى هذا المعمل، فإنّ ذلك يقرّب زمن الزواج. غير أنّها كانت فَرِحة القلب، يبدو سرورها بين عينيها، وقد زادت نشاطاً على نشاطها، وباتت تشتغل بهمّة لا تعرف الملل. وكانت قد أتمّت خياطة ذلك الثوب التي أوصتها عليه ماري بنت جاك جيرود، كما يذكر القراء. فأخذت الثوب بعد أن فرغت من تناول طعامها، وذهبت إلى منزل ماري كي تقيسه لها.

أمّا ماري فإنّ السعال كان مشتدّاً عليها منذ أسبوع، حتّى حرمها الرقاد. وكانت هذه العِلّة تغير أخلاقها؛ فيهيج

بها اليأس تارةً، حتّى أنّها تنقم على البشر والبشرية، وتلين طباعها تارةً حتّى أنّها كانت تذوب حنوّاً على البؤساء، ولا يخطر لها غير صنع الخير والإحسان إلى أهل البؤس والشقاء.

وكان ذلك اليوم من أيام نعيمها، فإنّها كانت جالسة في غرفتها تناجي نفسها فتقول:

إنّي غنيّة بحمد اللّٰه، وقد وهبني اللّٰه ثروة عظيمة؛ فلماذا لا أنفق منها على المعوزين، وقد غصّت هذه العاصمة بأهل البؤس؟.

وفيما هي تناجي نفسها بهذه الأقوال، دخلتْ إليها خادمتها، وقالت لها:

ـ إنّ الخيّاطة قد جاءت بثوبكِ يا سيدتي لتقيسه لكِ.

وكانت هذه الخيّاطة هي لوسي نفسها، فأمرت ماري الخادمة بإدخالها.

وأُدخِلت لوسي، وقاست لها الثوب، فأُعجِبت به ماري إعجاباً شديداً، وجعلت تثني عليها بكلام يقطعه السعال، ولوسي تأسف عليها لِمَا رأته من عِلّتها.

وبعد أن انتهت من ذلك الثناء، قالت لها:

ـ هل تشتغلين منذ عهدٍ بعيدٍ عند مدام أوغستين؟.

قالت:

ـ منذ خمسة عشر شهراً.

ـ يظهر أنّها تحبكِ كثيراً؟.

ـ لا أنكر أنّها كثيرة الرأفة بي.

ـ وإنّها تتمنّى لو كنتِ تشتغلين في محلّها.

ـ نعم، ولكنّي أؤثر أن أشتغل في غرفتي.

ـ إنّكِ تعيشين مع أهلكِ من دون شك.

ـ ليس لي أهل يا سيدتي.

ـ كيف ذلك؟ ألعلك يتيمة؟.

ـ لا أعلم سوى أنّهم وضعوني في ملجأ الأطفال، حين كنتُ لا أبلغ غير عام من العمر.

القسم الثاني

ـ عجباً أيتخلى عنك أبوك وأمك وكيف يرتكبان هذا الأمر المنكر؟

ـ لا أنكر أنّ ذلك منكر ولكني لم يخطر لي مرة أن أذمّ أبي وأمي فإني أعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الأم لا يمكن أن تتخلى عن بنتها طائعةً مختارة فلا بد أن يكون الجوع أكرهها على ما فعلت ولا بد أن يكون أبي قد مات في ذلك العهد.

ـ ذلك لا ريب فيه ولكن ألم يخبركِ أهل الملجأ كيف وُجدتِ..

ألم يكن لك علامة يمكن أن تعرفي بها عائلتك؟

ـ لقد سألت عن كلّ ذلك يا سيدتي حين بلغت السن الذي علمت فيه مركزي فأجابوني أنّ الذي وضعني في الملجأ أخبرهم بحقيقة أمري ولكن نظام الملجأ يمنعهم من أن يخبروني بهذه الحقيقة.

ـ ولكن ذلك محال.

ـ هذا الذي حدث.

ـ إذن أية فائدة من وضع علامة يميز بها هؤلاء الأطفال؟

ـ الفائدة من هذه العلامة أنها تسهل على أهل الطفل إيجاده حين يريدون فإنهم يقيدون في الملجأ عمر الطفل حين دخوله واليوم الذي دخل فيه والملابس التي كان يلبسها إلى غير ذلك من التفاصيل ثمّ يدعون الطفل بنمرة فإنهم كانوا يدعونني نمرة 9 فإذا لم يطلبه أهله جعلوا له اسماً بدل النمرة وأطلقوا سراحه حين بلوغه الرشد.

ـ كلّ ذلك غريب فكم لك من العمر يا لوسي وأرجو أن تسمحي لي بمناداتك دون لقب فما دفعني ذلك غير الحنو.

ـ إني ممتنة لك يا سيدتي فادعيني كما تشائين أمّا عمري فهو اثنتان وعشرون سنة.

ـ لقد علمت من مدام أوغستين أنك أحذق خياطة عندها فكيف لم تنشئي محلك الخاص إلى الآن؟

ـ ذلك لأني لا أستطيع إنشاء محل إلّا بشرطين أحدهما الزبائن والآخر رأس المال وليس لي واحد من الاثنين.

ـ ولكنك جميلة ماهرة حسنة السمعة فقد تتوفقين إلى الزواج برجلٍ يعطيك ما تحتاجين إليه من المال لإنشاء هذا المحل وبعد ذلك تأتي الزبائن.

فلما سمعت لوسي لفظة الزواج احمرّ وجهها وانتبهت ماري إلى احمرارها فابتسمت وقالت:

لا أعلم إذا كنت منخدعة ولكن الذي أراه أنك تفكرين بهذا الزواج.

ـ كلا يا سيدتي إنك لست منخدعة فإني أفكر بالزواج ولكن الذي أحبه ويحبني فقير مثلي لا يملك شيئاً فهو صابر إلى أن يسهل اللّه له بالزواج وغاية ما يرجوه أن يوفق إلى وظيفة على قدر استحقاقه ولكني متى تزوجت به لا يأذن لي أن أعمل غير أعمال البيت.

ـ إنه قد يكون مخطئاً في ذلك ولكني قرأت مادة في ذلك لا أعلم في أي قانون مفادها أنّ المرأة يجب أن تخضع لزوجها.

ولكني في يوم زواجك أكون سعيدة بأن أهبك مهراً بشرط أن يأذن لك زوجك بأن تخيطي لي ثيابي وحدي دون سواي.

ـ سأستأذنه يا سيدتي وأبسط له كرم أخلاقك وأنا واثقة من أنّه لا يرفض لي هذا الرجاء. والآن، متى تحتاجين إلى ثوبك هذا؟

ـ يوم الخميس القادم فإنّي مضطرة إلى حضور حفلة راقصة.

ـ سأنجزه يا سيدتي يوم الخميس وإني أستأذنك أن تسمحي لي بأن أحضر وألبسك إياه بنفسي حتّى إذا وجد فيه عيب أصلحته.

ـ أشكرك وسأخبر مدام أوغستين أني لا أحب أن يقيس ثيابي سواك.

ـ وأنا أكون سعيدة يا سيدتي.

ـ أين تقيمين؟

ـ في شارع بوربون نمرة تسعة 9.

ـ حسناً فإني لا أنسى هذا العنوان..

إلى اللقاء يا لوسي.

فودعتها لوسي وانصرفت شاكرة.

أمّا ماري فإنها عادت إلى الاكتئاب بعد انصراف ماري فقالت في نفسها:

مسكينة ابنة لقيطة لا أم لها ولا أب ومع ذلك فإنها سعيدة كما يظهر لا تتعذب عذابي وتضجر ضجري، فإنها تشتغل وترجو المستقبل وتحب وهي أيضاً محبوبة. متى أعرف أنا الغنية معنى هذا الحب، وأدرك سرّ هذه السعادة.

وهنا فاجأها السعال فوضعت منديلها على فمها ثمّ نظرت فيه فوجدت لطخة حمراء فاصفرّ وجهها وقالت:

دماء.. من أين أتى هذا الدم إني أشعر كأن النار تتأجج في صدري حتى عنقي.

وقد سالت الدموع من عيني تلك المنكودة وقامت فشربت جرعة من الدواء ثمّ عادت فجلست أمام النار تستدفئ وتقول وهي تتنهد:

نعم إني أريد أن أحب أنا أيضاً.

وهنا تاهت في مجال التصور واسترسلت في التفكير.

* * *

لقد تركنا حنة داخلة إلى دكان بائع الخبز التي كان مكتوباً على بابها (هنا ملتقى الخبازين).

وقد كانت داخلة لتأكل ما تيسر وتستريح.

أمّا عنوان الدكان فإنه كان ينطبق على مسماه لأنه لم يكن يفد إليه غير غلمان الخبازين.

وكان في كلّ شارع من شوارع باريس خمارة أو خمارتان مثل هذه يجتمع فيها الخبازون ويروي كلّ منهم لرفاقه ما جرى له في ذلك اليوم من حوادث مخبزه.

فلما دخلت حنة كان قد التئم نظام الخبازين وكانوا يتحدثون ويشربون، فاستقبلتها خادمة وقالت لها:

ادخلي يا سيدتي فإنه لا يزال يوجد طعام.

وسمع أحد الخبازين ما قالت وهو فتى في الرابعة والعشرين من العمر فقال لها:

ادخلي يا سيدتي فإنك وإن لم تكوني من طائفتنا نستقبلك بملء البشر والارتياح.

فابتسمت حنة وجلست بجانب ذلك الفتى وطلبت طعاماً.

ثمّ جعلت تصغي إلى حديث الخبازين وهي تأكل فسمعتهم يشكون ندرة بائعات الخبز وأن أجورهن قد ارتفعت بسبب هذه الندرة حتّى باتت أجرة البائعة ثلاثة فرنكات ونصف في اليوم.

وبعد هنيهة عول ذلك الفتى الذي كان جالساً في جانب حنة أن يذهب فوضعت حنة يدها على كتفه وقالت له: أتسمح أن أقول لك كلمة؟

قال تفضلي بقول ما تشائين.

قالت: لقد سمعتكم تقولون إنكم محتاجون في مخبزكم إلى بائعات فهل ذلك أكيد؟

ـ دون شك. ألعلك تريدين العمل؟

ـ نعم.

ـ هل كنت قبلاً من البائعات؟

كلا ولكن هذه المهنة ليست صعبة وكل ما فيها هو أن أعرف عناوين المنازل وذلك أمرٌ أستطيع فعله في يوم واحد، فثق أنّ إدارة مخبزكم وزبائنه سيكونون راضين عني لأني أشتغل لأعيش.

ـ هو ذاك، لا بدّ لي من إخبارك أنّ هذه المهنة إذا لم تكن صعبة فهي شاقة.

ـ لا بأس فإني قوية نشيطة.

ـ أتعرفين باريس؟

ـ لا أعرفها حق المعرفة، ولكن زبائنكم لا بدّ أن يكونوا في شارع واحد.

ـ بل إنّ زبائن مخبزنا متفرقون.

ـ أين هي الإدارة؟

ـ في شارع دوفين ولكن لنا زبائن لغاية شارع ماريس.

ـ لا بأس فإني أستطيع معرفة جميع المنازل في يوم أو يومين، فهل تظن أنهم يقبلونني؟

ـ إني واثق من ذلك فإنهم يبحثون عن بائعات منذ ثلاثة أيام فإذا شئت خاطبت الليلة رئيسة المخبز في شأنك كي تأتي غداً.

ـ أقبل بملء الرضى وأنا لك من الشاكرين.

ـ إذن اعتمدي عليّ واحضري صباح غد إلى المخبز واسألي عن ليونس، أي عني. والآن قولي لي ماذا تُدعين؟

ـ ليزا بيرين.

فكتب الخباز اسمها كي لا ينساه وانصرف.

وكذلك حنة فإنها دفعت ثمن طعامها وذهبت إلى غرفتها وهي تقول في نفسها:

وماذا عليّ إذا كنت بائعة خبز فإني أكسب ثلاثة فرنكات ونصف وقسماً من غذائي ولا أشتغل غير خمس ساعات في النهار بحيث يبقى الوقت متسعاً فأبحث عن ولدي.

وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى المخبز فاستقبلتها رئيسته وقالت لها:

أأنت هي التي كلمني عنها ليونس؟

قالت: نعم يا سيدتي.

ـ أتريدين أن تكوني بائعة خبز.

ـ بل أكون سعيدة إذا تكرمت بقبولي.

ـ ولكنك لم تعملي بهذه المهنة قبل الآن.

ـ كلا، غير أني أرجو أن أكون أفضل المشتغلات بها.

ـ وهذا الذي أرجوه أنا أيضاً.

ـ إذن لقد قبلت طلبي؟

ـ دون شك ولكني أقبلك على سبيل التجربة، فأين تقيمين؟

ـ في شارع السين نمرة 34 فإني قادمة من بلدي حيث أقمت فيه ثلاثة أعوام.

ـ هل أنت متزوجة؟

ـ إني أرملة.

ـ وماذا تدعين؟

ـ ليزا بيرين.

ـ إذن لقد اتفقنا، على سبيل التجربة كما قلت لك،

وستبدئين العمل منذ غد، أمّا اليوم فإنك تطوفين بمنازل زبائني مع خادمتي كي تعرفيها.

ـ في أية ساعة يجب أن أحضر إلى المخبز؟

ـ في الساعة السادسة صباحاً، فتفرقين الخبز على الزبائن وتعودين في الساعة التاسعة للمحاسبة.

ثمّ ترجعين في الساعة الخامسة مساءً فتفرقين خبز المساء على الزبائن أنفسهم فتشتغلين ساعتين أيضاً.

ـ حسنا يا سيدتي.

ـ أما أجرتك فستكون ثلاثة فرنكات ونصف مع رغيفين.

ـ لقد رضيت بهذه الأجرة.

ـ إذن اذهبي الآن مع خادمتي إلى منازل الزبائن واجتهدي أن تحفظيها بذاكرتك فإنّ خادمتي لا تستطيع الذهاب معك كلّ يوم.

* * *

وفي صباح اليوم التالي بدأت حنة عملها فأخذت الخبز وسارت به إلى الزبائن.

وكان من جملة زبائنها لوسي، فصعدت إلى غرفتها وطرقت بابها فلما فتحت لها لوسي دُهشت لجمالها وأعطتها الرغيف.

فقالت لها لوسي، تعالي لأدفع لك الثمن ولكن ما لي أراك تلهثين من التعب؟

ـ ذلك لأن السلالم طويلة.

ـ إذن اجلسي واستريحي.

ـ أشكرك يا سيدتي فلا بدّ لي من العودة إلى المخبز للمحاسبة.

وكانت كلّ من الاثنتين تنظر إلى الأخرى وتشعر بميل إليها فقالت لها لوسي:

ـ يظهر أنك لم تتعودي هذه المهنة.

ـ كلا يا سيدتي ولكني سأتعوّدها، فإني قوية نشيطة ولا بدّ لي من الارتزاق.

وكانت حنة تكلمها وعيناها تنظران إلى داخل الغرفة فرأت فيها آلة للخياطة فقالت لها:

ـ ألعلك خياطة يا سيدتي؟

ـ نعم وإني مستعدة لخدمتك.

ـ إني لا أستطيع أن ألبس مثل هذه الملابس الحريرية التي أراك تخيطينها، فإنك تشتغلين للغنيات كما يظهر.

ـ هو ذاك ولكن ذلك لا يمنع حين فراغي أن أشتغل للفقيرات بأرخص أجرة.

ـ إنك تحسنين بذلك غاية الإحسان فلا أجمل من الرفق بالفقير.

فحاولت لوسي تغيير الحديث فقالت: إذن أنت ستحضرين لي الخبز كلّ يوم؟

ـ إلى ما شاء اللّه.

ـ إذا كان صعود السلم يتعبك فضعي الخبز عند البواب وأنا أدفع له الثمن فيدفعه لك فما عليك إلّا أن تقولي له اسمي وهو لوسي.

فارتعشت حنة حين سماع هذا الاسم واصفرّ وجهها فقالت أتدعين لوسي؟

ـ نعم.

ـ إنه اسم جميل أحبه فلا تدفعي شيئاً للبواب أيتها الحسناء فإنّ صعود السلم لا يتعبني والآن أستودعك اللّه إلى الغد.

ثمّ انصرفت وهي تقول في نفسها:

إنها تدعى لوسي كابنتي وقد أثار هذا الاسم العواصف في قلبي بل إنّ هيئتها أثرت عليّ تأثيراً لا أدرك سرّه فإنّ اسمها كاسم ابنتي وعمرها كعمرها ولا بد أن تكون ابنتي جميلة مثلها...

رباه ألا يتاح لي أن أجدها.. وماذا جرى لها.. أواه لو كنت أعلم أنها على قيد الحياة على الأقل فأطمئن..

ولكني سأحضر الخبز كلّ يوم إلى هذه الفتاة بنفسي فإنها تذكرني بابنتي.

وقد جعلت حنة كلّ يوم تأتي بالخبز إلى ابنتها لوسي فلا هذه تعرف ابنتها ولا تلك تعرف أمّها.

ولكنهما كانتا تزيدان تعلقاً في كلّ يوم ولا سيما حنة فإنها كانت تقف فتنظر إلى لوسي تشتغل وهي تكاد تفترسها بنظراتها.

ولم تكن تجسر على أن تسألها عن ماضيها وفوق ذلك فأية فائدة من هذا السؤال فإذا كانت تدعى لوسي كابنتها فإنه توجد مئات من الفتيات يدعين بهذا الاسم.

وكانت ترى من حينٍ إلى حين لوسيان لابرو يجالس لوسي فلم يخطر لها في بال أنّ هذا الفتى الجميل إنما هو ابن لابرو الذي اتُّهمت بقتله ولقيت ما لقيته من العذاب بسبب هذه التهمة.

***

دنا موعد رجوع جاك جيرود من رحلته، ويذكر القراء أنّ ابنته ماري قالت لجورج داريه حين طلب وساطتها في تخديم لوسيان بمعمل أبيها: إنّ أبي يعود في اليوم الأوّل من الشهر. ورد كتاب إلى لوسيان من صديقه جورج يدعوه فيه إلى الحضور للغداء في اليوم التالي.

فذهب لوسيان في اليوم المعين وكان أوّل ما قاله أنّه سأل صديقه جورج قائلاً:

هل حدث أمر جديد؟

قال: نعم فقد لقيت مدموزيل هرمان مرة ثانية فكلفتني أن أدعوك لتذهب إليها في الساعة العاشرة صباحاً وهي تقيم مع أبيها في شارع موريل فاطلب أن تقابلها باسمي وهي تعرّفك بأبيها.

ـ أشكرك أيها الصديق ولا أنسى جميلك.

ـ وأنا أرجو أن تفوز وقد أعددت كتاباً للمسيو بول هرمان أظهرت له فيه ما أعرفه من أدبك وخبرتك وهذا هو فخذه ولا تنس أن تذهب غداً في الساعة العاشرة من الصباح.

وفي اليوم التالي تأنق لوسيان بملابسه ولم يفعل ذلك ليروق في عيني ماري ولكنه كان يعلم أنّ النساء تروق لهنّ البهرجة وهو يريد إرضاءها لتساعده على أبيها.

وبعد أن فرغ من تأنقه دخل إلى خطيبته فقالت له:

ـ هل أنت ذاهب؟

ـ نعم فإني ذاهب لزيارة الرجل الغني صاحب المعمل الذي أخبرتك عنه.

ـ ماذا يدعى هذا الرجل؟

ـ إنّ صديقي جورج سألني أن أكتم اسمه إلى أن أعين في خدمته ولكني لا أطيق أن أكتم عنك أمراً فإنّ هذا الرجل يدعى بول هرمان.

ـ بول هرمان المقيم في شارع موريل.

ـ نعم فهل تعرفينه؟

ـ لا أعرفه ولكني أعرف ابنته مدموازيل ماري، فإنّ هذا الثوب الحريري الذي أشتغل به إنما هو لها.

والآن فقد أصبحت واثقة من فوزك فإنّ هذه الفتاة من خير الفتيات ولا بد أن يكون أبوها مثلها فاذهب أيها الحبيب وليبارك اللّٰه مساعيك.

فقبّل لوسيان جبين خطيبته وذهب إلى منزل جاك جيرود، أي بول هرمان.

وهناك استقبلته ماري ورضيت عنه ولأول وهلة لما رأته من جماله وحسن هدامه فابتسمت له وقالت:

إنّ المسيو جورج داريه قد أرضى بك أبي يا سيدي وذلك كافٍ لأن يحترمك ملء الاحترام ويقدرك قدرك.

فقال لها لوسيان:

إني أشكرك يا سيدتي لتفضلك باستقبالي وقد أخبرني صديقي جورج أنك تفضلت فوعدته بمساعدتي لدى أبيك الذي أتيت إليه بكتاب توصية من صديقي.

فأشارت ماري بيدها إلى كرسي وقالت له:

تفضل بالجلوس ولنتحدث، فقد قال لي المسيو جورج أنك من أهل الصبر والإقدام وأنك لم توفق حتّى الآن إلى

عمل ينطبق على ذكائك واجتهادك وأنك ترغب أن يكون لك منصب في معمل أبي الجديد.

ـ إنّ هذا المنصب يضمن مستقبلي يا سيدتي.

ـ وقد أخبرت صديقك جورج أنّ لك كثيراً من المزاحمين في هذا المنصب الذي يتألب حوله الطامعون.

ولكني وعدته أن أساعدك جهد إمكاني كي تفوز على مزاحميك الكثيرين ولذلك وجب أن تكون أول من يراه أبي.

ومن عادتي يا سيدي أني لا أتدخل في أشغال أبي غير أني سأتدخل هذه المرة إكراماً لصديقك وأستخدم نفوذي عند أبي.

وأنا التي سأعرفك به وأعينك في تحقيق أمنيتك.

ـ إنّ لساني لا يفيك حق شكرك يا سيدتي فإنك أحييت ميت آمالي.

وكانت ماري تصغي إلى حديث لوسيان وهي تشعر بخفوق في قلبها ولكنها لا تعلم سببه ولكنها كانت تجد به لذة فقالت له:

إني سأفعل كلّ ما أستطيع فعله من أجلك وكنت أود أن أحقق رجاءك اليوم فتذهب من هنا واثقاً مطمئناً.

غير أنّ أبي لم يعد من رحلته بعد فقد كنت أنتظر عودته اليوم ولكن وردني منه نبأ برقي يقول فيه أنّه سيتأخر يوماً في بلجيكا فلا يصل إلّا في هذه الليلة.

فخاف لوسيان وتنهد ثمّ قال لها:

لا بأس من صبر يوم يا سيدتي ويكفيني سعادةً أنك ستأخذين بناصري وسأطلب تحقيق رجائي أمامك.

فاحمرّ وجه ماري وقالت:

وستفوز بتحقيق رجائك أمامي فإني أرجو أن يكون لتدخلي تأثير حسن لدى أبي فلا بد إذن من عودتك غداً.

فوقف لوسيان وقال: إلى اللقاء غداً يا سيدتي.

قالت: إلى اللقاء ثمّ ضحكت وقالت ولكني لا أعرف اسمك يا سيدي.

ـ لوسيان لابرو.

ـ إني لا أنسى هذا الاسم فاعتمد عليّ يا سيدي لوسيان.

أمّا ماري فإنها خرجت في أثره ووقفت تشيعه بالنظر حتّى إذا خرج من الباب التفت فالتقت النظرات فحياها وحيّته ثمّ دخلت إلى غرفتها وهي تقول:

لوسيان.. لوسيان إني لا أنسى هذا الاسم فإنّ عيني هذا الفتى تدلان على سلامة الطوية والإخلاص وقد رأيته لأول مرة فخُيل لي كأنه صديق قديم.

نعم إنه سيروق لأبي كما راق لي وسيعهد إليه بإدارة معمله. نعم إن ذلك لا بد أن يكون لأني أريده أن يكون.

* * *

وقد جاء أبوها في تلك الليلة كما أخبرها بالتلغراف الذي أرسله إليها من بروكسل فاغتمّ غمّاً عظيماً لما رآه من نحول ابنته في غيابه فإنّ هذا الرجل السفاك على شرّه وآثامه كان له قلب أب يحب ويحن.

وكان عارفاً بمرض ابنته غير أنّه كان يأبى أن يصدق نفسه فيغالطها في حكمها ويعللها بالرجاء.

أمّا هذه المرة فقد بدا له الخطر بملء ظواهره فأورثه ذلك الغم.

وبعد أن عانقها جلس بجانبها وجعل يسألها عما جرى في غيابه.

فأخبرته بكل ما حدث دون أن تذكر كلمة عن لوسيان فقد كان لها في ذلك مأرب.

فضمها إلى صدره وقال لها: حدثيني عنك يا ابنتي العزيزة فقد تركتك أحسن عافية مما أراك.

قالت: إنك مخطئ يا أبي ولا أنكر أني ضجرت بغيابك ولكن هذا الضجر لم يؤثر على صحتي أقل تأثير بل أشعر أني مرتاحة النفس جذلى وأن عافيتي خير مما كانت عليه من قبل.

وعند ذلك فاجأها سعال مكذباً ما قالته فكاد يجن أبوها إشفاقاً عليها.

وصرفا تلك الليلة بأحاديث مختلفة دون أن تذكر له ماري شيئاً عن لوسيان.

* * *

في صباح اليوم التالي دخل جاك إلى قاعة مكتبه وجعل يطالع الرسالة التي وردت إليه.

وكان أوّل ما لفت نظره غلاف عليه طابع بريد أمريكي، ففضه بيد ترتجف إذ عرف أنّ خطه كان خط أوفيد سوليفو وقرأ ما يأتي:

«يا ابن خالي العزيز

إنّ سفرك كان شؤماً عليّ؛ فإنّ أشغال ذلك المعمل الذي بعتني إياه آخذة بالتناقص في كلّ يوم، وإنّ سفرك قضى على المعمل قضاءً مبرماً وبات مستقبله حالك الظلام.

وقد بدأت أشعر بالأسف لأني لم أسافر وإياك إلى فرنسا فإنّ القرابة والصداقة جعلتاني شديد التعلق بك حتّى أني لم أعد أطيق فراقك.

ومن يعلم فقد نلتقي لأن هذه الحالة لا يمكن أن تدوم.

إلى اللقاء أيها الصديق وثق بأني لا أزال كما كنت ذلك الصديق المخلص والقريب المحب

أوفيد سوليفو»

فلما قرأ جاك هذه الرسالة اصفرّ وجهه من الغضب ودعك الرسالة بيده وقال:

لقد خرّب هذا الشقي معملاً ملأت شهرته الدنيا وقد ناله بالنصب والاحتيال دون أن يدفع درهماً من ثمنه.

وهو لم يصل إلى الحالة هذه إلا بسبب المقامرة. فقبّح القمار وقبح لاعبوه فإنهم يلقون بأنفسهم إلى التهلكة وهم لا يشعرون.

وقد كنت أحسب أني خلصت من هذا الشقي إلى أن وردني هذا الكتاب الذي ينذرني فيه بالحضور إلى فرنسا وهو لا يريد بذلك إلّا أن يحتال عليّ حيلة جديدة يستنزف بها مالي لخسارته على موائد القمار.

قال هذا وطرح الرسالة في الموقد وعاد إلى الاهتمام بأشغاله ولكنه كان منقبض الصدر مقطب الجبين.

أمّا ماري فإنها استيقظت باكراً في ذلك اليوم فتأنقت بملابسها ونادت خادم غرفتها فقالت له:

أتذكر ذلك الرجل الذي جاءني أمس صباحاً ومعه كتاب من المسيو داريه؟

قال نعم يا سيدتي.

ـ إنه سيأتي اليوم أيضاً في الساعة التاسعة والنصف ليرى أبي، فمتى جاء فادخل به إليّ قبلاً فإني أنتظره في قاعة الاستقبال.

فانحنى الخادم وانصرف.

أمّا ماري فإنها لم تجلس في تلك القاعة بل ذهبت إلى نافذة فيها مطلة على الباب الخارجي ووقفت تنتظر قدوم لوسيان فكان يخيل لها أنّ الدقائق أعوام.

وبعد نصف ساعة قُرع الباب الخارجي ورأت ماري أنّ الداخل كان لوسيان فوضعت يدها على قلبها.

وعند ذلك فاجأها السعال وجاء الخادم بلوسيان إليها فبذلت المنكودة جهداً عنيفاً كي تمنع السعال ثمّ ابتسمت للوسيان وقالت له:

إنّ أبي قد عاد من رحلته بحيث أني أستطيع أن أقدمك له الآن.

قال: ألعلك ذكرتني أمامه يا سيدتي؟

قالت كلا فإني لم أقل له شيئاً ولكني توثقت من أنّه لم ينتخب أحداً بعد لإدارة معمله، وقد أحببت أن أكلمه بحضورك فتعال معي واعتمد عليّ.

ثمّ مدت إليه يدها فشعر لوسيان أنها ترتجف في يده وخرجت وإياه من القاعة فأجلسته في غرفة بجانب مكتبة أبيها وقالت له: انتظرني هنا إلى أن أدعوك.

وما كان أبوها ليخيِّبَ لها رجاء لا سيما حين علم أنّ جورج داريه قد أوصى بهذا الرجل الذي توصيه به فخرجت ماري مسرورة ونادت لوسيان فقالت له:

تفضل بالدخول يا سيدي فإنّ أبي ينتظرك.

فدخل لوسيان فأعطاه كتاب صديقه جورج وتركتهما ماري فدار بينهما الحديث الآتي:

قال جاك: إنك تسألني منصب إدارة المعمل.

قال: هو ذاك يا سيدي فإني لا أنكر خطورة هذا المنصب ولكني أرجو أن أقوم بأعباء هذه المهمة خير قيام.

ـ إنّ جورج داريه يوصيني بك توصية الواثق من خبرتك فهل تلقيت دروسك في مدرسة الصنائع والفنون؟

ـ نعم يا سيدي وزدت على ذلك أني درست دروساً خاصة بالميكانيكيات ولا سيما ما تعلق منها بالسكك الحديدية.

ـ وهل تعلمت الرسم؟

ـ لو لم أكن رساماً لما تجاسرت على أن أعرض خدمتي عليك.

ـ كم يبلغ عمرك؟

ـ سبعة وعشرون عاماً.

ـ هل أنت باريسي؟

ـ إني ولدت بجوار باريس في فورتفيل.

فسقطت كلمة فورتفيل على جاك سقوط المياه المثلجة على الرأس وقد ارتعش وقال:

ـ هل أبوك حي؟

ـ كلا.

ـ ولكن أمك لا تزال على قيد الحياة؟

ـ لقد مات كلاهما فإنّ أمي ماتت حين ولدتني وعندما مات أبي لم يكن لي من العمر غير ثلاثة أعوام.

ـ أتأذن لي أن أسألك ماذا كان يصنع أبوك؟

ـ كان مهندساً وكان له معمل في فورتفيل.

فاصفرّ وجه جاك وقال له بصوت مضطرب:

ماذا تدعى؟

ـ لوسيان لابرو.

فردد جاك اسم لوسيان لابرو وهو يشعر أنّ الدم قد جمد في عروقه.

وذهل لوسيان لما رآه من اضطرابه فقال له:

ألعلك تعرف أبي يا سيدي؟

فملك جاك نفسه وقال:

إذا كان أبوك يدعى جيل لابرو فقد عرفته حق المعرفة لأنه كان من أصدقائي.

ـ نعم إنه يدعى جيل.

وهذا هو السبب في اضطرابي حين سمعت اسمه فجأة فإني قرأت في أميركا خبر النكبة التي أصابته.

ـ إذن أنت تعلم كيف مات أبي؟

فارتعد جاك وقال: نعم فقد قتل في معمله حين احتراقه وأذكر مما قرأته أنّ التي قتلته حارسة المعمل.

ـ هذا الذي ظنه القضاة بدليل حكمهم على حنة فورتيه أمّا أنا فلا أظنها القاتلة.

فارتعش جاك وقال: أتحسب أنّ هذه المرأة بريئة؟

ـ هو ذاك.

ـ ولكن الأدلة على ارتكابها الجناية كانت كثيرة؟

ـ وأنا علمت من عمتي أنّ هذه المرأة لا يمكن أن تكون القاتلة وأن القاتل رجل له مآرب وفائدة من قتل أبي.

ـ من هو هذا الرجل؟

ـ هو رجل كان نائب رئيس في المعمل وكان لأبي ثقة عظيمة به فباح له بسر اختراع جديد وإنما قتله كي يكون له هذا الاختراع.

ـ ماذا يدعى؟

ـ جاك جيرود.

ـ ولكنهم يقولون إنّ الرجل مات بالنار شهيداً لإخلاصه؟

ـ وأنا لا أثق بإخلاصه ولا أصدق خبر موته بل أعتقد أنّ هذا الشقي أشاع هذه الإشاعة إخفاءً لجريمته.

ـ هل لديك برهان على ما تقول؟

ـ كلا لسوء الحظ ولكن جاك جيرود كتب كتاباً إلى حنة فورتيه وكان يهواها وهو يعترف بجريمته في ذلك الكتاب.

ـ إذن كيف لم تبرئ حنة نفسها بإظهار هذا الكتاب؟

ـ لأن النار التهمته في غرفتها.

فهز جاك رأسه وقال:

كلّ ذلك مبهم لأنه غير مبني إلّا على الظن.

ـ هو ما تقول ولكن يبقى حديث القلب ولا يخطئ ولا بد أن يظهر النور يوماً وتنجلي هذه الحادثة فأنتقم لأبي المقتول.

فسال العرق البارد من جبين جاك وقال:

ولكن ماذا تستطيع أن تصنع فقد مضى على هذه الحادثة اثنان وعشرون عاماً فلو افترضنا أنّ جاك جيرود هو القاتل وإنك اهتديت إليه فإنّ الحكومة لا تعاقبه بعد فوات هذه المدة.

ـ إني لا أبالي بانتقام الشرع ولا أستعين بالقضاء فإذا عرفت مكان هذا اللص السفاك الذي لا بدّ أن يكون غيّر اسمه بعد أن اغتنى باختراع أبي وماله وباتت له عائلة وأصدقاء فسأنتقم منه وحسبي انتقاماً أن تظهر جريمته ويفتضح أمره بين أهله ومعارفه.

فوقف جاك وجعل يسير في الغرفة ذهاباً وإياباً إخفاءً لاضطرابه ثمّ وقف وقال:

إني أستحسن منك إرادة الانتقام لأبيك ولكني أشكك في نيلك هذه البغية. والآن لنعد إلى حديثنا فإنك تسألني منصباً يضمن لك حاضرك ومستقبلك وأنا أجيبك إلى ما طلبت.

فأسرع لوسيان فأخذ يد قاتل أبيه بين يديه وشكره بالنظر إذ لم يجد كلمة تفيه حقه شكراً.

فقال له جاك: إنك متعلم خبير بأعمالنا فسأجعلك مدير المعمل وتكون لك الكلمة العليا فيه فتختار من تريده من الرسامين والعمال ويعملون كلهم بأمرك.

أمّا المعمل فإنّ إنشاءه لم ينته بعد ولكني سأشتغل في منزلي فإني أعد فيه معدات الرسم وأريد أن تكون معي إلى أن يتم بناء المعمل.

أمّا راتبك فسيكون في البدء ألف فرنك في الشهر أيكفيك هذا الراتب؟

ـ دون شك بل هو فوق مأمولي.

ـ أتقبل؟

ـ بملء الامتنان.

ـ إذن نحن متفقان وسنبدأ العمل اليوم فتصحبني إلى المعمل لأني أحب أن أتفقد البناء.

ـ وأنا سأذهب فأتغدى وأعود في الحال.

ـ كلا بل تتغدى معي.

ـ إنّ فضلك يا سيدي قد ضيّق نطاق شكري فلا أعلم كيف أشكرك لجميلك.

ـ إذا كان لا بد من الشكر يا بني فاشكر ابنتي وصديقك جورج وكفاءتك.

والآن فقد اتفقنا وأنت تعرف طريق قاعة الاستقبال فاذهب إليها وانتظرني مع ماري وأخبرها أني سأوافيكما بعد هنيهة وأنك ستتغدى وإيانا.

فخرج لوسيان والدنيا لا تكاد تسعه لفرحه.

أمّا جاك جيرود فإنه سقط على كرسيه واهن القوى وجعل يحدث نفسه فيقول:

لوسيان لابرو.. ابن ذلك الرجل الذي قتلته.. ما هذا الاتفاق العجيب؛ فإنّ ابنتي تتولى حمايته، إنه في منزلي وهو يعتقد أنّ حنة بريئة وأن جاك جيرود القاتل ويريد الانتقام لأبيه بعد أن مضى اثنان وعشرون عاماً على قتله.

إنه إذا انتقم لا ينتقم مني بل من ابنتي بفضح أمري.. كلا إنّ ذلك لا يكون وإن هذا الفتى لا يجب أن يفارقني فسيقيم بجانبي بحيث لا تفوتني خافية من أعماله حتّى إذا اضطررت إلى قتله كما قتلت أباه فعلت وذلك حين يخامره أوّل شك بأني أدعى جاك جيرود.

* * *

كانت ماري تنتظر انتهاء المقابلة بفارغ الصبر لتعلم ما يكون من لوسيان وأبيها، فلما دخل لوسيان إلى القاعة مشت خطوتين لاستقباله وفاجأته بقولها: قل بسرعة ما الذي حدث؟

ـ لقد جرى الأمر طبق المراد.

ـ هل قبل أبي؟

ـ نعم يا سيدتي فقد تعينت اليوم مديراً للمعمل.

فلم تستطع ماري مقاومة تأثرها حتّى أنها اضطرت أن تستند إلى الكرسي فقال لها لوسيان:

ماذا أصابك يا سيدتي؟

قالت لا شيء فإنّ ما تراه كان من تأثير الفرح فإني كنت أود أن يقبل أبي طلبك، فاعذر ضعفي وقد زال هذا العارض البسيط.

قال: بقي عليّ يا سيدتي أن أعرب لك عن امتناني لتفضلك بمساعدتي فإني مدين لك بهذا الفوز ولا أنسى جميلك ما حييت.

فابتسمت ماري وقالت:

سوف نرى إذا كنت تذكر.

فأخذ لوسيان يدها المضطربة بين يديه وأدناها من فمه فلثمها فشعرت ماري أنّ قلبها يخفق خفقاناً عظيماً وقالت في نفسها:

رباه أرى أني أحبه بملء جوارحي.

ثمّ قالت له وقد تمالكت نفسها: وإذاً ستستلم الأعمال قريباً؟

ـ منذ غد يا سيدتي، فإني سأذهب اليوم مع أبيك لزيارة المعمل.

على ذلك ستتغدى معنا؟

ـ نعم يا سيدتي فقد عهد إليّ أبوك أن أخبرك بذلك.

ـ إذن اسمح لي أن أدعك وحدك هنيهة.

ثمّ تركته وذهبت فأمرت بإعداد كرسي له على المائدة وعادت إلى أبيها فعانقها أبوها وقال لها:

ألعلك تحدثت مع الذي تحمينه وهل أنت مسرورة من ذلك؟

ـ إنّ سروري عظيم يا أبي فوق ما تظن.

وقد نظر جاك إلى ابنته فرأى دموع السرور تجول في عينيها فقطب حاجبيه وقد خطر له خاطر فجائي ارتعب منه رعباً عظيماً حين فهم سبب هذه الدموع، ولكنه تغلب على اضطرابه وقال لها هلمي يا ابنتي إلى المائدة.

وقد جلسوا جميعهم إلى المائدة فدار الحديث بين جاك ولوسيان على أمور تتعلق بصناعتهما فكان يجيبه عن كلّ أسئلته بما يدل على حنكته وحسن اختباره وكانت ماري مشرقة الوجه تبدو علائم السرور الأكيد في عينيها.

وفي المساء حين فرغ لوسيان من أعماله ذهب تواً إلى صديقه جورج فشكره وأخبره بما اتفق له ثمّ أسرع إلى خطيبته وهو يخشى أن تكون قد قلقت لغيابه.

* * *

لم تكن لوسي وحدها في غرفتها، فقد كانت معها حنة فورتيه التي باتت تدعى بعد دخولها في المخبز بالأرملة ليزا بيرين.

وكانت لوسي تشتغل في غرفتها وهي تصغي من حينٍ إلى حين علها تسمع خطوات لوسيان.

فلما دخلت إليها حنة قالت لها: ألعلك قادمة بخبز الصباح.

قالت: كلا أيتها العزيزة بل إني جئت أسألك قضاء أمر.

ـ إني أقضيه بملء الرضى إذا كان قضاؤه بإمكاني فقولي لي ما تريدين.

ـ إني مررت بدكان أقمشة فلقيت ثوباً رخيص الثمن فاشتريته ورجائي أن تخيطيه لي.

ـ دون شك فهل أحضرت القماش؟

ـ هذا هو.

ـ ضعيه على المائدة إلى أن أفرغ من الثوب الذي أشتغل فيه فأضبط قياسك فهل تستطيعين الانتظار؟

ـ لقد فرغت من أشغالي اليومية وإني أستطيع الانتظار إلى الصباح فلا يزعجك أمري.

فأخذت لوسي تشتغل بسرعة وحنة تنظر إليها نظرات حنو لا تعلم أسبابها.

ثمّ خطر لها أن تعلم شيئاً عن ماضي الصبية فقالت لها ألعلك تشتغلين منذ عهدٍ طويل بالخياطة؟

ـ منذ ستة أعوام.

ـ أين تعلمتها، أفي باريس؟

ـ كلا بل في الملجأ الذي رُبيت فيه.

فارتعشت حنة وقالت: أأنت رُبيت في الملجأ؟

فأجابتها لوسي بلهجة كآبة، نعم فإني ما عرفت أبي ولا أمي وقد أرسلوني صغيرة إلى ملجأ الأطفال.

ـ أكان ذلك من زمنٍ بعيد؟

ـ منذ واحد وعشرين عاماً.

وكم كان لك من العمر في ذلك الحين؟

ـ عام وبضعة أشهر.

ـ من الذي أدخلك إلى الملجأ أهم أهلك أم سواهم من الذين عهد إليهم بتربيتك.

ـ لا أعلم فإنهم لا يخبرون المقيمين في الملجأ بأسرارهم.

ـ ولكن من الذي دعاك بهذا الاسم؟

ـ لقد وضعت في الملجأ يوم عيد القديسة لوسي، فربما دعوني بهذا الاسم لهذه المناسبة.

فقالت حنة في نفسها: إذن لا تدعى بهذا الاسم إلّا اتفاقاً... فالسلام على آمالي.

وعند ذلك سمعت وقع خطوات على السلم فقالت كأنها تخاطب نفسها: هذا هو.

فقالت لها حنة ألعلك تنتظرين زائراً؟

ـ نعم وهو زائر تعرفينه فإنه لوسيان.

ـ أهو هذا الشاب الذي يقيم بجوارك.

ـ هو بعينه فإنه خطيبي وأنا أنتظره بجزع فإنه ذهب في هذا الصباح لمقابلة رجل غني في شأن منصب سيتولاه عنده يتعلق عليه مستقبلي فإنه إذ تعين في هذا المنصب تزوجني بعد عام.

وعند ذلك دخل فرح القلب باسم الثغر وهو يقول: بشراك يا لوسي.

فأسرعت لوسي إليه تبكي سروراً وقالت له ألعلك فزت.

ـ لقد فزت كلّ الفوز أيتها الحبيبة فقد نلت منصباً كان فوق مأمولي وقد تغديت عند صاحب المعمل وذهبت وإياه بعد الظهر لتفقد معمله الجديد ثمّ ذهبت إلى جورج

فأخبرته بما اتفق وأتيت بعد ذلك إليك فاعلمي أني تعينت مديراً للمعمل براتب قدره اثنا عشر ألف فرنك في العام.

فلم تكد تصدق ما سمعته وقالت: اثنا عشر ألفاً... إنّ هذا الراتب وحده ثروة.

ـ إنه إذا لم يكن الثروة فهو بدايتها، فإني سأتزوج بعد عام وأرجو أن أقتصد بعد خمسة أعوام نحو ثلاثين ألف فرنك فأجدد في فورتفيل معمل أبي.

فارتعشت حنة حين سمعت كلمة فورتفيل وقالت له: أكان أبوك يقيم في فورتفيل؟

ـ نعم.

ـ ماذا يدعى أبوك؟

ـ جيل لابرو وقد مات قتيلاً منذ واحد وعشرين عاماً في معمله المحترق.

فشعرت حنة أنّ رجليها قد وهنتا وأن الدم قد جمد في عروقها من الرعب؛ فهذه هي السجينة الهاربة المتهمة بقتل جيل لابرو قد وجدت نفسها فجأة وجهاً لوجه مع ابن القتيل.

وقد لحظ لوسيان أنّ حنة قد اهتمت لأمر والده فقال لها: لقد كان لقتل أبي لغط عظيم إذ تحدث به جميع الناس فهل سمعت بمقتله؟

ـ نعم.

ـ وقد اتهمت امرأة بقتله أتذكرين ذلك؟

ـ نعم أذكره.

وقد حكم القضاة على هذه المرأة ولكن قلبي يحدثني بأنها قد تكون بريئة مما اتُّهمت به.

ـ أتعتقد ببراءتها؟

ـ إني أشكك في ذلك ولا أزال مرتاباً بأمرها إلى أن أرى ذلك الرجل الذي أظنه القاتل؛ فقد أشيع أنّه قُتل بالنار شهيداً لإخلاصه، ولكني لا أظن ذلك إلّا خدعة قام به للتمكن من الفرار.

فاضطربت حنة وكادت تبوح بسرّها وتذكر اسم جاك جيرود ولكنها خشيت شر العاقبة ولزمت الصمت فإنها كانت تعلم أنّه لا فائدة لها من الإقرار إذ لا برهان لديها يثبت براءتها.

ومع ذلك فقد شعرت بسرور عظيم لأن ابن المقتول لم يتهمها كما اتهمها القضاء بل هو يحسبها بريئة.

وبعد سكوت قصير قالت له حنة:

إذا وجدت هذا الرجل الذي تحسبه القاتل فجازه الشر بالشر واطلب تبرئة تلك المرأة المظلومة.

ـ ربما كانت ميتة.

ـ قد يكون ذلك، ولكني سأعلم حقيقة أمرها فإنّ أحد أصحابي وهو من المحامين سيبحث عنها ليعلم في أي سجن سُجنت فإذا كانت لا تزال على قيد الحياة ذهبت إليها فسألتها عن الحقيقة وهي لا تكذبني فإذا أيقنت من براءتها وهو ما أرجوه لا أنفك عن البحث عن القاتل حتّى أظفر به.

فحاولت حنة أيضاً أن تبوح بسرها وتقول له:

إنّ التي تبحث عنها ليست ميتة بل هي جالسة وإياك وهي أنا، ولكنها ضغطت على نفسها ضغطاً شديداً فتمكنت من الكتمان وقالت له:

ـ إنّ لهذه المرأة المنكودة ولدين فماذا جرى لهما؟

ـ لا أعلم.

فأطرقت حنة برأسها ولم تستطيع أن تزيد حرفاً على ما قالت حَذَرَ الافتضاح.

أمّا لوسيان فإنه التفت إلى خطيبته وقال لها:

ألعلك مسرورة بهذا النبأ أيتها الحبيبة؟

قالت: بل إني سعيدة ولا يعوزني شيء بعده من أسباب السعادة.

ـ ولكني لا أستطيع أن أراك بعد الآن؟

ـ لماذا؟

ـ لأن بول هرمان يريد أن أقيم بمنزلٍ بجوار منزله كي أكون قريباً منه.

ـ إذا كان لا بد من ذلك يا لوسيان فلا بأس، فإنّ البعد عنك يحزنني ولكن عزائي فيه أنّه عائد عليك بالخير على أنك ستخصص لي كلّ يوم أحد؟

ـ دون شك وسأكون أسعد الناس في ذاك اليوم أمّا الآن فسأخبر صاحب المنزل أني سأبرح منزلي منذ الغد.

فتنهدت لوسي وقالت:

أأبقى إذن وحدي؟

فقالت حنة: كم تدفع أجرة غرفتك يا سيدي لوسيان؟

ـ مائة وخمسين فرنكاً ولا يزال لي ثلاثة أرباع القسط الذي دفعته مقدماً وسأخسر هذه القيمة إلّا إذا وُجد مستأجر للغرفة.

ـ أنا أستأجر غرفتك فلا تخسر شيئاً.

فسُرّت لوسي وقالت:

أحق ما تقولين؟

قالت نعم أيتها الحبيبة فإني يسرني أن أقيم بجوارك وإني أحبك كما أحب لوسيان وعلى ذلك فإني سأحدثك دائماً به.

وقد اتفقوا على أن تقيم حنة في غرفة لوسيان وفي اليوم التالي كانت حنة مقيمة في تلك الغرفة.

* * *

وفي ذلك اليوم نفسه بدأت أشغال لوسيان في منزل جاك، فكانت ماري تتذرع بالحجج المختلفة للتقرب منه وكانت لوسي تنتظر يوم الأحد بفارغ الصبر لتجتمع بخطيبها فإنها لم تكن تراه إلّا في ذلك اليوم لكثرة انهماكه في الأشغال.

وقد كان لدخول لوسيان في خدمة جاك تأثير عظيم على صحة ماري لم يخف على أبيها.

فاستنتج من ذلك أنّ عينيه لم تخدعاه في البدء وأن ابنته تحب لوسيان، فكان يخشى غائلة هذا الحب وينتظر من حينٍ إلى حين أن تأتي إليه ابنته وتبوح له بسرها المكنون.

وقد مر على ذلك شهر دون أن تحدث حوادث تُذكر سوى أنّ ماري زادت تعلقاً بلوسيان وأن لوسيان بدأ يشعر بميلها إليه فيغتم لذلك غماً شديداً. لأنه كان يحب لوسي حباً لا يحيط به وصف ولا يتخلى عن حبها بأموال الأرض.

ولكنه كان يتعزى عن ذلك لقرب افتتاح المعمل ويرجو أنه متى أقام في ذلك المعمل أي في ضواحي باريس ابتعد عنها فخف عندها هذا الميل بالبعد.

وقد صح حسابه في البدء فإنّ بُعده عن ماري لم يخمد حبه في قلبها ولكنه خفف أشجانها فإنّ لوسيان لم يكن يذهب إلى منزل أبيها إلّا في القليل النادر.

* * *

غير أنّ ذلك لم يطل فإنّ ماري كانت تحبه دون أن تجاهر بذلك الحب، وجعلت تذهب إلى معمل أبيها في ضواحي باريس متذرعة كلّ مرة بحجة بغية أن تراه.

ففي يوم السبت مساء ورد إلى لوسيان كتاب من صديقه جورج يدعوه فيه إلى الطعام غداً أي يوم الأحد.

فلم يجد بداً من تلبية الدعوة وكان جورج قد علم بما لقيه لوسيان من الفوز لدى بول هرمان فقال له:

إني أهنئك بهذا النجاح الذي كنت أتوقعه فإنه ينطبق على ذكائك وجدّك.

قال: إني أشكرك أيها الصديق ولكني لا أنكر عليك أني من أهل المطامع.

ـ ألعلك طامع بإعادة معمل أبيك في فورتفيل؟

ـ هو ذاك، فإنه واجب فرضته على نفسي ولا يهدأ لي بال قبل إتمامه. وأرجو أن أتمكن بأعوام قليلة من اقتصاد نفقات بناء هذا المعمل فإنّ أرضه لا تزال لي.

ـ إني أثني عليك كلّ الثناء أيها الصديق وما زلنا نتحدث بالماضي فإني محدثك بما علمته عن تلك المتهمة باحتراق المعمل.

ـ حنة فورتيه؟

ـ هي بعينها فإنّ هذه المنكودة سواء كانت مجرمة أو

بريئة فإنها لقيت شقاءً عظيماً وحكايتها أنها على أثر الحكم عليها أصيبت بالجنون.

فصاح كل من لوسيان وإتيان المصور الذي كان حاضراً، قائلين:

ـ مجنونة؟

قال نعم بقيت في مستشفى المجانين عشرة أعوام.

ـ وبعد ذلك أخرجت منه؟

ـ نعم فقد احترق المستشفى أيام الحصار فنقلوها إلى مستشفى كارمون كي تقيم فيه بقية حياتها لأنها محكوم عليها بالسجن المؤبد.

فقال لوسيان: هل ماتت؟

ـ كلا ولكنها هربت منذ شهرين متنكرة بملابس راهبة بعد أن شفيت من جنونها.

ـ ألم يظفروا بها إلى الآن؟

ـ كلا ولكن لا بدّ لهم من العثور بها فقد أرسلوا أوصافها إلى جميع الجهات ويعتقد رجال البوليس أنهم سيقبضون عليها قريباً لأنها لم تهرب من السجن إلّا للبحث عن ولديها.

ـ مسكينة هذه الأم فقد كلموني عنها منذ بضعة أيام.

ـ من الذي كلمك عنها؟

ـ امرأة قرأت قضيتها يوم محاكمتها فأخبرتني أنّ لها ابنين.

ـ من هي هذه المرأة؟

بائعة خبز تدعى ليزا بيرين

وهنا انتهى الحديث بشأن حنة وأخذ الثلاثة يتحدثون بأمور مختلفة إلى أن فرغوا من الطعام فاستأذن لوسيان صديقيه وذهب إلى خطيبته.

وكانت لوسي تنتظره ومعها حنة التي لم تكن تفارقها بعد فراغها من بيع خبزها فكانت تساعدها بأشغالها البيتية بل إنها كانت تتولى كلّ أمورها إذ شعرت بميل عظيم نحوها فأصبح هذا الميل متبادلاً بين الاثنتين.

فلما دخل لوسيان حاولت حنة أن تنصرف ولكن لوسيان طلب إليها أن تبقى معهما فوافقت على طلبه شاكرة ممتنة.

وقد تلطف معها بالحديث حتّى أنّه قال لها: إني أرجو أن تعيشي معنا في مستقبل الأيام.

فسرّت لوسي لقوله وقالت وأنا أرجو أن أجد فيها تلك الأم التي لم أعرفها، فأجابتها حنة قائلة: وأنا أحبك كما لو كنت ابنتي.

فقال لها لوسيان: أتذكرين حديثنا منذ بضعة أيام عن

تلك المرأة المنكودة المتهمة بقتل أبي؟ وهي بريئة في اعتقادي.

ـ نعم أذكره.

ـ إنها هربت من السجن منذ شهرين.

فقالت لوسي، إذن لقد باتت مطلقة السراح.

قال: هو ذاك، ولكن عهد حريتها لا يطول، فإنها لم تهرب إلّا للبحث عن ولديها ولا بد أن يهتدوا إليها خلال بحثها.

فارتعدت حنة وأدارت وجهها كي تخفي اصفرارها وأيقنت أنّه لم يبق بد لها من المبالغة بالتنكر والاختباء.

* * *

في صباح هذا اليوم نفسه استفاقت ماري من رقادها مبكرة فلبثت في غرفتها إلى وقت الغداء وهي حزينة النفس منقبضة الصدر لما كانت تراه من عدم اكتراث لوسيان لحبها.

وقد أشكل عليها حل هذا اللغز فإنها كانت ترى نفسها صبية حسناء بل إنها كانت تبالغ أحياناً وتتمادى بإظهار ميلها إليه وعطفها عليه وهو واجم لاهٍ كأنما قلبه قُدّ من الصخر أو كأنه لم يجدها جديرة بغرامه، فتتأجج في قلبها عاطفة الكبرياء وتحقد عليه، ثمّ يدفعها الحب إلى أن تلتمس له عذراً فتجده بسرعة وتقول في نفسها:

إنه يحبني دون شك كما أحبه ولكنه لا يجسر على أن يطارحني غرامه لما بيننا من تباين المقام فإنّه يجدني غنية ويجد نفسه معدماً مستخدماً عند أبي...

نعم هذا هو عذره ولا بدّ لي من البيان بجلاء فإني إذا لم أكن له كنت للموت.

وفيما هي تناجي نفسها بهذه الأقوال جاءتها الخادمة تدعوها من قبل أبيها للغداء فذهبت إليه واستقبلها باسماً ولكنه قال لها بلهجة تبين فيها القلق:

لماذا لزمت غرفتك اليوم فهل أنت متوعكة المزاج؟

ـ لم يكن هذا السبب داعياً إلى انحباسي في غرفتي بل إنّي لزمتها للتمعن والتفكير.

ـ بماذا كنت تفكرين يا ابنتي؟

ـ أتأذن لي يا أبي الحرية في المقال.

ـ لا آذنُ لك فقط، بل هذا الذي أريده.

ـ إذن فاعلم يا أبي أنّي سعيدة بك سعيدة بحنوك ولكن حنو الأب لا يكفي لأملأ ما في قلب فتاة صبية من الفراغ، وقد بلغت من العمر تسعة عشر عاماً. ألم تفكر يا أبي بتزويجي؟

فطوق جاك عنق ابنته بيديه وقال لها:

أتريدين أن تفترقي عني أيتها الحبيبة؟

ألا تعلمين أنّ وجودك بقربي هو الذي يثير في نفسي ما ترينه بي من الهمة والنشاط والإقدام والآمال، وأنك إذا ابتعدت عني خمدت هذه العواطف في نفسي وشعرت أنّه لم يبق لي غير الموت.

ـ ولكن ألا يمكن يا أبي أن أتزوج وأبقى قريبة منك؟

ـ أليس الأفضل أن نبقى كما نحن؟

ـ إنّ من يسمعك تقول هذا القول يا أبي يحسب أنك مفرط في محبة ذاتك فقد خطر لك دون شك أنّه يأتي يوم يصبح فيه قلبي لسواك.

ـ لا أنكر. هذا الخاطر خطر لي مراراً، ولكني ما فكرت فيه مرة إلّا حسبت نفسي شقياً فكنت أحاول إبعاد هذا الفكر، ومع ذلك فقد خطر لي خاطر أيضاً.

ـ ما هو يا أبي؟

ـ هو أني خصصت لك مالاً وفيراً ورجوت أن أزوجك رجلاً نبيلاً تفاخرين به النساء.

ـ أية فائدة من ذلك يا أبي فإني لا أريد المفاخرة بل السعادة.

ـ وأي نبيل يراك ولا يحبك أليست السعادة في الحب؟

فسالت الدموع من عيني ماري ونظرت إلى أبيها فقالت: إننا مختلفان رأياً بالزواج يا أبي؛ فإني لا أبغي رجلاً نبيلاً

ولا يروق لي الغني بل أريد أن يكون لزوجي ثلاث صفات وهي الحرية والعزيمة والشجاعة، ومن اجتمعت فيه هذه الصفات كان خير الرجال ولو كان من صغار العمال.

فأيقن جاك أنها تعني لوسيان وشعر برعب عظيم حين خطر له أنّه سيزوج ابنته ذلك الفتى الذي قتل أباه.

وقد ساد السكوت هنيهة بينهما إلى أن عاد جاك إلى الحديث فقال:

أتذهبين اليوم للنزهة؟

قالت بل نذهب للزيارات إذا شئت يا أبي فإني مدينة بزيارة لمدام وليسون.

ـ حسناً فإنك بينما تكونين عندها أذهب أنا لزيارة جورج داريه فإني لم أره بعد عودتي.

فأشرق وجه الفتاة حين سمعت اسم جورج داريه لاعتقادها أنهما سيبحثان بشأن لوسيان وقالت له إني سأصحبك إليه وهو سيشكرك لإجابتك طلبه بشأن لوسيان.

ـ بل أنا يجب أن أشكره فقد أرشدني إلى خير عامل.

ـ يظهر أنّك راضٍ عن لوسيان؟

ـ كلّ الرضى فإنه أنشط العمال وأحذقهم.

ـ وفوق ذلك فإنه حسن التربية رقيق الحاشية مهذب النفس وقد عرفت هذه الصفات فيه لأول وهلة، فصحّ ما توسمته فيه.

فلم يجبها أبوها ولكنه حدّق بها فاحمرّ وجهها وندمت لاندفاعها بالثناء على لوسيان.

وبعد نصف ساعة كانت مع أبيها في منزل جورج داريه المحامي أي ابن حنة وكان هناك وصديقه المصور إتيان، فعرفه بهما ودار الحديث بينهما على أمور مختلفة إلى أن ذكروا لوسيان وما لقيه في بدء عهده من الشقاء فسألت ماري جورج قائلة:

إنّ لوسيان لا عائلة له أليس كذلك؟

ـ نعم يا سيدتي فقد حدثت جناية جعلته يتيماً.

فارتعدت ماري وقالت: جناية...؟

إنه لم يذكر لي شيئاً من ذلك، أروى لك هذه الرواية يا أبي؟

فأجابها أبوها دون شك يا ابنتي ولكني ما أحببت أن أقص عليك هذه الرواية المحزنة.

ـ ولماذا لا تخبرني بها، فإني أيضاً توسطت في شغله وأحب أن أعلم من أمره ما تعلمون فأنسيه تلك النكبات السابقة.

ثمّ التفتت إلى جورج وقالت له أرجوك أن تقص عليّ خبر هذه الفاجعة.

فقال له جورج إني أستطيع يا سيدتي أن أرويها لك

بملء الإيجاز وهي أنّ والد لوسيان عاد إلى معمله ذات ليلة عند انتصاف الليل فوجد معمله يحترق وقُتل فيه.

ـ ولكن هذه الرواية ليست محزنة بل إنها مروعة أليس كذلك يا أبي؟

فضبط جاك نفسه إخفاءً لاضطرابه وقال إنها مروعة دون شك.

فقالت ماري: من الذي أضرم النار في المعمل وقتل صاحبه؟

ـ إذا صدق حكم القضاء كان القاتل امرأةً هي حارسة المعمل.

ـ رباه أيمكن أن تقدم النساء على مثل هذه الجرائم الفظيعة، إنها نمرة ضارية.

ـ أو إنها شهيدة مظلومة يا سيدي؟

ـ ماذا تعني بذلك يا سيدتي.

ـ أعني أنّ لوسيان علم من عمته أنّ هذه المرأة لا يمكن أن تكون القاتلة.

ـ ألم تستأنس المحكمة بهذا القول؟

ـ كلا فإنّ جميع الأدلة كانت تثبت الجريمة على المرأة.

ـ إذن كيف يشك لوسيان ببراءتها؟

ـ ذلك أنّه يعتقد أن حكم القضاء كان من قبيل الخطأ

الفجائي وهو يرجو أن يقابل حنة فورتيه المتهمة ويعرف منها القاتل الحقيقي ولكن يستحيل عليه الآن أن يرى هذه المرأة.

فسال العرق البارد من جبين جاك وقال: كيف ذلك فإنّ المجرمة يجب أن تكون في السجن؟

هو ذاك غير أنّها فرّت من سجن كلرمون الذي كانت مسجونة فيه.

فاصفرّ وجه جاك حتّى بات كالأموات وقال بصوت خافت: أهربت؟

ـ نعم ولكنهم سوف يقبضون عليها وقد كان أسف لوسيان شديداً حين أخبرته بفرارها فإنه كان يرجو أن يقابلها ويقف منها على الحقيقة.

فقال جاك: لنفرض أنّه لقيها وأنها أخبرته عن القاتل الحقيقي وأنه وجد ذلك القاتل فكيف يستطيع أن ينتقم منه وقد فاتت المدة المفروضة في القانون لمعاقبة المجرمين.

ـ بل إنه يستطيع الانتقام، فإنّ هذا القاتل إذا كان قد تسمى باسم آخر وبات غنياً بفضل ذلك المال الذي سرقه انتقم منه بفضحه، فإنّ مثل هذه الفضيحة قد يكون شراً من العقاب وقد تدعو المصاب بها إلى الانتحار.

فقالت ماري: إني أتمنى الفوز للوسيان بانتقامه فإنّ

انتقامه لأبيه عدل. فأطرق جاك برأسه لكلام ابنته وعاد جورج إلى الحديث فقال:

إنّ غرض لوسيان أن يقتصد ما يمكنه اقتصاده في كلّ عام حتّى إذا جمع المبلغ الذي يريده بنى معملاً فوق تلك الأرض التي احترق فيها معمل أبيه إحياءً لذكراه.

فقالت ماري: وذلك أيضاً مما يستحسن الثناء ولكن انتظاره سوف يطول إلّا إذا أراد أبي.

فقال لها أبوها:

كيف ذلك يا ابنتي؟

ـ لقد قلت لي منذ يومين أنّ نطاق أعمالك قد اتسع حتّى أنك سوف تضطر إلى إنشاء معمل آخر متسع فلا تشغل معملك الحالي إلّا بآلات السكك الحديدية، ألا يستطيع لوسيان أن يدير هذا المعمل الجديد؟

ـ دون شك وسأعتمد عليه دون سواه في إدارته.

ـ إذن اجعله شريكاً لك فيه.

فدهش جورج والمصور لكرم أخلاق ماري وبدأ جاك يعترض فقال ولكن..

غير أنّ ماري قطعت عليه الكلام قائلة:

لا تعترض يا أبي فإنك وافر الثروة ولوسيان من أهل النشاط والإقدام كما تصفه فلماذا لا تشاركه بمالك وهو يشاركك بحذقه وجدّه وشبابه.

فقال لها جورج:

إنك ترتأين خير الآراء يا سيدتي غير أنّ أباك لا بدّ له من التفكير بإمعانٍ في مثل هذا المشروع الخطير.

ـ لا أرى فائدة من التفكير بعدما ثبت لأبي أنّ لوسيان من أحذق أهل صناعته، وإذا كان ذلك فهو المغبون بالشركة ولا غبن على أبي فقل يا أبي واعتمد على هذه الشركة.

فابتسم جاك وقال:

لا أحب إليّ من إرضائك يا ابنتي، فإني أوافق مبدئياً على ما اقترحته ولكن لا بدّ لي من التفكير في مثل هذه الأمور فإنّ التسرع في كلّ أمر غير محمود.

وقد قال هذا القول ووقف يحاول الانصراف فقالت ماري:

أريد قبل انصرافنا يا أبي أن أثقل على المسيو إتيان فإني أحب أن أزين قصرك برسوم كبار المصورين فهل يأذن لي المسيو إتيان أن أسأله قضاء أمرين.

فقال لها إتيان:

تفضلي يا سيدتي ومري بما تشائين.

فأجابته قائلة:

أريد أوّلاً أن يكون عندي بعض رسومك ثمّ أريد أن تختار لي ما تستحسنه من رسوم سواك.

فشكرها المصور لحسن ظنها به وانصرف جاك مع بنته.

فلما خلا جورج بإتيان قال له:

أتعلم ماذا اكتشفت بهذه الزيارة؟

ـ كلا.

ـ رأيت أنّ الفتاة مندفعة بالثناء على صديقي لوسيان كثيرة الرغبة في خيره.

ـ وأنا رأيت ما رأيته.

ـ بل إني رأيت أنها تحبه، ألا ترتأي رأيي؟

ـ دون شك.

ـ وأخيراً أظن أنّ لوسيان سيتزوجها.

ـ لماذا؟

ـ لأني رأيت أباها خلال الحديث يتململ.

ـ ماذا استنتجت من ذلك؟

ـ استنتجت أنّ رأي المسيو هرمان مخالف لرأي ابنته.

ـ ولكنه يحب ابنته.

ـ دون شك، ولكني رأيت أنّه يحب ذاته أكثر مما يحب ابنته.

ـ وعلى الجملة فإنك لم تشعر بميل إليه.

ـ لا أنكر ما تقول، على أني قد أكون مخطئاً بتسرعي في الحكم عليه وأنا لم أره غير هذه المرة.

ولكنك تعلم أنّ المرء لا يستطيع مقاومة شعور قلبه، وأنا من الذين يعتقدون بصواب الحكم الأوّل وحكمي الأوّل على بول هرمان أنّه قد يكون من أهل الذكاء والإقدام ولكنه يضمر غير ما يقول.

أمّا جاك وابنته فإنهما ركبا المركبة التي كانت تنتظرهما عند باب منزل جورج فسارت بهما وكلاهما صامت واجم.

وكانت ماري صامتة لأنها شعرت باندفاعها في ما اقترحته على أبيها بشأن لوسيان وخشيت أن تدعو هذه الجرأة جورج والمصور إلى انتقادها.

وأما أبوها فقد راعه ما علمه من فرار حنة من السجن فكان يحدث نفسه فيقول:

إنّ حنة فورتيه هربت من السجن وهي ستأتي إلى باريس وتعرفني فيها وهناك الخطر الهائل فما هذه الأخطار التي لا تنفك تداهمني كلّ يوم ومن كان يخطر له أني سأرتجف رعباً بعد واحد وعشرين عاماً أمام حنة فورتيه ولوسيان لابرو.

وكان يحدث نفسه بهذه الأقوال والعرق يتصبب من جبينه وهو ينظر إلى ابنته نظرات تشف عن الخوف فتطبق ماري عينيها كي تتمادى في محادثة نفسها دون أن تزعجها هذه النظرات.

وعاد جاك إلى مناجاة نفسه فقال:

إنهم سيقبضون على هذه المرأة وهذا الذي أرجوه ولكن ما يكون مصيري إذا عرفتني قبل القبض عليها.

وقد كان شديد الرعب من حنة ولوسيان وزاد رعبه تفكيره بالكتاب الذي أرسله إليه أوفيد سوليفو فإنه كان يخشى كلّ يوم أن ترد إليه أخبار حضوره فقد أخبره في ذلك الكتاب عن عزمه على الحضور فما الذي حدث في أميركا ودعا هذا الرجل إلى مبارحتها والعودة إلى باريس.

إنه دون شك اندفع في المقامرة بعد أن استقلّ بالمعمل فجعل يخسر ويستدين حتّى خسر قيمة كلّ ذلك المعمل العظيم.

وقد أصاب جاك في ظنه؛ فإنّ أوفيد حين استفحلت خسارته باع المعمل وخسر معظم قيمته فلم يبق له من ثمنه غير ثلاثمائة ألف فرنك فقال في نفسه لقد آن أوان عودتي إلى فرنسا.

وفي اليوم التالي خسر كلّ ما بقي معه فلم يتردد لحظة وأسرع إلى بيع ساعته وما كان عنده من المجوهرات وركب باخرة كانت مسافرة في ذلك اليوم إلى الهافر وهو يقول في نفسه:

لا أنكر أني أخطأت بخسارتي المعمل فقد كان بوسعي أن أعيش من ريعه عيش السعداء.

ولكن ابن خالي العزيز لا يزال من كبار الأغنياء وسيكون لي وإياه شأن ولكني سأكون الفائز لا محالة.

* * *

وفي صباح يوم جاء أوفيد سوليفو إلى شارع موريلو في باريس وطرق باب منزل جاك ففتح له البواب وقال له: ماذا تريد؟

ـ أريد مقابلة بول هرمان.

ـ إنه ذهب مبكراً إلى المعمل، ثمّ أرشده إلى مكانه فذهب أوفيد سوليفو مسرعاً إلى ذلك المعمل لمقابلة صاحبه.

وقد دخل أوفيد سوليفو إلى غرفة ابن خاله جاك جيرود، وأقفل الباب من ورائه.

وكان جاك في تلك الساعة يقفل خزائنه الحديدية وظهره إلى الباب فلما سمع صوت فتح الباب التفت فاصفرّ وجهه وصاح صيحة دهش إذ رأى أوفيد سوليفو واقفاً في وسط الغرفة وهو مكتوف اليدين وقبعته على رأسه.

أمّا أوفيد فإنه حيّا جاك ووقف ينظر إليه وهو يبتسم.

وكان دهش جاك عظيماً فقال له أهذا أنت؟

قال إني بنفسي يا ابن خالي العزيز ولكن ما لي أراك

منذهلاً لمرآي فإنّ من رآك تستقبلني بهذا البرود يحسب أنك غير راضٍ عن زيارتي.

وقد كان اضطراب جاك عظيماً فإنه تشاءم بقدوم أوفيد وعدّه مقدمة لمصابه.

فلما ثاب من دهشته تقدم منه فصافح يده وقال له لماذا رجعت إلى فرنسا؟

ـ لأني لا أستطيع الإقامة في أميركا.

ـ ولماذا أتيت إليّ؟

ـ لأسألك تعييني في معملك.

ـ إذن لقد كنت صادقاً في ما كتبته لي فإنّ ذلك المعمل العظيم الذي تخليت لك عنه...

ـ قد لعبت به أيدي سبأ.

وعند ذلك أخذ كرسياً وجلس بجانب جاك وقال:

هذا الذي اتفق لي أيها الصديق ولا أنكر أني لست من رجالك في ميدان الأعمال وإدارة الشؤون.

ـ ليس هذا بالسبب الذي يدعو إلى إضاعة المعمل بهذا الزمن الوجيز، ولكن السبب الأكيد هو أنك من زمرة المقامرين.

ـ بل إني أشدهم ولعاً بهذه العادة الذميمة ولم أصب بهذه الخسارة الكبرى إلّا لسوء بختي فإني منذ فارقتك

لم يتفق لي أن ربحت مرة واحدة، وهذا من الاتفاق فكان فراقك شؤماً عليّ.

ـ أفقدت كلّ ما أعطيتك؟

ـ لم يبق لي غير ريال واحد وهذا الثوب القديم الذي تراني ألبسه.

غير أني لا أكترث لفقري فإنك غني بحمد اللّه وقد زادت ثروتك بهذا المعمل العظيم الذي أنشأته فإنه أعظم من معملك القديم في نيويورك وهو يتسع لمثلي دون شك.

فارتعد جاك وقال بلهجة المذعور:

أأنت تشتغل هنا.. في معملي؟

إنّ هذا محال.

ـ ولماذا تحسبه محالاً؟

ـ لأن مدير هذا المعمل ابن الرجل الذي قتلته، فإذا اشتغلت معه فيه وكنت وإياه كلّ يوم فقد تبدر منك بادرة تفضح أمري.

ـ ولكن هذه البادرة لا تبدر مني فلا سبيل إلى الخوف.

ـ إني لا أستطيع قبولك في الحالتين.

ـ لماذا؟

ـ لأني لا أريد، وفوق ذلك فإني غير مدين لك بشيء فقد أجبتك في أميركا إلى كلّ ما طلبته وأعطيتك ثروة

عظيمة فماذا تريد بعد ذلك؟ أيكون الذنب ذنبي إذا قامرت وخسرت تلك الثروة؟

ـ ولكنك لم تجبني إلى ما طلبت بمحض كرمك ومروءتك، بل لأنك كنت مرغماً على إجابة سؤالي. وأما الآن فإنك أنت نفسك تكره أن تدع قريبك فقيراً معدماً لا يملك قوت ليلة إلّا إذا نسيت ما بيننا من صلة النسب.

ـ إنك تريد أن تقول بأني مقيد بإرادتك وأنك تريد أن تضع السكين على عنقي كما فعلت في نيويورك.

ـ لا تقل هذا القول أيها القريب العزيز فإني لا يخطر لي في بال أن أتوعد ولكنني أذكرك فقط بما بيننا.

ـ بل إنك تقول في نفسك إنك عارف بسره وأن قلبه يهلع خوفاً مني وأني أريد أن أنال منه ما أريد؟

ـ ليكن ما تفترضه أتحسب أني غير مصيب.

ـ بل أرى أنّك خائن سافل تريد أن تحتال عليّ.

ـ وأنا أرى هواء فرنسا قد غيّر أخلاقك فما كنت من أهل البذاءة في أميركا وكان لك حنو على أهلك.

ـ فغضب جاك وقال له: كفاك مزاحاً فإني لا أحب المزاح، وإني لست في قبضتك كما تظن.

ـ أحق ما تقول، وكيف ذلك؟

ـ ذلك أنك تستطيع فضحي بكلمة تقولها ولكنك لا

تستفيد شيئاً، أتحسب أني أطيق احتمال مثل هذه الفضيحة وأبقى على قيد الحياة؟ كلا فإنك حين تقول كلمتك وتفشي ذلك السر الذي تهددني كلّ يوم بإفشائه أطلق النار على رأسي فأموت ولا تنال درهماً من ثروتي فإنها تعود بجملتها إلى ابنتي.

ولذلك كان الأفضل أن تكتم سري حرصاً على حياتي فإنك إذا أسأت إليّ أسأت إلى نفسك.

فأيقن أوفيد أنّ جاك يفعل ما يقول. وإنه إذا دفعه إلى اليأس كانت الخسارة عليه، فغيّر لهجته في الحال وعاد إلى اللين والمسالمة.

ولكنك طاهر القلب حسن المروءة فلا تتخلى عني ولا تدع يد الشقاء تصل إليّ.

ـ كلا إني لا أتخلى عنك بل أدعك تعيش عيشاً سعيداً.

أأكون بعيداً عنك.

ـ نعم فإني لا أريد أن نجتمع إلّا في القليل النادر.

ـ ولكن أية فائدة من هذا الحذر فإني شديد التكتم فإذا كان لا بد من الافتراق فاسمح لي على الأقل أن أزورك في منزلك وأن أرى ابنتك التي أحبها حباً أبوياً وإن تكن لا تحبني.

ـ سننظر في ذلك بعد حين.

ـ ليكن ما تريد والآن قل لي ماذا تريد أن تصنع بي؟

سأعيّن لك دخلاً يبلغ اثني عشر ألف فرنك في العام.

ألف فرنك في الشهر إنّ ذلك قليل ولكن النفس إذا رددتها إلى القليل تقنع وإذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون.

ـ وسأعطيك خمسة آلاف فرنك لإنشاء منزل تقيم فيه أضيف إليها راتب أوّل شهر.

ـ وعلى ذلك فسأقبض الآن ستة آلاف فرنك وأحضر كلّ شهر فأقبض ألفاً.

ـ كلا إنك لا تحضر إلى هنا بل أنا أرسل راتبك إلى حيث تشاء.

ـ إذن ترسله إلى منزلي الذي سأنشئه ولكنك إذا كنت لم تسمح لي بأن أزورك فإنك تزورني فيما أظن.

ـ سأزورك ولكن اذكر أني أعطيتك لأول وهلة كلّ ما يمكن إعطاؤه واعلم يقيناً إذا خطر لك أن تنذرني بعد الآن تكون العاقبة سيئة على الاثنين.

ثمّ ذهب إلى صندوقه فأخرج منه أوراقاً مالية قيمتها ستة آلاف فرنك ودفعها إليه فأخذها أوفيد شاكراً وقال له:

والآن فإني أرجوك أن تتغدى وإياي احتفالاً بالتقائنا بعد ذاك الغياب.

ـ يستحيل ذلك اليوم ومتى استأجرت منزلاً أزورك فيه.

ـ إذن نحن متفقان الآن وأنت غير حاقد عليّ فإذا احتجت إليّ يوماً فاذكر أني لا أزال ذلك الصديق.

وعند ذلك قرع باب الغرفة ودخل الخادم فقال لجاك: إنّ المسيو لوسيان لابرو يريد يا سيدي أن يراك.

فارتعش أوفيد حين سمع هذا الاسم وكاد يتفرس لوسيان بنظره حين دخوله.

ثمّ استأذن بالانصراف وقال له:

إني منصرف يا مسيو هرمان ورجائي ألا تنسى ما وعدتني به.

وعند ذلك برح المعمل وركب الترامواي عائداً إلى باريس وهو يقول في نفسه:

لقد صدق جاك فإنّ ابن القتيل يشتغل عند القاتل ولذلك أبى أن يأذن لي بالاشتغال في معمله.

ولكن كيف أذن له أن يشتغل بمعمله وهو يعرفه. لا بد أن يكون هناك سرّ خفي ولا بدّ لي من إدراك هذا السر والاستفادة منه.

أمّا جاك فإنه بعد أن فرغ من شغله مع لوسيان وخلا بنفسه جعل يفتكر بأوفيد ويقول:

لا شك أنّ للشيطان دخلاً في أموري، فإني لا أرى أمامي كيف اتجهت إلّا ما يذكرني بالماضي؛ فهذا لوسيان

لابرو يقيم عندي وهذه حنة فورتيه قد هربت من سجنها وهذا أوفيد قد عاد من نيويورك وأي خطر أشد من هذا الخطر فإنّ كلمة واحدة يقولها أوفيد للوسيان كافية لفضح أمري.

وقد كنت أحسب أني قيدت أوفيد في أميركا بقيود من الذهب ولكنه قطع تلك السلاسل وعاد إليّ أشد فقراً مما كان، بل إنه عاد ينذرني فامتثلت له وخفت منه وكيف لا أخاف وقد اجتمع هؤلاء الثلاثة معي في بلدٍ واحد.

أواه إنّ الخطر شديد لا ينجيني منه غير قتل الثلاثة وكيف لي بالوصول إلى قتلهم.

وقد لبث هنيهة يتمعن في أمره ومصيره ثمّ وقف فجأة وقال:

لماذا اليأس فإنّ أوفيد قد قيدته بالذهب ولوسيان يعتبر أني المحسن إليه ويبارك تلك الساعة التي عرفني فيها.

وأما حنة فلا بد أن يقبضوا عليها ويعيدوها إلى السجن فلماذا اليأس.

ولماذا الخوف بل يجب أن أحمد المصادفة التي سهلت لي معرفة هذه الأخطار لاتقائها.

* * *

بعد ذلك بخمسة أيام وصلت إلى جاك هذه الرسالة:

«يا ابن خالي العزيز

لقد وجدت منزلاً في شارع كليشي نمرته 192. أرجو أن أتمكن من استقبالك فيه في وقت قريب».

فعرف جاك أنّ الرسالة من أوفيد فمزقها في الحال وألقاها في النار بعد أن حفظ العنوان في ذاكرته وأقام في ذلك اليوم يلهي نفسه بالعمل كي لا يذكر حوادثه السابقة.

وكانت ابنته ماري لم تر لوسيان غير مرة واحدة بعد المقابلة الأخيرة، ولكنها أظهرت له من التودد والتلطف ما أخافه حتّى إنّه بات يجتنب مقابلتها جهد إمكانه.

فكانت تحبه بالسرّ حباً برّح بها وزاد تمكن العلة منها، فشحب لونها وغارت عيناها ونحل جسمها.

كلّ ذلك والأطباء يختلفون إليها فيصفون العلاجات وينصرفون فيقرأ أبوها في عيونهم قولهم:

زوّجها فإنّ الزواج يفيدها أضعاف ما تفيدها علاجاتنا.

ولبثت ماري على هذه الحالة إلى أن صممت على مكاشفة أبيها بأمرها.

وقد دخل إلى غرفتها يوماً وهي على أشد حالات الضنك فذاب فؤاده إشفاقاً عليها ودنا منها فأخذ يدها بين يديه وقال لها بصوتٍ مضطرب:

ـ ألعلك محمومة يا ابنتي؟

ـ قليلاً.

وعند ذلك فاجأها السعال فقال لها: أتتوجعين؟

ـ كثيراً يا أبي.

فسالت دمعة على خدّ أبيها السفاك وقال:

أين محل الألم يا ابنتي؟

ـ في القلب.

فارتعش جاك وقال لها:

ولكنك لم تذكري هذا الألم قبل الآن لا لي ولا للأطباء؟

ـ ذلك لأنه من عهدٍ قريب وأنا لا أجد بداً من الإقرار لك يا أبي بكل أمري.

ـ تكلمي يا ابنتي، تكلمي.

إنّ علتي يا أبي بدأت من يوم قلت لي إنك تريد أن تزوجني بأحد النبلاء.

هو ذاك فإني أريد أن تكوني أسعد امرأة تحسدها النساء.

ـ إذن فاعلم يا أبي أنّه لا يجب أن يخطر لك هذا الخاطر فإنّ تحقيقه محال فإني لا أكون سعيدة إلّا إذا تزوجت الذي أحبه.

ومن هو الذي تحبينه يا ماري، أهو لوسيان لابرو؟

فغطت ماري وجهها بصدر أبيها وقالت:

إنك عالمٌ بالحقيقة.

ـ كلا ولكني حزرتها.

ـ نعم إني أحبه فوق حبي لحياتي.. نعم إني لا أحب سواه في هذا الوجود ما خلاك يا أبي فإني أحبك ما حييت.

فاصفرّ وجه جاك وقال:

ولكن هذا الحب جنون.

لا تقل هذا القول يا أبي فلا توجد قوة تنزع حبه من قلبي فقد نما في جوارحي وامتزج بدمي.

وبعد فكيف تدعو هذا الحب جنوناً؟ فإذا كان لوسيان فقيراً فنحن أغنياء ولدينا من الثروة ما يكفينا ويكفيه.

وإذا قلت إنّه من عامة الناس فهل نحن من النبلاء. إنه ذكي الفؤاد حسن الإرادة كثير النشاط طاهر النية.

على أنّه لو لم يكن له شيء من هذه الصفات لأحببته، فقد نفذ حبه إلى قلبي كما ينفذ نور الشمس إلى الآنية فيملؤها شعاعاً.

وأنت تقول يا أبي إنك لا تحب أن أفترق عنك وذلك لا يتيسر إلّا إذا زوجتني بلوسيان فإنك تشركه بأعمالك ونعيش جميعاً في بيت واحد وأنا الضامنة أنّه سيحبك كما أحبك ألا تستحسن ذلك يا أبي؟

فوجم جاك ولم يجب.

فقالت له ماري: قل أتحبني يا أبي؟

ـ أتسألينني إذا كنت أحبك! ومن أحب إذا لم أحب ابنتي؟

ـ إذن لا تحب أن أموت؟

ـ أنت تموتين يا ابنتي! ولمن أعيش بعدك.. إنه لو كان لي ألف حياة لفديت بها حياتك.

ـ إني لا أسألك أن تمنحني حياتك بل أن تجعل لوسيان ولدك فإذا رضيت أن تصاهره فاعلم يقيناً أنّ العافية ترد إليّ وإذا أبيت أن تكون صهره كأنك قد قتلتني بيدك إذ لا بدّ لي من الموت. أترفض بعد الآن؟

فأخذ جاك رأس بنته بين يديه فقبّلها وقال:

سليني كلّ ما تشائين ما عدا هذا الزواج.

ـ لماذا؟

ـ لأن لوسيان لابرو لا يمكن أن يكون زوجك.

ـ ولكني لا أريد زوجاً سواه.

ثمّ وضعت يدها على قلبها وقالت بصوت خافت: إني لا أنساه.. إني سأموت.

وقد ألقت رأسها على الكرسي وأغمضت عينيها إذ أغمي عليها فكاد أبوها يجن من رعبه وركع أمامها وهو يقول:

ماري.. حبيبتي ماري... إني أريد كلّ ما تريدينه... ماري أصغي إليّ... ماري إني أرضى أن تكوني امرأته.

غير أنّ ماري لم تجبه ولبثت مغمضة العينين فاشتد رعب جاك وقبض على يديها فوجدهما باردتين فصاح صيحة قنوط وقال:

ويلاه إنها ميتة... رباه إني قتلتها.

ثمّ وثب إلى الجرس فجعل يدقه بعنف حتّى كاد يكسره فأسرعت إليه خادمة ماري ودنت من سيدتها تفحصها.

وعند ذلك تحركت ماري حركة خفيفة فبرقت ملامح أبيها وقال إنها كانت مغمياً عليها.. لقد عادت إلى رشدها.

ثمّ حملها بين ذراعيه ووضعها على سريرها وقد رأى نقطة دم بين شفتيها فجعل يبكي بكاء الأطفال.

أمّا ماري فإنها فتحت عينيها وأجالت في تلك الغرفة نظراً حائراً ثمّ نظرت إلى أبيها وقالت بلهجة السائل:

لوسيان.. لوسيان

فأجابها أبوها: نعم يا ابنتي وستعيشين لتحبيه.

وكأنما هذا الكلام قد كهرب الفتاة فعانقت أباها وهمست في أذنه قائلة: أترضى بزواجنا؟

ـ نعم أرضى.

ـ أحق ما تقول؟

ـ إني أقسم لك.

ـ إذن أنا سعيدة وستعود إليّ قواي مع العافية فإني لا أريد أن أموت.

* * *

وبعد أن اطمأنّ جاك على ابنته غادرها في سريرها وبرح غرفتها وهو يقول في نفسه:

ليكن ما يكون فإنّ هذا الزواج لا بد منه فإنّ عليه تتوقف حياة ابنتي وأنا أضحي بنفسي من أجلها.

وفوق ذلك فإنّ هذا الزواج الذي أخافه قد يكون خير واقٍ لي من انتقام لوسيان.. إذا قدر له أن يعرف حقيقة أمري فإنه لا يقبل افتضاح عمه وامرأته. نعم إنّ ماري ستكون الملاك الذي يحرسني.

وعند ذلك ذهب إلى لوسيان وسأله أن يأتي معه إلى غرفته.

وكان مضطرباً لا يعرف ما يقول وكيف يبدأ إلى أن تذكر ما حدّثه به عمه جيمس مورتيمر في الباخرة حين كان مسافراً إلى أميركا، فهان عليه الأمر وعزم على أن ينهج مناهجه فالتفت إلى لوسيان وقال له:

لقد سألتك يا لوسيان أن تأتي معي لأني أحب أن أكلمك بشأن خطير فهل أنت راضٍ عن منصبك عندي؟

قال: كيف لا أرضى يا سيدي فإني أكسب بفضلك ما

يزيد زيادة عظيمة عن حاجتي، إني أستطيع اقتصاد ثلثي راتبي بحيث سأغدو غنياً بعد بضعة أعوام.

ـ وهذه الثروة ستفيدك في تحقيق أمانيك التي أعرفها.

فنظر لوسيان إليه نظرة اندهاش ومضى جاك في حديثه فقال:

إني أراك ذهلت لما قلته لك ولكن انذهالك يزول حين تعلم أني اجتمعت بجورج داريه وعلمت منه أنك تريد إنشاء معمل في أرضك في فورتفيل إحياءً لذكر أبيك.

ـ هو ذاك يا سيدي فإنّ هذا كلّ ما أطمع فيه.

ـ وإني معجب بك أشد الإعجاب ومستحسن لخطتك، ودليل ذلك أني سأعيْنك على الإسراع بتحقيق هذه الأمنية.

ـ أنت يا سيدي وكيف ذلك؟

ـ ذلك يكون بأبسط الطرق؛ فأنت ترى أنّ المعمل الذي تشتغل فيه قد ضاق بأشغالنا الكثيرة وقد حان الزمن لشراء أرض صالحة لبناء معمل جديد.

ـ لقد أصبت يا سيدي، إذ لا بدّ من إنشاء هذا المعمل، فهل وجدت تلك الأرض؟

ـ نعم وهي أرضك.

ـ ولكنك تعلم يقيناً أني لا أريد بيعها.

ـ وأنا لا أقترح عليك شراءها منك.

فزاد انذهال لوسيان وعاد جاك إلى حديثه فقال:

ـ لقد تمعنت كثيراً في أمري، وأنا كما تعلم من أهل التفكير، فوجدت أني بحاجة إلى رجل حاذق مجرب يكون شريكي في أعمالي وهذا الشريك هو أنت.

ـ أنا.. أنا شريكك.. ولكن أرضي يا سيدي لا تساوي قيمتها جزءاً من ألف من قيمة معملك الذي تريد أن تشركني فيه.

ـ إني أعرف ذلك حق المعرفة، فاسمع يا لوسيان ما أقترحه عليك. إني سأنشئ في أرضك معملاً أعظم من معملي هذا، وأجعلك مالكاً لهذا المعمل بصك قانوني بحيث تصبح قيمة معملك موازية لقيمة معملي، وبذلك تتم الشراكة فيشتغل المعملان وفي آخر كلّ عام نقتسم الأرباح مناصفة. فما تقول بهذا الاقتراح البسيط؟

ـ أقول يا سيدي إني أسمعك وأحسب نفسي حالماً.

ـ كلا فإني لا أقول لك غير الحقيقة.

ـ إذن إني لا أجسر على قبول اقتراحك فإني لم أعمل بعد عملاً أستحق به مثل هذه المكافأة.

ـ أتعلم كيف توصلت إلى الثروة يا موسيو لابرو؟ أتعلم كيف توصلت إلى مشاركة جيمس مورتيمر في حين أني لم أكن غير عامل بسيط؟

ـ بالعمل والجد.

ـ ذلك لا ريب فيه، ولكني لم أفز بالعمل على الطريقة التي تعرفها بل إنّ جيمس مورتيمر حين رأى أني من أهل الجد والإقدام زوّجني ابنته وأشركني بأعماله.

فارتعش لوسيان ولم يجب.

فقال له جاك:

ـ لماذا لا أنهج منهج جيمس مورتيمر؟ فإني أراه لُباب الصواب. بل لماذا لا أقتدي بكرمه فإنّ نصف ثروتي التي سأشركك فيها سيكون مهر ابنتي.

ـ أتكون الآنسة ماري امرأتي؟

فابتسم جاك وقال:

ـ دون شك، وأي مانع يحول دون هذا الزواج؟ فإنّ ابنتي قد اختارتك زوجاً لها وباحت لي بسرّها فلم يسعني إلّا الموافقة على رأيها لأني أجدك أهلاً لها ويسرني أن أدعوك صهري لأني أحبك.

فقال له لوسيان:

ـ يسرني جداً يا سيدي أن أرى منك هذا العطف كما يسوؤني أن أرفض هذا الاقتراح.

فعجب جاك لرفضه وقال له:

ـ لماذا؟

ـ لأني حريص على شرفي.

ـ يظهر أنك لم تفهم كلامي؛ فقد قلت لك إن ماري تحبك وقد اختارتك وفضّلتك على سواك.

ـ إنك تنهج معي منهجاً من الحرية لا يسعني معه إلّا الشكر والامتنان غير أنّ قلبي مقيّد.

ـ ألعلك تحب؟

ـ نعم أحب فتاة أقسمت لها أن أتزوجها ولست من أهل الحنث.

ـ لا شك أنّ هذه الفتاة التي أحببتها لا ثروة لها.

ـ هو ذاك يا سيدي فإنها فقيرة معدمة.

ـ ولكن يجب أن تعلم يا بني أنّ الحب يزول والمال يبقى.

ـ ما خلا محبتي فهي خالدة في قلبي.

ـ تمعن يا بني فإنّ ماري تحبك.

ـ ألم تقل لي يا سيدي أنّ الحب يزول.

ـ ولكن تلك المنكودة تحبك حباً لا يحيط به وصف، وهي ستموت دون شك متى عرفت رفضك.

ـ لا أخال ذلك يا سيدي وفي كلّ حال أرجوك ألا تلح عليّ.

ـ لا ألح، ولكني أقول لك أيضاً إنّ مستقبلك منوط بهذا الزواج، فتمعن.

فانحنى لوسيان وانصرف وبقي جاك في غرفته فجعل يسير ذهاباً وإياباً ويناجي نفسه فيقول:

ـ إنه يحب غير ابنتي.. إنه يحب فتاة فقيرة.

إنه يأبى أن يتزوج ماري أي أنّه سيكون السبب في موتها..

كلا إنّ ذلك لا يكون. فإنّ ابنتي قبل كلّ شيء في الوجود وليمت العالم كله بشرط أن تحيا.

* * *

كانت ماري تنتظر عودة أبيها بملء الجزع وكانت قد استراحت بالرقاد بضع ساعات فعادت إليها قوتها.

وبعد الظهر ذهبت إلى الخياطة فوجدت عندها لوسي فسُرّت لمرآها وقالت لها:

ـ إني إذا كنت قد سررت بلقائك فلا بدّ لي من تأنيبك.

ـ لماذا يا سيدتي التأنيب؟

ـ لأنك لم تزوريني بعد أن قست لي الثوب الأخير.

ـ ذلك لأنه لم يبق لديك ما أقيسه فما جسرت على إزعاجك بزيارتي.

ـ لقد أخطأت يا لوسي فإنك تعلمين أني أُسرّ برؤياك

وكان يجب أن تحضري ومع ذلك فسأوصي على جملة أثواب كي لا تقطعي زيارتي.

ـ إني أكون سعيدة بذلك يا سيدتي.

ـ لقد خطر لي خاطر يا لوسي أتعلمين ما هو؟

ـ ما هو؟

ـ هو أني أحب أن أزورك.

فابتسمت لوسي وقالت:

ـ إنك لا تجدين غير غرفة بسيطة في الدور السادس، ولكني أستقبلك فيها بقلب ملؤه الإخلاص والامتنان.

ـ لا ريب عندي بإخلاصك فاكتبي لي عنوانك.

فكتبت لوسي لها عنوان غرفتها فأخذته ماري وأوصت على كثير من الثياب كي تقتل الوقت وعادت إلى منزل أبيها في الساعة الخامسة بعد الظهر وأقامت في غرفتها تنتظر أباها.

وما زالت تنتظره على أحرّ من الجمر حتّى عاد من معمله وذهب تواً إليها فعانقها وقال لها:

ـ أرى يا ابنتي أنك في خير.

ـ نعم يا أبي فقد نمت بعد ذهابك فأفادني الرقاد. ولكن أنت ماذا فعلت يا أبي، وبماذا عدت إليّ؟

ـ لقد عدت إليك بالرجاء يا ابنتي.

ـ ألعلك قلت للوسيان بأني أحبه؟

ـ كيف أقول له هذا القول. ألعلك نسيت الواجبات.

ـ كلا يا أبي فإنها بادرة بدرت مني، وإنما أردت أن أعني بأنك تستطيع إخبار لوسيان بأنك لا ترده خائباً إذا خطبني إليك.

ـ لقد لمّحت له تلميحاً عن ذلك فأخبرته بما علمته من عزمه على إنشاء معمل في أرضه إحياءً لذكر أبيه وأني سأبني له هذا المعمل في تلك الأرض فيكون مهراً لابنتي ولا يمكن التصريح بأكثر من هذا القول.

ـ ماذا أجاب؟

ـ إنه رقيق الشعور كثير الشهامة فلم يصدق ما قلته له لما بيننا من التباين في الثروة.

ـ وبعد ذلك، أرَضي باقتراحك؟

ـ نعم لقد رضي ولكنه شرط شرطاً.

ـ ما هو؟

ـ هو أنّه أبى لرقة شعوره أن يكون لي فضل عليه وهو آخذ الآن باختراع آلة ستعود عليه بالمال الجزيل، ولذلك يريد أن يصبر إلى أن يفوز الفوز النهائي فيكون زواجه بك زواج الأكفاء للأكفاء.

ـ إنه قصد شريف لا يصدر إلّا من أمثاله، ولكن بقي شيء لم تذكره لي عنه وهو هل يحبني كما أحبه؟

ـ ومن يراك ولا يحبك يا ابنتي؟

ـ إنك لم تجبني جواباً صريحاً فهل يحبني؟

ـ لم يعترف لي صراحةً بذلك، ولكني كنت أقرأ سور الحب في عينيه.

ـ أنت واثق مما تقول؟

ـ كلّ الثقة، فإنّ غرام المحبين لا يخفى وما زال قد رضي بهذا الزواج على ما نعلمه من مبادئه فهو يحبك دون شك.

ـ وأنا أثق نفس ثقتك ولكن قل لي هل يطول زمن الانتظار؟

ـ لا أعلم فإنّ إتمام اختراعه قد يطول إلى بضعة أشهر.

ـ سأصبر، ولكن أيعاملني لوسيان معاملة الخطيب.

ـ إنك تعرفين أنّه كثير الخجل.

ـ إنّ الخجل لا يحول دون الحب والجهر به ولكني سأراه أكثر الأحيان، وأنت ستعامله معاملة خطيب لا مستخدم أليس كذلك؟

ـ هذا لا ريب فيه وسيزورنا لوسيان أغلب الأحيان.

ـ أيقول لي ما قلته لي الآن؟

ـ دون شك.

فأشرق وجه ماري بنور البِشر وقالت:

ـ إذن سأصبر قدر ما يلزم، ولكني أرجوك يا أبي أن تسرع بإشهار الخطوبة جهد إمكانك.

ـ سأفعل يا ابنتي فلا يسرني في هذا الوجود إلّا ما يسرّك.

وقد لبثا معاً إلى ما بعد العشاء، فكانت ماري مشرقة الوجه باسمة الثغر وكان أبوها يقول:

لا يحييها غير هذا الزواج فلا بد من عقده.

وفي اليوم التالي ذهب جاك إلى المعمل ودخل إلى حيث كان لوسيان فحياه أحسن تحية في حين أنّ لوسيان كان يتوقع منه الجفاء بعد حديث الأمس.

غير أنّه كان على عكس ما توقعه منه، وقد جعل يجامله ويحادثه بالأشغال إلى أن قال له:

ـ لقد ورد إلينا طلب من بلغراد لإنشاء آلات كثيرة، ومثل هذا الطلب يقتضي سفر واحد منا إلى بلغراد لرسم الرسوم والاتفاق على الثمن والمدة، فهل تنوب عني في هذه الرحلة؟

ـ دون شك إذا رأيت ذلك واجباً.

ـ هذا ما أراه. وفوق ذلك فإنك بوجودك هناك قد تتفق مع محلات كثيرة أليس ذلك من رأيك؟

ـ إنّ رأيي لا يختلف عن رأيك فمتى تريد أن أسافر؟

ـ غداً وسأخبرك بعد الظهر بتعليماتي.

ـ إنك تجدني مستعداً يا سيدي.

ـ ومما لا ريب فيه أنّه سيكون لك مكافأة قدرها خمسة آلاف فرنك عدا راتبك.

ـ ذلك كثير يا سيدي.

ـ هذا الذي أريده وأريد أن تكتب لي في كلّ يوم.

ـ سأفعل.

ـ إذن تأهب للرحيل وسأراك بعد الظهر.

ثمّ افترق عنه وذهب إلى غرفته فلما خلا بنفسه قال:

لقد بلغت مأربي بسهولة فإنّ غياب لوسيان سيطول خمسة عشر يوماً وبوسعي إطالة هذه المدة أيضاً بحيث أستطيع في مدة غيابه أن أبحث عن تلك الفتاة التي فتنته ومتى عرفتها فالويل لها لأني سأسحقها سحق الزجاج.

كيف ذلك أأقتل أيضاً كما قتلت منذ واحد وعشرين عاماً.

نعم إني أقتل كلّ أهل الأرض لصيانة حياة ابنتي دون أن أتردد...

وفوق ذلك فإنّ يدي لا تنغمس بالجريمة لأني غني ولا أسهل عليّ من إغراء أحد الأشرار على قتلها.

وقد أطرق هنيهة مفكراً وقال:

كيف ذلك أيكون لي شريك بالجريمة فيتسلط عليّ تسلّط أوفيد سوليفو.

ولم يكد يذكر اسم أوفيد حتّى ارتعش وقال:

لماذا لا أشرك في هذه الجناية أوفيد، فإنّ أقصى مراده أن يخدمني ويكسب مالي وهو سيكون طوعاً لي دون شك فإنه يقدم على كلّ منكرٍ بالمال.

ولكن يجب قبل كلّ شيء أن أعرف هذه الفتاة التي أقسم لها لوسيان بيمين الوفاء، فإنّ هذا الأبله حين يفقد تلك الفتاة يكون سعيداً بقبول ابنتي وملايينها.

والآن يجب أن أستوثق من إمكان اعتمادي على أوفيد وسأراه في هذا المساء.

* * *

وفي الليلة نفسها ذهب إلى أوفيد فلقيه في منزله الجديد وقد استقبله خير استقبال قائلاً:

ـ إني سعيد بلقائك فإنك لو تأخرت هنيهة لما وجدتني.

ـ ألعلك مضطر إلى مبارحة المنزل؟

ـ كلا فإني كنت عازماً على الخروج للنزهة.

ـ إذن ابق معي فإني آتٍ لمحادثتك.

ـ إني رهين أمرك فهل حدث ما يكدرك، فإني أراك مقطّب الحاجبين؟

ـ ادخل بي إلى غرفتك فسأخبرك بالأمر كله.

فدخل به أوفيد إلى غرفة ضيقة ولكنها مفروشة خير فرش وقال له وهو يضحك:

ـ إني على أحسن حال بفضل ذلك الإيراد الذي تفضلت به عليّ فكيف رأيت هذا الأثاث؟

ـ إني ما أتيت لأحادثك بأثاث منزلك بل أتيت لأمر خطير فاجلس نتحدث.

فجلس أوفيد بجانبه فقال له جاك:

ـ أتذكر ما قلته لي حين زرتني في معملي وهو أنك مستعد لخدمتي إذا احتجت إليك؟

ـ بل إني أجدد كلامي الآن، فإنك عاملتني خير معاملة لا يسعني بعدها إلّا الاعتراف بجميلك وخدمتك في ما تريد.

ـ أتفعل كلّ ما أقوله لك.. تمعن قبل أن تجيبني وافطن للفظة (كلّ).

ـ إني أفهمها دون شك فإنك تعني بها أنّه يجب عليّ أن أطيعك ولو أمرتني بإحداث حريق كما فعلت من قبل في فورتفيل أليس كذلك؟

ـ بل إني سأسألك ما هو أعظم من ذلك.

فذُهل أوفيد وقال:

ـ إذا لم يكن غرضك إضرام النار فإنك تريد إراقة الدماء.

ـ وإذا كان ذلك فماذا تقول؟

ـ أقول إني لم أتعود القتل فإني رجل مسالم لا أحب سفك الدماء.

ـ ولكن ذلك موقوف عليه حياتي وإذا قُضي عليّ فكيف ستعيش بعدي؟

فوجِب قلب أوفيد لخوفه من خسارة راتبه وقال:

ـ أحقاً أنك في خطر؟

ـ نعم.

ـ إذن أفعل كلّ ما تريده دون استثناء، فقل من الذي ينذرك فقد وجب عليّ الدفاع عنك؟

ـ إني مخبرك بكل أمري فاعلم أنّه حين وصلت إلى باريس جمعني نكد الطالع بابن جيل لابرو.

ـ أهو لوسيان لابرو. نعم إني أعرفه.

فذهل جاك وقال: كيف تعرفه؟

قال: ذلك أني رأيته في غرفتك في المعمل وقد ذكر اسمه قبل دخوله وقد أعجبت بدهائك فإنك أقمته عندك كي تراقبه وتعلم أفكاره فلا يفوتك شيء من مقاصده.

ـ بل إني لم أستخدمه إلّا حين عرفت أفكاره.

ـ ما هي؟

ـ هي أنّه لا غرض له في حياته إلّا الانتقام لأبيه.

ـ ولكن الانتقام قد حدث فإنّ القضاة حكموا على حنة فورتيه.

ـ إنه لا يعتقد أنّها القاتلة.

ـ ولماذا؟

ـ لأن قلبه يحدثه بأنها بريئة وهو يتهم جاك جيرود.

ـ إذا كان ذلك فقد بات وجود لوسيان عندك خطراً شديداً عليك.

ـ وسيشتد هذا الخطر إذا اتفق له أن يلتقي بحنة فورتيه ويعرفها فإنها تعرفني.

ـ ولكنها في السجن وستبقى فيه بقية العمر.

ـ بل إنها هربت منه.

ـ إذن يجب استدراك الخطر قبل استفحاله فهل اعتمدت على قتل لوسيان؟

ـ كلا.

ـ أتريد قتل حنة؟

ـ لا أعلم أين هي.

ـ ما هذه الألغاز فإني لا أفهم شيئاً منها.

ـ سأوضح لك ما أشكل عليك فاسمع: إنك تعلم أني أحب ابنتي حبّاً ليس بعده حب وإني أموت لموتها وهي مريضة كما تعلم.

ـ ولكن أي شأن لابنتك في كلّ ما تقدم؟

ـ شأنها أنها تحب لوسيان لابرو.

ـ إذا كان ذلك فقد زال كلّ خطر عنك إذا أسرعت بتزويجها لوسيان فإنه إذا لقي حنة بعد ذلك وعرف حقيقة أمرك اضطر إلى كتمانه حرصاً على شرفه لاتصاله بك بصلة النسب.

ـ لقد خطر لي هذا الخاطر حين عرفت أنّ ابنتي تحبه ولكن زواجهما محال.

ـ كيف ذلك؟ ألعل لوسيان متزوج؟

ـ كلا ولكنه يحب فتاة يريد أن يتزوجها!

ـ أهي غنية؟

ـ بل هي لا تملك درهماً.

قال: كيف يمكن لذلك أن يكون؟ أتبلغ به البلاهة هذا الحد؟

ـ هذا الذي حدث، فإنه أبى الزواج بماري.

ـ لقد بدأت أفهم قصدك، فإنك تريد قتل تلك الفتاة التي يحبها.

ـ هو ذاك.

ـ ومتى زال هذا الحائل لا يرفض ابنتك وملايينها.

ـ هذا الذي أعتمد عليه في إنقاذ بنتي.

ـ وأنا أتعهد بإنهاء هذه المشكلة على ما تحب وأرجو ألا يمضي زمن قليل حتّى تصبح ابنتك امرأة لوسيان. والآن قل لي، ماذا تدعى تلك الفتاة التي يحبها؟

ـ لا أعلم اسمها ولا أعرف شيئاً عنها وهذه أول الصعوبات، ولكني مهدت السبيل للبحث عنها بإرسال لوسيان إلى بلغراد كي يخلو لي الجو في البحث.

ـ حسناً فعلت. وهل سافر؟

ـ كلا فإنّ اليوم يوم السبت، وهو سيسافر يوم الإثنين.

ـ كفى، فقد فهمت البقية؛ فإنه سيقضي يوم غد عند خطيبته لوداعها بحيث تستطيع مراقبته حين خروجه من منزله إليها.

ـ هل أنت محتاج إلى النقود؟

فضحك أوفيد وقال:

ـ يعجبني منك أنك رجل مجرب أمّا الآن فلا حاجة لي بمالك وسنعقد الاتفاق متى عرفت الصبية فقل لي: أين يقيم لوسيان؟

ـ في شارع ميرموفسيل نمرة 87.

قال: حسناً فهلم بنا الآن إلى العشاء وكن مطمئناً فإنّ النجاح مضمون.

وبعد ساعة افترقا فعاد جاك إلى منزله وهو يقول:

لا شك أنّ النجاح مضمون ما زال لي مثل هذا الشريك.

وخرج أوفيد من منزله وهو يقول:

لا بدّ لي من الاحتفاظ بإيرادي. أمّا هذه الجريمة الجديدة فسأربح منها فوق ما يظن؛ فإنه قريبي وماله لا يحيط به قلم حاسب.

* * *

أمّا ماري فإنها حين وعدها أبوها بتزويجها بلوسيان كادت تطير سروراً بهذا النبأ.

فلم يمض يوم واحد حتّى زال الاصفرار من وجهها وقد انتعشت بالرجاء وكان أبوها يتجنب لقاءها جهد إمكانه لأنه يعلم أنّها ستحادثه بشأن لوسيان فلا يعلم بماذا يجيبها.

ففي صباح يوم الأحد دخل إلى مكتبه وجعل يشتغل فلم يستقر به المكان حتّى فُتح الباب ودخلت ماري.

فقطب جاك جبينه ورأت ماري تقطيبه فقالت له:

ـ هل أزعجتك يا أبي بدخولي إليك؟

ـ قليلاً يا ابنتي فإنّ لدي أشغالاً كثيرة ولكن ما دمت قد أتيت فهلمي وعانقيني.

فأسرعت إلى أبيها فعانقته وقالت له: إلى أين تذهب اليوم يا أبي؟

ـ إنّ أشغالي كثيرة اليوم حتّى إني أضطر إلى التغيب أيضاً في المساء.

ـ ولكنك ستتغدى وتتعشى معي.

ـ إني أتغدى دون شك وإياك ولا أدري إذا كنت أتعشى.

ـ إذن لقد خاب رجائي.

قال: أي رجاء هذا؟

قالت: كنت أرجو أن تدعو لوسيان إلى العشاء.

قال: ولكنك ذلك محال.

ـ ادعه إلى الغداء على الأقل.

ـ لا أستطيع أيضاً فإنّ لوسيان مضطر إلى التأهب للسفر.

فارتعشت ماري وظهرت على وجهها علائم الاصفرار، وقالت بصوت مختنق:

ـ وهل لوسيان مسافر، ولماذا؟

ـ إنه مسافر إلى بلغراد لمراقبة تركيب الآلات.

ـ كم يطول غيابه.

ـ ثلاثة أسابيع وهذه الثقة التي أظهره لها مقدمة لاشتراكي القريب معه.

فارتاحت الفتاة إلى هذا النبأ واطمأنت فقالت: إذن سأبقى كلّ هذا اليوم وحدي؟

ـ أنت تعلمين أنّ ذلك يؤثر بي فوق تأثيره بك ولكن تلك الأشغال تقضي عليّ بذلك، لاسيما وأن سفر لوسيان سيزيد أشغالي على أني سأدعوه حين عودته.

وعند ذلك انصرفت ماري تاركةً أباها وحده وهي مطمئنة لما صرّح به من اشتراكه مع لوسيان، غير أنها كانت مستاءة لسفر لوسيان ولكن ذلك لم يؤثر عليها لحسن ثقة أبيها به فذهبت تواً إلى غرفتها فتأنقت في ملابسها وخرجت أيضاً.

فلما رآها أعجب بها إعجاباً شديداً وقال لها إلى أين تذهبين يا ابنتي؟

قالت: إني سأذهب لزيارة صديقاتي فإذا لم أجدهن ذهبت فتنزهت في الغابات.

ولنعد الآن إلى أوفيد سوليفو فإنه وعد جاك بمراقبة لوسيان بعد أن عرف منه عنوان منزله.

ففي صباح يوم الأحد ذهب إلى منزل لوسيان فوقف بجواره فصبر إلى أن خرج لوسيان وهو واثق أنّه ذاهب إلى تلك الفتاة التي يحبها فما زال في أثره حتّى دخل لوسيان إلى خطيبته لوسي.

أمّا لوسيان فإنه حين صعد وجد لوسي تنتظره عند باب غرفتها فقبّل جبينها ودخل وإياها إلى غرفتها.

وكان أوّل ما قالته إنها اعترضته وأنّبته لتأخره.

فأجابها قائلاً: لم يكن ذلك ذنبي فقد كان يستحيل عليّ الحضور قبل الآن.

ـ لماذا؟ أليس اليوم يوم الأحد؟

ـ هو ذاك، ولكني نهضت اليوم قبل الفجر من رقادي وما زلت أشتغل حتّى أتيت.

ـ كيف ذلك ولماذا؟

فأخبرها لوسيان بالموانع التي حالت دون إسراعه، فعذرته وقالت له:

ـ إذن هلم بنا إلى الطعام فقد كاد يقتلني الجوع.

ـ ألا تتغدى الأرملة ليزا معنا؟

ـ كلا، فإنها لا تجد ساعة فراغ في النهار بحيث لا أراها قبل الليل إلّا في القليل النادر.

ـ إنك تحبين هذه المرأة حباً أكيداً كما أرى، وقد أصبت فإني أيضاً أحبها لاعتقادي أنها تستحق هذا الحب.

ـ هو ذاك، وسنفي بما وعدناها به حين زواجنا فتعيش معنا.

ـ وسيكون هذا الزواج قريباً أيتها الحبيبة.

وعند ذلك حاول أن يعانقها فدفعته برفق وهي تقول: إننا لم نتزوج بعد يا لوسيان فاقتصد في هذه القبلات فستجدها بعد الزواج. ثمّ غيرت الحديث فجأة فقالت:

ألا تزال راضياً عن أعمالك عند المسيو هرمان.

فقطب لوسيان حاجبيه وقال:

ـ نعم، فإنّ الموسيو هرمان وثق بي ثقة لا حدّ لها، وإني مضطر بهذه المناسبة أن أخبرك بما يسوؤكِ ويسوؤني وهو أني سأغيب عنك مدة أسبوعين.

ـ أسبوعان؟ ولماذا؟

ـ لأن المسيو هرمان يريد إرسالي إلى بلغراد بأشغال معمله وسأغيب خمسة عشر يوماً.

ـ أليس ذلك مفيداً لك؟

ـ كلّ الفائدة.

ـ إذن لا بأس منه ولكنك ستكتب لي كلّ يوم.

ـ هذا لا ريب فيه وستمر هذه الأسابيع الثلاثة مرور الساعة، وعندما أعود ينسينا فرح اللقاء مرارة الفراق. وهنا أقول لك إني سأقبض مبلغاً عظيماً مقابل هذه الرحلة، وأرجو أن أتمكن قريباً من الاستقلال.

ـ ولماذا تبغي الاستقلال ما دمت مرتاحاً في خدمة هرمان؟

ـ هو ذاك. غير أني أصبحت مستاءً لأمور سأخبركِ عنها في فرصة أخرى.

ـ وماذا يمنعك من إخباري بها الآن؟

ـ قلت لك سأخبركِ بها في فرصةٍ أخرى، فلنتحدث

الآن بغير هذا الأمر وكنت أود في مدة سفري أن تلازمك الأرملة ليزا فأكون مطمئناً عليك.

ـ إنها لا تستطيع ذلك الآن، لأنها مضطرة إلى ملازمة صاحبة المخبز لمرضها. ولكنها دخلت في دور النقاهة فمتى شفيت تماماً تركتها وعادت إلى زيارتي حسب العادة.

* * *

بينما كانت لوسي جالسة مع خطيبها يتحدثان، صعدت بوّابة المنزل ونادت لوسي فقالت لها: توجد سيدة من النبيلات تنتظرك في مركبتها عند الباب الخارجي.

فاستأذنت لوسي حبيبها ونزلت كي ترى من هذه القادمة. فلما وصلت إلى الباب دُهشت إذ رأت تلك الزائرة كانت ماري ابنة بول هرمان.

فحيتها أحسن تحية وردت ماري تحيّتها بأحسن منها ثمّ قالت لها: لقد خطرت لي النزهة في غابات بولونيا يا لوسي فأحببت أن تصحبيني إليها فهل تريدين؟

قالت: حبّذا ذاك يا سيدتي فلا أَحَبّ إليّ من إرضائك، ولكني لا أستطيع فإن عندي ضيفاً.

فدهشت ماري وقالت: من هو؟

قالت: ذلك سر إذا أحببت أن تكتشفيه فتفضلي بالصعود معي إلى غرفتي فإني أحب أن أدهشك؟

فدفع الفضول ماري إلى معرفة هذا الرجل المقيم عند لوسي وهي لا تعلم أنّها مخطوبة وتعتقد أنها مثال الفضيلة.

ثمّ صعدت وإياها ذلك الدرج الطويل إلى أن وصلتا إلى الغرفة وفتحت لوسي الباب.

وكان لوسيان قد أطل من النافذة بعد أن خرجت لوسي من الغرفة ورأى مركبة ماري واقفة قرب الباب فدهش وقال في نفسه:

ما هذا الشبه الغريب فإنّ هذه المركبة والجياد تشبه مركبات بول هرمان فكيف اتفق وجودها هنا؟

وعند ذلك فُتح باب الغرفة فالتفت فرأى ماري تلهث من التعب وهي تبتسم.

ولكن النظرتين لم تكادا تلتقيان حتّى صاح الاثنان صيحة دهش ووهنت عزيمة ماري ووضعت يدها على قلبها.

فقالت لها لوسي وهي لم تنتبه لاضطرابها: أتعرفين من هو يا سيدتي؟

أمّا ماري فإنها لم تسمع ما قالته فملكت نفسها وقالت تخاطب لوسيان:

ـ إني لم أكن أتوقع أن أراك هنا، فهل تريد أن تقول لي كيف اتفق وجودك عند هذه الآنسة؟

فحاول لوسيان أن يجيب ولكن لوسي سبقته إلى الكلام فقالت:

ليس وجوده عندي من قبيل الاتفاق يا سيدتي فإنه يزورني في كلّ يوم أحد.

قالت: ألعلك تعرفين المسيو لوسيان منذ عهد طويل؟

فأجابها لوسيان قائلاً: إنّ معرفتنا تتصل منذ عامين فإني قبل أن أقيم في شارع مير مونسيل كنت مقيماً في هذا المنزل.

وقالت لوسي: لقد كان بابه قرب بابي فتعارفنا وتحادثنا وبتنا صديقين.

فثارت عاطفة الكبرياء في صدر ماري حين رأت أنّ مزاحِمَتَها في حب لوسيان فتاة فقيرة مثل لوسي، وقالت بلهجة جفاء:

إذن أنتما صديقان.

فقالت لوسي:

بل إننا متحابان حباً شريفاً، فإني كنت أعنيه حين كنت أخبرك بأني مقيدة القلب وهو خطيبي وسيعقد زواجنا قريباً بفضل أبيك ومروءته إذ لم يكن يحول دون زواجنا غير إيجاد منصب لخطيبي.

وكان لوسيان مقدراً ما تحمله تلك المنكودة من العذاب بعد أن أخبره أبوها أنها تحبه ولكن ما عساه يصنع فإنه يحب لوسي لا ماري.

أمّا لوسي فإنها دُهشت حين رأت اضطراب ماري فقالت لها:

ماذا أصابك يا سيدتي وما هذا الاضطراب الذي تولاك بل ما هذا الاصفرار الذي امتقع به وجهك ألعلك تعبت من الصعود.. تفضلي يا سيدتي واستريحي بالجلوس.

فبذلت ماري جهداً عنيفاً كي تملك نفسها ثمّ ابتسمت وقالت: كلا إني غير مضطربة.

وقد ارتحت من الصعود وأنا ذاهبة وحدي، فما زلت غير قادرة على الذهاب معي.

ثمّ التفتت إلى لوسيان وقالت له:

إنّ الآنسة لوسي قالت لي إني سأدهش حين صعودي إلى غرفتها وقد صدقت فإنّ دهشتي كانت عظيمة غير أن أبي سيكون اندهاشه أعظم حين يعلم ما علمت.

وعند ذلك مشت إلى الباب ولوسيان ولوسي في أثرها. ولوسي منذهلة لما رأته من تغيرها الفجائي فلما وصلت إلى الباب التفتت إلى لوسيان وقالت له:

إذن ستتزوج قريباً؟

قال: لقد قلت يا سيدتي لأبيك ما أستطيع وما يجب أن أقوله.

ـ أذكرت مشروعك لأبي ومتى كان ذلك؟

ـ قبل أمس.

ـ حسناً فإني أرجو لكما كلّ سعادة وهناء والآن أستودعكما اللّه.

فقالت لها لوسي: أراك متعبة يا سيدتي فهل تريدين أن أوصلك إلى مركبتك.

قالت: كلا فابقي مع المسيو لوسيان فإنه مسافر غداً من باريس ولا يجب أن تفارقيه...

إلى اللقاء يا لوسي وأنت يا لوسيان إني أتمنى لك سفراً سعيداً.

ثمّ برحت تلك الغرفة مسرعةً وقد غادرت لوسي منذهلة لا تدرك شيئاً من سرّ اضطرابها.

وأما لوسيان فإنه كان منقبض الصدر لإشفاقه على تلك الفتاة.

فقالت له لوسي: ماذا جرى ولماذا اضطربت ابنة هرمان هذا الاضطراب حين رأتنا معاً ولماذا كلمَتني بقسوة وجفاء بعد أن كانت تعطف عليّ عطف الأخوات.

فكره لوسيان أن يشغل بال خطيبته وقال لها:

إني لم أفهم شيئاً من هذا السرّ ولكن هذه الفتاة المنكودة مريضة كما تعلمين فلا بد أن تكون تعبت من صعود السلم فأصيبت بأزمة فجائية دعتها إلى هذا التغير.

فأطرقت لوسي برأسها وقالت: ولكن هذا النهج منكر.

ـ هو ذاك أيتها الحبيبة غير أنها قد تكون معذورة فيه لسبب علّتها وفوق ذلك فأي شأن لنا معها فهلمي نتنزه إذا كنت تريدين.

ـ إني أريد دون شك بشرط أن نعود حين عودة الأرملة ليزا أي في الساعة السادسة.

ـ ليكن ما تريدين فهلمي بنا.

* * *

أمّا أوفيد سوليفو فقد تقدم لنا القول إنّه كان يراقب لوسيان وقد تبعه إلى منزل خطيبته ورأى ابنة جاك جيرود قد جاءت أيضاً إلى ذلك المنزل فقال في نفسه:

أية فائدة بقيت لي من البقاء هنا فقد عرفت ما أردت معرفته ولا بدّ لي قبل الشروع في العمل من الاتفاق مع جاك.

غير أني لم أدرك معنى زيارة ماري لهذه الخياطة التي يعشقها لوسيان فإنّ لوسيان يأبى الزواج بماري، وماري تزور تلك الفتاة التي يعشقها لوسيان فما معنى هذا اللغز المعقد.

ولكني أرجو أن أوفق إلى حلّه بالاشتراك مع والد ماري.

وأما ماري فإنها بعد أن خرجت من غرفة لوسي ركبت مركبتها وأمرت السائق أن يعود بها إلى المنزل.

حتّى إذا وصلت إليه ذهبت تواً إلى غرفة أبيها ودخلت إليه دون استئذان.

فلما رأى أبوها اصفرارها ذعر ذعراً عظيماً وأسرع إليها فقال: ابنتي ماذا.

فلم تدعه ماري يتم حديث وقاطعته قائلة:

إنك خدعتني وكذبتني، فإنّ لوسيان لا يحبني بل يحب سواي وسيتزوج سواي.

فجعل جاك يرتجف كأنه قد تكهرب وقال:

ماري.. ابنتي.. كيف عرفت ذلك..

إني إذا كنت أخفيت عنك حبّه لتلك الفتاة فما ذلك إلّا لأني أردت مقاومة ذلك الحب حتّى أتغلب عليه ولا بدّ لي من الفوز فمن كشف لك هذا السرّ الذي لم يكن يجب أن تعلميه.

ـ هي نفسها.. تلك الفتاة التي يحبها وتعدّ نفسها سعيدة بهواه وهو كان يوافقها في ما تقول. أتريد أن تعبث بي أيضاً.

فأخذ جاك يد ابنته بين يديه وقال:

ـ ألعلك رأيته؟

ـ نعم رأيته بقربها.. بقرب خطيبته.. نعم رأيتهما معاً وكلاهما سعيد فكادت سعادتهما تقتلني.. نعم إنهما خطيبان وسيتزوجان.

ـ كلا يا ابنتي فإنّ ذلك لا يكون، فإنه لا يمكن أن يحبها حباً صادقاً وهو لا يتزوجها.

فشهقت ماري بالبكاء وقالت بصوت خنقته العبرات:

لماذا كذبتني يا أبي ولماذا تريد أن تكذب أيضاً.. إنّ ذلك أضرّ بي ضرراً عظيماً فجعل ذلك الوهم الذي كان في قلبي رجاءً راسخاً إلى أن انجلت الحقيقة وليس بعدها غير الموت.

فتأثر جاك تأثراً عظيماً لما سمعه من ابنته، فقال لها:

ماري إنك أنت حياتي وأنت معبودتي الوحيدة فاطمئني يا ابنتي ولا تلقي بي إلى هوّة اليأس واعلمي أني إذا كنت لم أقل لك الحقيقة فما ذلك إلّا لإشفاقي عليك وعلى نفسي فإني لا أطيق أن أراك تبكين.

ـ أكنت تعلم أنّه يحب سواي.

ـ نعم وهو الذي اعترف لي بذلك فأخبرته أنك تميلين إليه وأظهرت له بُعد الشبه بينك وبين تلك الفتاة الفقيرة وأظهرت له حسن العاقبة بزواجك وأطمعته بشركتي.

ثمّ تركته يتمعن في أمره وأنا أرجو أن أتمكن قريباً من إقناعه وأن أراه يحبك ويجعلك من أسعد النساء.

ـ كيف أكون سعيدة وهو سيتزوج سواي؟

ـ كلا يا ابنتي وإني أقسم لك بأمك أني لا أدعه يتزوج

سواك وأنك ستكونين امرأته في وقت قريب أتثقين بهذا اليمين؟

ـ كلا، فقد خدعتني من قبل فلا أثق بك الآن.

ـ ولكني أقسمت لك يميناً مقدسة ولا أزال أقول إن لوسيان سيتزوجك وسيحبك.

فعانقت ماري أباها وقالت له:

ـ إنك إذا فعلت ذلك يا أبي تنقذني من موت محتم فقد دخل اليأس إلى قلبي وما بعد اليأس غير الموت، ولكنك لا تستطيع اقتلاع اليأس من قلبي فإنه يحبها.

ـ من هي هذه؟

ـ هي لوسي الخياطة وهي فتاة فقيرة لا مال لها ولا نسب فإنها فقيرة رُبيت في ملجأ الأطفال.

ـ فتاة لقيطة.. إذن لا أب لها ولا أم؟

ـ لا أب لها ولا أم ولا عائلة، حتّى أنها لم يكن لها اسم عندما كانت في الملجأ فكانت تدعى نمرة 9 وهذه هي الفتاة التي يؤثرها عليّ ويريد الزواج بها دوني.

ـ كلا يا ابنتي إنه لا يحبها ولا يمكن أن يحبها فإنها خليلة له دون شك وعهد الخليلات لا يدوم.

فاتّقدت عينا ماري ببارق من الحقد وقالت:

ـ أواه كم بتّ أكره هذه اللقيطة فقد سلبتني كلّ ما أطمع به من السعادة.

وقد أصيبت عند ذلك بهزة عصبية فانتفخت أوداجها وازرقت شفتاها واختنق صوتها.

فأسرع أبوها إليها وجعل يكلمها بلهجة المتوسل فيقول:

ـ ماري.. اطمئني يا ابنتي وسكّني روعك، فإني أقسمت لك يميناً مقدسة بأنك ستصبحين امرأة لوسيان دون شك.

ـ ولكن هذه الفتاة؟

ـ سيهجرها.

ـ وإذا لم يهجرها؟

ـ سأجد طريقة لإبعادها عنه.

ـ ذلك ممكن فإنه قد يعود إليّ إذا ابتعدت عنه. ولكن كيف تفعل ذلك؟

ـ لا تهتمي بالمقدمات يا ابنتي فسترين النتائج، وفوق ذلك فإنّ لوسيان سيغيب عن باريس ومن يدري فقد يكون هذا السفر وحده كافياً لافتراقهما.

ـ أيهجرها بعد فراق أسبوعين وهو يحبها منذ عامين.

ـ ولكن ألم تفهمي بعد.. إني أقسمت لك بروح أمك أن أزوّجك لوسيان وسأبرّ بيميني.

وقد وعدت بإبعادها عنه وسأبعدها فسينساها. اذهبي يا ابنتي إلى غرفتك واطمئني فسيكون كلّ ما تريدين أن يكون.

* * *

وقد عرف القرّاء أنّ جاك قد عزم عزماً أكيداً على قتل مزاحمة ابنته في حبّ لوسيان.

فلما رأى ما كان من يأس ابنته زادت عزيمته رسوخاً فقام لفوره وذهب مسرعاً إلى منزل أوفيد سوليفو.

فاستقبله أوفيد قائلاً:

لقد اقتفيت أثر لوسيان وعلمت اسم الفتاة التي يهواها.

فأجابه جاك قائلاً:

وأنا أعلم فوق ما علمت.

ـ ذلك لا يمكن أن يكون إلّا إذا كانت ابنتك أخبرتك.

ـ هو ذاك.

ـ كيف اتفق أنها عرفت هذه الفتاة؟

ـ لأنها خياطة.

ـ لقد عرفت الآن سبب هذه الزيارة.

ـ أرأيتها عندها؟

ـ نعم.

فقال له جاك: ألم ترك حين رأيتها؟

قال: كلا فإني كنت مختبئاً بحيث يستحيل عليها أن تراني. ولكن ماذا جرى لابنتك حين رأت لوسيان عند تلك الخياطة.

ـ لقد عادت إليّ واليأس ملء قلبها.

ـ لا أستغرب ذلك فإنّ الحب الأوّل شديد، ولكني أرجو ألا يمر أسبوع حتّى تصبح آمنة من مزاحمتها، فهل تعرف أين تشتغل هذه الخياطة؟

ـ عند مدام أوغستين المشهورة في شارع سانت أونوريه.

ـ لقد عرفت الآن. فلننظر في الأهم فإنني إذا تمكنت من إخفاء لوسي قامت عائلتها وقعدت، وكان لذلك ضجة في جميع أرجاء باريس.

ـ ليس لها عائلة فإنها ابنة لقيطة.

ـ إذن لقد هان الأمر إذ لا يجد البوليس من يحثه على البحث عنها.

ـ ماذا عزمت أن تفعل؟

ـ إني لا أعلم شيئاً الآن فلم أضع خطتي بعد ولكني سأبدأ بمراقبة الفتاة فأعلم كلّ أمرها ثمّ أضع الخطة... إنما...

ـ إنما ماذا؟

ـ إنما أخاف أن يكلف إخفاؤها نفقات.

ـ لا بأس فإني عرضت عليك أن تأخذ ما تحتاج إليه من مالٍ فأبيت.

ـ إنّ الحوادث قد اختلفت الآن.

ـ كم تريد أن أعطيك أيكفيك عشرون ألف فرنك؟

ـ هاتها فإنها قد تزيد عن النفقات وقد تنقص عنها.

ـ أقول لك أيضاً إنّه لا يجب أن تبالي بالنفقات بشرط أن يعود لوسيان إلى ماري وتكون ماري سعيدة.

ـ هات المال فإذا نقص عن المطلوب علمت أين أجدك.

فأخرج من جيبه أوراقاً بالقيمة ودفعها إليه. فوضعها أوفيد في جيبه وقال:

ـ هذه هي نفقات المشروع وقد بقيت أجرتي الخاصة فكم تريد أن تعطيني؟

ـ كلّ ما تطلبه.

فنظر أوفيد إلى جاك نظرة حنو وقال:

ـ إني لا أسألك شيئاً الآن فإنك تنهج معي نهجاً شريفاً لا يسعني بعده إلّا الركون إليه وسننظر في هذا الشأن بعد نجاح المشروع.

ـ كما تريد، فمتى تبدأ العمل؟

ـ منذ غد.

ـ ولكن يجب أن تعلم أنّ لوسيان لابرو لا يغيب أكثر من عشرين يوماً.

ـ وأنا أرجو أن أنجز هذه المهمة قبل هذه المدة.

وعند ذلك افترق الأثيمان فعاد جاك إلى منزله وهو لا يفكر إلّا بما يرجوه من هناء ابنته غير مكترث بما عداها.

* * *

أمّا لوسيان وخطيبته فإنهما بعد أن تنزّها في حدائق باريس عادا إلى المنزل وقد مُحيت حادثة ماري من ذهنهما كأنها لم تكن.

وقد أخذت لوسي تهتم بإعداد العشاء وهي تحادث خطيبها إلى أن تم إعداد العشاء فقال لها: ما بال الأرملة ليزا لم تحضر؟

قالت: لا أعلم وربما كان تأخرها لشدة علة صاحبة المخبز فلم تجد بدّاً من السهر عليها.

ولكنها لم تكد تتم جملتها حتّى قُرِع الباب ودخلت حنة ففرحا لقدومها وسألاها العشاء معهما فاعتذرت عن ذلك قائلة:

إنّ صاحبة المخبز قد اشتدت بها العلة، وإنما أتيت لآخذ وشاحاً يقيني البرد حين عودتي فما جسرت أن أذهب قبل أن أراك كما أني كنت أرجو أن أرى لوسيان.

فأجابتها بلهجة تبينت فيها الكآبة:

ولكن لوسيان سيفارقني ثلاثة أسابيع.

فقالت له حنة:

أحقاً ما تقول؟

قال: نعم فقد قضت عليّ أشغال المعمل بهذا السفر.

قالت: أتغيب ثلاثة أسابيع؟

قال: تقريباً.

فقالت لوسي إنها ستكون ثلاثة أجيال لا سيما وأنك ستلازمين صاحبة المخبز فأبقى وحدي.

قالت: إنك تعلمين يقيناً أنّ ذلك يسوؤني ولكن لا يسعني مفارقة هذه المنكودة في علّتها بعد إحسانها إليّ ولكني لا أتأخر لحظة عن المجيء إليك كلما سنحت لي فرصة.

وعند ذلك ودّعتهما وانصرفت. أمّا لوسيان فإنه أقام ساعة عند خطيبته ثمّ ودّعها وانصرف.

وفي اليوم التالي سافر إلى بلغراد.

* * *

كان أوفيد قد قبل تلك المهمة الشائنة دون تردد طمعاً بالمال ولكي يقيد جاك بقيد آخر غير ذلك القيد القديم.

وكان يودّ أن يعرف قبل كلّ أمر إذا كانت خطيبة لوسيان تذهب في كلّ يوم إلى مخزن مدام أوغستين وفي أي وقت تبرح منزلها ومتى تعود إليه؛ إذ لم يكن يستطيع إجراء شيء قبل الوقوف على حقيقة أحوالها.

ففي صباح يوم الثلاثاء، أي بعد سفر لوسيان بيوم، تنكر بملابس الحمالين وذهب إلى حيث كانت تقيم لوسي.

فسأل بوابة المنزل قائلاً: أهنا تقيم الآنسة لوسي؟

قالت: نعم فهي في الدور السادس من جهة الشمال.

قال: هل هي الآن في غرفتها.

قالت: دون شك.

فشكرها أوفيد وصعد حتّى بلغ الدور الثاني فوقف هناك وقال في نفسه:

إذا كانت الفتاة لا تزال في غرفتها فهي تشتغل فيها دون شك. فهي إذن لا تذهب إلى مخزن مدام أوغستين إلّا حين تفرغ من شغلها لأخذ سواه، وفي كلّ حال فلا بدّ لي أن أستوثق من ذلك.

وقد لبث في موقفه خمس دقائق ثمّ خرج فذهب إلى مخزن مدام أوغستين في شارع سانت أونوريه.

وهناك دخل وسأل إحدى العاملات عن لوسي.

فأجابته قائلة: إنها تشتغل في منزلها.

قال: أين منزلها أهو في شارع بوربون؟

قالت: نعم فهل أنت قادم إليها برسالة؟

قال: كلا بل بمهمة من قبل أحد الأسياد.

قالت: ما كنت أظن قبل الآن أنّ لها اتصالاً بالأسياد،

وهي توهمنا أنّها من أهل القداسة فليذهب إليها هذا السيد قدر ما يشاء ولكن لا يجب أن تشمخ علينا بأنفها. فمن هو هذا السيد؟

قال: لا أعرف اسمه أيتها الحسناء ولكنه كثير الجمال شديد التأنق يظهر عليه أنّه من الأغنياء.

ثمّ تركها وانصرف وهو يقول في نفسه:

لا شك أنّ هذه العاملة تكره لوسي بدليل ما رأيته من علائم حسدها فيجب أن أستفيد مما رأيت.

ولما خرج من المخزن وقف على الرصيف، قال:

إنّ لوسي لا تأتي إلى هنا إلّا لأخذ شغل جديد فهي لا تأتي إلّا في النهار ويستحيل أن أبلغ منها مأرباً في رابعة النهار.

فلا بدّ لي إذن من الزيادة في الاستعلام وخير طريقة للاستعلام أن أسأل تلك العاملة التي لقيتها في المخزن فهي القادرة على إفادتي عن كلّ ما أريد.

وقد عوّل على البدء في العمل لفوره فعاد إلى مخزن الخياطة وسأل البوابة قائلاً:

هل لك أن تخبريني متى تخرج العاملات من المخزن؟

فنظرت البوابة إليه ورأته بملابس الحمالين فقالت له:

إنك لا تسأل هذا السؤال لنفسك دون شك.

فضحك أوفيد وقال: لا شك أنّك من أهل الذكاء فما أنا من أهل الغرام ولكني مندوب بمهمة.

ثمّ أخرج من جيبه ديناراً ودفعه إليها.

فأخذت البوابة الدينار وقالت له: سل الآن عن أية عاملة شئتها فإنهن كثيرات فمنهن الخياطات ومنهن للإدارة ومنهن للقياس.

قال: إني أريد أن أسألك عن هؤلاء.

ـ إذن فاعلم أنّهن خرجن في الساعة الثامنة مساءً وهنّ ثلاث فتيات أرما ورينيه وأماندا وهذه الأخيرة سمراء وهي أجمل الثلاث.

ـ أهي تلك التي لها غماز في خدها الأيمن؟

ـ هي بعينها.

ـ أتلازم المخزن كلّ النهار ولا تخرج منه أحياناً؟

ـ إنها تخرج عند الظهر فتتغدى في هذا المطعم المجاور للمخزن.

وقد عرف أوفيد ما أراد أن يعرفه فتركها وانصرف.

وبعد هنيهة جاءت تلك الفتاة المدعوة أماندا إلى بوابة المخزن وسألتها قائلة: ألم تردني رسائل؟

فغمزت البوابة بعينها وقالت: بل ورد ما هو خير من الرسائل.

ـ ما هذا الذي ورد؟

ـ لم يرد شيء ولكن يظهر لي أنّه ستردك قريباً أخبار من رجل يهتم بك كلّ الاهتمام.

ـ كيف ذلك، ألعلّهم سألوك عني؟

ـ هو ذاك.

ـ من الذي سألك. وهل هو جميل؟

ـ كلا، فإنّ الذي سألني عنك رجل حمال ولكن الذي أرسله لا بدّ أن يكون من الظرفاء وأهل الكرم.

ـ ماذا سألك؟

ـ سألني عن الساعة التي تخرجين فيها للغداء وعن ساعة انصرافك من المعمل.

ـ وهل أجبته عن سؤاله؟

ـ دون شك، وقلت له كلّ ما تحبين أن يقال عنك.

ـ إني أشكرك وأعدك وعداً صادقاً أني إذا ظفرت بما أرجوه من هذا الرجل أهديت إليك ساعة وسلسلة من الذهب.

ـ إذن إني واثقة من الهدية.

فتركتها هذه الفتاة وذهبت إلى المطبخ حسب عادتها كلّ يوم.

وكانت هذه الفتاة في الثانية والعشرين من العمر، وهي حسناء ويزيدها جمالاً كثرة تأنقها بملابسها بشكل يدل على سلامة ذوقها.

وكانت تميل إلى الزخارف كأكثر النساء ولكنها لم تستطع تحقيق أمانيها لفقرها.

غير أنها كانت تعلم أنّها بارعة الجمال وأنها لا تزال في مقتبل الشباب فصبرت على فقرها وهي ترجو أن تساعدها الأقدار على بلوغ أمانيها فتستأجر منزلاً جميلاً وتفرشه خير فرش وتقتني المركبات وتتزين بأبهى الحلي إلى غير ذلك من هذه الأماني.

وكانت قبل أن تستخدم مدام أوغستين تشتغل عند خياطة في جوانيي ولكنها اضطرت إلى مبارحتها بعد عام لحادثةٍ مكدرة جرت لها سنبسطها في غير هذا المقام.

وقد صبرت في ذلك اليوم على أحرّ من الجمر وهي تكاد تذوب شوقاً إلى معرفة ذلك الرجل الذي سأل عنها.

وما زالت على ذلك إلى أن دنت ساعة انصراف العاملات فبرحت المخزن دون أن تكلم البوابة حسب عادتها كلّ يوم وانطلقت فسارت على رصيف الشارع وهي تلتفت يمنةً ويسرةً من حينٍ إلى حين.

وقد انتبهت إلى رجلٍ كان يتبعها ولكنها قالت في نفسها لا يمكن أن يكون هو فإنّ هذا الرجل أشيب الشعر يناهز الخمسين من العمر ولكنه كان حسن الهندام.

وما زالت تسير سير المتمهل حتّى دنا ذلك الرجل منها فابتسم لها وحيّاها ألطف تحية.

فقالت أماندا في نفسها يظهر أني مخطئة وأن هذا الرجل هو الذي سأل عني فإنه لا يزال على كهولته من أهل الصبابة كما تدل عيناه.

ولكنها مع ذلك لم ترد تحيته ولم تجبه على ابتسامته غير أنّها زادت بطء سيرها.

أمّا هذا الرجل فقد كان أوفيد نفسه وقد أيقن من مشيتها أنّ البوابة أخبرتها بأمره فتبعها وهو يقول في نفسه: لقد باتت طوع يدي.

وما زالت تسير على الرصيف وهو يقفو أثرها عن كثب إلى أن وصلت إلى مخزن ملابس عُرضت فيه الثياب في واجهة من الزجاج فوقفت بحجة النظر إلى تلك الملابس.

وعند ذلك تقدم أوفيد فوقف بجانبها وسألها قائلاً:

ـ ألست الآنسة أماندا التي أتشرف بمحادثتها يا سيدتي؟

قالت: نعم يا سيدي ولكني لم أتشرف بمعرفتك من قبل.

ـ ذلك لأن المعجبين بك كثيرون فلا تستطيعين أن تعرفيهم بجملتهم.

فأعجبت الصبية بهذا الثناء وقالت في نفسها: إنه ظريف كما يظهر ثمّ أحنت رأسها وحاولت الانصراف.

فاستوقفها وقال:

إنّ الطريق إلى شارع مرتير حيث تقيمين متعبة يا سيدتي فهل تريدين أن تتوكئي على ذراعي؟

ـ كيف أستطيع أن أأذن لك بذلك يا سيدي، وقد قلت لك إني لا أعرفك.

ـ ولكني قلت لك يا سيدتي إني أعرفك من عهدٍ بعيد ولكني كثير الحياء كثير الجبن مع النساء فلم أجسر على لقائك قبل اليوم.

ـ ولكن لماذا تريد لقائي؟

ـ لأني أحبك.

فضحكت الفتاة وقالت: ولكن جميع الرجال يقولون هذا القول للنساء.

ـ إنهم قد يكذبون وأما أنا فإنّ إخلاصي أكيد لا ريب فيه.

ـ إذا كنت تحبني يا سيدي كما تقول فما هي مقاصدك؟

ـ إنها شريفة فلا ترتابي بها ولكن يستحيل عليّ الإعراب عن مقاصدي في قارعة الطريق وأنت لم تتعشي بعد فيما أظن.

ـ كلا.

ـ وأنا أيضاً. فهل لك أن تصحبيني إلى مطعم قريب فنجلس معاً على مائدة ونتحدث.

فضحكت أماندا وقالت: ولكن ذلك يضر بسمعتي.

ـ لا خوف يا سيدتي على سمعتك مع رجل بلغ عمري وهو شريف المقصد فاقبلي اقتراحي دون تردد.

ـ لقد وثقت بك ورضيت.

ـ وحسناً فعلت فهلمي بنا.

وبعد هنيهة كانا جالسين على مائدة خاصة يأكلان ويتحدثان.

حتّى إذا فرغا من العشاء أحضر أوفيد مركبةً وقال لها:

ـ إني سأوصلك أمام باب منزلك ثمّ أعود ورسمك مطبوع في قلبي، فأين تقيمين؟

ـ في شارع الشهداء نمرة 29.

فأمر السائق أن يسير بهما إلى المنزل المعين.

فلما وصلا إليه خرجت أماندا من المركبة وقالت له: متى أراك؟

قال: غداً عند الظهر في نفس المطعم الذي تأكلين فيه.

ـ أتعرفه؟

ـ كما أعرف كلّ ما يتعلق بك، وسأتبعك إليه وأوصي على طعام يرضيك.

فدخلت أماندا إلى منزلها وعاد أوفيد في المركبة وهو يقول في نفسه:

إنه لا يمضي يومان حتّى أقف على كلّ أخبار لوسي.

وفي اليوم التالي اجتمع وإياها في ذلك المطعم فقالت

له: يجب أن نستعجل فإني مضطرة إلى الذهاب بثوب للرقص إلى إحدى العاملات كي تنجزه في أقرب حين.

ـ وهل منزلها بعيد؟

ـ في شارع بوربون نمرة 9.

فعلم أوفيد أنها ذاهبة إلى لوسي فقال لها:

ـ أتأذنين لي أن أرافقك؟

ـ دون شك. استأجر مركبة وانتظرني فيها على مسافة عشرين خطوة من المطعم.

فامتثل أوفيد وانتظرها في المركبة فوافته إليها وسارت بهما. فسألها أوفيد قائلاً:

ـ هل توجد كثير من العاملات عند مدام أوغستين يشتغلن في غرفهن؟

قالت: كلا فإنّ مدام أوغستين لا تأذن بذلك لأحد ما خلا لوسي.

ـ من هي لوسي؟

ـ هي العاملة التي أذهب الآن إليها.

ـ أهي صبية؟

ـ نعم.

ـ ألها جمال؟

ـ ليست حسناء ولا هي قبيحة ولكنها تتظاهر بالطهارة

والعفاف حين تكون معنا، غير أني لا أنكر أنها ماهرة في صناعتها ولذلك ميّزتها مدام أوغستين علينا فإنها فوق مهارتها سريعة في عملها.

مثال ذلك أنّ هذا الثوب الذي أحمله إليها يجب أن تذهب لتجربته بعد غدٍ في كارين دي كولومب وهي ستذهب في الساعة المعينة دون إبطاء.

فقال أوفيد بلهجة المنذهل:

ـ ثوب رقص في كارين دي كولومبّ

ـ هو ذاك، فإنّ هذا الثوب لامرأة المحافظ.

ـ وهذه الفتاة تذهب لتجربة الثوب في هذا المكان البعيد؟

ـ ولكن السكة الحديدية تقرّب الأبعاد، وقد ذهبت أنا مرات كثيرة إلى منزل هذه السيدة فإنّ المسافر يركب القطار من محطة سانت لازار وينزل في محطة غابة كولومب وهناك يسير ماشياً إلى منزل المحافظ وهي نزهة جميلة في النهار وأما في الليل فلا.

ـ ألعلك سلكت هذه الطريق في الليل؟

ـ نعم فإني ذهبت مرة مع لوسي إلى هذه السيدة نفسها وهي شديدة التأنق فأبقتنا عندها إلى الساعة العاشرة بحيث اضطررنا أن نصبر إلى منتصف الليل لقدوم القطار.

ـ لا بد أنكما خفتما؟

ـ ولو كنت في مكاننا لخفت هذا الخوف لأن الطريق مقفرة ضيقة مظلمة.

ـ وستذهبان إليها أيضاً بهذا الثوب؟

ـ هذا الذي أخشاه فإنها مهنة جائرة.

ـ صبراً فإنّ قلبي يحدثني بأنك ستتخلصين من هذه المهنة قريباً.

وبعد هنيهة وقفت المركبة عند باب منزل لوسي فنزلت منها أماندا وقالت: انتظرني فسأعود إليك قريباً.

وصعدت إلى لوسي فأعطتها الثوب وأخبرتها باسم صاحبته وأنه يجب أن يتم يوم السبت.

فقالت لها لوسي: أيجب أن أذهب إلى منزلها كالمرة السابقة؟

قالت: دون شك وسأذهب وإياك.

ـ ولكن ذلك لا يمنع عنا الخوف، وفي كلّ حال فلا بدّ من الامتثال.

ـ إذن سأحضر إليك لنتفق على ساعة السفر.

وبعد نصف ساعة كانت أماندا في مخزن الخياطة بعد أن واعدت أوفيد على اللقاء به في المساء.

* * *

سافر لوسيان إلى بلغراد كما تقدم وكان مسترسلاً في التأملات خلال سفره يناجي خطيبته بأعذب الألفاظ وأحلى الأماني.

ولكنه لم يكن يفكر مرةً بخطيبته حتّى تعرض لتصوره ماري ابنة رئيسه فيراها قانطة متوجعة فيشفق عليها إشفاقاً عظيماً ويقول في نفسه:

إنّ هذه المنكودة ستموت قريباً وسأزيد آلامها وأقرّب أجلها بجفائها والبرّ بيميني.

أليس من المروءة أن أحملها على الاعتقاد أني أحبها إلى أن تموت فأخفف عذابها قبل الموت؟

نعم فإنّ الرجاء يخفف آلامها فلو اتفقت مع لوسي على إظهار الحب لها لأشفقت عليها نفس إشفاقي ووافقتني على هذا القصد الشريف بما فُطرت عليه نفسها الطيبة من الحنو.

ومازال يناجي نفسه بهذه الأفكار إلى أن وصل إلى بلغراد وبدأ عمله فيها فلم يجد بدّاً من الكتابة إلى رئيسه عما فعل.

فلما كاتبه خطرت له ماري وذلك المبدأ الذي قرر أن يجري عليه؛ فذيّلَ الرسالة بما يأتي:

«ورجائي يا سيدي أن تتفضل بإبلاغ الآنسة ماري

شعائر امتناني وإخلاصي، فإنها ماثلة في ضميري على بُعد المسافة بيننا ولا أنسى في حياتي أني مدين لها بتلك الثقة التي تشرفني بها فإنها كانت واسطتي إليك».

وقد قال في نفسه بعد أن كتب هذه السطور إني أنزلت حملاً ثقيلاً عن عاتق ذمتي.

وبعد أن فرغ من هذا الكتاب كتب كتاباً آخر إلى خطيبته لوسي ملؤه الحنو الصادق والحب الأكيد.

وقد حمل البريد الكتابين فكان سرور لوسي عظيماً بكتاب خطيبها ولكن سرور جاك كان أعظم فقد خُيّل له أنّ حاشية لوسيان لماري إنما هي مقدمة لحبها حتّى أنّه كاد أن يرجع عما عزم عليه من قتل لوسي.

وقد أخذ الكتاب وأسرع به إلى ماري كي يطلعها على فقرة لوسيان بشأنها.

أمّا تلك المنكودة فقد كانت منذ رأت لوسيان عند خطيبته منقبضة الصدر حزينة النفس لا يتمثل لها كيف اتجهت غير مثال لوسي تحول بينها وبين من تحب فيزيدها يأساً على يأس.

فلما دخل إليها أبوها فاجأها بقوله:

لقد وردتني أنباء من لوسيان

فاصفرّ وجه ماري وبرقت عيناها فقالت:

ـ ماذا كتب لك؟

ـ كتب لي أموراً تسرك.

فقالت له بهجة قنوط: أحقيقة ما تقول؟

قال: خذي يا ابنتي واقرأي هذه الحاشية فقد كتبها عنك.

فأخذت ماري الرسالة بيد ترتجف وقرأت تلك الفقرة فلما أتمت تلاوتها تنهدت وقالت:

نعم إنه يذكر تلك التي توسطت في أمره وإني واثقة من صدقه في إظهار امتنانه ومن إخلاصه بصداقته.

ولكن هذه السطور لا تتضمن كلمة تدل على الحب أو على بدء الحب فإنه لا يحبني ولا يمكن أن يحبني وهو يحب سواي.

ـ ولكنه لا يستطيع يا ابنتي أن يكتب أكثر مما كتب لأنه كتب عنك في رسالةٍ أرسلها إليّ وهو فتى مهذب لا يسعه أن يتجاوز حدّ الاحترام فاقتصر على كتابة ما تجيز كتابته الآداب.

وعندي أنّه تمعن كثيراً فيما دار بيني وبينه من الحديث ففطن لخطئه وعلم أنّه يخسر كلّ مستقبله إذا تزوج تلك الفتاة التي أحبها برهةً من الزمن.

ـ وهو لا يزال يحبها.

ـ كلا فإنه تخلص منها.

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ من خلال سطوره.

ـ إنك منخدع يا أبي فإنّ حديث قلبي لا يخطئ، وهذه الفتاة حائل عظيم بيني وبينه لا يمكن إزالته؛ فقد قرأت ثقتها في حبّه بين عينيها، فهي تحبه وهو يحبها ولا سبيل إلى الرجاء.

ـ بل أنت المخطئة يا ابنتي وإني أقسم لك بشرفي أنّ ما كتبه لوسيان عنك في كتابه إليّ يدل أعظم دلالة على أنّه ثاب إلى رشده فثقي يا ابنتي بما قلته وأقوله لك.

واعلمي يقيناً أنّه لا يوجد حائل غير ممكن الزوال فإنّ المرء معرض للموت في كلّ حين.

ـ هذا لا ريب فيه ولكني لا أتمنى لها أن تموت فأي ذنبٍ جنته إذا أحبته وهي لا تعلم أني أحبه؟

فغيّر جاك الحديث وقال لها: ماذا تريدين أن أكتب له؟

ـ إنك لا تستطيع أن تكتب له الشيء الوحيد الذي أحب أن أكتبه.

ـ ما هو؟

ـ هو أني أحبه وأني أموت إذا لم يحبني.

فعانقها أبوها وأسرع بالانصراف حذراً من أن تسيل دموعه أمامها وخرج من غرفتها وهو يقول في نفسه:

إنها قد تكون مصيبة في حديث قلبها وقد يكون الامتنان أوحى إليه ما كتب دون سواه من العواطف.

على أني أريد أن يتحول هذا الامتنان إلى حب ولا بدّ لتحقيق هذه الأمنية من إزالة الحائل وهو لوسي... إذن لا بدّ من قتلها.

وفي ذلك أجاب لوسيان على كتابه وكتب له في ختام الرسالة ما يأتي:

«لقد كان لكلماتك تأثير عظيم على ابنتي حين أطلعتها عليها، على أنها تعتقد أنّه لم يدفعك إلى ذلك غير الامتنان دون سواه.

وأنت تعلم أيها العزيز أنّ ماري مريضة جداً ولا يمكن التغلب على مرضها إلّا بالحب المتبادل وقد وصفت الدواء لابنتي وهو بيدك بل هو الدواء الوحيد الذي يقيها الموت فهل تدعها تموت؟»

***

كان أوفيد قد تنكر أمام أماندا باسم البارون أوتولد وكان قد أخبرها بعد أن وصفت له طريق بيت المحافظ في ضواحي باريس أنّه لا يتغدى وإياها في اليوم التالي.

ففي صباح اليوم التالي ركب القطار المؤدي إلى الجهة التي يقيم فيها محافظ كولمب وفحص تلك الطريق المؤدية إلى المنزل فحصاً مدققاً.

وكانت طريقاً ضيقة تكتنفها الأدغال ولا طريق سواها من المحطة إلى ذلك المنزل.

وفي ذلك اليوم نفسه ذهبت لوسي وحدها إلى امرأة المحافظ وقاست لها الثوب واتفقت معها على أن تعود إليها يوم السبت نفسه. ورآها أوفيد وهو متنكر بزي الفقراء فعاد أدراجه إلى معمل جاك.

فدُهش جاك لقدومه وقال له: ما جاء بك؟

فقال له أوفيد بصوت منخفض:

ـ أيمكن أن يسمعنا أحد؟

ـ كلا فقل ما تشاء.

ـ إذن فاعلم أنّ المهمة ستنجز غداً.

فارتعش جاك واصفرّ وجهه فقال: غداً!

ـ نعم وسنقضي مأربنا دون أن يخطر لأحد اتهامنا بفضل الخطة التي وضعتها.

ثمّ بيّن له خطته حتّى إذا فرغ من بيانها قال له: ما رأيك؟

ـ رأيي أنها خطة مثلى وأنك من أهل الذكاء.

ـ إني مستعد لخدمتك بهذا الذكاء في كلّ ما تريد.

ـ وأنا لا أساومك بالأجرة.

ـ دون شك ولكننا سنبحث في هذا الأمر بعد أن تتزوج ماري بلوسيان لابرو.

ـ حسناً والآن هل أنت محتاج إليّ؟

ـ نعم فإني لم أخبرك بعد بالشأن الذي أتيت من أجله.

ـ ما هو؟

ـ هو أنّه يجب أن تتذرع غداً بحجة تقضي عليك بالبقاء في المعمل حتى انتصاف الليل.

ـ ذلك سهل ميسور.

ـ وأن تسهّل لي سبيل القدوم إليك دون أن يراني أحد.

ـ وهذا سهل أيضاً فإني أعطيك مفتاحاً خاصاً تدخل به، فماذا تريد غير هذا؟

ـ أريد أن تكون مركبة واقفة أمام الباب فتعود بي إلى باريس بحيث يتوهم الجميع أنّي قضيت الليلة عندك وأننا كنا نشتغل معاً، وإنما أقترح ذلك لدرء الشبهات عني إذا احتجت.

ـ وذلك سهل أيضاً فإنك تستطيع أن تحضر إليّ في الساعة السادسة من المساء فتدخل إلى معملي أمام الجميع ثمّ تخرج من باب سري سأعطيك مفتاحه بحيث يتوهم الجميع أنك لا تزال باقياً عندي.

وعندما تفرغ من قضاء مهمتك تعود إليّ من ذلك الباب ونخرج معاً من الباب الكبير إلى المركبة فلا يبقى أدنى مجال للشك بأنك قضيت السهرة معي في المعمل.

ـ إننا لا نحتاج إلى هذا الاحتياط ولكنه حسن من قبيل الحذر.

وعند ذلك افترق الأثيمان وقد ظهرت علائم الفرح الوحشي على وجه جاك فقال:

غداً يزول الحائل بين لوسيان وابنتي فيبكي لوسيان خليلته يومين ثمّ يعود إلى النظر في مستقبله فلا يجد خيراً من الزواج بابنتي.

نعم إنّ أوفيد قد أحسن بوضع خطته وهو يكلفني تكاليف باهظة.

ولكن لا بأس فإنه سيحيي ابنتي التي أسفك دمي في سبيلها.

وفي الساعة الثامنة من مساء اليوم التالي كان أوفيد ينتظر أماندا حتّى إذا أقبلت قالت له:

لا بدّ لي من الذهاب إلى شارع بوربون، لا أعلم إذا كانت لوسي قد ذهبت إلى امرأة المحافظ.

قال: إذن سأصحبك وعند عودتنا نتعشى.

* * *

ولنعد الآن إلى لوسي فإنها حين عادت من منزل امرأة المحافظ لقيت قبل وصولها إلى المحطة الأرملة ليزا، أي أمها حنة، فكان اندهاش الاثنتين عظيماً لهذا الاتفاق وسألتها حنة قائلة:

ـ من أين أنت آتية؟

فأخبرتها لوسي ثمّ سألتها كيف اتفق وجودها في هذه الضواحي فقالت لها: هذه هي أوّل مرة آتي فيها إلى هنا فإني ذاهبة إلى كارين.

ـ ماذا تعملين فيها؟

ـ إني ذاهبة لاستدعاء والدة صاحب المخبز.

ـ لماذا، هل اشتدت بها العلة؟

ـ هو ذاك، فإنها باتت تشعر بقرب الوفاة وتريد أن ترى أمها التي لم ترها منذ عام، فإنّ أمها تخاصمت مع زوجها وأقسمت على ألا تزور منزل ابنتها ما دام فيه، ولذلك أرسلتني كي أرجوها أن تنسى الخصام السابق وتأتي لوداع ابنتها قبل الموت.

فقالت لوسي: يسوؤني أني لا أستطيع صحبتك ولا انتظارك لنعود معاً فإني مستعجلة لأني مضطرة لإصلاح هذا الثوب والعودة به في الساعة التاسعة مساءً إلى كاترين.

ـ إذن اذهبي يا ابنتي في شأنك وأنا ذاهبة في شأني.

وافترقتا فركبت لوسي القطار وعادت إلى منزلها وذهبت حنة تبحث عن بيت أم صاحبة المخبز حتّى اهتدت إليه واجتمعت بتلك الأم فقالت لها:

ـ إني قادمة إليك من ابنتك.

قالت: ما شأن ابنتي، أهي مريضة؟

ـ نعم.

ـ متى مرضت؟

ـ منذ أسبوعين.

فغضبت الأم وقالت: ألم يخطر لزوجها إخباري بمرضها إلّا بعد أسبوعين؟

ـ ليس هو الذي أرسلني إليك يا سيدتي.

ـ إذا كانت ابنتي التي أرسلتك فقد أخطأت لأنها تعلم يقيناً أني لا ألج منزلها بعد أن طردني منه زوجها.

ـ ولكن مرضها شديد.

ـ إنها لو كانت في خطر الموت لا سمح اللّٰه لما ذهبت إلى منزلها وعرّضت نفسي للإهانة فيه. وإنه لعجيب من ابنتي كيف تدعوني إليها دون أن يعلم زوجها وهي تعلم يقيناً أني لا أذهب.

ـ ولكنها حسبت يا سيدتي أنّ اشتداد علّتها ينسيك ذلك الخصام القديم.

ـ إنّ تلك الإهانة لا يمكن نسيانها وأنا لا أذهب إلّا إذا دعاني زوجها بعد الاعتذار.

فانقبض صدر حنة حين رأت فظاظة هذه الأم وحاولت إقناعها بالذهاب ولكنها قاطعتها فقالت:

ـ لا تتعبي نفسك بكلام لا يجديك نفعاً، فانقلي كلامي إلى ابنتي كما سمعته وأخبريها أني لا أذهب إليها إلّا إذا توسل إليّ زوجها واعتذر اعتذاراً يرضيني عن إساءته الماضية.

فانصرفت حنة قانطة منها وعادت إلى صاحبة المخبز وأخبرتها بكل ما قالته أمها فكبر عليها ذلك وقالت:

ـ رباه! أقُضي عليّ أن أموت دون أن أرى أمي.

ـ لا تقنطي يا سيدتي فإنك تبالغين في علتك، وفوق ذلك فإنّ زوجك قد لا يرفض أن يكتب كلمة اعتذار إلى حماته.

ـ إنه غائب.

ـ ولكنه سيعود.

ـ إنه يعود غداً ومن يعلم فقد لا أعيش إلى الغد.

ثمّ أخذت هذه المنكودة تبكي وحنة تنظر إليها نظرات إشفاق.

* * *

كان بول هرمان، أي جاك جيرود، أخبر ابنته في ذلك اليوم الذي تقرر فيه قتل لوسي أنّه لا يحضر إلى المنزل إلّا حين انتصاف الليل لاضطراره إلى الاشتغال مع أحد المهندسين في مسألة مستعجلة كما اتفق على ذلك مع أوفيد.

فلما وصلت به مركبته إلى المعمل قال للسائق، لا حاجة إلى أن تنتظرني فإني لا أعود إلى العشاء فاذهب وعد إليّ.

قال: في أية ساعة تريد أن أحضر؟

ـ عند انتصاف الليل قف بالمركبة عند الباب الأكبر ولا حاجة إلى إيقاظ الحارس.

ثمّ دخل إلى المعمل ونادى الحارس فقال له: أعرفت ذلك الرجل الذي جاءني أمس؟

قال: نعم يا سيدي.

قال: إنه سيعود الليلة أيضاً وهو مهندس وسيشتغل وإياي معظم الليل فلا حاجة إلى سهرك ونم حسب عادتك وعندما يأتي هذا المهندس أدخله إليّ.

وفي الساعة السادسة جاء أوفيد وأدخله الحارس إلى جاك فلما خلا بهما المكان قال له أوفيد:

متى تحضر مركبتك؟

قال: عند انتصاف الليل.

ـ حسناً فعلت.

ـ هل يصحب لوسي أحد إلى بيت المحافظ؟

ـ كلا فقد أيقنت أنّها ذاهبة وحدها.

ثمّ أخرج سكيناً يشبه الخنجر، وقال له: ما تقول في هذا السلاح فإني اشتريته من دكان قرب منزل لوسي.

فلم يسع جاك على فظاعته إلّا الارتعاش لمنظر السكين.

وبعد هنيهة نادى البواب وأمره أن يأتيهما بطعام من مطعم قريب فجاء به فأمره أن يكثر المصابيح في الغرفة إيهاماً له أنّه سيشتغل مع المهندس فيها ثمّ أمره بالانصراف وبعد أن فرغا من الطعام نظر جاك في ساعته وقال: لقد دنا الأوان فهل تذهب؟

قال: دون شك فأخرجني من هذا الباب الخلفي الذي ذكرته لي. فأخرجه منه وأعطاه مفتاحه فتوارى في الظلام.

وفي تلك الساعة نفسها كانت لوسي قد ركبت القطار من محطة سانت لازار فوقف بها في غابات كولومب ونزلت فسارت ماشية على قدميها إلى منزل المحافظ.

وهناك ألبست امرأة المحافظ الثوب فكان غاية في الإتقان لا يعوزه شيء من الإصلاح غير أنّ تلك المرأة كانت كثيرة التأنق شديدة النقد فبعد أن جالت فيه عشرين جولة أمام المرآة مثل لها أنّ فيه عيباً يجب إصلاحه فتنهدت لوسي تنهداً طويلاً ولم تجد بداً من الامتثال.

والآن، فلندع لوسي منهمكة في إصلاح الثوب ولنعد إلى منزل صاحبة المخبز.

كانت الساعة التاسعة وكانت خادمة المخبز قد ذهبت لشراء دواء من الصيدلية فاضطرت حنة إلى الإقامة في المخبز إلى أن تعود.

وعند ذلك أقبل زوج المريضة وسألها عن حالها.

فقالت بصوت خافت: لقد دنت الساعة وسأموت.

فسالت دموع هذا الزوج وقال لها: ما هذا التشاؤم أيتها العزيزة فإنك ستشفين قريباً بإذن اللّٰه.

قالت: بل إني سأموت قريباً وسأفارقك فراق الأبد ولكن لي رجاء أحب أن ألتمسه منك.

ـ قولي أيتها الحبيبة فكل ما تطلبينه مقضي.

ـ إني أريد أن أرى أمي.

ـ أمك؟

ـ نعم فإني أعلم أنها أساءت إليك كثيراً ولكنك أنت أسأت إليها أيضاً. وفي كلّ حل فإنك لا تدعني أموت دون أن أرى أمي.

ـ ولكنها لن تحضر فإني أعرف عنادها.

ـ بل إنك واهم فإنها تحضر إذا كتبت إليها بضعة سطور تأسف فيها لما جرى من قبل وتسألها النسيان والحضور إليّ إذا أرادت أن تراني على قيد الحياة.

ـ كلا إني لا أكتب إليها.

ـ إذن تريد أن أموت دون أن أراها، ولكن كلا فإنك لا تصل بقسوتك إلى هذا الحد.

فأطرق الزوج مفكراً وقال في نفسه:

لقد أصابت فإنّ هذه القسوة لا يرتكبها إنسان وإذا فعلتها كنت نادماً طول حياتي.

ثمّ التفت إليها وقال ليكن ما تشائين فسأكتب.

فشكرته وسألته أن يكتب في الحال لأنها لم تكن ترجو أن تعيش إلى الغد.

فقال: ولكن كيف السبيل إلى إيصال الكتاب إليها في هذه الليلة؟

قالت إنّ الأرملة ليزا تذهب إليها وتعود وإياها.

قال إذن سأكتب الرسالة وأرسلها.

ثمّ تركها ونزل إلى المخبز فكتب كتاب الاعتذار ودفعه إلى حنة فأسرعت حنة به بحيث وصلت إلى كولمب في الساعة العاشرة ونصف فسارت ماشيةً إلى منزل والدة صاحبة المخبز وأعطتها كتاب صهرها.

فأخذت الكتاب وفتحته وبعد أن قرأت اعتذار صهرها فيه قالت لحنة: انتظريني إلى أن ألبس ملابسي فإني ذاهبة وإياك.

* * *

أمّا لوسي فإنها بعد أن أتمت ثوب امرأة المحافظ وألبستها إياه فجاء طِبقاً لمرامها، برحت المنزل في ظلام الليل وعادت إلى المحطة في ذلك الطريق الذي وصفناه بين الأدغال.

وكان أوفيد مختبئاً بين تلك الأدغال فسمع وقع خطوات لوسي وأطلّ فرآها دون أن تراه.

حتّى إذا قربت من المكان الذي كان فيه خرج من الأدغال فانقضّ انقضاض البازي على العصفور وطعنها بخنجره فصاحت صيحة ألم ورعب ووقعت على الأرض.

أمّا ذلك الأثيم السفاك فإنه لم يشفق على شبابها النضير ولم يحنّ قلبه وقد رآها سقطت صريعة بل طعنها طعنةً ثانية ولكن الخنجر أصاب جسماً معدنياً فانكسر ولم يخترق الصدر.

غير أنّه لم يكترث لذلك وقال في نفسه: لقد قضي عليها بالطعنة الأولى.

ثمّ حاول أن يعرف ذلك الجسم المعدني الذي أصابه خنجره فوجده ساعة وسلسلتها فأخذهما وقال:

إنهم سيحسبون أنّ اللصوص قتلوها بغية سلبها.

وقد تركها على هذه الحالة وتوارى في الأدغال مسرعاً إذ سمع وقع أقدام من ورائه.

ولم يكن الخوف الذي مثّلَ له ما سمع، فإنه لم تمض هنيهة حتّى ظهر ثلاثة أشباح قرب جسم لوسي الممدد على الأرض.

ثمّ سمع امرأة تقول أؤكد لك يا سيدتي أني سمعت صيحة في هذا المكان وكانت صيحة رعب وألم.

فأجابتها امرأة أيضاً قائلة: إني لم أسمع صوتاً وأظنك منخدعة.

قالت: بل إني واثقة.

وفي تلك اللحظة كان أوفيد قد أمعن في الهرب فرأته المرأة عن بُعد وقالت لمحدثتها وهي تشير إليه:

انظري فإنه رجل هرب حين رآنا ولا شك أنّه حدثت هنا جناية فقد سمعت الصيحة.

وقد أسرعت تلك المرأة إلى الأمام وكانت حنة بائعة الخبز وهي عائدة إلى باريس مع أم صاحبة المخبز وخادمتها.

وما زال الثلاثة يسرعن حتّى وصلن إلى حيث كانت لوسي ممددة فوقفن والرعب ملء قلوبهن.

وأكبَّتْ حنة على لوسي فوضعت يدها على العلبة التي أحضرت لوسي بها الفستان فذعرت إذ كانت تعلم بأن لوسي ستذهب إلى امرأة المحافظ وأنها أعدت هذه العلبة للثوب وقد انقبض صدرها وانحنت على لوسي فتمعنت في وجهها وعرفتها فصاحت صيحة هائلة.

وقد أجفلت أم صاحبة المخبز لصيحتها فقالت لها:

ـ ما هذا وماذا حدث؟

قالت: جناية فظيعة أنبأني بها قلبي قبل حدوثها.. رباه إنها ماتت وقد قتلها ذلك الشقي الذي رأيناه يهرب.

وهنا جعت تنادي لوسي بأعذب الأصوات، وهي تكاد تجن ولهاً عليها.

فقالت لها رفيقتها: هل تعرفين هذه المنكودة؟

فلم تسمعها حنة وأخذت ذراع لوسي تحاول إنهاضها فشعرت بمادة حارة سالت على يدها.

فقالت: رباه إنّ دمها يسيل، ولكن قلبها ينبض فهي لا تزال على قيد الحياة.

ثمّ التفتت إلى أم صاحبة المخبز وقالت لها:

ـ إنّ بنتك تنتظرك فلا يجب أن تتأخري حذراً من سفر القطار فأسرعي بالذهاب.

أمّا أنا فإني سأبقى فأرجوك أن تخبري عمال المحطة بالحادثة كي يسرعوا لمساعدتي فإني لا أستطيع التخلي عن هذه المنكودة.

فسارت المرأة مع خادمتها وبعد هنيهة وصلت إلى المحطة ولقيت فيها جنديين فأخبرتهما بالحادثة وأرشدتهما إلى مكانها فأخذا محملاً وذهبا إليها.

وكان الظلام حالكاً لم يمكنهما من معرفة حال لوسي ومبلغ جرحها فسألا حنة قائلين:

ـ هل الجرح بالغ.

قالت: إنها مطعونة في صدرها ولا أعلم إذا كان الجرح

بالغاً ولكن الدم لا يزال يسيل منه ويجب نقلها من هذا المكان.

وبعد هنيهة نقلاها إلى مركز البوليس وحنة معها وهي مصفرة الوجه مصبوغة الثياب بالدم فسأل القومسيير الجنديين قائلاً:

من هذه المرأة؟

فأجابه أحدهما قائلاً:

إنها كانت مع مدام إيبل التي أخبرتنا بالحادثة.

فالتفت إلى حنة وقال لها:

هل تعرفين هذه الفتاة؟

قالت: نعم يا سيدي فإنها عاملة نشيطة شريفة تقيم معي في منزل واحد.

ـ كيف اتفق وجودها وحدها بعد منتصف الليل في هذا الخلاء؟

ـ ذلك أنها خياطة وقد أتت إلى منزل المحافظ كي تقيس ثوباً لامرأته وهذه العلبة التي كان فيها الثوب فإنها فارغة.

ـ وأنت ماذا كنت تعملين هناك في هذه الساعة؟

فأخبرته حنة بتفصيل أمرها فلم يجد القومسيير في كلامها ما يحمل على الريبة لاسيما وأنه كان مطابقاً لما قالته مدام ايبل.

وقد حكت حنة كلّ ما تعلمه عن لوسي للقومسيير فلما أتمت حديثها قال:

لا شك أنّ السرقة كانت السبب في هذه الجناية وأن الرجل الذي رأيته يهرب بين الأدغال كان الجاني.

أمّا الآن فإننا لا نستطيع مطاردته وسنبدأ غداً البحث عنه.

وفي خلال هذه الفترة كان الطبيب قد حضر وفحص الجرح فقال له القومسيير: ماذا رأيت؟

قال إنّ الجرح بالغ خطير ولكن أرجو ألا يكون قاتلاً فإنّ التنفس منتظم ولم يبلغ النصل الرئة.

وقد رأى القومسيير عند ذلك قطعة لامعة على الأرض فقال: ما هذا؟

فقال الطبيب: هذه قطعة من خنجر الجاني فإنه طعنها طعنةً ثانية به فانكسر.

فقال له القومسيير: يستحيل علينا أن نبدأ التحقيق الآن فماذا نصنع أيها الطبيب؟

قال: أرى أنه يجب قبل كلّ شيء نقل هذه المنكودة.

ـ إلى أين تنقلها؟

ـ لا أعلم أفلا يوجد عندنا مستشفى؟

ـ ولكن يوجد عندي غرفة فسننقلها إليها وتتولى هذه المرأة العناية بها فإنها صديقتها كما يظهر؟

فقالت حنة بل هي أشبه بانتي فلا أتخلى عنها لحظة.

فحملوا لوسي وهي لا تزال مغمياً عليها إلى منزل القومسيير وهناك عاد الطبيب إلى فحص الجرح وضمده.

وكان القومسيير قد فتش ثياب لوسي فقال:

لم يبق شك أنّ السرقة كانت السبب في هذه الجناية فإنه لا يوجد شيء في جيوبها حتّى إنّ زر ثوبها مقطوع مما يدل على انتشال شيء منه بالعنف.

فقالت حنة إنها كانت تلبس ساعة ذهبية كلما خرجت من منزلها.

وقد كتب القومسيير تقريراً مسهباً مع الطبيب فيه تفصيل الحادثة وافترقوا في الساعة الثانية بعد انتصاف الليل فبقيت حنة بجانب لوسي وهي لا تزال مغمياً عليها.

* * *

أمّا أوفيد سوليفو فإنه ذهب مسرعاً في طريق باريس فلم يقف إلّا عند معمل جاك جيرود فدخل من الباب الخفي إلى غرفة جاك حيث كان ينتظره على أحرّ من الجمر.

فلما رآه داخلاً إليه وقف وبادره بقوله ماذا حدث؟

قال: لقد قُضي الأمر وبات لوسيان أرملاً من خليلته فلم يبق له إلّا أن يتزوج بابنتك.

وعند ذلك غيّر أوفيد ملابسه القروية التي كان متنكراً

بها فلبس ملابسه العادية وخرج مع جاك إلى المركبة التي كانت تنتظرهما فركباها وقال له جاك:

إلى أين تريد أن أوصلك؟

قال: إلى شارع باتيتون فإنه قريب من منزلي.

فأوصله إلى حيث أراد ثمّ افترقا فعاد جاك إلى منزله وهو يقول:

لقد نجت ابنتي فإنّ مزاحمتها قُتلت ولا يمضي زمن وجيز حتّى تصبح امرأة لوسيان.

في صباح اليوم التالي كان قومسيير البوليس وسكرتيره وبعض الجند واقفين في ذلك المكان الذي أصيبت فيه لوسي.

وقد بحثوا بحثاً دقيقاً فاتضح لهم أنّ الجاني كان مضطجعاً بين الأدغال كما علموا من أثره حتّى إذا سمع وقع خطوات لوسي خرج إليها.

وكان الطبيب قد ذهب إلى لوسي فإنها بعد أن أُغمي عليها مدة طويلة فتحت عينيها ونظرت إلى ما حولها نظرة الحائر القلق.

ثمّ رأت حنة بجانبها وحاولت أن تصيح صيحة فرح غير أنّ ألم الجرح حال دون قصدها فألقت رأسها على الوسادة وعضّت شفتها من الألم.

فدنت منها حنة وقالت: هل عرفتني يا ابنتي؟

فأجابتها بصوت خافت قائلة: نعم ولكن أين أنا؟

ـ إنك في منزل قومسيير البوليس في غابات كولمب.

وكانت هذه الكلمات كافية لإعادة ذكرى الليلة السابقة إلى لوسي.

وكان البوليس قد جاء أيضاً فقال لها:

لقد كنتِ جريحة يا سيدتي فدفعني الواجب إلى حملك إلى منزلي.

قالت: نعم لقد ذكرت الآن فإني ذهبت بثوب رقص إلى كارين وعدت ماشية إلى غابات كولمب كي أركب القطار المسافر إلى باريس.

وفيما أنا سائرة فاجأني رجل بضربة خنجر ولم أعد أذكر شيئاً بعد ذلك. إذ لم أكن أرى غير الظلمات.

ـ هل رأيت وجه الرجل الذي طعنك؟

ـ كلا يا سيدي فإنّ الظلام كان حالكاً.

ـ لقد كان لديك ساعة وسلسلة من الذهب أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ وكيس نقود؟ ـ نعم.

ـ ماذا كان يوجد في الكيس؟

ـ ثلاثون فرنكاً وتذكرة إياب إلى باريس.

ـ إذن لقد حاول الشقي قتلك بغية السرقة وإن جميع الساعات يكون مكتوباً عليها نمرة فهل تتذكرين نمرة ساعتك؟

ـ كلا.

ـ من أين اشتريتها؟

ـ لقد أُهديت إليّ ولكني أعلم أنها اشتُريت من مخزن ساعات في شارع سانت أنطوان.

ـ أتأذنين لي يا سيدتي أن أسألك من أهدى إليك هذه الساعة؟

ـ دون شك يا سيدي، فهو خطيبي لوسيان لابرو.

فكتب القومسيير عنوان المخزن الذي اشتُرِيَت منه الساعة واسم لوسيان لابرو ثمّ قال:

إنّ هذا الشقي لم يحاول قتلك إلّا لسرقة الساعة ولو عرفنا نمرتها لسهل إيجاده.

فقالت لوسي: لا شك أنّ جرحي خطير فإني أشعر بألمٍ شديد.

فأجابها الطبيب قائلاً: لا بد من الألم يا ابنتي فإنّ الجرح بالغ ولكني أؤكد لك أنّه غير خطير بل إنك ستشفين منه قريباً، وأنت مدينة بالحياة لهذه المرأة الباسلة التي أعانتك

فإنك لولاها لقُضي عليك وليس ذلك بسبب خطورة الجرح بل لكثرة نزف الدم.

فمدت لوسي يدها إلى حنة وقالت لها: إني لا أنسى في حياتي أني مدينة لك بالحياة.

ثمّ التفتت إلى الطبيب وقالت له:

ـ كم مضى عليّ وأنا هنا؟

ـ منذ الليلة الماضية.

ـ ألا يمكن أن أعود إلى منزلي؟

ـ ذلك ممكن بعد أن أضمد جرحك مرة أخرى ولكن ذلك لا يكون قبل المساء.

فقالت لحنة: إنك لا تفارقيني أليس كذلك؟

ـ كيف أفارقك أيتها الحبيبة غير أنّه لا بدّ لي أن أذهب إلى صاحبة المخبز فأرى ماذا جرى وأعود سريعاً.

ـ إذن اذهبي وأسرعي بالعودة إلي.

فقال لها القومسيير: إنك يا ابنتي لا تكونين وحدك فإنّ امرأتي ستقيم معك إلى أن تعود صديقتك.

فشكرته لوسي أعظم شكر وعانقت حنة لوسي ثمّ خرجت مسرعةً إلى المحطة.

فركبت القطار وسارت إلى المخبز فرأته مقفلاً وقد كُتب على بابه:

(أُقفل اليوم لوفاة صاحبته).

فدخلت إلى المنزل من باب آخر وهناك لقيها زوج صاحبة المخبز فقال لها: لقد قُضي الأمر وماتت امرأتي المنكودة.

فبكت حنة عليها وقالت له:

أسألك أن تعذرني لتأخري فإنما تأخرت لسبب خطير.

قال: نعم فقد أخبرتني حماتي بذلك وقد سألت عنك امرأتي مراراً كي تراك قبل الموت فإنها كانت تحبك ولذلك أرجوك أن تبقي في المخبز كما كنت من قبل.

قالت: سأفعل غير أني أسألك الآن أن تأذن لي بالعودة إلى تلك الفتاة الجريحة فإنها لا تزال في غابة كولومب.

قال اذهبي فإنّ المخبز مقفل اليوم.

قالت: سأعود غداً إلى أشغالي السابقة.

* * *

بينما كانت حنة عائدة إلى غابات كولومب لترى لوسي كانت مدام أوغستين الخياطة قد شُغل بالها على لوسي لأنها لم تعد إليها فتخبرها عما كان من أمر الثوب الذي أرسلته إلى امرأة المحافظ فأرسلت عاملة إلى منزلها تسأل عنها فيه فعادت العاملة فقالت:

إنها ذهبت ليلة أمس بالثوب ولم تعد إلى الآن.

فعجبت الخياطة لهذا الاتفاق الغريب وقلقت على لوسي فأرسلت خادماً إلى منزل المحافظ فعاد إليها يقول:

إنها خرجت من منزلها في الساعة الحادية عشرة من ليلة أمس عائدة إلى باريس.

فتحول قلق الخياطة إلى رعب وصبرت هنيهة ثمّ قالت للعاملة أماندا: اركبي مركبة واذهبي إلى منزل لوسي علها تكون قد عادت.

فامتثلت أماندا وخرجت من المخزن فرأت أوفيد سوليفو ينتظرها فقالت له:

إني ذاهبة أيضاً بمهمة.

قال: ما هي؟

قالت: إني ذاهبة إلى لوسي فإنها قد اختفت كما يظهر.

فتظاهر السفاك بالانذهال، وقال: كيف ذلك؟

قالت: إنها خرجت من منزل المحافظ في الساعة الحادية عشرة من ليلة أمس ولم تعد إلى الآن.

ـ ماذا جرى لها هل أصيبت بنكبة؟

ـ إنّ مدام أوغستين خائفة عليها خوفاً شديداً وقد أرسلتني لأستطلع أخبارها.

ـ لقد خطر لي أن أذهب معك.

ـ وأنا خطر لي أيضاً أن أقترح عليك هذا الاقتراح.

ـ إذن هلمي بنا.

ثمّ استأجر مركبة وسار وإياها. فإنّ هذا الشقي كان يود أن يعلم إذا كان خبر موت لوسي قد انتشر.

ولما وصل إلى المنزل نزلت أماندا كي تسأل البوابة عن لوسي وبقي أوفيد في المركبة.

حتّى إذا عادت إليه أخبرته أنّ البوابة لم تعلم شيئاً من أخبارها إلى الآن، وطلبت إليه أن يصحبها إلى مدام أوغستين كي تخبرها بما عرفته أي بأنها لم تعرف شيئاً.

* * *

عندما عادت حنة من منزل صاحبة المخبز إلى غابات كولمب حيث كانت لوسي في منزل القومسيير كانت لوسي لا تزال نائمة نوماً هادئاً ثمّ جعل نومها يضطرب تباعاً حتّى أنها لما صحت كانت محمومة حمى شديدة.

وقد قلق الطبيب عليها حين جاء لعيادتها فإنه لم يكن يتوقع هذه الحمى فقال:

إنّ انتقالها من هذا المنزل بات مستحيلاً الآن، وغاية ما أستطيع السماح به أن تنقل إلى فندق قريب إذا كان وجودها في منزل القومسيير يزعجه.

فأجابته امرأة القومسيير قائلة:

ـ إنّ هذه الفتاة ستبقى عندنا وسنعتني بها كأنها من أولادنا.

فشكرت لوسي امرأة القومسيير بصوت ضعيف ونظرت نظرة الملتمس إلى حنة فأدركت حنة معنى هذه النظرات وأجابتها عليها قائلة بقولها: وأنا أيضاً لا أدعك وحدك فإني أذهب إلى باريس فأقضي أشغالي ثمّ أعود مسرعةً إليك.

قالت: حسناً فأرجوك أن تأتيني بما يرد إليّ من الرسائل فإني أنتظر كلّ يوم ورود رسالة من لوسيان.

قالت: اطمئني يا ابنتي فسأفعل.

ـ وأرجوك أيضاً أن تخبري مدام أوغستين بما أصابني كي لا تشغل بالها عليّ.

فقال القومسيير: حسناً أخبريها بالأمر ولكن قولي لها أنّ الكتمان واجب إذ لا يجب أن تروي الجرائد هذا الخبر فقولي لها أنها أصيبت بحادثة ألفيها كما تشائين ولكن لا تقولي أنّه حدث جناية.

فوعدته حنة أنها تفعل طبق تعليماته وانصرفت وهي لا يخطر في بالها أنّ حادثة لوسي سوف تضطرها إلى الوقوف أمام المحاكم بصفة شاهدة فيفتضح أمرها إذ قد يوجد بين القضاة والجند من يعرفها ويعرف أنها هربت من السجن.

ولم يدر ذلك في بالها لانصرافها إلى الاهتمام بإنقاذ لوسي ولكنها حين ركبت القطار خطر لها هذا الخاطر فذعرت له ذعراً عظيماً حين تمثلت لها أخطاره.

غير أنّ الأمر هان عليها بالتدريج لأن قومسيير البوليس لم يعرفها ولأنها غيّرت اسمها وأولئك القضاة بل من بقي منهم حياً لم يروها غير مرة منذ اثنين وعشرين عاماً في محاكمتها الأولى حين كانت في مقتبل الشباب فلا خوف أن يعرفوها.

ولما وصلت إلى باريس ذهبت توّاً إلى غرفتها وقد أنهكها التعب فرأتها بوابة المنزل فسألتها إذا كانت تعرف شيئاً عن أخبار لوسي.

قالت: نعم إنها عثرت بحجر حين عودتها من منزل المحافظ فصدمت رجلها واضطرت إلى البقاء في غابة كولومب إلى أن تشفى.

ـ وكيف هي الآن؟

ـ إنها بخير ولا بد من الصبر بضعة أيام.

ـ لقد طمأنتني فإني كنت كثيرة الانشغال عليها إنما يجب إخبار رئيستها مدام أوغستين فقد سألت عنها مراراً.

ـ هو ذاك، فقد عهدت إليّ لوسي أن أخبرك كما عهدت إليّ إلى أن آتيها بما يردها من الرسائل فهل ورد إليها شيء.

ـ رسالة واحدة.

ـ حسناً دعيها عندك فسأذهب بها غداً.

وفي اليوم التالي قضت حنة أشغالها وجاءت إلى

المنزل فوجدت أنّه ورد كتاب آخر إلى لوسي فأخذت الكتابين وسارت بهما إلى لوسي حيث كانت تنتظر بفارغ الصبر فوجدت أنّ الحمى قد خفّت وطأتها وسكنت آلام الجرح وعلى الجملة فقد كانت حالتها متحسنة.

وأخذت لوسي الكتابين ففضتهما وقرأتهما وهما من خطيبها لوسيان فإنه كان يعتب عليها في الكتاب الثاني لعدم مجاوبته.

فأطلعت حنة على الكتابين وقالت لها:

يجب أن أجيبه عنهما في الحال.

قالت: بل أنا أكتب له عنك.

قالت: ولكنه يعرف خطي فإذا لم أكتب له به شغل باله مهما كتبت له فلا بدّ لي من أن أكتب له ثمّ أخذت قلماً وكتبت له بيد ترتجف ما يأتي:

عزيزي لوسيان

إني أكتب لك الحقيقة بتمامها وأرجو ألا تقلق فإني أقسم لك بأني لا أكتمك شيئاً وأنه لا يجب أن تخاف إذ لا سبيل إلى الخوف.

إني جريحة مقيمة في السرير ولكن جرحي غير خطر بدليل أني أكتب إليك بيدي.

وهنا كتبت له حقيقة ما جرى لها بالتفصيل وختمت كتابها بقولها:

«إني سأعود إلى باريس بعد يومين أو ثلاثة كما أرجو، فأقيم في تلك الغرفة الصغيرة التي أجد كلّ ما فيها يذكرني بك ويكلمني عنك وإني صابرة على ما أنا فيه ما زلت أستطيع أن أخبرك بأني أحبك اليوم أكثر من أمس وغداً أكثر من اليوم»

(خطيبتك اليوم وزوجتك غداً أليس كذلك؟)

لوسي

ثمّ وضعت كتابها في غلاف وعنونته باسم لوسيان فقبّلت ذلك الغلاف كأنها تُقبّل ذلك الخطيب.

وكانت أماندا حزينة منقبضة الصدر فإنها انتظرت أوفيد للغداء حسب عادتها كلّ يوم فلم يحضر دون أن يخبرها من قبل.

وفيما هي على ذلك وردتها رسالة من أوفيد نفسه يتضمن ورقة مالية قيمتها ألف فرنك وقد أخبرها فيها أنّه اضطرّ إلى فراقها لاضطراره إلى السفر لمدة طويلة.

فأخذت أماندا الورقة المالية فوضعتها في جيبها باعتناء ومزقت الرسالة بغضب فإنّ هذا السفر الفجائي قد أزعجها إذ استدلت منه على الهجر التام.

ولم تكن واثقة من سفره بل كانت تعتقد أنها حيلة استنبطها للتخلص منها.

غير أنها لم تكن تهتدي إلى وسيلة لمعرفة الحقيقة فإنّ أوفيد لم يدع لها أقل سبيل للوقوف على أثره.

***

ولنعد الآن إلى لوسيان لابرو فإنّه حين ورد إليه كتاب خطيبته أوشك أن يجن من يأسه فإنه علم منه أنّ حبيبته كادت تموت وهو بعيد عنها لا يستطيع العناية بها.

وقد تعذب عذاباً شديداً حتّى أنه وقف موقف الحائر لا يعلم أيعود إلى باريس غير مكترث بأشغال رئيسه أم يبقى إلى انتهاء الأشغال التي أؤتمن عليها وسافر من أجلها.

وبعد مناجاة طويلة تغلب العقل على القلب وأقر مكرهاً على البقاء في بلغراد إلى حين انتهاء الأشغال.

وقد كان من كلّ ما تقدم أنّه لم يستطع أحد معرفة السبب الحقيقي الذي دعا إلى ارتكاب الجريمة فقد كان جميع الناس يتوهمون أنّ السبب فيها مجرد السرقة بحيث بات جاك جيرود وأوفيد سوليفو بمأمن من التهمة.

ولم يحدث أمر جدي في منزل جاك. فإنّ جاك كان يجتنب محادثة ابنته بشأن لوسيان ولوسيان كان يجتنب أن يذكر اسم ماري في رسائله إلى جاك وماري صابرة لا تبوح بسرّها لأحد وتكتم غرامها في قلبها.

على أنّ أباها لم يكن يَخفى عليه عذابها فكان يخطر له أن يكتب إلى لوسيان بسرعة العودة.

ولكنه لم يكن يجد سبباً وجيهاً يتذرع به لاستدعائه ففضّل الصبر على التعرض للشبهات ومضى على ذلك عشرة أيام.

وكانت لوسي في خلال ذلك قد تركت منزل القومسيير وعادت إلى غرفتها في باريس وقد شفيت من الحمى وطاب جرحها بحيث كانت تستطيع العمل ولكن دون إجهاد ومع ذلك فإنها أتمت كلّ ما أوصتها ماري بصنعه من الثياب.

أمّا ماري فإنها نسيت تلك الثياب التي أوصت مدام أوغستين عليها ولم تعلم شيئاً مما أصيبت به لوسي ولو كانت قد علمت فلا يخطر لها في بال أنها هي كانت السبب في ذلك المصاب.

وأما لوسي فإنها بعد أن أتمت صنع تلك الثياب أرسلت حنة إلى مدام أوغستين تسألها رأيها في قياس تلك الملابس.

فأرسلت مدام أوغستين إليها تقول إنها تستحسن ذهاب لوسي بنفسها إلى منزل ماري لقياس تلك الملابس إذا كانت قادرة على الخروج من المنزل.

فذهبت لوسي في اليوم التالي وقد صحبتها حنة فحملت لها الملابس المذكورة وكانت ماري قد فرغت مع أبيها من طعام الغذاء فدخل الخادم وقال مخاطباً ماري:

لقد أتت الخياطة يا سيدتي لقياس الملابس.

فاصفرّ وجه ماري وقالت: أهي لوسي؟

فوقف جاك وقد اصفرّ وجهه من الرعب وقال: لوسي؟!

فلم تفهم ماري معنى رعب أبيها وحسبته من قبيل كرهه لهذه الفتاة التي تزاحمها فقالت له:

إني لا أستقبلها يا أبي فلا أحب أن أراها.

فتغلب جاك على رعبه وقد شعر أنّه كاد يفضح أمره بيده ولكنه لبث منذهلاً حائراً يقول في نفسه:

لوسي على قيد الحياة... أيمكن أن يكون ذلك... وهل يمكن أن يبلغ أوفيد من الكذب إلى هذا الحد.

إني لا أعلم ما أقول، وفي كلّ حال فلا بد لي من أن أتوثق من حياة هذه الصبية، أي أنّه يجب أن أراها.

ثمّ دنا من ابنته وقال بصوت منخفض:

إني لم أستطع التغلب على عواطفي في البدء ولكن حقدك على هذه الصبية ظلم.

ـ كيف تقول ظلم يا أبي؟

ـ دون شك فإنّ هذه الفتاة لا تعلم أنها سبب شقائك ولم تسئ إليك بإرادتها أقل إساءة فلماذا تفاجئينها بالعدوان وتقفلين الباب في وجهها دون سبب ظاهر.

والذي أراه أنه يجب أن تستقبليها حسب العادة ثمّ تطلبين إلى مدام أوغستين أن ترسل لك سواها.

ـ لقد أصبت يا أبي.

فالتفت جاك إلى الخادم وهو واقف بعيداً لا يسمع شيئاً من الحديث وأمره بإدخال لوسي.

وبعد هنيهة دخلت لوسي وهي مصفرة الوجه نحيلة الجسم واهية العزم تكاد لا تستطيع المسير.

فرأت ماري ذلك الهزال العظيم الذي أصابها دون أن تتأثر وقالت لها بلهجة عظمة واستكبار:

ماذا تريدين مني؟

فأجابتها بصوتٍ خافت قائلة:

لقد أتيت يا سيدتي لأقيس لك ملابسك ولأسألك المعذرة عن تأخري فقد أصابني أحد أهل الإثم بنكبة منعتني عن العمل بضعة أيام.

فهاج هذا الخبر فضول ماري فقالت:

أية نكبة وأي إثم؟

قالت: لقد حاولوا قتلي فما فازوا غير نصف فوز.

فقال لها جاك: هل أنت جريحة؟

ـ نعم يا سيدي ولا أزال أشكو من جرحي فقد أصبت بطعنة خنجر في صدري ولكني نجوت منها.

ـ يجب أن تحمدي الله على ذلك فهل قبضوا على الجاني؟

ـ كلا يا سيدي ولكنهم يرجون القبض عليه قريباً.

فسال العرق البارد من جبين جاك وقال: كيف ذلك ألعلك تمكنت من معرفته وإخبار الشرطة عنه؟

ـ كلا يا سيدي فإني لم أستطع أن أتبين وجهه لأنه فاجأني في ظلام الليل ولكن يظهر أنّه من أولئك اللصوص الذين مُلئت بهم ضواحي باريس في هذه الأيام فإنهم يقتلون ليسرقوا.

ـ يظهر أنهم سرقوك.

ـ نعم سرقوا ساعتي ونقودي.

وكان جاك يتمعن في وجه لوسي منذ دخولها ويفحص ملامحها وعينيها ثمّ يقول في نفسه:

ما هذا الأمر العجيب فلقد يخال لي أني أعرف هذه الفتاة وأني سمعت صوتها في حين أني لم أرها قبل هذه المرة فكيف اتفق ذلك وما عساها تكون.

إلى أن أبرقت عيناه فجأة فقال في نفسه: نعم لقد تذكرت هذا الوجه فإنه وجه حنة فورتيه حين كان لها هذا العمر.

وقد ذكر في الوقت نفسه حادثة الحريقة في معمل فورتفيل وأن حنة كان لها بنت في ذلك العهد أقامتها عند مرضع في جوانيي وذكر أيضاً ما قالته له ابنته عن لوسي

وهي أنها أقامت في أوّل عهدها في ملجأ اللقطاء فقال في نفسه: ألا يمكن أن تكون هذه الفتاة بنت حنة؟

وكانت لوسي قد تعبت من الوقوف لضعفها وبحثت عما تستند إليه فرآها جاك وقدم لها كرسياً وقال:

إنك تعبة دون شك.

أمّا ماري فإنها استاءت من تلطف أبيها فقالت لها بجفاء:

إني لا أريد أن أقيس اليوم ملابسي فاذهبي في شأنك وسأذهب بنفسي إلى مدام أوغستين بعد أسبوعين فإني غير محتاجة الآن إلى هذه الملابس.

وقد استدلت لوسي من قولها الصريح أنّه لا يجب أن تعود أبداً إلى هذا المنزل فكبرت عليها هذه الإهانة وخرجت وهي تبحث عن سبب تغيّر ماري فلا تهتدي إليه.

أمّا جاك فإنه قال لابنته بعد أن خلا بها:

أتعلمين أنّ هذه الفتاة بارعة الجمال؟

فأجابته بلهجة تبين فيها الحزن، وأنت أعلمت أنّ لوسيان يحبها لهذا الجمال.

ـ دون شك ولكن مثل هذا الحب لا يدوم فإنّ الحب الدائم حب جمال النفس وقد وردني اليوم كتاب من لوسيان.

ـ ألعله يذكرني فيه.

ـ إنه يذكرك في كلّ كتبه إليّ فلو لم يكن يحبك لما ذكرك في كلّ كتاب.

ـ هذا ما تقوله لي أنت ولكني أؤثر أن أسمعه منه.

ـ سيبوح لك بحبه قريباً.

فأطرقت ماري برأسها وتنهدت تنهداً طويلاً فقال لها أبوها:

ـ أذكر أنك قلت لي يوماً بأن هذه الفتاة المدعوة لوسي لا تعرف أباها ولا أمها.

ـ لقد عرفت ذلك منها.

ـ وهل نشأت في ملجأ اللقطاء؟

ـ هذا ما قالته لي أيضاً فإنها كانت تدعى في ذلك الملجأ بنمرة 9 ولكني أذكر أني حكيت لك عن ذلك.

ـ ربما فإني لا أتذكر ولكن ألم تعلم من الذي رباها؟

ـ كلا ولكن لماذا تهتم بهذه الأمور؟

ـ كي أزيد وثوقاً بأن لوسيان لا يمكن أن يحبها حباً أكيداً فإنّ من كان مثله لا يمكن أن يتزوج فتاة خارجة من ملجأ اللقطاء ولا اسم لها.

والآن أستودعك اللّه يا ابنتي فإني ذاهب إلى المعمل لأشغال مستعجلة.

* * *

وقد عرف جاك كلّ ما أمكنه أن يعرفه عن لوسي فلم يبق عليه إلّا أن يرى أوفيد ويخبره أنّ تلك الفتاة التي توهم أنّه قتلها قد بعثت من قبرها.

فركب مركبة أجرة كي لا يستلفت الأنظار وسار بها إلى منزل أوفيد فلم يجده فأخذ ورقة وكتب عليها ما يأتي:

«إذا عدت إلى منزلك قبل الساعة الخامسة فأسرع إلى المعمل، وإذا عدت بعد الساعة السادسة فوافني إلى قهوة السلام فإني أنتظرك فيها إلى الساعة العاشرة».

وقد ترك له هذه الرسالة في المنزل وعاد إلى المعمل.

أمّا أوفيد فإنه عاد قبل الساعة الخامسة فلما رأى تلك الرسالة علم أنها من جاك وأسرع إلى المعمل وهو يحسب ألف حساب.

فلما أخبره جاك أنّ لوسي لا تزال حية اصفرّ وجهه وقال: إنّ هذا محال فقد غرق الخنجر في صدرها إلى القبضة ولا شك أنهم خدعوك.

ـ بل أنت المنخدع فإني رأيتها.

ـ أنت رأيت لوسي؟

ـ رأيتها وكلمتها في منزلي فإنها شفيت من جرحها وعادت إلى أعمالها.

فضم أوفيد قبضتيه وقال:

ـ يا للشقاء فإنها رأتني دون شك ويمكن أن تعرفني.

ـ اطمئن فقد أخفى الظلام وجهك وهي تعتقد أنّ ذلك كان من صنع لصوص باريس.

ـ إذن لا بد لنا من العودة إلى هذه المهمة.

ـ كلا فإنّ عودتك إلى محاولة قتلها تلفت الأنظار إلينا.

ـ أتريد التخلي عن المهمة؟

ـ كيف أتخلى عنها وحياة ابنتي منوطة بها؟

ـ هل وضعت خطة؟

فلم يجبه جاك ولكنه أعطاه ورقة فأخذها أوفيد وقرأ ما يأتي:

«وضعت لوسي في ملجأ اللقطاء سنة 1861 أو 1862 وقيدت في سجل الملجأ تحت نمرة 9».

فلما قرأها قال له:

ما المراد من ذلك؟

قال: يجب أن نعرف من الذي وضعها في الملجأ.

ـ لم أفهم قصدك ولا أدري أية فائدة لنا من معرفة اسم الذي وضعها في ذلك الملجأ.

وفوق ذلك فإنهم لا يخبروننا باسم الذي وضعها إلّا إذا عرفناه من سجل الملجأ.

ـ إذن يجب الحصول على هذا السجل.

ـ كيف يمكن ذلك؟

ـ إني أدفع نصف مالي بشرط أن أعلم بأني لست منخدعاً.

ـ ماذا تظن؟

ـ أظن أنّ لوسي هي ابنة حنة فورتيه المحكوم عليها بالسجن المؤبد.

ـ كيف خطر لك ذلك؟

ـ من اسمها، فإنها تدعى باسم ابنة حنة.

ـ وغير ذلك؟

ـ وعمرها.

ـ ولكن اسمها وعمرها يتفقان لكثير سواها؟

ـ ثمّ وجهها فإنها تشبه حنة فورتيه شبهاً عجيباً حين كانت في عمرها.

ـ هذا برهان قد يكون وجيهاً ولكنك قد تكون مخطئاً.

ـ كلا فإنّ خيالها لا يزال ماثلاً أمام عيني فاعلم إذن أنّ لوسي وُضعت في ملجأ اللقطاء بين عامي 1861 و1862 وذلك فيما أرجحه وأن المرضع التي كانت تربيها وضعتها في الملجأ كي تتخلص منها حين لم تعد أمها تدفع لها أجرتها.

ـ كلّ ذلك طبيعي معقول ولكني لم أعلم بعد أية فائدة لك منه فماذا تريد من هذا التحقيق؟

ـ أريد أن أثبت أنّ لوسي ابنة امرأة ارتكبت جرائم القتل والسرقة والإحراق وأنها ابنة حنة فورتيه قاتلة جيل لابرو ومتى علم لوسيان أنّ الفتاة التي أحبها هي ابنة قاتلة أبيه فلا بد له أن ينفر منها.

ـ لقد أصبت ومثل هذا الخاطر لا يخطر إلّا لكبار العقول فإنه خير من القتل.

ـ إذن يجب أن نعمل.

ـ دون شك، ولكني لا أدري كيف نبدأ فإنّ الملجأ لا يمكن أن نعلم منه شيئاً، ويجب أن نبحث عن حقيقة أمرها في غير ذلك المكان لنعلم ماذا كانت تدعى المرضع التي كانت ترضع لوسي.

ـ كلا.

ـ أتعلم على الأقل اسم القرية التي كانت تقيم فيها.

ـ نعم قرية جوانيي.

ـ إذن يجب أن أذهب إلى جوانيي وسأذهب غداً صباحاً.

ـ هل أنت محتاج إلى المال؟

ـ ما هذا السؤال ألا تعلم أنّ أماندا قد استنفدت كلّ ما كان معي.

ففتح جاك خزانته وأعطاه مبلغاً عظيماً من الأوراق المالية فشكره أوفيد ووضعها في جيبه ثمّ افترقا على أن يسافر إلى جواني في صباح الغد.

* * *

أمّا ماري فإنها بعد أن ذهبت لوسي من منزلها وبعد أن ذهب أبوها إلى المعمل شعرت بانقباض عظيم في صدرها فأحبت أن تروّح عن نفسها بالزيارات فأمرت بإعداد مركبتها.

وقد خطر لها أن تزور محل المصور إتيان كاستل صديق جورج ابن حنة والوصي عليه.

فاستقبلها إتيان خير استقبال وهو مشفق عليها إشفاقاً عظيماً لما رآه من نحولها ثمّ قال لها:

ـ إنك آتية لتوبيخي دون شك يا سيدتي، فقد تمهلت في إعداد الرسوم التي طلبتها إليّ؟

ـ كن مطمئناً فإني ما أتيت لهذا، بل أتيت لأسألك قضاء أمر وهو أني تعودت أن أهدي أبي كلّ عام هدية في يوم مولده وسيكون عيده بعد شهرين أعلمت ماذا أريد أن أهديه؟

ـ أظن أني علمت وهو أنك تريدين أن تهديه صورتك أليس كذلك.

ـ هو ذاك وإني معتمدة بإعدادها عليك.

ـ أتريدينها بالقد الطبيعي.

ـ كما تشاء.

ـ انظري يا سيدتي إلى هذا الرسم فهل تريدين أن يكون رسمك بحجمه.

ثمّ أزاح ستاراً عن رسم كبير فوقفت ماري تتمعن في ذلك الرسم وتقول: عجباً فقد خُيّل لي أني أعرف هذه المرأة التي يحيط بها الجنود.

ـ هل وجهها يشبه وجه امرأة تعرفينها؟

ـ شبهاً عجيباً.

ـ أهذه المرأة طاعنة في السن.

ـ كلا هي في مقتبل الشباب لا تتجاوز العشرين عاماً وهي عاملة عند الخياطة مدام أوغستين.

ـ ماذا تدعى؟

ـ إنها تدعى لوسي فهل تعرفها؟

ـ كلا يا سيدي فأين تقيم هذه الفتاة؟

ـ في شارع بوربون نمرة 9.

ـ كلا لا أعرفها.

وقد قال في نفسه: إنّ الفتاة التي يحبها لوسيان لابرو تدعى أيضاً لوسي وهي تقيم في شارع بوربون نمرة 9.

ثمّ قال لها: إنّ التشابه كثير بين الناس فهل راق لك حجم هذه الصورة؟

ـ نعم فمتى تبدأ بالعمل.

ـ بعد غد إذا أحببت.

ـ لقد اتفقنا إذاً، وسأحضر بعد يومين، أمّا الآن فإني ذاهبة كي لا أعوقك عن عملك.

ـ كلا يا سيدتي بل أكون ممتناً لك إذا بقيتي لنتحدث.

ـ كما تريد.

ـ هل أعجبتك باريس؟

ـ نعم ولكني وجدتها أقل مما كان يمثلها التصور.

ـ إذن أنت تأسف لفراق أميركا؟

ـ كلا ولكني أتوق بعض الأحيان إلى سمائها الصافية وبراريها.

ـ إنك ولدت في نيويورك ولكني رأيت من لهجة أبيك أنّه غير أميركي.

ـ هو ذاك فإنه فرنساوي من بورجونيا وقد لقيه جدي جيمس مورتيمر فأعجب بذكائه فزوجه ابنته وأشركه في ماله.

ـ لقد كان جدك من كبار المخترعين؟

ـ نعم وكذلك أبي فإنّ الصناعة مدينة لهما باختراعين وهما آل الصقل وآلة الخياطة الساكتة.

ـ آلة الصقل؟

ـ نعم وقد فازا بها فوزاً عظيماً فكسبا منها الملايين.

ـ أأقام أبوك زمناً طويلاً في أميركا؟

ـ مدة 22 عاماً فإنه وصل إلى نيويورك سنة 1861 فيما أظن.

ـ يجب أن يكون اشتغل كثيراً لنيل هذه الثروة العظيمة.

ـ إنّ جدي كان وافر الثروة من قبل.

ـ ألم تفتكروا بالعودة إلى أميركا؟

ـ كلا.

ـ لماذا؟

فاحمرّ وجه ماري وقالت:

ـ ذلك لأن أبي لا يحب فراق وطنه وأعماله رائجة هنا أتم الرواج.

ـ هو ذاك ولكن قد يحدث ما يدعو إلى الانتقال كأن تتزوجي في أميركا.

ـ إني لا أتزوج أميركياً.

ـ أتحبين الفرنساويين؟

ـ كثيراً، لا سيما وأن أبي فرنساوي.

ـ إني عندما تشرفت بمقابلتك عند صديقي جورج داريه اقترحت رأياً بشأن لوسيان لابرو.

فاحمرَ وجه ماري وقالت: ألم أحسن باقتراحي فإني أرى من واجباتي أن أساعد من يحتاج إلى مساعدتي.

ـ هل وافق أبوكـ على رأيك؟

ـ أظن أن أبي اقترح على المسيو لابرو أن يشاركه.

ـ إذن قد اتبع رأيك وإني أهنئك بفوزكـ.

ـ وأنا أرجو أن يجيب المسيو لابرو أبي على اقتراحه.

فعلم إتيان ما يجول في فكرها ونهضت ماري عند ذلك فودّعته وانصرفت.

فوقف إتيان بعد انصرافها أمام الرسم وجعل يقول:

ما هذا الشبه الغريب بين لوسي وحنة فورتيه إنّ لوسي نشأت في الملجأ.

وإن لها من العمر اثنين وعشرين عاماً.

* * *

وفي صباح اليوم التالي ذهب أوفيد إلى جوانيي فذهب إلى فندق وأقام فيه يفتكر في طريقة البحث عن لوسي فيقول:

إنّ أوّل ما يجب الاهتمام به هو البحث عن المرضع إذا كانت لا تزال على قيد الحياة دون أن أعرف اسمها.

ولكن أرجو أن أقف على حقيقة أمرها في مثل هذه القرية الصغيرة ولا بدّ أن يكون فيها أثر لابنة حنة فورتيه بالرغم من طول العهد.

وبعد البحث اهتدى إلى مرضع في سن الكهولة فذهب إليها وسألها قائلاً:

أتأذنين لي أن أسألك سؤالاً؟

فأجابته قائلة:

ماذا تريد مني؟

قال: هل تقيمين منذ عهدٍ بعيد في هذه القرية؟

ـ منذ سبعة وعشرين عاماً.

ـ ومنذ أي عهد ترضعين الأطفال؟

ـ لقد كانت أمي تتولى هذه المهنة قبلي.

ـ إذن أنت تعرفين جميع المرضعات في جوانبي وضواحيها؟

ـ دون شك.

ـ أتذكرين أنك سمعت بامرأة تدعى حنة فورتيه؟

ـ من هي هذه المرأة؟

ـ إنها أرملة جاءت بطفلتها إلى هذه القرية منذ واحد وعشرين عاماً.

ـ ومن يذكر الأسماء منذ هذا العهد البعيد فقد جاءني في خلال هذه المدة نحو ثلاثمائة امرأة.

ـ ولكني سأعينك على التذكر فإنّ هذه المرأة حُكم عليها بالإعدام.

كلا بالسجن المؤبد وكان لها في جوانبي طفلة.

ـ اصبر.. اصبر.. امرأة اتهمت بالقتل والسرقة والإحراق؟

نعم.. نعم لقد تحدثوا عندنا كثيراً بهذه المرأة.

ـ أتذكرين عند أية مرضع كانت الطفلة؟

ـ نعم أذكر كانت عند المرضع فريمي.

ـ أين تقيم هذه المرضع؟

ـ في المقبرة فإنّ هذه المسكينة ماتت منذ عهدٍ بعيد فهل أنت والد هذه الطفلة؟

ـ كلا ولكني أحب أن أعلم إذا كانت ابنة حنة فورتيه لا تزال على قيد الحياة. فهل تستطيعين إخباري؟

ـ كلا فإني لا أذكر ما فعلت المرضع بالطفلة.

ـ ألا تعرفين طريقة للاستعلام؟

ـ اذهب إلى منزل شيخ البلد يخبرك، فإننا نذهب إليه عادةً حين يتخلى أهل الطفل عنه وهو يأمرنا بأن نضعه في ملجأ اللقطاء وذلك يتفق لنا كثيراً.

ـ أتذكرون لشيخ البلد علائم الطفل المراد إرساله إلى الملجأ؟

ـ دون شك فإنه يكتب في سجلّه اسم الطفل وملامحه وثيابه واسمي أبيه وأمه إذا كانا معروفين واسم المرضع وتاريخ إرساله إلى الملجأ.

ـ إنّ اسم الطفلة التي أسأل عنها لوسي واسم أمها حنة فورتيه واسم مرضعتها فريمي فهل يكتب شيخ البلد في سجله كلّ ذلك؟

ـ دون شك.

فشكرها أوفيد ثمّ انصرف وهو يقول في نفسه:

إنّ حنة فورتيه هاربة من السجن فإذا سمعني شيخ البلد أسأل عن ابنتها حسب أنها هي التي أرسلتني فيشتبه في أمري وحبذا لو عرفت أحداً هنا.

وقد سار وهو مطرق يفكر حتّى وصل إلى مكتب فدخل إليه وسأل أحد المستخدمين قائلاً:

هل تعلم من كان شيخ البلد في سنة 1861؟

ـ دون شك فإنه يدعى دشمان وقد عمي واعتزل المنصب بعد الحرب.

ـ ألا يزال مقيماً في جواني؟

ـ كلا فهو في موطنه ديجون.

ـ إذن فهو مواطني.

ـ ألعلك من شاطئ الذهب؟

ـ نعم وإني أود أن أسألك عن مسألة دقيقة حدثت في سنة 1861.

ـ ربما تمكنت من إجابتك عليها.

وعند ذلك فتح الباب ودخل رجل عليه ملامح العوام.

فلما رآه الفتى اصفرّ وجهه ووقف وقد بدت عليه علائم الاضطراب.

فقال له الرجل بلهجة همجية: أرى أنّه يجب أن أحضر إليك بنفسي.

فتلعثم الفتى وقال: ولكن يا سيدي...

فقاطعه الرجل قائلاً:

لا أدري كيف تدعوني بسيدك وأنت تهزأ بي كلّ يوم حتّى سأمت منك.

ـ أرجوك يا سيدي ألا ترفع صوتك.

ـ بل أرفعه قدر ما أشاء ولا أنفك عنك حتّى تدفع لي ما عليك.

ـ ولكن أرجوك أن تمهلني.

ـ لقد أمهلتك ستة أشهر وذلك فوق الكفاية.

ـ والآن لا ألتمس منك غير مهلة أسبوع.

ـ كلا فإني لا أمهلك غير يوم واحد فإذا لم تدفع لي الألف فرنك التي استلفتها مني بسند مزور فضحت أمرك أمام الحكومة.

ثمّ تركه وانصرف فسقط الفتى على كرسيه واهي العزيمة وقد سالت الدموع من عينيه.

فدنا منه أوفيد وقال له:

ـ أرجوك يا سيدي أن تعذرني لاتفاق حضوري هذه الحادثة المزعجة.

فأجابه الفتى وهو يبكي: إني أستحق هذا العقاب يا سيدي لهفوتي بل لجريمتي فإنّ هذا الرجل الذي رأيته من تجار جوانيي وهو يشتغل مع عمي في تجارة الخمر.

وقد دفعني نزق الشباب إلى كتابة سندين عليّ وذيلتهما بضمانة عمي فزورت إمضاءه ودفعتهما إلى هذا الرجل فدفع لي القيمة حتّى إذا استحق الدين ولم أستطع دفعه خشيت أن يطالب عمي به.

فذهبت إلى هذا الرجل واعترفت له بجريمتي والتمست منه أن يمهلني.

فما زال يمهلني حتّى عيل صبره وأنا الآن أخشى أن يشكوني فأسجن وكل ذلك من أجل امرأة خداعة كنت مغتراً بحبها.

ـ ألا تزال ترى هذه المرأة؟

ـ كلا.

ـ أرجعت عن حبها؟

ـ كلا غير أنها لما علمت بإفلاسي طردتني.

ـ وقد خاطرت بشرفك من أجل هذه المرأة؟

ـ لقد كنت من غير عقل فندمت ندامة ما بعدها ندامة، لكن بعد فوات الأوان.

ـ وعلى الجملة فإنك محتاج إلى ألف فرنك لاتقاء الفضيحة.

ـ مع فائدتها.

ـ ماذا عزمت أن تصنع؟

ـ ليس لي إلّا أن أختار بين أمرين وهما إمّا أن ألقي نفسي في المياه أو أنتظر قدوم الجنود للقبض عليّ.

ـ لماذا لم تلجأ إلى أمك؟

ـ لأنها أشد إفلاساً مني.

ـ وخالك؟

ـ إنه شديد التمسك بالأمور الخاصة بالشرف فهو لا يرحم من يخطئ فيها.

ـ في أية ساعة تترك المكتب؟

ـ قريباً.

ـ أين تأكل؟

ـ في فندق سيسبرغ.

ـ وأنا مقيم هناك فسنتعشى معاً.

فنظر الفتى إلى أوفيد نظرة المنذهل وهو يعجب كيف أنّ هذا الرجل الذي لا يعرفه يهتم بشأنه هذا الاهتمام بعد أن وقف على سرّه فقال له:

إني ممتثل لدعواك شاكراً.

ـ ماذا يدعى هذا الرجل الذين أنت مدين له؟

ـ بيتيجان.

ـ خذ قبعتك وهلم بنا إليه.

ـ إليه.. ولكنه سيعود إلى إهانتي وتهديدي.

ـ لا تخف واتبعني.

فامتثل الفتى وسار وإياه وهو منذهل حائر حتّى وصلا إلى ذلك الدائن فاستقبله بوجه عابس وقال له بجفاء:

ماذا تريد مني ولماذا أتيت إليّ؟

فأجابه أوفيد بدلاً منه قائلاً:

إنه قادم لأمر يرضيك وهو إصلاح خطئه بدفع القيمة المدين بها؟

فلم يصدق ما سمعه وقال: أهو يدفع لي؟

قال: نعم فقد دفعه نزق الشباب إلى ارتكاب هفوة وهو يشكرك لتفضلك بستر زلّته إلى الآن.

فكبى الفتى وقال: نعم نعم.

فقال أوفيد: إنه نادم على ما فعل ولن يعود في حياته إلى مثل هذه الفعلة المنكرة. أمّا أنا فإني صديق عائلته.

ويسرني أني وقفت اتفاقاً على هذا السرّ حين جئت تطالبه بمالك فأتيت لأدفع لك القيمة المتأخرة مع فائدتها.

فأخرج الرجل السند وأعطاه إياه فأراه أوفيد للفتى وقال له: أهذا هو؟

قال: نعم.

فوضعه في جيبه ودفع المال للرجل فقال له:

أما وقد قبضت مالك فرجائي ألا تخبر أحداً بما حدث وأن تُبقي هذا السر مكتوماً حرصاً على شرف عائلة بأسرها.

قال: كن مطمئناً يا سيدي فإني ما صبرت إلى الآن إلّا حرصاً على مستقبل هذا الفتى وسمعة عائلته.

وعند ذلك انصرف أوفيد والفتى فأخذ الفتى يده وقال بصوت خنقته عبرات الامتنان:

إنك أنقذت يا سيدي شرفي وحياتي ولا أدري كيف أفيك هذا الجميل.

ـ سأعلمك الآن كيف تفيه.

وسار الاثنان إلى الفندق فجلس أوفيد بجانب الفتى وقال له:

أرى أنك لست مديناً بهذا المبلغ وحده فقل لي كم يبلغ كلّ دينك؟

ـ إنه يبلغ ألفي فرنك تقريباً.

ـ كيف اتفق أنك أنفقت هذا المبلغ الجسيم فوق راتبك؟

ـ كلّ ذلك يا سيدي إنما كان بسبب هذه المرأة.

ـ دون شك ولكن أترجو السداد.

ـ لقد وعدني الدائنون بالصبر.

ـ لا تقل هذا القول فإنك تعلم يقيناً كما أعلم أنهم لا يصبرون عليك إلّا أياماً معدودة.

على أني سأفي عنك هذا المبلغ مقابل مهمة أسألك قضاءها.

ـ مر يا سيدي بما تشاء فإني لا أخالف لك أمراً.

ـ إذن فاعلم أني منذ 22 عاماً كنت أعشق امرأة وقد اتفق أنّ زوجها فارقها عاماً فولدت مني بنتاً.

وقبل أن يعود الزوج أرسلت هذه الطفلة إلى مرضعة في جوانيي واضطررت بعد ذلك إلى مبارحة فرنسا مدة طويلة فلما عدت لم أجد المرأة.

أمّا تلك المرضعة فكانت تدعى فريمي وقد بلغني أنها أرسلت الطفلة إلى ملجأ اللقطاء.

وأنا الآن أريد أن اعرف مكان ابنتي وأطلب مساعدتك في البحث معي عنها.

ـ إني أساعدك بملء جوارحي فماذا تريد أن أصنع؟

ـ إنّ المرضعة ذهبت إلى شيخ البلد حين امتنعت أم الطفلة عن دفع نفقاتها واستأذنته بإدخالها إلى ملجأ اللقطاء.

ـ إذن لا بد أن يكون هذا التصريح مسجلاً في دفاتر شيخ البلد.

ـ وهذا التصريح ألا تُذكر فيه علامات الطفلة مع ذكر اسمها واسمي أبوها.

ـ دون شك.

ـ إذن أريد منك مقابل ما سأدفعه عنك أن تأتيني بنسخة هذا التصريح المقيد بالسجل.

ـ إنك تطلب إليّ قضاء أمر خطير يا سيدي ولكني لا أتردد لحظة عن قضائه وإنما لا بدّ لي من معرفة أمور تعينني على الاستدلال.

ـ سل ما تشاء.

فأخذ الفتى ورقة وقال له:

في أي عام أرسلت الطفلة إلى الملجأ

ـ بين عامي 1860 و1861.

ـ اسم أمها؟

ـ حنة فورتيه.

فارتعش الفتى حتّى أنّه لم يستطيع الكتابة.

إنّ هذه المرأة متهمة بذنوب فظيعة وقد هربت من السجن وأرسلت الأوامر إلى شيخ البلد للقبض عليها أينما وجدوها.

ـ بل إنها بريئة حُكم عليها خطأ فإني أعرف هذه المرأة حق المعرفة وهي لا تسأل الله منذ عشرين عاماً إلّا أن ترى ابنتها وتضمها إلى صدرها.

وبعد فماذا يهمك فرار هذا المرأة البريئة ولو لم تكن هربت من سجنها أكنت أتيت إلى جواني وأنقذتك من السجن ودفعت عنك كلّ دينك فلا تبال بذلك وساعد هذه الأم المنكودة على إيجاد ابنتها.

ـ سأفعل يا سيدي فمتى تريد هذه النسخة؟

ـ في أقرب حين...

ـ سآتيك بها غداً فأين أجدك؟

ـ سأنتظرك هنا للعشاء فآخذ منك النسخة وأعطيك ما تحتاج إليه من المال لسداد دينك.

ولكني أرجو ألا تعود بعد إلى جنونك السابق فهل هي جميلة تلك التي كنت تهواها؟

ـ إنها آية الجمال.

ـ ماذا تدعى؟

ـ أماندا.

ـ أماندا؟

ـ نعم يا سيدي فهل تعرفها؟

ـ قد عرفتها وعرفت الآن أنها قد جرت بك أبعد شوط ولكنها ليست في جوانيي.

ـ لقد برحتها منذ بضعة أشهر إلى باريس بعد أن ارتكبت هنا كثيراً من الآثام.

ـ ألم يقبضوا عليها؟

ـ كلا فإنها سرقت المحل الذي كانت فيه ولكنها أكثرت من التوسل والاستعطاف فوافقت صاحبة المحل على ألا تشكوها بشرط أن تعترف كتابةً بالسرقة وأن ترجع قيمة المسروق بعد عام.

وكانت صاحبة المحل تريد شكواها فارتكبت جريمة التزوير كي أدفع عنها فلما قبضت مني المال أنفقته ولم تسدد ما عليها.

قال: وبعد ذلك أدفعت الدين؟

قال: لا أعلم ولكني لا أظن.

قال: أين يوجد ذلك المحل الذي سرقته؟

قال: في الشارع الكبير نمرة 74.

وعند ذلك افترقا على أن يلتقيا في اليوم التالي.

وكان هذا الفتى مستخدماً عند شيخ البلد.

ففي صباح اليوم التالي فتح السجل وبحث فيه فوجد ما يطلبه وقال في نفسه:

أية فائدة من إضاعة الوقت بالنسخ فانتزع من السجل تلك الورقة التي كتب فيها بيان إرسال لوسي إلى ملجأ اللقطاء ووضعها في جيبه ثمّ أعاد السجل إلى موضعه وعاد إلى أشغاله.

* * *

أمّا أوفيد فإنه ذهب إلى صاحبة المحل التي سرقتها أماندا واجتمع بها فقال لها:

ـ لقد كان عندك يا سيدتي فتاة عاملة تدعى أماندا ريجالي؟ قالت: نعم ولكنها من بنات الشر فما شأنك معها؟

ـ إنّ الظواهر تغش أحياناً فإنّ أماندا سرقتك أليس كذلك؟

ـ نعم فقد سرقت من عندي ما تبلغ قيمته ألف فرنك.

ـ ألم تتعهد لك بدفعها؟

ـ ولكنها لم تفي بتعهدها إلى الآن، على أني أمهلتها عاماً فإذا لم تدفع القيمة بالاستحقاق شكوتها. فإني أعلم أين تشتغل في باريس فإنّ هذه الفتاة مخطرة وكفى بها أنها أغرت فتى فدفعته إلى ارتكاب جريمة التزوير.

ـ أتعنين المسيو دشمان؟

ـ نعم.

ـ إذن أنت مخطئة يا سيدتي فإنّ هذا الفتى لم يرتكب شيئاً من ذلك ولكن أحد دائنيه غضب منه فأشاع عنه هذه الإشاعة الكاذبة.

والآن فإني قادم لأخدمك بشأن أماندا فهل اعترفت كتابةً بسرقتها كما علمت؟

ـ نعم ولولا ذلك لشكوتها، ولكني لا أزال أرجو أن أقبض مالي المسروق بسبب هذه الكتابة.

ولكن ما يهمك هذا الأمر؟

ـ يهمني كثيراً فإني ما أتيت إليك إلّا لأدفع المال وأخذ التعهد.

ـ أتدفع لي الألف فرنك؟

ـ دون شك، فهاتي الورقة.

ثمّ دفع لها المال وأخذ منها الورقة التي اعترفت فيها أماندا بسرقتها فوضعها مع ورقة دشمان وعاد إلى الفندق.

وبعد هنيهة جاءه دشمان وقال له:

لقد جئتك بالنسخة الأصلية فأخذها أوفيد وقرأ فيها ما يأتي:

أنا الموقعة أدناه كاترين فريمي مرضعة في جوانيي أعترف أمام المسيو دشمان «شيخ البلد» في 12 أبريل سنة 1861 بأنه جاءتني حنة فورتيه بطفلة لأرضعها

ثمّ حُكم على حنة فورتيه بالسجن المؤبد فأذن لي أن أضع الفتاة في ملجأ اللقطاء

وقد وضعتها في أبريل سنة 1861 وهذه هي العلامة التي تُعرف بها الطفلة

فقد كانت لابسة قميصاً عليه حرفا ل. ف وجميع ملابسها مرسومة بهذين الحرفين.

وليس لها في جسمها علامة خاصة وهي تدعى لوسي واسم أمها حنة فورتيه واسم مرضعتها كاترين فريمي».

فسُرّ أوفيد بهذه الورقة فوضعها في جيبه ونقد الفتى ألف فرنك.

فأخذها الفتي ووقف ينظر إليه كأنه يريد أن يسأله أمراً لا يجسر عليه.

فقال له أوفيد: ماذا تريد يا بني؟

قال: ذلك السند المزور.

ـ لقد أحرقته فاطمئن فإنّ مثل هذه الأوراق لا يجب أن تُحفظ.

وبعد ساعتين عاد أوفيد إلى باريس وقد وصلها متأخراً فلم يستطع لقاء جاك.

فوضع الورقة التي اعترفت فيها أماندا بالسرقة في محل أمين وهو يقول في نفسه:

لا فائدة لي من هذه الورقة فإنّ أماندا لا تعلم شيئاً مما فعلته بلوسي ولكن لا بأس من الحرص عليها فإنّ الحذر محمود في كلّ حال.

* * *

تقدم لنا القول أنّ أوفيد تمكن من نيل السجل الذي يظهر منه تاريخ إرسال لوسي إلى ملجأ اللقطاء وغير ذلك من الأدلة التي تثبت أنّها هي بنت حنة فورتيه.

إنّ أوفيد عاد إلى باريس كي يقابل جاك فوصل إليها متأخراً بحيث أرجأ مقابلته إلى اليوم التالي واجتمع بأماندا.

فلندعه الآن مع أماندا ولنعد إلى تحقيق البوليس بشأن الاعتداء على لوسي.

كان قومسيير البوليس قد التقط من الساحة التي طعنت فيها لوسي قطعة من خنجر أوفيد الذي انكسر كما تقدم.

فاحتفظ بهذه القطعة على رجاء أن يجد القطعة الثانية

والقبضة إذ كان يرجو أن يجد عليها عنوان بائع الخنجر وربما تمكن من معرفة الشاري.

وكان أخبر الجند الذين تحت إمرته أنّ يبحثوا عن القبضة فبينما كانوا يطوفون في تلك الضواحي عثروا بتلك القبضة التي ألقاها أوفيد إلى الأرض حين عودته إلى باريس وجاءوا بها إلى القومسيير.

ففحصها القومسيير وضمها إلى القطعة التي كانت عنده فاتفقتا ثمّ بحث عن عنوان البائع فقرأ على القبضة هذا العنوان:

«رونسار.. بائع أسلحة.. شارع بوربون نمرة 9».

فدُهش حين قرأ هذا العنوان وقال إنه عنوان لوسي أيضاً وإن بائع الأسلحة مقيم عنده بمنزل واحد وإن الجاني قد اشترى خنجراً من هذا المكان.

وقد أخذ القطعتين لفوره وذهب بهما إلى رئيس البوليس ففحصهما الرئيس وقال:

يظهر من القبضة أنها جديدة وأن هذا الخنجر قد اشتُري من عهدٍ قريب فلا بدّ لي من إخبار قاضي التحقيق.

وبعد أن أخبر قاضي التحقيق اتفقا على أنّ الجريمة حدثت بعد التروي، بدليل شراء الخنجر من ذلك المنزل وذهبا إلى دكان بائع الأسلحة فوجدا امرأته فقالا لها:

إنّ هذا الخنجر بيع من دكانك أليس كذلك؟

ففحصته المرأة وقالت:

هذ لا ريب فيه فإنّ اسمنا ظاهر على القبضة.

ـ وأنت ترين أنّه لا يزال جديداً مما يدل على أنّ شاريه قد اشتراه من عهدٍ قريب فهل تذكرينه؟

ـ نحن ثلاثة هنا أنا وزوجي وعامل وإننا نبيع كثيراً من الأسلحة في كلّ يوم بحيث يتعذر علينا معرفة الشاري ومع ذلك فسأنظر في الدفتر عساي أجد فيه ما تطلبون.

ثمّ قامت إلى الدفتر وبحثت فيه فلم تجد اسماً فقالت ولكني أذكر أني بعت خنجراً كهذا.

ـ متى كان هذا البيع؟

ـ في الليلة السابقة لحدوث الجريمة.

ـ ألم تعرفي هذا السفاك الذي اشتراه؟

ـ لم تكن عليه ملامح السفاكين بل كان يظهر عليه أنّه من أهل الظرف والثروة والأدب.

ـ أتقدرين أن تصفي لنا هذا الرجل وصفاً مدققاً؟

ـ هذا محال لأن زبائننا كثيرون بحيث لا نستطيع الانتباه إلى كلّ الناس.

ـ أهو شاب؟

ـ كلا بل هو كهل يناهز الخمسين أشيب الشعر متأنق في ملابسه وهو على الجملة يشبه الفتيان برشاقته وتأنقه.

فنظر كلّ من القاضي ورئيس البوليس إلى الآخر نظرة مفادها أنّ مثل هذا الرجل يبعد أن يكون الجاني.

غير أنّ رئيس البوليس قال بعد صمت هنيهة:

من يعلم فإنّ الزمان أبو العجائب فهو يأتي بكثير من الأمور التي لا تخطر في بال.

أما القاضي فإنه سأل المرأة قائلاً:

أهنا منزل المدموازيل لوسي؟

قالت: نعم يا سيدي فهي تقيم في الدور السادس.

فقال القاضي لرئيس البوليس: إذن هلم نصعد إليها عسانا نقف منها على أمر جديد؟

وصعد الاثنان وكانت لوسي عاكفة على الشغل وعلائم الضعف بادية عليها وقد همّت بالوقوف إجلالاً لهما ولكن القاضي منعها وقال لها:

لا تتعبي نفسك بالوقوف يا ابنتي فإني سأسألك بضعة أسئلة لا تزعجك.

قالت: هل عرفتما الرجل الذي طعنني؟

ـ كلا لسوء الحظ، ولكننا نرجو أن نظفر به قريباً فقد عثرنا بالخنجر الذي طعنك به وعرفنا من أين اشتراه، فقد اشتراه من بائع الأسلحة المقيم تحت منزلك.

ـ ما هذا الاتفاق الغريب! وهل عرفتم الشاري؟

ـ عرفنا أنّه كهل حسن الهندام تدل ظواهره أنّه ليس من العوام.

ـ إذن ليس هو الرجل الذي ضربني فإني بالرغم مما أصابني من الرعب ومن اشتداد الظلام تبين لي أنّ الجاني كان رث الملابس.

ـ قد يكون متنكراً؟

ـ ذلك ممكن معقول.

ـ ولكننا أيقنا أنّ هذا الرجل لم يعتد عليك قصد سلبك فهل لك أعداء؟

فابتسمت لوسي وقالت:

كيف يكون لي أعداء وأنا عائشة عيشة الاعتزال يتيمة رُبيت في ملجأ اللقطاء وما عرفت غير خطيبي وهو غائب الآن عن باريس.

ـ ألم تخبري أحداً بعزمك على الذهاب إلى امرأة المحافظ؟

ـ كلا ولا يستطيع أحد أن يعرف الساعة التي أعود فيها والجهة التي أمر بها وكان يسعني أن أذهب بمركبة لولا النفقات فكيف يتربصون لي بغية الانتقام؟

ـ لقد أصبت ووجب علينا أن نعود إلى اعتبارنا الأوّل غير أنّ مسألة هذا الخنجر ولّدت في نفسي كثيراً من الشكوك.

ـ ولكني أعيد ما قلته لك وهو أني لا أعرف أحداً وليس من يعرفني فإني أشتغل وحدي في غرفتي هذه ولا يزورني فيها غير خطيبي وتلك المرأة الصالحة التي أنقذتني من الموت وهي الأرملة ليزا.

ولم يجد القاضي ما يسألها عنه غير ما تقدم فحياها وانصرف مع رئيس البوليس.

* * *

أمّا لوسي فإنها كانت مضطرة إلى مدام أوغستين فركبت مركبة لضعفها وذهبت إليها.

فقابلتها الخياطة بملء الحنو وقالت لها: ألم يقبضوا على الجاني بعد يا ابنتي؟

ـ كلا وإني واثقة أنهم لن يظفروا به.

ـ لماذا؟

ـ لأن قاضي التحقيق ورئيس البوليس كانا عندي منذ هنيهة وهما يعتقدان أنّه ليست السرقة السبب في الجريمة بل يحسبان أنّ السبب الانتقام.

ـ على أي برهان يعتمدان؟

ـ على علمهما أنّ رجلاً حسن الهندام اشترى قبل الحادثة بليلة خنجراً من بائع الأسلحة المقيم تحت منزلي وأن هذا الخنجر كان نفس الخنجر الذي ضُربت به.

وكانت أماندا تصغي إلى الحديث بملء الاهتمام.

فقالت مدام أوغستين، وأنا أيضاً أرتئي ما ارتأياه فلا شك أنّ الحقد كان الدافع إلى الجريمة.

ـ من الذي يحقد عليّ وينتقم مني وأنا لم أسئ إلى أحد؟

وقد ذكرت أماندا أنّه منذ حين جاء رجل وسأل البوابة بعض أسئلة عن لوسي فقالت:

ألا يمكن أن يكون هذا الحاقد عاشقاً مجنوناً؟

فابتسمت لوسي وقالت: إني لم أسمع كلمة حب من غير خطيبي.

فقالت مدام أوغستين، إنّ الظلمات محيطة بهذه الحادثة الخطيرة ولكن لا بدّ لها أن تنجلي.

* * *

لقد تركنا أوفيد سوليفو وهو متنكر باسم البارون أرنولد يسير مع أماندا إلى المطعم.

وكانا يسيران ويتحدثان فقال لها أوفيد:

ماذا فعلت في مدة غيابي أيتها الحسناء؟

قالت: كنت أستاء لغيابك الفجائي وأضجر لفراقك فإذا خرجت من المخزن ذهبت تواً إلى غرفتي فنمت.

ـ بورك فيك فقد أصبحت قدوة البنات الصالحات وكيف حال مدام أوغستين هل أعمالها ناجحة؟

ـ أتم النجاح حتّى إنها عزمت على أن تبيع مخزنها بعد عام وتعتزل الأعمال بثروة كبيرة والآن قل لي أعلمت ما أصاب لوسي؟

ـ من هي لوسي؟

ـ تلك الخياطة التي ذهبت إليها مرتين في شارع بوربون وكنت توصلني بالمركبة إليها فإنها كادت تُقتل.

فتظاهر أوفيد بالدهشة وقال:

ـ ماذا أصاب هذه المنكودة؟

ـ إنها أصيبت بطعنة خنجر كادت تودي بحياتها.

ـ وهل قبضوا على هذا الجاني الأثيم؟

ـ كلا.

ـ قبح رجال البوليس فإنهم لا يعرفون غير قبض الرواتب.

ـ ولكنهم سيقبضون عليه.

ـ أتظنين؟

ـ بل أعتقد اعتقاداً راسخاً فإنهم كانوا يحسبون من قبل أنّ الجاني من اللصوص.

ـ ألم يكن منهم؟

ـ كلا كما يظهر من أقوال القاضي.

فارتعش أوفيد وقال:

ـ كيف ذلك؟

ـ ذلك بأنهم باتوا يعتقدون أنّ الدافع إلى الجريمة إنما كان الحقد والانتقام لا السرقة.

ـ ولكن على أي برهان بنى القاضي هذا الافتراض؟

ـ إنه وجد دليلاً.

فاضطرب أوفيد وقال:

ـ ما هذا الدليل؟

ـ إنهم وجدوا الخنجر التي طعنت به الفتاة وكان منكسراً فوجدوا قطعتيه وقرأوا على القبضة عنوان البائع وعرفوا منه أنّ الذي اشترى الخنجر كان رجلاً حسن الهندام.

فاصفرّ أوفيد ومضت أماندا في حديثها فقالت:

وكان رجلاً كهلاً أشيب الشعر يناهز الخمسين من العمر.. ولكن ماذا أصابك وما هذا الاضطراب الذي تولاك، هل أنت مريض؟

فبذل أوفيد جهداً عنيفاً حتّى امتلك نفسه وقال: كلا ولكن هذه الحكاية المحزنة أثرت بي..

ـ إذن يظهر أنّ القاضي يتهم ذلك الرجل الكهل ولكن ما هي غاية الرجل من القتل؟

ـ لم يعلموا بعد غير أنهم لا بدّ لهم أن يعلموا والغريب في هذه الحكاية أنّ هذا الرجل اشترى الخنجر من بائع

الأسلحة المقيم تحت منزل لوسي التي كنت أنا فيها فلا شك أنّه اشترى الخنجر حين كنت تنتظرني في المركبة.

ـ لقد كان يجب أن أراه لأني كنت أرى المخزن وكل الداخلين إليه غير أني لم أجد سبباً يدعوني إلى المراقبة.

وقد قال أوفيد هذا القول بلسان يتلعثم ورأت أماندا اصفرار وجهه فرابها اضطرابه واصفراره ولكنهما كانا قد وصلا إلى الفندق.

وقد جلسا إلى المائدة وعاد أوفيد إلى الحديث: فقال ما دعا هذا الرجل إلى الاعتداء؟

ـ لقد قلت لك إنّه حاقد منتقم.

ـ إذا كان ذلك فقد وجب أن تعرفه لوسي.

ـ إنها تدّعي بأن لا عدو لها ولكنها في اعتقادي دعوى لا تريد بها غير إخفاء أمرها والتظاهر بالفضيلة ولكني أتذكر أنّه أتى رجل وسأل عنها البوابة أسئلة كثيرة.

ـ ماذا يفيد ذلك؟

ـ يفيد ذلك أنّ الرجل كان رسولاً وأنه جاءها بكتاب.

ـ وأي أمر مريب في هذا؟

ـ إنه لم يجد لوسي في المخزن فسأل عن بيتها.

ـ وذلك طبيعي فقد عهد إليه إيصال الكتاب فماذا تستنتجين من ذلك؟

ـ أستنتج أنّ عشاقها يراسلونها في حين أنها تتظاهر بالعفاف.

ـ ربما كان ذلك ولكنك تتحدثين دون أن تأكلي كما أرى.

فنظرت أماندا إليه محدقة وقالت له: لقد كنت أحسب أنّ هذا الحديث يروق لك.

ـ إنه يروق لي دون شك ولكنّا أطلنا البحث فيه وقد رأيت كثيراً من الغرائب في زماني.

ـ إذن لندع هذا الحديث ولنبحث في شأنك فقل لي ماذا فعلت في رحلتك.

فضحك أوفيد وقال:

ـ شغلت نفسي بجمع الخطوط فكلفني ذلك كثيراً من النفقات.

ـ إنك جمعت دون شك خطوط المشاهير الذين طوتهم الأيام.

ـ كلا بل خطوط الأحياء.

ـ ولكنهم مشاهير في كلّ حال.

ـ بل إنهم لا يعرفهم أحد.

ـ وأين جمعت خطوطهم.

ـ في جوانبي.

وقد حدّق أوفيد بدوره بأماندا فرآها قد ارتعشت وإن

وجهها قد اصفرّ ولكنها أسرعت إلى ضبط نفسها فقالت: هل هذه البلدة جميلة؟

فابتسم ابتسامة معنوية وقال لم أجد أجمل منها فقد لقيت فيها كثيراً من الناس.

ـ أهم من أهلك وأصدقائك؟

ـ كلا بل هم من أهل البلد ولم أعرفهم من قبل وقد سرني في تلك المدينة أنّ الخطوط الغريبة كثيرة فيها وقد تمكنت من جمع أغربها.

فظهرت علائم الاضطراب على أماندا فقال لها:

ـ ألعل حديث الخطوط يضجرك؟

ـ كلا بل إني أُسرّ به.

ـ إذن أتمّمه فإني لقيت هناك ورقتين أحدهما ممضية باسم بول دشمان وهو اسم غير مشهور كما ترين.

فقالت له متلعثمة: من هو هذا الرجل؟

ـ هو فتى في عنفوان الشباب موظف في إدارة شيخ البلد وقد أعانني الحظ في إنقاذه من خطر عظيم لأنه كان معرّضاً للسجن.

فاصفرّ وجه أماندا اصفراراً شديداً وتشاغل أوفيد هنيهات بشرب كأس من الخمر ثمّ عاد إلى الحديث فقال:

يظهر مما سمعته منك أنّك لا تعرفين بلدة جوانيي.

ـ كلا.

ـ أأنت واثقة مما تقولين؟

ـ كيف لا أكون واثقة، وكيف تشكك بكلامي بل كيف تسألني هذا السؤال الغريب؟

ـ إنّ الأمر بسيط أيتها الحسناء فإني أسألك هذا السؤال لأني اشتريت في جوانبي من خياطة تدعى مدام دليوز ورقة بألف وخمسمائة فرنك وهذه الورقة ممضية باسم أماندا رجامي أي باسمك.

فارتجفت أماندا وقالت:

أرى أنّك عارف بكل شيء وأن هذه المرأة أخبرتك بكل أمري.

ـ هو ذاك. ولكن لماذا تضطربين ألست صديقاً لك وأي برهان أعظم من أن أسدد دينك وأدفع عنك ألفاً وخمسمائة فرنك كي أذبّ عنك الفضيحة وما هذا الرعب وقد أصبحت الورقة الدالة على طيشك السابق في مأمن لأنها بيدي.

ـ أواه إني حين هفوت تلك الهفوة لم يكن لي عقل.

ـ هذا لا ريب فيه عندي فإني أعتقد بنزاهة نفسك.

ـ إذن أنت لا تحتقرني بعد ما بدر مني؟

ـ كيف أحتقرك يا أماندا وأنا أعلم أنّ الإنسان معرّض

لوسواس الشيطان لا سيما حين يكون في مقتبل الشباب فاسمعي الآن نصحي واحذري بعد الآن أن تكتبي مثل هذه الأوراق فإنها لا تكتب ولو وقعت هذه الورقة بيد غيري لما نجوت من السجن.

ـ ماذا فعلت بها؟

ـ وضعتها في البدء في محفظتي ثمّ نقلتها إلى الخزانة حين عودتي وأحكمت إقفالها فاطمئني.

ـ ولكنك سترجعها لي دون شك؟

ـ بل إني مصمم على الاحتفاظ بها أيتها الحسناء.

ـ لماذا تريد أن تحفظها؟

ـ لأني مولع بحفظ الخطوط كما قلت لك.

ـ كفى مزاحاً يا أرنولد وردّ لي هذه الورقة فإنها لا تفيدك في شيء.

ـ بل إنها قد تفيدني فائدة عظيمة.

ـ ألعلك تريد استخدامها لإساءة لي؟

ـ إنك تعلمين بأني غير جدير بالإساءة إليك.

ـ إذن ماذا تريد أن تصنع بها فلا بد أن يكون لك غرض من حفظها؟

ـ هو ذاك فإني أحب أن أحتفظ بك باحتفاظي بها. ونعم، إني أحبك.

وأعلم أنك تحبينني ولكن التجارب علمتني أن أحذر النساء ولا سيما إذا كن صبيات جميلات.

ـ إذن لقد أصبحت مقيدة بك؟

ـ وليس في هذا التقييد ما يؤذيك.

ـ ولكن كيف علمت ما حدث في جوانبي؟

ـ بالمصادفة والاتفاق.

ـ كما بحث قاتل لوسي بالاتفاق أيضاً عن خنجر تحت منزلها.

فخطر لأوفيد أن يخنقها في تلك اللحظة إذ بات واثقاً بأنها تتهمه بالجناية ولكنه كظم غيظه وقال:

أرى هذا التشبيه لا ينطبق على الحقيقة ومع ذلك فلنفرض أنّ المتعدي على لوسي لم ينهج مناهج الحكمة وأنه يوجد من يستطيع كشف أمره فإنه قد تسلح دون شك بأشد سلاح للدفاع عن نفسه.

فكفانا حديثاً بهذا الشأن ولنبق صديقين فإنّ ذلك أولى. أتذهبين الليلة إلى المسرح؟

ـ إني أؤثر العودة إلى غرفتي فإنّ التعب أنهكني.

ـ وأنا أيضاً فسأوصلك إلى غرفتك وأعود إلى منزلي.

ـ ولكنك لم تقل لي مرة أين تقيم فإني لا أعرف منزلك؟

ـ أية فائدة لك من معرفته؟

ـ إني قد أحتاج إلى الكتابة إليك.

ـ احذري أن تفعلي فإني متزوج ولي بنون وأحب الحرص على راحتي الداخلية.

فوجمت أماندا وقالت في نفسها:

إنّ هذا الرجل تكتنفه الأسرار ولكن لا بدّ لي من كشف سرّه.

وعادت أماندا إلى غرفتها فلما خلت بنفسها استرسلت إلى الهموم وجعلت تقول في نفسها:

لا شكّ أنّ نكد طالعي قد أرسله إلى جوانيي فاشترى هذه الورقة ليقيدني بها أوثق قيد.

وأية فائدة له من تقييدي بهذا الوثاق.. إنّ قلبي يحدثني بأن هذا الرجل يعتقد أنّي عرفت سرّه فإنّ الرجل الكهل الذي اشترى الخنجر من بائع الأسلحة المقيم تحت منزل لوسي لم يكن إلّا هو ولم يبق لدي أقل ريب في ذلك.

غير أنّه ليس لدي برهان ومتى عثرت بهذا البرهان لا يبقى عليّ غير أمرين أحدهما معرفة المنزل الذي يقيم فيه والثاني معرفة السبب الذي حمله على محاولة قتل لوسي.

أمّا أوفيد فقد قال في نفسه:

لا شك أنّ المصادفة خدمتني أجلّ خدمة بوقوفي على سرّ هذه الفتاة فإنها عرفت بأمري دون شك ولكني لا أخافها الآن ما زلت مسلحاً بهذه الورقة.

* * *

كان جاك جيرود ينتظر عودة أوفيد بجزع فلما أخبروه بقدومه ارتعش وأمر الخادم أن يسرع بإدخاله إليه فكان أوّل ما قال له حين رآه:

ـ هل فشلت؟

ـ كلا بل كان الفوز حليفي.

ـ أوجدت ابنة حنة فورتيه؟

ـ نعم.

ـ أهي نفسها التي وضعت في ملجأ اللقطاء؟

ـ نعم وذلك في باريس.

ـ إذن إنّ مزاحمة ابنتي هي لوسي فورتيه نفسها؟

ـ مهلاً لا تتسرع فقد بقي علينا أن نعلم إذا كانت لوسي التي تعرفها هي نفس لوسي ابنة حنة نفسها.

ـ لقد عرفتها من الشبه العظيم بينها وبين أمّها.

ـ إنّ الشبه دليل يستأنس به لا برهان يعتمد عليه، فإني أخذت السجل نفسه الذي ذكر فيه أنّ لوسي ابنة حنة فورتيه وضعت في ملجأ اللقطاء ودُعيت بنمرة 9 وقد بقي عليّ أن أذهب إلى الملجأ وأعلم الحقيقة.

وعند ذلك أطلعه أوفيد على السجل فدهش جاك وقال له: السجل الأصلي فكيف تمكنت من الحصول عليه؟

فأخبره أوفيد بكل ما فعله فهنأه بجسارته وقال له: والآن ماذا عزمت أن تصنع؟

ـ عليّ أن أذهب إلى الملجأ وأسأل عن الطفلة التي أودعت فيه في 6 أبريل سنة 1863 ثمّ أعلم ما جرى لها.

ـ متى أراك؟

ـ في الساعة الخامسة من مساء اليوم في منزلي إذا أردت.

ـ سأذهب إليك.

ـ متى يعود لوسيان إلى باريس؟

ـ بعد ثلاثة أو أربعة أيام.

ـ ستنال في خلال هذه المدة ما تحتاج إليه للتفريق بينه وبين خطيبته ابنة حنة فورتيه قاتلة أبيه.

ـ وأنا معتمد عليك.

وعند ذلك افترقا فذهب أوفيد تواً إلى ملجأ اللقطاء واجتمع برئيسه فسأله عما جرى لتلك الفتاة التي كانت عندهم فأخبره الرئيس بعد مراجعة الدفاتر بحقيقة أمر لوسي بحيث بات واثقاً أنها ابنة حنة فورتيه.

فتركه شاكراً وانصرف.

وفي الساعة الخامسة التقى بجاك وأخبره بما علمه فسُرّ جاك سروراً عظيماً وقال:

سوف نرى بعد هذا إذا كان لوسيان لابرو يستطيع الزواج بابنة قاتلة أبيه.

* * *

كانت ماري قد اشتدت العلة بها واستفحلت أحزانها فرقّت وهزلت حتّى باتت كالخيال.

وكان أبوها ذلك السفاك الذي لم يكن له من عواطف الإنسان إلّا حنوه الأبوي يرى ابنته تذبل كالزهرة فيكاد يجن من إشفاقه ويزيد رسوخاً في اعتقاده أنّها لا ينقذها من الموت غير زواجها بلوسيان الذي دنا زمن عودته ولم يبق له غير يومين فكان جاك ينتظر وقد أعدّ له ذلك السجل الذي يثبت أنّ لوسي خطيبته ابنة قاتلة أبيه.

وفي اليوم التالي كان فرح لوسي لا يوصف فقد ورد إليها نبأ برقي من خطيبها يخبرها بأنه قادم في الغد وكانت قد تماثلت إلى العافية فعجّل السرور بشفائها.

وكذلك ماري المنكودة فإنها كانت تنتظر عودة لوسيان على أحرّ من الجمر لتعلم حقيقة نواياه من تلك السطور التي كان يكتبها إليها في رسائله إلى أبيها.

إلى أن دنا ذلك اليوم والتقى الخطيبان فامتزجت دموع الفرح وكانت معهما حنة فبكت لبكائهما.

ودار الحديث بينهم على تلك الحادثة المشؤومة التي نكبت بها لوسي وقد استغرب لوسيان كيف أنهم لم يجدوا الجاني.

فقالت له لوسي: لماذا تعجب فإنّ القبض على اللصوص غير ميسور ولا سيما في ضواحي باريس؟

أما وقد شفيت بحمد اللّه فلندع البحث في هذا الشأن وسأحذر كلّ الحذر حين أضطر إلى الخروج في الليل.

فقالت له حنة: لقد أصابت فلندع البحث في هذا الموضوع ما دامت قد شُفيت.

وقام الثلاثة إلى المائدة فقضوا السهرة وهم يبحثون في أرق الأبحاث.

وفي صباح اليوم التالي ذهب لوسيان إلى المعمل باكراً لاستلام إدارة أعماله.

ولم يكن والد ماري قد حضر بعد فلما حضر أسرع إليه لوسيان ليخبره بنتيجة رحلته.

فصافحه جاك بملء التودد وقال له:

إني سعيد بلقياك وإني أهنئك لما نلته من الفوز بإرضاء زبائننا في بلغراد فقد كتبوا إليّ خير ما يُكتب عنك.

ـ إني لم أعمل يا سيدي غير ما يقضي عليّ به الواجب.

ـ أوصلت الآن إلى باريس؟

ـ بل مساء أمس.

فحوّل جاك الحديث عن الأشغال وتباحثا فيها ملياً وقد عجب لوسيان كيف أنّه لم يذكر له كلمة عن ابنته فقال له:

ـ إني لم أسألك يا سيدي بعد عن صحة الآنسة ماري.

قال: إنها لا تزال على ما كانت عليه بل قد اشتدت علّتها.

ـ وهل الأمر خطير؟

ـ ليست علتها بخطيرة ولكنها كافية لإشغال بالي وستراها وتعلم بنفسك أنها في حاجة إلى هناء ينقذها من الخطر وقد أخبرتها بقدومك فكان أوّل حديثها صباح اليوم عنك وهي تنتظرك في المساء للعشاء معي فيكون اجتماعنا عائلياً.

ـ ولكن يا سيدي...

ـ لا تعتذر ولا تحتج فلا سبيل إلى رفض دعوتها.

ـ إني أقبل يا سيدي هذه الدعوة بملء الامتنان فأغتنم الفرصة لتقديم احترامي للآنسة ماريّ.

ـ حسناً فعلت فإني أعلم يقيناً أنك لا تبغي إساءتها.

وفي الساعة الرابعة برح لوسيان المعمل وذهب إلى منزله كي يتأهب لتلك الدعوة وقد شعر بانقباض في صدره وقال في نفسه:

تُرى ألا يمكن أن يكون مراد أبيها الكيد لي ومباحثتي أمامها بأمر زواجها فماذا أجيب إذا اتفق ذلك أأقول لها إنك تعلمين يقيناً بأني أحب لوسي.

كلا إني لا أجسر على أن أقول لها هذا القول لأنه يعذبها أشد العذاب. ولكني لا أستطيع أيضاً أن أدعها تعتقد بأني أحبها.

وفي الساعة السابعة ذهب إلى منزل رئيسه فاستقبله جاك وقال له: هلم بنا إلى القاعة فإنّ ابنتي تنتظرنا فيها.

فلما دخل لوسيان حاولت ماري أن تنهض لاستقباله فلم تستطع الوقوف وسقطت على كرسيها واشتد اصفرار وجهها حتّى باتت كالأموات.

فأسرع أبوها إليها وقال لها هل أنت متوجعة يا ابنتي؟

قالت: كلا يا أبي فقد زال كلّ عياء وكنت شعرت بدوار بسيط ولكنه زال حين رأيت لوسيان فإنه يعلم يقيناً أني أحبه حباً أكيداً وإني أعدّ نفسي سعيدة برؤياه بعد غياب شهر.

فأجابها لوسيان قائلاً: وأنا أعدّ نفسي سعيداً يا سيدتي برؤياك.

ـ أحق ما تقول؟

ـ أؤكد لك يا سيدتي.

فأشرق وجه ماري بنور الرجاء وقالت:

ـ إذن لقد قبلت دعوتي بسرور؟

ـ دون شك يا سيدتي وكيف لا أقبل وأنا أجد هذا العطف من أبيك عليّ؟

ـ بل هو فوق العطف، فقد طالما قال لي إنه يحبك حب الآباء للبنين.

ـ إني ممتن له كلّ الامتنان.

ـ إذا كان ذلك فلماذا لا تزورنا في أكثر الأحيان؟

فاضطرب لوسيان وحاول أن يقول لها إني لا أستطيع ذلك ولكنه تلعثم ولم يفه بحرف فقالت له ماري:

إنك مخطئ باحتجابك عنّا بعد ما رأيته من حب أبي وهو مطلق لي السراح بشأنك لذلك أدعوك بلسانه إلى العشاء معنا كلّ ليلة أليس كذلك يا أبي؟

فابتسم جاك وقال: دون شك يا ابنتي.

وقد زاد اضطراب لوسيان فقال إنك تثقلين كاهلي يا سيدتي بجميلك.

فحسبت المنكودة أنّ هذ القول دليل على القبول فقالت:

إذن لقد اتفقنا على ذلك وستذهب وإيانا في كلّ ليلة إلى المراسح.

ـ إني أضعف يا سيدتي من أن أقبل هذا الشرف.

ـ بل إنك فوق ذلك ورجائي ألا ترفض إلّا إذا كنت تريد إغضابي.

فلم يسع لوسيان غير الإذعان حرصاً على صحة الفتاة وقال لها:

إني أقبل يا سيدتي مع الشكر ولكن كثرة شواغلي تقضي عليّ بأن يكون لي شيء من الحرية.

ـ إنك حر في أيام الآحاد وأرجو أن تخصص لنا هذه الأيام أيضاً في المستقبل.

وقد قالت ماري هذا القول بلهجة خاصة وهي ترجو أن يجيبها إلى هذا الطلب أيضاً ولكن لوسيان وجد سبيلاً للاعتذار فقال لها:

ولكن لي يا سيدتي كثير من الأصدقاء المخلصين ولا سبيل إلى الاجتماع بهم إلّا في أيام الآحاد فإذا انقطعت عنهم حسبوا ذلك مني هجراً.

فعض اليأس قلب ماري وقالت بلهجة قنوط:

إذن أنت ترفض طلبي؟

فتداخل جاك عند ذلك وقال مخاطباً بنته:

كلا يا ابنتي فإنّ لوسيان لم يرفض طلبك ولكنه اعتذر اعتذاراً عادلاً فإنه لا يستطيع الانقطاع عن أصحابه ولا يحق لنا أن نستولي على كلّ أوقاته.

وقال لوسيان: وأنا أرجو سيدتي أن تعذرني فإنها تعلم يقيناً أنّ طلبي عدل.

فأجابته بلهجة كئيبة قائلة:

إني حين أمنح صداقتي أمنحها مجردة لا أشرك فيها ولا أنكر أني بالغت في الطلب ولكني سأعتدل فيه وأرضى بالقليل إذ لا يحق لي أن أطمع بالكثير كما يظهر.

فزاد إشفاق لوسيان حتّى أنّه لم يعلم ما يجيب وتداخل جاك أيضاً فقال:

ـ كوني واثقة يا ابنتي أنّ لوسيان يبذل مجهوده في سبيل إرضائك.

وقال لوسيان، وأنا أرجو أن تثق سيدتي بما قلته.

فقال جاك: إذن قدم ذراعك لماري.

فاستندت ماري إلى ذراع لوسيان وهي تتوهج حباً وذهبوا جميعهم إلى قاعة المائدة.

وفي الساعة العاشرة استأذن لوسيان بالانصراف فقالت له ماري: لا تنسى أنك ستتعشى غداً عندنا.

قال: نعم يا سيدتي إني لا أنسى كلمة من أقوالك.

وانصرف لوسيان فلما بات خارج المنزل خُيّل له أنّ حملاً ثقيلاً قد أنزل عن عاتقه ومع ذلك فقد كان يؤنب نفسه لأنه لم يجسر على الإباحة بالحقيقة فقال في نفسه:

ما عسى أن يتولد من كلّ ذلك.. مسكينة هذه الفتاة فإني لا أستطيع أن أحقد عليها لأنها أحبتني.

أليس من المروءة أن أدعها تموت بسلام فإنّ العلة مستحكمة منها وأيامها معدودة.

أمّا جاك فإنه بقي مع ابنته بعد انصراف لوسيان فقال لها:

كيف رأيت يا ابنتي ألم أكن صادقاً في قولي حين أخبرتك بأنه سيأتي إليك وسيحبك؟

فهزت ماري رأسها بأسف وقالت:

لقد كان استيائي بانصرافه أشد من سروري بقدومه.

ـ لماذا يا ابنتي فإنه رضي بكل ما اقترحته عليه.

ـ إنك مخطئ يا أبي فإنه لم يقبل بكل مطالبي.

ـ ولكن ألا تجدين من العدل أن تتركي له بضع ساعات للاجتماع فيها بأصحابه؟

ـ إنه لا يريد الاجتماع بأصحابه بل بتلك الفتاة التي لا يزال عالقاً بهواها وستقتلني الغيرة منها.

فأجابها بلهجة احتقار قائلاً:

أنت تغيرين من هذه الفتاة؟

ـ نعم ولماذا لا أغير منها، إنّ غيرتي منها عظيمة يا أبي قد تدفعني إلى قتلها ومتى قتلتها لا يستطيع أن يحبها بعد الموت.

ـ كفى يا ابنتي وسكني روعك.

ـ أأنا أسكن روعي وكيف يمكن ذلك أن يكون وأنا أهواه بل إني أعبده وأريد أن يكون لي فإذا لم أستطع فلا أريد أن يكون لسواي.

قلت لك اطمئني يا ابنتي واعتمدي عليّ فلا يمضي زمن قريب حتّى تتبدل الحال وتري أنّ لوسيان نفسه سيخطبك إلي.

ـ أبي إنّ الصبر مع الشك يقتلني فاصنع ما أنت صانع أمّا أنا فسأعمل لنفسي كي يكون لي.

فذُعر جاك للهجتها فقد كانت لهجة قنوط وقال لها:

القسم الثالث

لا أزال أعيد عليك الرجاء بوجوب الصبر يا ابنتي والتوكل عليّ، فلا تندفعي مع تيار الغيرة واطمئني، فإنّ أباك يسفك دمه في سبيل هنائك.

فلم تجبه بكلمة ودخلت إلى غرفتها وهي ترتجف من الغضب وتقول في نفسها: إني سأفعل ما يفعله إنسان في سبيل الحصول عليه.

وقد صرفت تلك الليلة دون رقاد، وفي الساعة الثامنة خرجت من غرفتها وسألت عن أبيها، فقيل لها إنّه ذهب إلى المعمل، فأمرت أن يعدوا لها المركبة، فركبتها وأمرت السائق أن يسير إلى شارع بوربون حيث تقيم لوسي.

وكذلك جاك، فإنه بات تلك الليلة كالملسوع وقد عزم عزماً أكيداً على قضاء هذا الأمر وإكراه لوسيان على الزواج بابنته.

فلما وصل إلى المعمل نادى لوسيان وقال له:

اجلس يا بني، فإننا سنتحدث ملياً، ولا بدّ لي قبل ذلك من البدء بشكرك.

قال: على ماذا تشكرني يا سيدي؟

ـ على حسن معاملتك لماري ليلة أمس، والآن قل لي يا بني كيف وجدت ابنتي، ورجائي أن تجيبني بجلاء.

قال: رأيتها نحلت، ولا بدّ للأطباء أن يهتموا بأمر ضعفها، فإنه آخذ بالازدياد.

ـ إذن، أنت ترى أيضاً ما يراه الأطباء؟

ـ ولكن الذبول ظاهر يا سيدي، ولكن واأسفاه.

فسالت دمعتان من عيني جاك، وقال:

نعم، إني أرى ابنتي في خطر، وقد أخبرني الأطباء بذلك، ولكنهم ضمنوا زوال هذا الخطر بالزواج.

ـ الزواج؟

ـ نعم، الزواج، فهو دواؤها الوحيد، وهي مصابة بمرضين أحدهما سرى إليها بالعدوى من أمها وعلاجه ميسور، والثاني اتصل إليها من قلبها، وعلاجه أنت، فإذا تغاضيت عن علاجها قضى عليها الموت.

فارتعش لوسيان لهذه النتيجة ولم يجب، ومضى جاك في حديثه، فقال:

إنّ حياة ابنتي في يدك. وأنا أسألك أن تتمعن في الأمر، فقد وعدتك أن أشركك في أعمالي وأموالي حين تتزوج بابنتي والآن، فإني أهبك كلّ ثروتي إذا أنقذت ابنتي. فإنّ

الغيرة تهيج عليها وهي مائتة لا محالة إذا هجرتها. أتدعها تموت دون إشفاق؟ أتأبى أن تكون امرأتك؟

فاضطرب لوسيان اضطراباً عظيماً، وقال:

إنك لو علمت يا سيدي ما أقاسيه منذ عرفت حب ابنتك لأشفقت عليَّ. ومع ذلك ألم أخبرك في البدء بحقيقة أمري بملء الجلاء؟

ـ هو ذاك، ولكني لم أتوقع أن يكون لحبك هذه الخطورة، بل حسبت أنّه من ذلك الحب العارض الذي يتناول قلوب الفتيان في بدء شبابهم.

ولا أنكر أنك لا تحب ابنتي، ولكن الصداقة في البدء تكون مرقاة إلى الحب، ولا بد أن تحبها بعد الزواج كما اتفق لي حين تزوجت أمها، فإني ما أحببتها إلّا بعد الزواج، فلا تتردد يا بني.

ـ إني لا أتردد لحظة يا سيدي كي لا أخون التي أحبها ويسوئني أني أسيء إليك، فإنك ما أردت لي إلّا الخير.

وقد جعلت نفسك يا سيدي مثالاً لي، ولكنك لو كنت تحب قبل زواجك فتاة فقيرة لا معين لها سواك وقد أقسمت لها على الوفاء وأنها ستكون امرأتك، أكنت رضيت أن تكون ابنة جمس مورتيمر زوجةً لك فتؤثر مطامعك على حبك؟ أجبني يا سيدي.

ـ وماذا تريد أن أجيبك؟ فإني لا أعرف الآن سوى أنّ ابنتي في خطر الموت، وأنها ستموت إذا رفضت طلبي.

ـ سكِّن روعك يا سيدي.

ـ كيف يمكن تسكين روعي وأنا أرى ابنتي تذبل أمامي كالزهرة؟ إنك لا شك دون إشفاق على أني سأنقذ ماري بك وبالرغم عنك.

ـ ولكن يجب أن تعلم يا سيدي أنّي إذا أنقذت ابنتك قتلت تلك التي أحبها، وقتلت نفسي بالندم وتقريع الضمير.

ـ غير أنّ تلك التي تحبها غير جديرة بك وبهواك.

فتبيّن الغضب في عيني لوسيان، وقال:

أهي غير جديرة بي؟ لا تعد يا سيدي عليّ مثل هذا القول أو أحسب أنّ العواطف الأبوية أفقدتك الصواب.

ـ كلا، فإني أجد من حسن طالعي أني لم أفقد صوابي بعد لأنقذك وأنقذ شرفك.

ـ وأي خطر على شرفي؟

ـ خطره ذلك الزواج الذي تريد عقده.

ـ قل ماذا تعني بذلك.

ـ أعني به أني أريد أن أمنع زواجك الذي يهين أباك، وأريد أن أنتزع من قلبك هذا الحب الذي يشينك.

فاحمرّ وجه لوسيان من الغضب، وقال بصوت مختنق: أتعني بما تقول خطيبتي لوسي؟

ـ نعم.

ـ إذن أوضح في الحال وأسرع في القول، فإني أخشى إذا تأخرت لحظة أن أتهمك بالكذب والنميمة.

ـ أتعلم من لوسي التي ستدعوها باسمك؟

ـ نعم، أعرف إنها فتاة طاهرة شريفة.

ـ إنها يتيمة وُضعت في ملجأ اللقطاء وكانت تدعى بنمرة 9، أعرفت ذلك؟

ـ نعم، عرفت ذلك. وإذا كان هنالك عار فهو يصم الأبوين لا الفتاة اللقيطة.

ـ هو ذاك، فإنّ هذا المبدأ لا يعرفه غير كبار النفوس، ولكنك لم تبحث كما يظهر عن أهل الفتاة.

ـ وماذا يهمني ذلك؟ فإنّ المرء ابن نفسه.

ـ لا شك أنّ الحب قد أضل صوابك، فاعلم إذن لوسي التي تهواها إنما هي ابنة حنة فورتيه قاتلة أبيك، وإنك قد لا تصدق مقالي وسأؤيده بالبرهان.

فصاح لوسيان صيحة يأس وانقلب على كرسيه مغمياً عليه.

* * *

بينما كانت هذه المباحثة دائرة في المعمل بين جاك ولوسيان، كانت ماري قد أوقفت مركبتها أمام منزل لوسي، ثمّ خرجت منها وصعدت إلى غرفة الفتاة.

فلما رأتها لوسي ذُهلت وقالت لها: أأنت هنا يا سيدتي؟

قالت: نعم، فإني آتية لمباحثتك في شأنٍ خطير.

فزاد ذهول لوسي، وقالت: ما عسى أن يكون هذا الشأن الخطير؟

فجلست ماري بجانبها وافتتحت الحديث، فقالت: لقد قلت لي أنك يتيمة؟

ـ نعم.

ـ وإنكِ لا تعرفين أحداً من أهلك بحيث إنّه لا مورد لك إلّا من تلك الإبرة؟

ـ هو ذاك، ولكني سعيدة.

ـ لا أظن إلّا أنك مبالغة بهذه السعادة.

ـ كلا.

قالت: لا تحاولي إقناعي، فإنّ اعتقادي راسخ في ذهني، وقد أتيت لأقول لك إني وافرة الثروة وإني أريد أن أضمن مستقبلك.

قالت: كيف تضمنين مستقبلي؟

قالت: بأسهل الطرق، وهو أن أمنحك رأسمالاً قدره ثلاثمائة ألف فرنك.

فدُهشت لوسي، وقالت في نفسها:

لعلها أصيبت بالجنون؟

وقالت ماري: أسمعت ما قلته لك؟

قالت: لقد سمعت، ولكني لم أفهم.

قالت: أتريدين أن تعلمي لماذا أمنحك هذا المال؟

قالت: هو ذاك.

قالت: إذن فاعلمي أنّي أريد أن أعقد معك اتفاقاً تكونين الرابحة فيه.

قالت: أوضحي يا سيدتي هذه الألغاز.

قالت: سأوضحها. اعلمي أوّلاً أنك بعد أن تقبضي المال تبرحين باريس بل فرنسا.

قالت: أنا أبرح فرنسا؟ لماذا؟

قالت: كي لا أراك فيها.

فزاد اضطراب لوسي وزاد اعتقادها بجنونها، فمضت ماري في حديثها، وقالت:

نعم، إني أمنحك هذا المال الوفير كي لا أراك في سبيلي، ولتعود زهرة شبابي الذابلة إلى النضارة وليعود إليّ ذلك الهناء الذي سلبته مني.

فوقفت لوسي، وقد ذُعرت لما سمعته، فقالت:

إنّ تغيّرك عليّ وما أراه في عينيك من دلائل الحقد وما أسمعه من أقوالك الجارحة كلّ ذلك يدلني على أنك غيرى مني.

فوقفت ماري أيضاً، وقالت:

نعم، إني غيرى.

ـ وإنك تحبين لوسيان؟

ـ نعم، أحبه.

ـ وإنك تريدين أن أنتزعه من قلبي وأن أبرح فرنسا وأن أقسم لك بأني لا أحاول أن أراه وإنك تمنحيني مقابل ذلك ثلاثمائة ألف فرنك؟

ـ وسأضاعف لك القيمة.

ـ هل خطر لك أني أرضى بهذا الاتفاق الشائن؟

ـ ولماذا لا ترضين؟

ـ لماذا! لأني أحب لوسيان بملء جوارحي، ولأن حبه لا يموت في قلبي إلّا متى مات ذلك القلب. أحسبت أنّ القلوب تُباع وتشرى، أم أن قلبك على غير ما عليه قلوب الناس؟.. أنا أحبه وأنت تحبينه، فليختر هو التي يميل إليها قلبه منا، وأنا أنتظر النتيجة دون خوف.

والآن يا سيدتي لم يبقَ لنا ما نتحدث به فيما أظن.

على أنّ ماري لم تنصرف، بل ركعت أمام لوسي وأشهقت بالبكاء، ثمّ بسطت لها يد الملتمس، وقالت:

رحماك إني أعبده، وإذا لم يحبني قتلني هواه فاشفقي عليّ.

فتأثرت لوسي لما رأته من ظواهر يأسها وأخذت بيدها، فقالت لها: انهضي يا سيدتي.

قالت: كلا، بل دعيني ألتمس منك الحياة جاثية على ركبتي.

ـ إنّ نفسي تذوب إشفاقاً عليك، ولكني قلت لك إنّ القلوب لا تُباع ولا تشرى.

فوضعت ماري يدها على جبهتها، وقالت بلهجة جنون إني سأنتقم.

ثمّ برحت تلك الغرفة مسرعة لا تلوي على شيء، فلما أصبحت لوسي وحدها قالت:

رباه اصفح عنها مهما أساءت إليّ، فإنّ عذابها شديد.

* * *

وعند ذلك فُتح باب تلك الغرفة ودخلت منه حنة فورتيه، فرأت لوسي مضطربة مصفرة الوجه، فأسرعت إليها وقالت:

ماذا أصابك يا ابنتي؟ وما بالك تبكين؟

فانطرحت لوسي بين ذراعي حنة، وجعلت تبكي كما كانت ماري تبكي أمامها منذ حين، ثمّ روت لحنة ما اتفق لها مع ماري.

* * *

لقد تركنا لوسيان لابرو مغمياً عليه لتأثير ذلك النبأ الهائل عليه.

فلما صحا من إغمائه وثاب إليه رشده جمع حواسه وقال: كلا إنها نميمة لا أصدقها، فابتسم جاك وقال:

كلا يا بني، بل هي حقيقة ثابتة.

ـ إذن، برهن لي. أسرع، فإني أنتظر البرهان.

فأخرج جاك ورقة السجل من جيبه، وقال له:

ـ لقد قلت لك إنّ تلك الفتاة التي فُتنت بحبها مقيد اسمها في سجل اللقطاء بنمرة 9.

ـ إني أعرف ذلك من لوسي نفسها.

ـ إذن، لا يسعك إلّا تصديق هذا السجل الرسمي، فإنك تجد فيه اسم الفتاة وأمها ومرضعتها وتاريخ إرسالها إلى ملجأ اللقطاء.

ثمّ أعطاه السجل كي يقرأ، فكان كلّ ما قرأ كلمةً تجهّم وجهُه وبدت عليه علائمُ اليأس إلى أن سقطت الورقة من يده لاضطرابه، فقال:

لقد صدقت، فإنّ لوسي ابنة حنة فورتيه.

ـ أي ابنة قاتلة أبيك.

ـ ولكن لا يوجد برهان جلي يثبت أنّها ارتكبت الجريمة.

ـ ألا يكفي حكم القضاء عليها؟

ـ كلا، فإنّ القضاء قد يخطئ أحياناً، وأنا أعتقد أنّ حنة فورتيه بريئة. وقد قلت لك عن ذلك من قبل.

ـ ربما كنت مصيباً، ولكن لوسي تبقى في عيون الناس ابنة قاتلة أبيك إلى أن تثبت براءة أمها، ولا سبيل إلى ذلك.

فصاح لوسيان بلهجة القانطين قائلاً رباه.

ـ أرأيت يا بني إني كنت لك من الناصحين وإنك لا تستطيع الزواج بهذه الفتاة؟

ـ كفى باللّه وأشفق عليّ.

ـ تسلح يا بني بالصبر وارجع عن هذا القصد الذي لا يغفره لك أحد، وقد أصبحت الآن حراً فأنقذ ابنتي.

ـ رحماك أشفق عليّ، فقد عقدت كلّ آمالي على الزواج بهذه الفتاة، ودعني أبكي عسى أن يخفف البكاء ما بي.

ـ إني أشفق عليك كلّ الإشفاق يا بني، ولكني أحب أن أشجعك فقد خدمتك أجلّ خدمة وأنقذتك من العار مقابل أن تنقذ ابنتي، في حين أنك لا تجد بزواجها غير الغبطة والهناء.

ـ وإذا كنت لا أستطيع القبول؟

ـ ولماذا لا تستطيعه؟ فإنك إذا رفضت طلبي قتلت ماري وهي تعبدك.

كلا، إنك لا ترتكب هذه الجريمة، فإنك شريف منزه

عن الشوائب، وهي لا تزال كالزهرة في أوّل نموها، فلا تقضي عليها بالذبول.

ولا أنكر أني أسأت إليك وضربتك ضربةً شديدة حين أخبرتك بهذا النبأ الهائل.

ولكن مثلي معك إنما كان مثل الجراح مع العليل قد يكويه بالنار بغية شفائه، فأنت مدين لي بالامتنان.

ـ وأنا لا أنكر هذا الامتنان بالرغم عن آلامي، فإنّ الهوة كانت منفتحة أمامي فحذرتني منها ووجب لك عليّ الشكر.

ولكن يجب أن تعلم أنّ هذا الجرح الذي أصبتني به بالغ لا بد لي من الوقت ما يكفيني لشفائه.

ورجائي أن تعتذر عني لدى ابنتك لاضطراري إلى الاحتجاب بضعة أيام، فإنّ احتجابي خير من ظهوري بمظهر الانقباض، ولا بد في ذلك من الصبر.

ـ ولكن هذا الصبر الذي يقتلها؟

فالتقط لوسيان السجل الذي سقط من يده فردّه إلى جاك، وقال له:

أطلعها يا سيدي على هذا السجل لتعلم منه أني لا أستطيع الزواج بابنة قاتلة أبي.

ـ إذن، رجائي لا يثنيك عن قصدك ولا يدعوك إلى التعجيل بإسعاد ابنتي.

ـ أرجوك يا سيدي بأن لا تلح عليّ وأن تمهلني بضعة أيام لأتمعن.

ـ ليكن ما تريد، ولكن هذه المهلة يجب أن تطلبها من ماري وليس مني، فإنها لا تصدقني.

ـ حسناً يا سيدي، سأقول لها هذا القول.

ـ وأنا أشكرك يا بني، وأعتمد عليك كلّ الاعتماد.

ـ أتأذن لي أن أحتفظ بهذا السجل يوماً وليلة؟

ـ احفظه قدر ما تشاء.

فوضع لوسيان الورقة في جيبه وخرج، وهو يقول في نفسه:

إنّ الحقيقة جلية ظاهرة، فإنّ لوسي ابنة حنة فورتيه. وحنة محكوم عليها بتهمة قتلها أبي، وإني أكاد أكون واثقاً من براءتها.

ولكن رئيسي مصيب في قوله، فإنّ الناس يعتقدون أنّها قاتلة أبي ولا سبيل إلى الزواج بابنتها..

مسكينة لوسي، فإني سأسحق قلبها، بل مسكين أنا، فإني سأسحق أيضاً قلبي. الوداع أيتها الأماني الذاهبة والآمال الكاذبة، بل الوداع أيها الحب الجميل وكل عزيز في هذا الوجود.

* * *

وسار، وهو مطرق الرأس، إلى باريس حتّى وصل إلى

شارع بوربون، حيث كانت تقيم لوسي، فوجد أنها ذهبت إلى مخزن الخياطة، فسار إلى المخزن الذي تشتغل فيه حنة، فرآها خارجة منه، فأسرعت إليه حين رأته، وقالت له: أهذا أنت يا لوسيان؟ لعلك قادم إليّ؟

قال إني ذهبت إلى لوسي، فلم أجدها.

ـ لعلك تريد محادثتي؟

ـ نعم، نعم، فهل لديك ساعة فراغ؟

فأجفلت حنة لما رأته من ظواهر اضطرابه، وقالت له:

دون شك، فما هذا الاضطراب الذي يتولاك؟ وماذا تريد أن تقول لي؟

ـ سوف تعلمين، فاصعدي معي إلى هذه المركبة.

فامتثلت وحاولت أن تسأله في الطريق، فقال لها: إنّ ما سأقوله لك شديد الخطورة، فاصبري إلى أن نصل إلى منزلي.

وكانت الجموع تسيل من عينيه، فذُعرت حنة، وقالت له:

إنّ دموعك تنذرني بمصاب كبير، وأنك تريد أن تحدثني عن لوسي، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ رباه، إنّ قلبي حدثني بهذا المصاب منذ الصباح، أي منذ زيارة المدموازيل ماري هرمان.

فنظر لوسيان إلى حنة نظرة المنذهل، فقالت له حنة: ألم تعلم أنّ ماري زارت لوسي في هذا الصباح؟

ـ كلا.

ـ أتجهل أيضاً أنّ ماري تحبك؟

ـ نعم، لسوء الحظ فقد عرفت ذلك منذ عهد طويل، ولكن ما الذي جاء بها إلى لوسي؟

ـ الغيرة، فإنها بلغت بها حد الجنون، وقد عرضت على لوسي ثلاثمائة ألف فرنك مقابل تخليها عن حبك ومغادرتها فرنسا.

فذُهل لوسيان وقال:

أهي اقترحت مثل هذا الاقتراح؟

ـ نعم، ولما رأت الاعتراض من لوسي جثت أمامها وجعلت تتوسل لها وتلتمس رحمتها إلى أن قنطت منها، فانصرفت مغضبة تتوعدها بالشر، فما تقول فيها؟

ـ أقول إنّ الغيرة مثيرة للعواطف، وإنه تجب المغفرة لمن يتيّمهم الحبُ.

قالت: إذن أنت لا تلوم مدموازيل ماري على فعلها؟

ـ بل ألومها، ولكني أشفق عليها أيضاً.

ـ أتحسب أنّ لوسي لا تستحق هذا الإشفاق؟ فإنك لو رأيتها كيف كانت تبكي لذاب قلبك إشفاقاً عليها.

ـ إني أشفق عليها أيضاً.

ـ رباه، ماذا أسمع؟ أهذا كل ما تقوله عن خطيبتك؟ فما هذا البرود؟ إني أخاف أن تقول لي بأنك لم تعد تحب لوسي وأن..

فقاطعها لوسيان بصوت يضطرب قائلاً:

وإذا اتفق ذلك، فماذا يكون؟

فاصفرّ وجه بائعة الخبز، وقالت:

لعلك تقول الجد، فأنت تعلم يقيناً أنك معبودها وأنها تنتحر لا محالة أو تموت إذا جفوتها.

ـ ولكن الشرف يقضي بهذا الجفاء، وقد وضع الدهر بيني وبينها حاجزاً لا يزول.

ـ كيف وجد هذا الحائل اليوم وهو لم يكن بالأمس؟ لعل ثروة المسيو هرمان أثرت عليك هذا التأثير؟

ـ إني أجل نفسي على أن يؤثر عليّ مال، ولكني علمت أموراً علمتني واجباتي.

ـ لعلك تريد إهانة لوسي بريبتك بها؟

ـ معاذ اللّه أن أشكك بها، وهي مثال الطهارة.

ـ إذن، ماذا اختلقوا لك عنها؟ ألا تذكر لي أكاذيبهم؟

ـ إنهم لم يخترعوا ولم يلفقوا، ولكن الحائل عظيم بيني وبين لوسي، وهو من الدم.

فذعرت حنة، وقالت: دم؟

ـ نعم، إني أحب لوسي اليوم فوق ما كنت أحبها بالأمس فإذا افترقت عنها فإني مضطر، واأسفاه، إلى إجابة صوت الشرف، بحيث يستحيل أن أتصل بها بصلة الزواج.

ـ ولكن لماذا؟

ـ لأني لا أطيق أن تكون امرأتي ابنة قاتلة أبي.

فصاحت حنة صيحة قنوط ووضعت يديها على قلبها كأنها تخشى أن يخرج من صدرها، ثمّ قالت بصوت يتلجلج:

ماذا تقول؟ أتزعم أن لوسي ابنة تلك المرأة المتهمة بقتل أبيك؟

ـ نعم، إنها ابنة فورتيه.

ـ ابنة حنة فورتيه الهاربة من السجن.. أهي لوسي؟

وقد ظهرت على حنة علائم الجنون وكادت تفضح سرها، ولكنها بذلت جهداً عنيفاً، فتمكنت من ضبط نفسها. ورأى لوسيان ما كان من اضطرابها فقال لها:

ماذا أصابك؟

ـ ماذا أصابني! كلا لم أُصب بشيء..

ولكن مفاجئتك لي بهذا الخبر أذهلتني. والآن أرجوك أن تخبرني كيف عرفت أنّ لوسي ابنة حنة، وهل لديك برهان؟

ـ نعم، وهذا هو.

ثمّ أعطاها ذلك السجل الذي أخذه من جاك، فقرأته وقالت في نفسها:

نعم إنها ابنتي، فقد كان قلبي يحدثني بذلك، وهذا الذي كان يدفعني إلى حبها، والآن.. ويلاه إني لا أستطيع أن أقول شيئاً.

ثمّ قالت للوسيان، وقد امتزج في قلبها الحزن والفرح:

إذا كانت لوسي ابنة حنة المحكوم عليها، وكانت أمها، فهل تحكم بذنب الأم؟

أيخلق أن تعاقب بذنب جناه سواها؟

إني لو كنت في مكانك لمددت إليها يدي وما حفلت بهذا الحائل.

ـ شهد اللّه بأن قلبي يدفعني إلى هذا العمل الشريف، ولكني لا أستطيعه، فإنّ أمها قتلت أبي.

ـ لا أنكر أنّ ذلك هائل لو كان أكيداً، فهل أنت واثق من صحة التهمة؟ ألم تقل لي مراراً أنك تعتقد ببراءة هذه الأم؟

ـ وأنا لا أزال أعتقد هذا الاعتقاد إلى الآن، غير أنّ اعتقادي لا يعدّ برهاناً على براءتها أمام الناس.

وفوق ذلك فإني إذا رأيت حنة فورتيه أقول لها إنّ القضاء غير معصوم عن الخطأ، فبرهني لي على براءتك

وأرشديني إلى القاتل الحقيقي، أضحي حياتي في سبيل إظهار براءتك كي أستطيع الزواج بمن أحب.

وقد كنت قرأت حوادث قضيتها، فمما قرأته أنّ حنة كان لديها رسالة كتبها إليها جاك جيرود تثبت أنّه هو مرتكب الجرائم الثلاث في فورتفيل، فوجب إذن الحصول على هذه الرسالة وربما أرشدتني حنة إلى طريقة البحث عنها، فأبحث بعد ذلك عن جاك جيرود، لأني أعتقد اعتقاداً راسخاً أنّه لا يزال على قيد الحياة، وأنه متنكر، فإذا عثرت على هذا الرجل أكرهته على إثبات براءة حنة، ولكني قبل ذلك لا أستطيع الزواج بابنتها.

فخطر لحنة أن تعترف له بأمرها، ولكن الحكمة أثنتها عن عزمها، فقالت في نفسها:

تُرى أية فائدة من الاعتراف بحقيقة أمري؟ ما زلت لا أستطيع إرشاده إلى الرسالة، وكيف السبيل إلى إيجاد جاك جيرود هذا إذا كان لا يزال حياً؟ نظرت إلى لوسيان وقالت له بصوت مختنق:

إنّ تخليك عن لوسي ظلم لا يُطاق، ولكني لا ألومك فيه، فإنك لا تستطيع أن يكون اسمك الشريف بجانب اسمها الملوّث بتلك التهمة.

هو ذاك، فإنّ الناس لا يغتفرون لي هذه الذلّة.

ولكن كيف يعرف الناس سرّك؟

ـ إنّ بول هرمان يذيعه، فقد أنذرني بذلك.

ـ وهو سيفعل ذلك دون شك، فإنّ هذا الرجل يريد أن ينقذ ابنته، وماذا يهمه أن يضحي بابنة حنة فورتيه؟

ولكن لماذا جئت بي؟ هنا أتريد أن تعهد إليّ بإخبار لوسي؟

ـ نعم، أرجوك إخبارها، فإنّ الشرف قد حفر بيننا هوّةً عميقةً.

ـ أتحسب أني أخبر لوسي بحادثة أمها، فأضيف إلى آلام افتراقها عنك بئس العار والخجل؟

كلا، لا تعتمد عليّ في ذلك يا سيدي، فإني لا أجسر عليه.

ولكن يجب أن لا ندع لوسي تسترسل بالرجاء.

فشعرت حنة أنّ الأرض تميد بها، وتركته وانصرفت دون أن تقول كلمة.

ولكنه أسرع إليها، فأخذ يدها، فأفلتت منه وقالت: أستودعك اللّه يا مسيو لابرو، ثمّ ابتعدت دون أن يستطيع إمساكها.

وأقام لوسيان زمناً طويلاً وهو مكر مهموم والدموع تسيل من عينيه، ثمّ نهض فجأة وسار تواً إلى جاك جيرود.

أمّا حنة، فإنها تركت لوسيان وجعلت تسير في الشوارع سير المجانين وهي تكرر قولها:

ابنتي.. ابنتي.. لقد وجدت ابنتي.

وما زالت على ذلك حتّى وصلت إلى منزل لوسي وصعدت إلى غرفتها.

فاستقبلتها لوسي باسمةً، وأسرعت حنة إليها فضمتها إلى صدرها بلهفٍ شديد، ثمّ قالت لها: ألم تبرحي غرفتكِ اليوم؟

قالت: نعم، فقد ذهبت إلى مدام أوغستين، ولكني ندمت لذهابي، فإنّ لوسيان جاءني في مدة غيابي، ألم تريه يا أماه؟

ـ كلا، يا ابنتي.

ـ لقد قالت لي البوابة إنّه حزين منقبض الصدر.

ـ ربما تصورت ذلك.

ـ قد يكون ما تقولين، ولكني منذ زيارة مدموازيل هرمان جعل قلبي يحدثني بنكبة.

ـ دعي أحاديث القلب يا ابنتي، فليس فيها غير العناء. ويجب أن تشغلي نفسك عنها باللهو، أتريدين أن أتعشى معكِ الليلة؟

ـ إني أكون سعيدة بذلك.

ـ إذن سأذهب لشراء الحاجات وإعداد العشاء.

ـ وأنا في خلال ذلك أتمم هذا الثوب.

فعانقتها حنة وانصرفت وهي تقول:

مسكينة كم يكون عذابها شديداً حين تعرف الحقيقة.

* * *

أمّا لوسيان، فإنه حين وصل إلى منزل جاك كانت ماري واقفة تنتظره، فارتعشت حين رأته لما رأت من اضطرابه فاستقبلته باسمةً، وقالت:

إنّ أبي لم يحضر بعد. وهو سيحضر قريباً، ولكن ما هذا الاصفرار الذي يصبغ به وجهك؟ فهل أنت متأثر؟

ـ كلّ التأثر يا سيدتي.

ـ ولماذا؟ هل حدث بينك وبين أبي ما يكدرك؟

ـ هو ذاك، فقد اجتمعت مع أبيك، فأثر بي هذا الاجتماع.

ـ إني لا أفهم ما تقول.

ـ أصغي إليّ تفهمي، فقد بلغنا إلى حدٍّ لم يبق فيه بدٌّ من التصريح والجلاء.

إنّ الاتفاق يا سيدتي أو اضطراري إلى العمل قد قادني إليك. وقد ساعدتني في ذلك اليوم خير مساعدة وكنت لي أفضل معين، فتمكنت بفضلك من نيل منصب كان فوق آمالي. وكل ذلك بتفضلك عليّ بعاطفة إحسان لا أستحقها.

فأجابته ماري قائلة: لقد عرفت الآن السبب في مجيئك إليّ قبل أبي، وسبب محادثتك إياي بهذا البرود الذي يرعبني، فإنك جئت لتقول لي إنك لا تحبني ولن تحبني.

ـ إنكِ تحبينني يا سيدتي، وكنتُ أحب سواك.

ـ بل لا تزال تحبها، وقد ذهبتْ آمالي أدراج الرياح.

ـ ولكنكِ قد بذلتِ جهدكِ بالاتفاق مع أبيكِ على إطفاء جذوة هذا الحب الذي كان يحترق به قلبي.

نعم، إنكما فعلتما ذلك، ولكني لا ألومكما، بل إني نهجت نهجاً يقضي عليّ به الشرف والإخلاص، فألزمت الحياة جهد الإمكان وابتعدت عنكِ كي لا أود في نفسك رجاء لأني كنت أحب.

ـ وقد أتيت تخبرني اليوم أنّ هذا الرجاء لا يمكن تحقيقه، أليس كذلك؟

وأيُّ ذنبٍ لي إذا أحببتكَ؟ أتحسب أني كنتُ أعلم قبل أن أحبك أنّ قلبك مقيّد بسواي؟

إني أحببتكَ حباً تعلقت به حياتي، ولو استطعت لانتزعت حبكَ من قلبي، ولكنه لا ينتزع بغير القلب.

فاعلم أني أقاوم بعد خصيمتي فيك، ولكن أسرار المستقبل لا يعلمها أحد، فدعني أرجو ودعني أعيش.

ثمّ ركعت أمامه وقالت له، والدمع يجول في عينيها:

دعني أعيش، فإني لا أزال في مقتبل الشباب. وعللني بالرجاء على الأقل، فإنك قد تحبني يوماً كما تحب تلك.

ـ إني لا أستطيع حبها منذ اليوم.

فوثبت ماري وقد بدت علائم الانتصار الوحشي.

ـ ماذا تقول؟ ألست مقيداً بها؟ ألا تستطيع أن تحبها؟

ـ كلا.

ـ ماذا حدث؟ لعلك وجدت هذه الخصيمة غير جديرة بك؟

ـ هو ذاك.

ـ ماذا فعلت هذه التي تحملت بسببها عذاب الموت؟

ـ احذري أن تهينيها، فإنها شريفة طاهرة كالملائكة.

ـ أتدعي أنك لا تحبها ثمّ تدافع عنها هذا الدفاع؟

قال: يجب أن أنتزع حبها من قلبي، فإني لا يحق لي أن أحب ابنة قاتلة أبي.

ـ لوسي!

ـ نعم، لوسي، فإنها ابنة حنة فورتيه المحكوم عليها بالسجن المؤبد لاتهامها بقتل أبي.

ـ أحق ما تقول أم أنك اخترعته كي تحملني على الرجاء؟.

ـ إذا أردت برهاناً على صدقي، فهذا برهاني.

ثمّ أعطاها السجل فأخذته وتلته بلهفٍ، وقالت بملء الفرح: واطرباه، لقد انتقم لي.

نعم، إنك لا تستطيع حب هذه الفتاة، وإنك بتّ تبغضها دون شك.

ـ أصغي إليّ يا سيدتي، فلم أقل بعد كلّ ما أريد قوله. واعلمي أنّي لا أبغض هذه الفتاة، فإنّ البنت لا يجب أن تؤخذ بذنوب أمّها، ولكن الشرف يقضي عليّ أن أنساها. وهو جرح بالغ أصبت به لا يمكن شفاؤه إلّا مع الأيام. والذي أريد أن ألتمسه منك هو أن تمهليني إلى أن يلتئم الجرح.

واعلمي يقيناً أنّي أتعذب عذاباً شديداً، ولكني سأقاوم هذا العذاب وأطلب النسيان، وسأناله. ومتى نسيت غرامي القديم أصبح قلبي حراً.

وعند ذلك تتبدل عواطف الامتنان التي قيدتني بها، وتستحيل إلى عواطف حب، فهل ترضين بهذا الرجاء وتعيشين لأبيك؟

فأجابته بلهجة كئيبة: ليكن ما تريد فأصبرُ، بل أحاول أن أصبر.

فأشفق لوسيان عليها وقال في نفسه:

مسكينة إنّ نور حياتها سينطفئ، ولكني لا أستطيع أن أفعل المستحيل.

وعند ذلك دخل جاك، فعرف بنظرة ما حدث، فعانق ابنته وقال لها: أكنتما تتحدثان يا ابنتي؟

ـ قالت: نعم، يا أبي.

ـ وما كان موضوع حديثكما؟

فقال لوسيان: الموضوع الذي كنت تتوقعه.

فقالت ماري بصوت مختنق: عليّ أن أنتظر.

فظهرت علائم الغضب على وجه جاك. ورأت ماري ذلك، فأسرعت إلى القول: نعم، يا أبي، سأنتظر صابرة، فإنّ لوسيان أقنعني بوجوب الانتظار.

فقال لوسيان: وإني سأفعل ما يمكن فعله في سبيل هنائك، ولكن الانتظار لا بدّ منه.

فسالت الدموع من عيني ماري وسترت وجهها في صدر أبيها، فنظر جاك إلى لوسيان نظرة مفادها أنّ من يصبر يجب أن يعيش ولكنك تقتلها.

وكانت ماري قد فاجأت هذه النظرة، فقالت:

لا تخفْ يا أبي، سأعيش لأحبك وأحبه. إن لوسيان مصيب بطلبه، فلا بدّ لجرحه أن يشفى.

الأرملة ليزا

كان أوفيد سوليفو قد ذُعر لما وقف عليه من أماديا، فإنه بات مشككاً أنها قد تعرف أمره، فأصبح شديد الحذر

بالرغم من تلك الورقة التي يقيدها بها، فإنّ كلمة منها تفضح أمره. وإذا افتضح، فأية فائدة له من الانتقام؟

وكان يعلم أنّ أماندا لا تعرف اسمه الحقيقي وتحسب أنّه يدعى البارون أرنولد.

ولكنه علم أيضاً أنها ستبحث عن منزله وستدقق في أمره. وكان يبالغ في الحذر.

ففي ظهر يوم ذهبا إلى الغداء حسب العادة، فكانت أماندا تأكل أكل الجائعة خلافاً لأوفيد، فقالت له:

ما بالك أيها البارون لا تأكل ولا تشرب؟ فهل أنت مريض؟

قال: كلا، ولكني متضجر.

فقالت بلهجة العاتب: كيف ذلك؟ أتضجر وأنت معي؟

ـ لم أرد بما قلته أني أضجر منك، بل من العيش بجملته، فإنه على نمط واحد لا تغيير فيه.

ـ لا أسهل من تغييره، فسر بي نقم بضعة أيام في الضواحي.

ـ ولكنك مقيدة بعملك.

ـ إذا شئت استأذنت مدام أوغستين، فلا تبخل عليّ بإجازة أسبوع.

حسناً، إلى أين نذهب؟

إلى أي مكان شئته، بشرط أن يكون على ضفاف النهر. نستأجر قارباً ونتنزّه فيه كلّ يوم.

ـ هل تعرفين غابات الملك؟

ـ نعم، فهي على ضفاف السين قرب فونتنلبو.

إذن، نذهب إليها. استأذني الآن مدام أوغستين وتأهبي للسفر ثمانية أيام. أمّا أنا فسأذهب الآن إلى القرية كي أستأجر فيها مسكناً لإقامتنا، وعند المساء أنتظرك في المحطة.

وقد أعطاها ورقة مالية وافترقا، فذهبت إلى المخزن الذي تشتغل فيه، وركب هو القطار إلى القرية، فاستأجر غرفة في فندقها، ثمّ كتب إلى جاك الرسالة الآتية:

«أيها الصديق العزيز

«إني مقيم في قرية غابة الملك مع امرأة حسناء. إذا احتجت إليّ، فاكتب لي بعنوان البارون أرنولد دي ريس في الفندق غابة الملك أوفيد».

وقد وضع الرسالة في غلاف وذهب وألقاها في صندوق البريد. وكان لا يزال لديه ساعة لقدوم أماندا، فذهب إلى غابة فونتنبلو المتاخمة للقرية بغية التنزه.

لم يكد يدخل إليها حتّى أبصر، على قيد خمسين خطوةً، جماعةً مؤلفةً من ستة أشخاص كانوا جالسين على العشب بين أشجار الغابة.

وبين هؤلاء الخمسة رجل بيضتْ شعرَه السنونُ وجعّدت وجهَه الأيامُ. وعلى يمينه امرأة تناهز الخمسين من العمر، وابنتان صبيتان.

وعلى يمينه رجل قد بلغ سنّ الكهولة وهو من الأطباء.

وكان أوفيد يتقدم إلى الجهة التي كانوا فيها. وفيما هو يسير وقف وقد ارتعش وقال: ما هذا الصوت الذي أسمعه من الشيخ؟ فإني أذكر أني سمعته من قبل. وهذا الرجل الجالس على يساره أذكر أني عرفته أيضاً.

فلندع أوفيد يسير في طريقه، ولنسمع حديث الجماعة، فقد كان الطبيب يقول: ففي سنة 1861 قدر الاتفاق أن نسافر على سفينة واحدة من نيويورك.

فقال له الشيخ: نعم، أذكر ذلك كما أذكر اسم الباخرة في لوردمير.

ـ هو ذاك، وكان يوجد فيها رجل أميركي من أهل الصناعة، عرفته في نيويورك باسم جمس مورتيمر ورجل فرنساوي يدعى بول هرمان، وقد تزوج ابنة الأمريكي.

ـ نعم نعم، وقد ذكّرني اسمُ مورتيمر حادثةً جرت لي في تلك الباخرة، فقد سرق مني رجلٌ شقي كلَّ ما أملك.

ـ ولكن هذا المال رُدّ إليك.

ـ نعم، وكان ذلك بفضل رجل مسافر فاجأ الرجل وهو يسرقني.

ـ إني لم أسمع بحديث هذه السرقة.

ـ لم يسمعها أحد أيضاً، فإني اضطررت إلى كتمانها، لأن الذي أنقذ مالي طلب مني أن أرحم السارق لأنه ابن عائلة طيبة السمعة.

ـ وقد لقيت في هذه الباخرة أيضاً رجلاً من كندا علمني دواء غريباً.

ـ ما هو هذا الدواء؟

ـ سائل إذا شرب منه المرء باح بكل مكنوناته.

ـ لقد سمعت بوجود مثل هذا الدواء في الهند، وكنت أحسب أنها من قبيل الخرافات.

ـ كلا، فهي حقيقة لا ريب فيها.

ـ لعلك جربتها؟

ـ عدة مرات، وكنت أفوز في كلّ مرة.

ـ إذن، لقد كنت واثقاً أيها الطبيب، ولا بد أن تكون أتيتنا بكثير من الاكتشافات الطبية فتفيد بلادنا. لعلك نويت الإقامة بيننا؟

ـ كلا، فقد أتيت لعيادة أختي، فاغتنمت هذه الفرصة للاستراحة بضعة أيام.

ـ إذن، أرجو أن نجتمع كلّ يوم فنتحدث عن تلك البلاد الأميركية التي أحبها، ولكني ما أحببت أن أموت فيها.

وعند ذلك أعان الشيخ على النهوض وسار الخمسة في طريق القرية.

أمّا أوفيد، فإنه رجع على أعقابه، إذ سمع صفير القطار، فاستقبل أماديا وجاء بها إلى الفندق.

وهناك علم أنّه لا يوجد من الغرباء في تلك القرية غير طبيب وأخته يقيمان في منزل مجاور للفندق.

وفي اليوم التالي ذهب أوفيد وأماديا في الصباح للنزهة في النهر، فأقام وإياها ساعة ثمّ تظاهر أنّه أصيب بصداع أليم واستأذن أماديا بالعودة إلى الفندق، وسألها أن تتم نزهتها وحدها فتوافيه إلى الفندق في ساعة الطعام.

وافقته أماديا على ذلك. فعاد إلى الفندق وواصلت هي نزهتها إلى جهة المحطة.

أمّا أوفيد، فإنه حين وصل إلى الفندق دخل غرفته فأقفل بابها من الداخل، وأخرج من حقيبته زجاجة تحتوي على سائل، فقال في نفسه:

هذا هو السائل الكندي الذي أطلقت به لسان جاك جيرود ووقفت على سرّه وسأسقيه أماديا، فأعلم سرّها بالرغم عنها.

ثمّ قام إلى زجاجة فيها شراب من الشارتريز، وقال: إنّ أماديا لا تشرب إلّا من هذا الشراب.

وعند ذلك فتح زجاجة السائل وصب بضعة نقط منها في زجاجة الشارتريز، وأقام ينتظر عودة أماديا.

أمّا أماديا، فإنها قبل أن تصل إلى المحطة رأت كثيراً من الناس يتراكضون إلى جهة الخط الحديدي فأسرعت لاستطلاع الخبر، وهناك علمت أنّ قطارين قد اصطدما اصطداماً خفيفاً، وأن شاباً في مقتبل العمر قد جرح بهذا الاصطدام.

وكان هذا الفتى ممدداً على الأرض مغمياً عليه والناس من حوله، فلما رأته أماديا صاحت صيحة دهش قائلة: من هذا دشمان؟

فقال لها من حوله: لعلك تعرفينه؟

فأدركت أماديا خطأها في الحال وقالت:

كلا، ولكني أعرف رجلاً يشبهه حسبته إياه.

وعند ذلك أقبل الطبيب، فحص جرح الفتى فحصاً مدققاً وأمر أن ينقلوه إلى الفندق.

وعند ساعة الطعام ذهبت أماديا إلى الفندق، فوجدت أوفيد قد شُفي من صداعه. أخبرته بحادثة القطار دون أن تذكر اسم دشمان. وجلسا على مائدة الطعام في غرفتها، فوضع أوفيد زجاجة الشارتريز أمامها وزجاجة الخمر أمامه، وأقاما يأكلان ويشربان، وأماديا تشرب ذلك

الشراب الذي مزجه أوفيد كما تقدم دون أن تخطر لها حقيقته في بال.

ولبثا على المائدة إلى الساعة العاشرة ونصف، وأماديا تشرب وتدمن إلى أن رأى أوفيد تأثير الشراب في عينيها، فقام إلى النافذة المشرفة على ردهة الفندق فأقفلها وعاد إلى أماديا وجلس بجانبها.

وبعد هنيهة أصيبت أماديا بما أصيب به جاك منذ واحد وعشرين عاماً، فوضعت يدها على جبهتها ثمّ عنقها وقالت:

أمّا هذا الظمأ الشديد فإنه سيقتلني.

وقد قامت مسرعة إلى زجاجة الماء فشربت كلّ ما فيها، فكان ذلك معجلاً لتأثير الشراب. وعلم أوفيد أنّ ساعة السؤال قد دنت فقال:

ألم تعرفي أيتها الحبيبة الرجل الذي اشترى الخنجر من بائع الأسلحة المقيم تحت منزل لوسي؟

فنظرت أماديا إلى أوفيد نظرة غريبة، وقالت:

إنك تعرف الرجل كما أعرفه، فهو الرجل نفسه الذي ذهب إلى جواني ليأخذ تلك الأوراق الدالة على جناية دشمان وعلى جنايتي، أتحسب أني لم أقف على حقيقة أمرك؟

إني لم أبح لأحد بشيء، ولكنك أنت هو الذي اشتريت

الخنجر في تلك الليلة التي أوصلتني بها إلى لوسي، وأنت هو الذي سألتني عن لوسي وعرفت الطريق التي تسير فيها، فكمنت لها في ظلام الليل وطعنتها تلك الطعنة. إذا كنت أنا سارقة فأنت قاتل سفاك.

وكانت أماديا تقول هذا القول وهي تهيج عند كلّ كلمة وترفع صوتها، فخشي أوفيد العاقبة وأقام إليها كي يسكتها.

ولكنها تراجعت عنه، وهي تقول:

دعني.. دعني، فقد عرفت أمرك ولا بدّ لي أن أعرف اسمك، فإنك متنكر باسم البارون ريس.

نعم، إنّ لديك برهاناً يثبت أني سارقة، ولكني سأفضح أمرك قبل أن تفضح أمري أو تشتري كتماني كما أريد.

نعم، إني لا أعلم إلى الآن لماذا أردت قتل لوسي، ولكن لا بدّ لي أن أقف على الحقيقة. والويل لك، متى عرفتها فإني أكون أشد منك.

فارتجف أوفيد وقال لها:

اسكتي إني آمرك بالسكوت.

ـ وأنا لا أريد أن أسكت. أتحسبني بلهاء لا أعلم ماذا تصنع؟ إذن أنت واهم، واعلم الآن أني سأكون لك أتبع من ظلك كي لا تفوتني خافية من أمرك، فإني أحب أن أكون غنية، فإما تغنيني أو أبعث بكَ إلى السجن فتقيم فيه بقية أيامك.

ثمّ جعلت تضحك ضحكاً عصبياً هائلاً، فخشي أوفيد أن يصل صوتها إلى الخارج، وقال لها بلهجة المتوعد: اسكتي.

قالت: لماذا أسكت وأنا أقول الحق؟! إنك لست البارون ريس وسأنزع هذا البرقع الذي تستر فيه ماضيك، فلا تسجن سجناً، بل تُشنق شنقاً.

وما زالت أماديا تقول مثل هذه الأقاويل بصوت مرتفع إلى أن صمتت أخيراً وبلغ تأثير الشراب آخر حده، فجعلت تئنّ أنيناً مزعجاً، إذ لم تعد تستطيع الكلام.

ولبثت على هذه الحالة بضع دقائق ثمّ سقطت مغمياً عليها.

فأسرع أوفيد إلى حقيبته فأخذ الزجاجة وأفرغ جميع ما فيها في المستوقد من قبيل الحذر وصنع كذلك بزجاجة الشرتريز، ثمّ فتح باب الغرفة وخرج منها كي يبحث عن طبيب، فرأى امرأة ورجلين واقفين يصغيان.

وكانت المرأة صاحبة الفندق، فقال لها:

إني أبحث عن طبيب، فإنّ المرأة التي معي أصيبت بنوبة عصبية وهي مغمي عليها الآن.

قالت: أهذه الأصوات التي سمعناها كانت منها؟

ـ نعم، ألا يوجد طبيب في القرية؟

وكان الرجلُ الواقف معها نفسَ الطبيب الأمريكي، وقد جاء إلى الفندق لمعالجة جريح القطار، فقال له:

إني طبيب يا سيدي.

قال: أرجوك أن تسرع إلى معالجتها.

* * *

وصعد الثلاثة إلى غرفة أماديا، وكانت ممددة على الأرض. بدأ الطبيب بفحص نبضها ثمّ فتح عينيها وفمها، فحص شفتيها فوجد عليهما زبداً أصفر فنظر محدقاً إلى أوفيد وقال له:

إنه اتفاق غريب، فإنك يا سيدي ذهبت إلى أميركا دون شك، أعرفت شيشيلينو في نيويورك؟

فاصفرّ وجه أوفيد، إذ علم لفوره أنّ هذا الطبيب كان نفس الطبيب الذي لقيه يتحدث في الباخرة مع الكندي منذ واحد وعشرين عاماً، وقال له:

لا، يا سيدي.

ـ أيوجد عندك روح الأمونياك؟ أسرع بإحضاره إذا كان غير موجود أو تكون هذه الفتاة عُرضة لخطر الموت.

فأسرعت صاحبة الفندق لإحضار الأمونياك.

وخلا الطبيب بأوفيد وقال له:

نعم، إنك عرفت شيشيلينو الكندي واشتريت منه زجاجة من هذا السائل الذي يدعونه هناك «السائل المتكلم».

فأدرك أوفيد أنّه لا فائدة من الإنكار.

فقال له الطبيب: إنك أردت أن تعرف دخائل هذه المرأة فسقيتها من هذا الشراب.

ـ لا أنكر ذلك يا سيدي، وإنما فعلته لأسباب جوهرية شرعية.

ـ لا عبرة بالأسباب. ولو لم يتفق وجودي لقضى على هذه الفتاة، فإنك جرعتها فوق احتمالها.

وعند ذلك جاءت صاحبة الفندق بالأمونياك، فوضع الطبيب بضع نقط منه في كأس ماء وجرعها إياها فظهر فعلها في الحال وبطلت تلك التشنجات العصبية، فقال الطبيب:

لقد زال الخطر عنها الآن، ولم يبق إلّا أن تنام، وسأعودها في الصباح. انصرف الطبيب، فشكره أوفيد. ولما خلا بنفسه قال:

أحمد الله أنها لم تمت، فلو قُضي عليها لكتب الطبيب تقريراً عني بفضح أمري.

ولكنها أمنت الخطر وأمنت معها، فإنّ الطبيب حسب أني أعشقها وأني أخاف خيانتها. أمّا أماديا فقد عرفت الآن أفكارها فلم أعد أخافها.

* * *

ولندع الآن تلك القرية، ولنعد إلى باريس حيث تركنا حنة ولوسي مجتمعتين.

وكانت لوسي شديدة الانقباض، لا سيما حين جاء يوم الأحد ولم يزرها لوسيان حسب عادته، بل إنه لم يكتب لها كلمة ولم يعتذر، ولا سبب سكوته.

وكانت حنة تتوقع لمصابها، بل إنها كانت متأثرة فوق تأثرها، ولكنها لم تجسر على أن تقول لها الحقيقة.

أمّا لوسي، فكان اضطرابها يزيد في كلّ ساعة، فتبكي بكاءً أليماً، لأن قلبها كان يحدثها بهجران لوسيان، لا سيما وقد صبرت يومين دون أن يردها شيء منه.

ولكنها أرادت أن تعرف الحقيقة، فكتبت إليه كتاباً لم يجبها عليه. وكان عدم جوابه ضربةً هائلةً على تلك المنكودة، فجعلت تبكي وتقول:

لقد سلبتني إياه وسرقته مني.

وقد عضت الغيرة قلبها، فقالت:

إذن سأذهب إليه لا لأرجوه أن يعود إليّ، لا لألومه على ما فعل، بل لأني أريد أن أعرف السبب في هجرانه السافل.

وكانت تعلم أنّ لوسيان يترك العمل في الساعة السابعة ويعود إلى منزله في الساعة السابعة والنصف، فذهبت إليه.

وهناك سألت البوابة عن لوسيان، فحاولت البوابة أن تخبرها عنه، ولكن زوجها قاطعها وأجاب لوسي قائلاً:

إنّ المسيو لابرو مسافر.

فارتعشت لوسي وقالت:

لعل رحلته تطول؟

قال: لا أعلم، فإنه لا يخبرنا بشيء عن أمره.

فأطرقت لوسي برأسها وانصرفت مفكرة مهمومة، فأقبل البواب يلوم زوجته ويقول لها:

أنسيت ما أوصانا به المسيو لابرو وهو أن نقول إنّه مسافر إذا جاءت امرأة وسألت عنه؟!

أمّا لوسي، فإنها جعلت تمشي ببطء وتقول:

إذا صح ما قيل لي عن سفره، فهو معذور.

وفيما هي تسير التفتت إلى غرفة لوسيان فاهتزت اهتزازاً عنيفاً، إذ رأت نوراً في تلك الغرفة، فقالت بصوت مختنق:

إنهم كذبوا عليّ، وهو في منزله. لماذا هذا الكذب؟ ثمّ عادت إلى ذلك المنزل، فقالت للبواب:

إنك خدعتني، وإن المسيو لابرو في منزله.

قال: بل إني أجبتك بما يجب أن أجيبك به.

ـ إنّ المسيو لابرو في منزله.

ـ لا شك أنك مجنونة.

غضبت لوسي لغلظة هذا الرجل وقالت له:

من تحسبني أيها الرجل؟

ـ أحسبك أنت، فقد عرفتك من أوصافك. وقد أمرني المسيو لابرو أن لا أدعك تدخلين، فاعلمي الآن أنّه يقيم في غرفته، ولكنه لا يريد أن يستقبلك.

فارتجفت لوسي وشعرت كأنما الأرض تميد بها، فقالت له:

إذن لقد وصفني لك، وهو يعنيني دون سواي؟

ـ هو ذاك، وأنت تريني أني ألبي الأمر.

فانصرفت لوسي والدنيا لا تسعها على رحبها، فإنّ لوسيان لم يقتصر على هجرانها، بل إنه لا يريد أن يراها.

وسارت وهي شبه المجانين إلى أن وصلت إلى المنزل، فلقيت حنة وانطرحت بين ذراعيها تبكي.

ذعرت حنة ليأسها، وسألتها قائلة:

ماذا أصابكِ؟ ماذا حدث؟

فقالت بصوت تخنقه العبرات:

إنه هجرني.. إنه خدعني.. إنه لا يحبني..

لا تيأسي يا ابنتي، فإنّ سكوت لوسيان لا بد أن يكون له حد.

ـ كنت أعتقد ذلك منذ ساعتين، أمّا الآن فلم يبقَ مجالٌ للريب، فإني ذهبت إليه.

ـ إلى لوسيان؟ أرأيته؟ أخبرك بسبب هجرانه؟

ـ حبذا لو كنت رأيته، فإني كنت وفّرت على نفسي تلك الإهانة التي أهنت بها.

ـ ما هذه الإهانة؟

إنه أخبر البواب بأوصافي، وهذا البواب طردني.

ثمّ استرسلت إلى البكاء، فعانقتها حنة وجعلت تعزيها وتقول:

صبراً يا ابنتي ولا تقنطي، بل تسلحي بالصبر وكوني قوية باسلة، فإنّ المرء يُعرف عند الشدائد.

ـ ومن أين آتي بالقوة والصبر؟ وماذا تريدين أن أصنع الآن؟ فقد كان حبه حياتي، وقد ذهب الحب، فلم يبقَ لي غير الموت.

ـ لوسي.. لوسي.. اطردي هذه الأفكار.

ـ كلا، لا أستطيع طردها وسأموت، ولكني أحب قبل موتي أن أراه، وأن أعلم سبب هجرانه، وأن أثق أنّ هذا الرجل الذي كان يدّعي أنّه يحبني قد باع قلبي بيع السلع واستسلم إلى ملايين ابنة هرمان في حين أني لم أسيء إليه وكنت معه أشرف فتاة.

نعم، إني أحب أن أراه، وسأذهب فأنتظره عند باب منزله، فإذا تجنّبني ذهبت إلى باب المعمل فأكرهته على مجاوبتي.

ـ كلا، يا ابنتي، إنك لا تفعلين هذا.

ـ لماذا لا أفعله؟

إني أتعذب، ألا يحق لي أن أعلم من أين دهمني هذا العذاب؟

ـ إنّ الهجران أكيد كما يظهر، وإذا كان ذلك، فأية فائدة من معرفة الأسباب إلّا أنها تزيد عذابك؟

فنظرت لوسي إلى حنة نظرة المشكك في أمره، وقالت لها: كيف يزيد عذابي؟ لعلك عارفة بشيء؟!

ـ كلا، يا ابنتي، ولكن ماذا تتوقعين أن يجيبك؟

ـ إني يتيمة.. إني لقيطة.. إني فقيرة أعيش من شغل يدي، ولكني فتاة شريفة، وقد كانت حالتي ترضيه من قبل، فكيف لا ترضيه الآن؟!

هذا الذي أريد أن أعلمه، وسأعلمه لأني سأرى لوسيان.

ـ كلا، يا ابنتي. لا تذهبي إليه. وإني أتوسل إليك جاثية على ركبتي، فلا فائدة من الذهاب.

ـ إذن أنت عارفة سبب هجره إياي ولكنكِ تكتمين عني.

ـ لا تحاولي يا ابنتي أن تقفي على هذا السر.

ـ إذن أنت تعلمين؟

ـ لقد رأيتُ لوسيان.

ـ أرأيتِ لوسيان ولم تخبريني؟

ـ إني أردت أن أوفر عنكِ حمل مصاب جديد.

ـ وأي خوف عليّ من مصاب جديد بعد أن توالت عليّ الأرزاء؟ قولي لي الآن، هل كان هجر لوسيان عن خطأ بدر مني؟

ـ كلا، يا ابنتي، فإنّ لوسيان يحترمك كل الاحترام. وإذا كان هجرَكِ، فما ذلك إلّا لأن زواجه بك محال.

ـ كيف تقولين محال؟ فإنّ هذا الزواج لا يستحيل إلّا إذا كنتُ غيرَ خليقةٍ به. وأنا شريفة كما تعلمين، إلّا إذا كان أبواي اللذان ألقياني في تيار هذا الوجود دون رحمة قد ارتكبا جرائم تلوّث الشرفَ، فهل فعل أبي شيئاً؟ وهبيه كان مجرماً، فهل من العدل أن أتحمّل تبعةَ ذنوبه؟!

ـ لا تهيني أباك يا ابنتي.

ـ إذن من أتهمُ؟! فقد قلتِ لي إنكِ اجتمعتِ بلوسيان، فلا بدّ أن يكون قد أطلعك على السرّ، فأخبريني به مهما يكن شديداً، فإذا لم يكن أبي المتهم كانت أمي.

ارتعشت حنة وكادت تقول لها: أنا هي أمك.

ولكنها ارتجعت في الحال، لأنها لم تكن قادرةً بعد على إثبات براءتها، ولم تجد ما تجيب به، فسكتت.

قالت لوسي: ما بالكِ لا تجيبين؟! أهي ارتكبت الجريمة؟ ولماذا قال لوسيان إنّ زواجنا مستحيل؟

ـ إنهم أكرهوه.

ـ ومن الذي يحق له إكراهه؟

ـ ألم تعلمي بعد أنّ لوسيان لم يكن يعلم بوجود هوّة بينك وبينه لولا وجود بحث في الماضي؟ قال إمّا أن تتزوج ابنتي أو أمنعك عن الزواج بلوسي، وإذا لم تمتنع كشفت سرّ الماضي وأخبرت الناس.

وهنا وجمت كأنها لا تجسر على إتمام القول، فقالت لها لوسي: بماذا يخبر الناس؟

إنك تقتليني صبراً يا أماه، ويجب أن أعرف سرّ الأمر، فإذا لم تخبريني به أرغمت لوسيان على إخباري، وإذا لم يخبرني أرغمت ماري وأباها.

ـ كلا، يا ابنتي. إنك لا تذهبين إليهم، وأنا أخبرك بكل شيء.

ـ ومتى أخبرتني زال الشك من قلبي وتمكنت من مسامحة لوسيان.

ـ إنّ لوسيان لا يستطيع أن يتزوج بكِ، وأنتِ نفسكِ لا ترضين بهذا الزواج قبل أن نثبت براءة أمك.

فاصفرّ وجه لوسي وقالت: أكانت أمي متهمةً؟

ـ إنّ أمك حُكم عليها بالسجن المؤبد لاتهامها بقتل والد لوسيان.

فصاحت لوسي صيحةً منكرةً وسترت وجهها بيدها،

وساد سكوت هائل بينها إلى أن عادت لوسي إلى الكلام، فقالت:

إذن هي أمي التي قتلت والد لوسيان وأحرقت معمله؟

ـ لوسي، إنّ أمك بريئة.

ـ ولكنهم حكموا عليها.

ـ وكان الحكم جائراً ظالماً، ألم تسمعي لوسيان مراراً يظهر اعتقاده ببراءة هذه المنكودة؟

ـ إذا كان يعتقد حقيقةً أنّها بريئة أكان يبتعد عني؟

ـ إنه لا يزال مرتاباً وفي كلّ حال، فإنّ الناس لا يعتقدون اعتقاده، وهو يخشى أقوال الناس.

فعضت لوسي يدها من اليأس وقالت: رباه لماذا ولدتني أمي؟

فأجابتها حنة بصوت مختنق قائلة:

ـ لا يجب أن تلعني أمك يا ابنتي ولو عرفتيها كما عرفتها لأشفقت عليها.

ـ أأنت تعرفين أمي؟

ـ نعم، عرفتها، فقد كانت شريفة باسلة لا تقدم على شر. وكانت تحب ابنتها وابنها حبّ عبادة.

ـ ابنها! ألي أخ؟

ـ نعم، لقد كان لك أخ.

ـ أهو على قيد الحياة؟

ـ لا أعلم. اختفى كما اختفيت أنت، فقد كانت تلك المنكودة تعبدكما، ولم يخطر لها في بال أنها ستفترق عنكما.

نعم، لقد عرفتها حق العرفان، فهي بعيدة عن الشر والآثام، ولا بد أن يكون رجل جهنمي ارتكب تلك الجرائم وألصق بأمك تهمتها، فثقي يا ابنتي أن أمك شريفة بريئة. ولا تلعنيها، فهي لا تستحق غير الشفقة والاحترام.

ـ كلا، إني لا ألعنها، ولكنها مع ذلك كانت السبب في كلّ عذابي.

نعم، إنهم حكموا عليها حكماً جائراً ولكني أنا الآن أتحمل تبعة هذا الحكم، فإنّ جميع الناس سيبتعدون عني منذعرين كما ابتعد عني لوسيان بعد أن كنت أحبَّ الناس إليه.

ـ لا تقنطي يا ابنتي من رحمة اللّٰه، فقد يرد إليك لوسيان. ومن يعلم ما يكون؟ فقد تفوز أمك بإظهار القاتل.

ـ نعم، لقد ذكرت ما قاله لي لوسيان، فإنها هربت من السجن.

ـ هو ذاك. ويقيني أنها ما هربت من السجن إلّا لتبحث

عن جاك جيرود القاتل الحقيقي، فتشجعي يا ابنتي. إني مقيمة معك أعزيك على نكبتك.

ولبثت حنة معها تعزيها وتسليها حتّى طاب خاطرها بالرجاء، وقامت إلى سريرها تستريح بالرقاد.

فتركتها حنة وعادت إلى غرفتها، فجعلت تبكي وتقول:

رباه متى ينقضي عذابي وعذاب ابنتي؟ إنّ قلبي يذوب أسفاً عليها وأنا لا أستطيع معونتها بشيء.

رباه ألا تعينني على إيجاد ذلك القاتل السفاك؟ رباه ألا تيسر لي سبيل الاجتماع بولدي؟ إني إذا لقيته أخبرته بكل أمري، فهو رجل يستطيع حماية أمه وأخته.

***

كان الهمّ قد برح بلوسيان لابرو، فكان يشتغل بضع ساعات في المعمل ويعود إلى غرفته في باريس فيقضي أوقاته مفكراً مهموماً قانطاً من رحمة اللّه والناس.

وقد ضاقت به الدنيا في يوم، فخطر له أن يزور صديقه جورج ابن حنة. ولقيه في منزله مع إتيان كاستل المصوّر.

فلما رآه جورج أجفل لنحوله، وقال له: ماذا أصابك؟ لعلك مريض؟

قال: كلا، لست بمريض.

ـ إذن، ما هذا الاصفرار والنحول؟! لعلك فقدت مركزك عند بول هرمان؟

فهز لوسيان رأسه وأشار إشارة نفي.

وقال المصوّر مخاطباً جورج: إنك عرفت ما كان بيني وبين ابنة هرمان حينما زارتني أخيراً لما سألت لوسيان هذا السؤال، فقد أخبرتني أنّ أباها سيشركه في أعماله.

قال لوسيان: نعم، فإنه اقترح عليّ هذه المشاركة.

قال المصوّر: وربما اقترح عليك الزواج بابنته أيضاً؟

فقال جورج: إني لا أعجب بذلك بعدما رأيته من ميل مداموزيل هرمان إليك، فهل كاشفك أبوها بهذا الزواج؟

ـ نعم، فقد حادثني بشأنه؟

ـ أهنئك أيها الصديق تهنئة خالصة، فهل اتفقتما على موعد الزواج؟

ـ كلا، فإني رفضته.

ـ ما هذا الجنون؟ أترفض الزواج بابنة تحبك وهي عظيمة الثروة؟!

نعم، فقد عرفت السبب، لقد نسيت أنك تحب سواها.

ـ إني أحب تلك الفتاة التي أخبرتك عنها بملء جوارحي، ولكن الواجب، واأسفاه، يقضي عليّ بأن لا أحبها. وإنما آسف لأني فقدت بفقد هذا الحب كلَّ سعادةٍ.

ـ إني لا أفهم ما تعنيه، فإنك إذا كنت تحبها كما تقول، فلا يوجد مانع يحول دون زواجك بها.

ـ لقد قلت لك إنّ الواجب يقضي عليّ بأن لا أتزوجها.

ـ ولكن لماذا؟

ـ لأنه يوجد دم يحول بيني وبين لوسي، وهو دم أبي.

ـ ماذا تعني بما تقول؟

ـ أعني أنّ لوسي ابنة حنة فورتيه، وهي المرأة التي حُكم عليها باتهامها بقتل أبي.

فوقف المصوّر لاندهاشه وقال: أأنت واثق من أنّ التي تحبها ابنة حنة فورتيه؟

ـ كلّ الثقة وأسفاه، فإنّ لديّ برهاناً على ذلك، وهو لا يزال معي.

ـ من أعطاك هذا البرهان؟

ـ المسيو هرمان.

فقطب المصوّر حاجبيه وقال:

أين عثر عليه؟

ـ في جوانيي. إنّ لوسي كانت عند مرضع فيها، فاضطرت أن ترسلها إلى ملجأ اللقطاء بإذن شيخ البلد.

ـ ولكن ما الذي جعل هرمان يفترض أنّ لوسي كانت ترضع في جوانيي؟ وكيف عرف ذلك؟

عصر لوسيان جبهته بيده، وقال:

لا أعلم. وكل الذي أعلمه أني أحبها، وأنه لا يحق لي أن أحبها.

ـ ولكن سمِعتُك مرةً تظهر اعتقادَك بأن حنة بريئة.

ـ ولكن الناس لا يعتقدون اعتقادي، والمحاكم حكمت عليها، فهل يمكنني، والناس كلهم يثقون أنها قتلت أبي، أن أتزوج ابنتها؟

فقال جورج: كلا، بل إنه لا يحق لك أيضاً أن تتردد في الأمر. وكل ما يجب عليك أن تصنعه هو أن تنسى لوسي. وفوق ذلك، ما الذي عزمت أن تصنعه؟

ـ عزمت على أن أبرهن على براءة حنة وأعيد لها شرفها.

ـ حسناً تفعل، ولكن أين براهينك على ذلك؟ بل أين البرهان الجديد الذي تستند به على إثبات براءتها، فتطلب إعادة النظر في قضيتها؟

ـ ليس لي برهان واأسفاه، ولكني أرجو إذا رأيت حنة أن أقف منها على الحقيقة، فأعثر بذلك على البرهان.

ـ إنها فرت من السجن، فلا سبيل إلى لقياها. ولكن لنفترض أنك التقيت بها، فمن أين تأتيك بالبرهان وهي لو كان لديها برهان براءتها لما سكتت عنه واحداً وعشرين عاماً؟!

كفى أيها الصديق، وكن رجلاً شديداً ولا تتردد في

الأمر، فإنّ بينك وبين لوسي حائلاً عظيماً، فاجتهد أن تنساها وتتزوج ابنة هرمان.

ثمّ التفت إلى المصوّر وقال له:

ألست ترتأي رأيي أيها الصديق؟

فأجابه إتيان قائلاً:

كلا، فإنّ الصدفة التي جمعت ابنة حنة بلوسيان تستطيع نفسها أن تظهر براءة حنة، فيزول الحائل بين العاشقين.

ـ ولكن هذه الصدفة إذا لم تظهر براءتها أضاعت مستقبل لوسيان.

ـ ولكنه إذا اتفق ظهور براءة حنة بعد زواجه بابنة هرمان فسيقتله الندم وينغص عيشه ما زال على قيد الحياة.

وعندي أنّه يجب أن يصبر ويوهم بول هرمان أنه سيتزوج ابنته، ويبحث في خلال ذلك عن جاك جيرود الذي قد يكون موجوداً في باريس الآن.

فقال له لوسيان: ألديك دليل على ذلك؟

قال: كلا، ولكني سأبحث أبحاثاً خاصة، وسأبدأ البحث منذ غد مستعيناً بأصحابي. وقبل ذلك أرجوك أن تأذن لي أن أسألك سؤالاً، وهو هل تعرف الاختراع الذي كان يشتغل به أبوك قبل قتله؟

ـ لقد أخبرتني عمتي مراراً أنّه كان يشتغل باختراع آلة للصقل.

فلبث المصوّر هادئاً بالظاهر، ولكن تقطيب حاجبيه كان يدل على أنّه اهتم بما سمعه اهتماماً عظيماً.

وبعد هنيهة افترق الثلاثة، فذهب لوسيان إلى غرفته وعاد المصوّر إلى منزله فدخل إلى غرفة المكتبة ففتح خزانة وأخرج منها غلافاً كبيراً كان مكتوباً عليه:

جورج فورتيه «1861».

فجعل يقرأ ما في هذا الغلاف من المذكرات، وقد كتب على بعضها جاك جيرود، وعلى بعضها اسم بول هرمان.

فلندع الآن المصوّر يهتم بمذكراته عن هذين الاسمين، فسيظهر سبب اهتمامه بهما بما سيجيئ من الفصول، ولنعد إلى أوفيد سوليفو.

* * *

صحت أماديا من رقادها في الصباح، وشعرت بارتخاء في جميع أعصابها من تأثير الشراب دون أن تعلم السبب.

وفيما هي على هذه الحال، قُرِع جرس باب الفندق، فقال أوفيد: هو ذا قد حضر، فلأذهب لفتح الباب له.

فلما باتت أماديا وحدها زادت دهشتها، فقالت في نفسها:

إنّ الطبيب قادم لعيادتي كما يظهر فيما أصابني وماذا حدث لي، فإني أشعر بضيق عظيم في صدري.

وبعد هنيهة دخل أوفيد يصحبه الدكتور ريشار، فعرفت أماديا الأوّل أنّه نفس الطبيب الذي عالج أمس دشمان.

ودنا الطبيب من أماديا وسألها عن حالها.

فقالت له: لعلي كنت مريضةً؟

قال: إنك أصبت أمس بنوبة عصبية، ولكن أعراضها زالت بحمد اللّٰه.

ـ ولكني أشعر بارتخاء شديد في مفاصلي، فمن أين هذا؟

ـ لا تخشي، فإنّ ذلك من تأثير نوبة الأمس، وسيزول غداً دون شك.

ـ ولكن كيف فاجأتني هذه النوبة العصبية؟ فإني لا أذكر شيئاً من أمرها.

فأشار الطبيب إلى أوفيد، وقال:

إنه يستطيع أن يفيدك عن ذلك أكثر مما أفيدك.

فقال لها أوفيد: إنك أصبت بعد العشاء فجأةً بتشنجات عصبية لم يتقدمها سبب، وكان يظهر من صيحاتك أنّك كنت تتألمين كثيراً.

ـ ما هذا الأمر الغريب؟ فإنّ ذلك لم يتفق لي قبل الآن.

فقال لها الطبيب:

لا تجهدي نفسك بمعرفة الأسباب، فإنّ كلّ خطر قد زال ولم يبقَ لك حاجة لعلاجي. أستودعك اللّٰه.

ثمّ انصرف الطبيب، وشيعه أوفيد إلى الباب الخارجي.

قال له الطبيب: احذر أن تسقيها مرة أخرى من ذلك السائل، فإنك تقتلها.

قال: إني لا أعود إليها يا سيدي.

تركه الطبيب، وقد أبى أن يأخذ أجرةً. وعاد أوفيد وهو يقول في نفسه:

لا شك أني موفق، فلو ماتت لفضح هذا الطبيب أمري.

ولما دخل إلى الغرفة، قالت له أماديا:

لقد أصبحنا الآن أيها البارون وحدنا، فقل بجلاء ماذا حدث بيننا أمس؟

قال: إني لا أعلم من ذلك أكثر مما تعلمين، فقد فوجئت بهذه التشنّجات.

فأسرعت لأنادي الطبيب، ولقيته عند الباب مع صاحبة الفندق. والآن فإني سأرسل لك الخادمة وأدخل إلى قاعة الطعام لمناولة الفطور.

ثمّ خرج فشيعته أماديا بالنظر وهي مقطبة الجبين، ثمّ جعلت تقول في نفسها:

كلا إنّ كلّ ما اتفق لي غير طبيعي وليس بمعقول، فإني كلّ ما تمعنت في الأمر زادت ريبتي بهذا الرجل..

وكل ما أذكره أنّي كنت أشرب من زجاجة الشرتريز، ثمّ لم أعد أذكر شيئاً، فهل كان يريد هذا البارون قتلي بالسم؟

ولم يكد يخطر لها هذا الخاطر حتّى زال ضعفها ووثبت من السرير، فأسرعت إلى زجاجة الشرتريز ونظرت فيها فرأتها فارغة.

فزادت دهشتها وقالت:

إني لم أشرب من هذه الزجاجة غير كأسين وكانت ملآى، فأين ذهبت البقية؟ لا شك أنّ هذا الخبيث وضع السم في هذه الزجاجة، ثمّ كب ما فيها إخفاءً لجريمته.

نعم، إنه يريد قتلي دون شك.. ولكن ترى من هذا الرجل الذي يتردد في قتل لوسي.. لا بدّ لي أن أعرفه وسأعرفه.

* * *

وعاد أوفيد إليها بعد الفراغ من طعامه، وأقام معها بقية يومها وهو يلاطفها ويجاملها ويعتني بها كلّ العناية.

وكذلك أماديا، فإنها كانت تظهر له تودداً عظيماً تخفيه تحت آثار حقدها إلى أن قالت له:

لقد خطر لي أن أكتب إلى مدام أوغستين أسألها إطالة إجازتي أسبوعاً أيضاً، فهل توافق على ذلك؟

فأجابها قائلاً:

دون شك، ولكن لا بدّ لي أن أفارقك يومين على الأقل.

ـ كيف تدعني وحدي؟ ولماذا؟

ـ لأني أخبرت امرأتي في باريس أني سأغيب عنها أسبوعاً فقط، وهي تعتقد أنّي في مرسيليا.

فإذا كتبت لها من هذه القرية عرفت من طابع البريد أني فيها، فخير لنا أن تبقي يومين وحدك.

ـ لقد أصبت، وسأكتب الكتاب.

ولما كتبت الرسالة إلى مدام أوغستين أعطته إياها كي يلقيها في صندوق البريد، فأخذها أوفيد وانصرف.

أمّا أماديا، فإنها أخذت كتاباً وذهبت إلى مكان كثرت فيه الخضرة تجاه منزل الدكتور ريشارد، وأقامت هناك وجعلت تتلهى بالقراءة.

ولكنها لم تستطع القراءة لاضطراب أفكارها وانشغال بالها. أطبقت الكتاب ووضعته على ركبتها واسترسلت إلى التفكير، فجعلت تقول في نفسها:

إنه يحاول الهرب مني، ولكني سأدركه أينما ذهب. والويل له حين أثق أنّه حاول تسميمي وقتل لوسي، فإني سأنتقم منه شرّ انتقام ولو نتج عن ذلك فضيحة أمري.

***

أمّا أوفيد، فإنه برح الفندق وسار على رصيف السين كي يبلغ المحطة فرأى على مسافة قريبة منه الدكتور ريشار يصحبه ذلك الرجل الشيخ الذي رآه في غابة فرنتنبلو يوم وصوله إلى قرية غابة الملك.

وكان يصحبهما المرأة الكهلة والصبيتان، فلما مر بهم حيا الدكتور ريشار فردّ تحيته ببرود.

ولم يكد أوفيد يتقدمهم بضع خطوات حتّى سمع لغطهم، فالتفت فرأى أنّ الهواء أطار قبعة الشيخ عن رأسه وهم يركضون في إثرها، فأسرع أوفيد إلى التقاطها وناولها إلى الشيخ.

فشكره الشيخ وهو يحدق به تحديق المرتاب، ولكنه قبل أن يتم جملته عرفه، وقال له:

أأنت هنا؟ إذن لقد برحت البلاد الأميركية؟

فقال له أوفيد: يظهر يا سيدي أنك عرفتني ولكني لم أعرفك.

ـ لقد كنت وإياك في باخرة واحدة سنة 1861، فإذا كنت لا تذكرني فأنا أذكرك، وربما ذكرتني متى عرفت اسمي، فإني أدعى رينيه بوسك.

ثمّ أدار ظهره وعاد إلى رفاقه دون أن ينتظر جوابه، فقال له الطبيب: لعلك تعرف هذا الرجل؟

قال: نعم، وسأخبرك بأمره في الحال.

أمّا أوفيد، فإنه أسرع الخطى إلى المحطة، وهو يقول في نفسه:

لقد بات الخطر شديداً عليّ بإقامتي في هذه القرية، فإنّ هذا الشيخ متصل بالطبيب وكلاهما قابض على عنقي.

حتّى إذا وصل المحطة ألقى كتاب أماندا في صندوق البريد وأرسل التلغراف إلى بول هرمان يقول له في معمله:

سأعود إلى باريس غداً

بارون دي ريس

* * *

أمّا الشيخ رينيه بوسك فقد وصل مع عائلته والطبيب إلى منزله فوجد أخت الطبيب مقيمة في الحديقة، فدعت الشيخ إلى الإقامة بجانبها في ظل الشجرة، وقالت له:

اجلس هنا اتقاء للهواء، فإنه شديد.

قال: لقد أصبت، فإنه أطار القبعة عن رأسي واضطررت إلى الالتقاء برجل شقيّ ما كنت أحب أن أراه.

وقد تقدم لنا القول إنّ أماديا كانت جالسة على بساط من الخضر وراء حديقة منزل أخت الطبيب، بحيث لم يكن يفصل بينها وبين الشيخ ورفاقه غير الجدار.

وقد سمعت صوت الشيخ، فتنبهت من غفلتها وأصغت إلى الحديث. قال الطبيب عند ذلك للشيخ:

إنك إذا كنت تعني به ذلك الرجل الذي التقط قبعتك، فهو من أشقى الأشقياء.

ـ هو بعينه.

ـ إذن، فهو البارون دي ريس.

ـ ما هذا الاسم الذي ذكرته؟ أتعني به ذلك الرجل الذي قلت له إننا اجتمعنا في الباخرة سنة 1861؟

ـ نعم.

كيف عرفته؟

عرفته أمس، فقد دعاني لمعالجة امرأة تقيم وإياه في الفندق.

قامت أماديا عند ذلك والتصقت بالجدار كي لا تفوتها كلمةٌ من الحديث، فقال الشيخ:

إنّ هذا الرجل ليس باروناً كما يدّعي، فإنه يدعى أوفيد سوليفو، فقالت أماديا في نفسها: لقد طبع هذا الاسم على صفحات قلبي فلا أنساه.

ومضى الشيخ في حديثه، فقال:

إنّ هذا الرجل كان معي في الباخرة لورديمر المسافرة إلى أميركا، وهو الذي سرق ثروتي كما أخبرتك من قبل.

ـ أتركته من غير عقاب.

ـ لقد قلت لك أيضاً إنّ الرجل الذي أنقذ ثروتي من مخالبه، وهو بول هرمان شفع فيه.

ـ لم أكن أعرف شيئاً من أمره، ولكن عينيه دلتاني لأول وهلة أنّه من أهل الشر.

وقد اتفق لي أمس ما أيّد عندي هذا الاعتقادَ، أتذكر ما حدثتك به أمس عن ذلك الشراب الكندي؟

إذن، فاعلم أنّ هذا الرجل الذي يدعى البارون دي ريس قد سقى أمس المرأة التي تصحبه من هذا الشراب كي يقف على أسرارها، فأصيبت بنوبة عصبية شديدة. ولو لم أصل حين الأوان لقضى عليها بالموت، فقد سقاها أكثر من القدر المعين.

وقد تحدثوا حيناً بحديث أوفيد ثمّ انتقلوا إلى حديث آخر، فعرفت أماديا ما كانت تتوق إلى عرفانه وقالت في نفسها:

لقد صدق ظني بهذا الرجل، فقد كان في بدء أمره لصاً ثمّ صار سفاكاً، وكان في أميركا وقد تولى حمايته بول هرمان والد ماري التي تشتغل لها لوسي.

نعم نعم، إنّ الأمر جلي ظاهر، فقد كان يود أن يعرف حقيقة أخبار لوسي فعرفها مني دون أن أدرك شيئاً من قصده، بحيث بثُّ شريكته دون أن أعلم. وقد أراد قتلي بذلك الشراب الكندي بعد الوقوف على أسراري، وأنا قد بحثُ بها دون شك فعرف حقيقة أمري.

ولكنه لا يعلم الآن أني عارفة بأمره، وأني سأكون أشد منه. ليسافر إلى أين شاء، فإنه متصل ببول هرمان فلا تخفى عنا آثاره. وهذا الشراب الذي سقاني منه لا بد أن يكون في الغرفة، فلأبحث عنه قبل أن يعود.

ثمّ أسرعت إلى الغرفة كي تبحث عن ذلك الشراب،

ولكنها قبل أن تبدأ بحثها سمعت وقع خطوات أوفيد، فجلست على كرسي وتظاهرت أنها منهمكة بالمطالعة.

أمّا أوفيد، فإنه دخل وهو يبتسم فقال:

لقد كنت أحسب أنك في الحديقة.

قالت: لقد كنت فيها فاضطررت إلى الرجوع لشدة الهواء، فهل أرسلت الرسالة؟

قال: نعم.

ـ ألا تزال مصرّاً على السفر غداً؟

ـ بل إني أحب أن أسافر الليلة إذا كان ذلك لا يسؤك كي أتمكن من الإسراع بالعودة.

ـ إذن فاذهب الليلة، ولكن متى تعود؟

ـ بعد غد دون شك. والآن أستودعك الله، فإني مسافر قبل أن يفوتني القطار.

ثمّ أخذ حقيبته وقبّل جبين أماديا وانصرف.

وبعد انصرافه نادت أماديا خادمة الفندق، وسألتها عن دشمان الجريح، فطمأنتها عنه. قالت لها:

إني أحب منذ الآن أن آكل على المائدة العمومية لا في غرفتي، وأحب أن أرى ذلك الجريح دون أن يعلم أحد أني اجتمعت به.

وعدتها الخادمة بتسهيل ذلك الاجتماع وانصرفت في شأنها.

* * *

أمّا مدام أوغستين الخياطة، فإنها أجابت أماديا بعودة البريد تأذن لها بالغياب أسبوعاً أيضاً.

وبعد أن أرسلت ذلك الكتاب أخبروها أنّ المدموازيل ماري هرمان تنتظرها في القاعة.

أسرعت الخياطة إلى استقبالها ووجدت أنها تغيرت تغيراً عظيماً، فتورد خداها وذهبت آثارُ نحولها وبدت عليها علائمُ الصحة.

أمّا ماري، فإنها بدأت الحديث بقولها: إني قادمة لاختيار ملابس للرقص والزواج.

فقالت لها الخياطة:

لعلي سأتشرف يا سيدتي بإعداد ثوب زواجك؟

ابتسمت ماري وقالت:

ذلك ممكن، فإنّ زواجي قد تقرر مبدئياً، ولكن موعده لم يتعين بعد، غير أني أحب الإسراع بإعداد ملابسي.

ـ كما تريدين، غير أني لا أستطيع اليوم أن أعد لخدمتك تلك الخياطة التي كنت تسرّين بها، فإنّ المنكودة مريضة.

فقطبت ماري حاجبيها وقالت:

لا بأس، فإنّ الخياطات كثيرات.

فدهشت مدام أوغستين وقالت:

كيف ذلك يا سيدتي؟ لعلك غاضبة على لوسي، فقد كنت راضية عنها من قبل؟

ـ إني أكون ممتنة لك إذا انقطعت عن محادثتي بشأن هذه الفتاة.

ـ إني لا أكلمك كلمة بشأنها، وحبّذا يا سيدتي لو تفضّلت بإخباري عن السبب الذي أغضبك عليها.

ـ إني لا أشكو لوسي، غير أني لا أحب أن تخيط ملابسي، ولا أن تدخل منزلي.

ـ ولكن لماذا؟

ـ لأني أريد، وهذا يكفي فيما أظن.

وكانت مدام أوغستين تحب لوسي حب الأم لابنتها، فقالت لها بلهجة احترام:

ولكن يستحيل عليّ يا سيدتي أن أكتفي بهذه الأقوال، فقد ولّدتِ في نفسي الريبَ بفتاة أثق بها كلّ الثقة. وقد جرحت جرحاً بالغاً وهي في خدمتي، ولا شك أنّه يوجد سبب دفعك إلى الغضب عليها. وأنا أحب أن أعرف هذا السبب، فإذا كانت لوسي غيرَ جديرة بصداقتي انتزعت منها هذه الصداقةَ.

ـ لا أستطيع أن أقول شيئاً.

* * *

ولم تكد ماري تتم هذه الكلمات حتّى فتح الباب ودخلت منه لوسي، وقد اصفر وجهها حتّى باتت

كالأموات. نظرت إلى ماري وقالت لها بصوت يتهدج من التأثر:

إنّ من يبدأ بالخيانة يتمها أيتها السيدة.

فظهرت علائم الغضب على ماري وارتجفت مدام أوغستين، فقالت لها: لوسي... ماذا تقولين؟

قالت: أسألك المعذرة يا سيدتي، فقد كنت وراء الباب أنتظر إلى أن تصبحي وحدك، فأدخل إليك وقضت الصدفة أن أسمع ما قالته السيدة وهاجت بي الأنفة، فما استطعت أن أضبط نفسي.

إني سمعتها تهينني بشكل يضر بسمعتي أمامك ويفقدني ثقتك بي وصداقتك التي أفتخر بها.

بل إنها حاولت مسّ شرفي، فلم أجد بدّاً من الدفاع. وها أنا أمامك الآن، فاسألي مدموازيل هرمان أن تخبرك أمامي لماذا لا تريد أن أدخل إلى منزلها. ولتتم نميمتها إذا كانت تجسر على ذلك.

فقالت ماري لمدام أوغستين:

إني أُهان عندك وأنت تسكتين.

فأجابتها لوسي قائلة:

أتعدّين كلامي إهانة؟! لعلك نسيت أيتها السيدة أنك زرتني منذ ثمانية أيام في شارع بوربون وصعدت إلى غرفة

تلك الفتاة الحقيرة العاملة المقيمة في الدور السادس، والتي تحتقرينها اليوم؟

فقالت ماري: كفى.

قالت: بل تسمعين كلّ حديثي، فإني أريد تبرئة نفسي. أسمعت إني أريد..؟

ـ كلا فإني لا أسمع كلمة.

وحاولت ماري أن تسير إلى الباب فتصدّت لها لوسي، وقالت لها مدام أوغستين: لوسي ماذا تفعلين؟

قالت: إني أريد أن أبرئ نفسي يا سيدتي، فهذا حق لا أتنازل عنه. وعليك بعد ذلك أن تحكمي بما ترتأين.

فاعلمي أنّ مدموازيل هرمان زارتني في غرفتي الحقيرة منذ ثمانية أيام وركعت أمامي وتوسلت إليّ باكية أن أضحي بنفسي لأجلها، واقترحت عليّ أن تهبني ثلاثمائة ألف فرنك إذا رضيت أن أبرح فرنسا.

أتعلمين يا سيدتي لماذا فعلت كلّ هذا؟

ذلك لأني مزاحمتها، فإنها تحب الرجل الذي أحبه ويحبني. وهذا هو السبب الوحيد في ما تظهره من بغضي.

سليها إذا شئت، بل أنا أسألها، لعلي كاذبة أيتها السيدة في ما قلته عنك.

إنك تحبين لوسيان لابرو، ولما عجزت عن امتلاك

قلبه بالحب أردت شراءه بالمال، وإنك تبغضينني لأنك تعلمين يقيناً أنك لا تستطيعين غير شراء اسمه. أمّا قلبه فإنه يبقى لي.

فابيضت شفتا ماري وبرقت عيناها بأشعة من الغضب وقالت: ألا تخافين أن أتكلم؟

قالت: كلا، لا أخاف، بل أنتظر أن أسمع من فمك إفكاً جديداً وأنا شامخة الرأس.

ـ أتجهلين أني أعرف اسمك؟

ـ إنّ اسمي لوسي، وإذا كنت تشيرين بذلك إلى أمي فهذه خيانة جديدة تُضاف إلى خياناتك.. وماذا يهمك إذا كانت أمي متهمة، أيحق لك أن تهيني ابنتها البريئة؟!

نعم، إني أدعى لوسي فورتيه، فهل أنا جانية؟

إني واقفة أمامك وجهاً لوجه، فأنت غنية وأنا فقيرة، وأنت شريفة الاسم ونسبي ملوّث بالعار، ولكني أؤثر ألف مرة أن أبقى أنا على أن أكون أنت.

فالتفتت ماري إلى مدام أوغستين وقالت لها: إما تطردين هذه الفتاة في الحال أو أعتبر أنك تهينيني كما أهانتني، فإنّ أمّها ارتكبت ثلاث جنايات، وهي السرقة والإحراق والقتل.

فقالت مدام أوغستين للوسي: اذهبي إلى الصراف واقبضي بقية حسابك، فلم يبق لك عمل عندي.

فابتسمت ماري ابتسام المنتصر ورأت لوسي تلك الابتسامة، فقالت:

إنك تسرّين بطردي، أليس كذلك؟ وإنك لم تقنعي بسلبي الرجل الذي أحبه ويسحق قلبي، فأردت قطع رزقي، فإنهم سيسألون في كلّ مكان أريد الشغل فيه مدام أوغستين عني فتقول لهم أنّ أمها محكوم عليها بالسجن المؤبد لأنها سارقة قاتلة.

فقالت لها مدام أوغستين بصوت التأثر: لوسي؟

فأجابتها لوسي بصوت خنقته العبرات قائلة:

إنك عاملتني معاملة لا أستحقها ولكني أغفر لك. وأما أنت يا ابنة هرمان فإنّ اللّه سينتقم لي منك.

ثمّ تركتهما وانصرفت.

* * *

بينما كانت هذه الحوادث تجري في مخزن هذه الخياطة، كان جورج داريه المحامي خارجاً من منزله يتأبط محفظة وغلافاً، حتّى إذا وصل إلى شارع بوربون ركب مركبة فسارت به إلى المحكمة، ولكن الغلاف سقط منه على الأرض دون أن ينتبه.

وبعد هنيهة كانت حنة عائدة إلى غرفتها، فعثرت بذلك الغلاف وكان مفتوحاً، فقرأت ما فيه من الأوراق، وعلمت

أنها أوراق قضايا مختلفة وأن صاحبها يدعى جورج داريه المحامي، ذكرت أنّه صديق لوسيان لابرو، وقالت سأرجع إليه هذا الغلاف المفقود وذهبت إلى غرفتها.

أمّا لوسي فإنها خرجت من ذلك المخزن خروج آدم من الجنة وقد هدّ اليأس حيلها حتّى وصلت إلى غرفتها، فانطرحت بين يدي حنة وهي تقول:

لقد أصبت بالضربة الأخيرة القاضية، فقد طردتني مدام أوغستين طرد المجرمين وأصبحت من غير مورد، فلم يبق لي غير الموت.

شعرت حنة أنّ قلبها يكاد يخرج من صدرها وقالت: لماذا طردتك؟

ـ لماذا؟! لأني ابنة حنة فورتيه.

فضغطت حنة على عنقها حتّى كادت تخنق نفسها وقالت لها: من الذي أخبرها بذلك؟

ـ ابنة هرمان، فإنها لم تكتفي بسلبي قلبي.

ثمّ حكت لها وهي تبكي جميع ما اتفق لها.

لما فرغت من حديثها قالت لها حنة: إنّ هؤلاء الأشرار لا يجب أن يبقوا دون عقاب.

ـ كيف نعاقبهم؟ وعلى ماذا؟

إنهم يعاقبون لنميمتهم وما ترتب عليها من الإساءة

إليك. ولا بد من مخابرة محامٍ بارع في هذا الشأن، فهل تعرفين عنوان المحامي جورج داريه؟

ـ نعم، فهو يقيم في شارع بونابرت نمرة 27.

ولكن لا تذهبين إليه، إنه صديق لوسيان وقد لا يرضى الدفاع عني.

ـ بل إني أرجو أن يثني لوسيان عن عزمه ويكون له خير معين.

ـ ولكن بول هرمان من زبائنه.

ـ لا بأس بذلك، فإنه يستطيع إقناع زبونه، لتقبح ما يظهره من العيوب.

نعم، لا بد لي من الذهاب إلى جورج داريه، وها أنا ذاهبة الآن.

وقد تركتها لفورها وذهبت إلى منزل جورج، فأخبرتها الخادمة أنّ المحامي ذهب إلى تورس للدفاع في قضية خطيرة، وأنه سيعود الأربعاء، أي بعد أسبوع.

اغتمّت حنة لهذا الاتفاق وعادت إلى لوسي، فوجدت أنّ الحمى قد فاجأتها بشدة عجيبة.

ذعرت حنة وأسرعت فأحضرت طبيباً، ولما فحصها هزّ رأسه وقطب حاجبيه وقال: إنّ الحالة خطيرة فيما أراه، ولكن الحمى مختلفة الأعراض كثيرة التقلبات. وعسى أن تنتهي بخير.

* * *

لا بد لنا أن نظهر للقرّاء السبب في قدوم راوول دشمان إلى باريس. وهو ذلك الفتى الذي أغوته أماديا في جوانيي، فاضطر في سبيل الإنفاق عليها إلى ارتكاب جريمة التزوير وأصيب باصطدام حين وصوله إلى قرية غابة الملك.

والسبب في قدومه أن أوفيد أغواه على سرقة السجل من إدارة المشيخة التي كان موظفاً فيها ودفع له مبلغاً من المال لسداد دينه كما تقدم. دفع ذلك الفتى كلّ دينه وجعل ينفق عن سعة، فاشتهر أمره بين أهل تلك القرية الصغيرة ورابهم إنفاقه ووفاء دينه وهم يعلمون أنّه من أهل العسر والإملاق.

تناقل الناس حديثه حتّى اتصل برئيسه شيخ البلد، وطلب إليه أن يوضح له كيف أتى بهذا المال وكيف ينفق النفقاتِ الباهظةَ على عسره.

لم يستطع راوول أن يخبره بحقيقة أمره، ثمّ سأله عن ذلك الرجل الغريب الذي كان يختلي به.

لما أبى أن يجيبه قال له: إمّا أن تعتزل الخدمة أو أقيلك منها، فلم يجد المنكود بدّاً من الاعتزال.

ولم يكن باقياً معه غير القليل من مال أوفيد.. ورأى أنّ الإقامة في تلك القرية باتت مستحيلة لأن جميع أهلها كانوا ينظرون إليه بعين الازدراء، فعوّل على الرحيل إلى باريس في التماس الرزق.

ركب القطار، حتّى إذا بلغ محطة قرية الملك اصطدم بقطار آخر وجرح رأسه، فنقل إلى الفندق كما تقدم.

وقد تقدم لنا القول إنّ أماديا اتفقت مع خادمة الفندق على أن تمهد لها سبيل الاجتماع براوول سرّاً.

أقامت أماديا تنتظر دنو تلك الساعة، وهي غير منكرة عدم رجوع أوفيد لوثوقها أنّه يريد الفرار منها.

وكانت قد عزمت عزماً أكيداً على الانتقام منه بعد ما عرفت ماضي أمره من ذلك الحديث الذي سمعته، وكانت تريد أن تستعين براوول دشمان على هذا الانتقام.

وما زالت تنتظر إلى أن دنت تلك الساعة، فجاءت الخادمة ودخلت بها إلى راوول، فتركتهما معاً وانصرفت.

لما رآها راوول ذعر وقال: من أرى؟! أماديا؟!

أخذت أماديا يده وقالت له: نعم، أنا هي أيها الحبيب، فلا يذهلك حضوري إليك لأني كنت حاضرة ساعة الاصطدام، فعلمت أنّهم نقلوك إلى هنا. وكنت أنتظر بفارغ الصبر أن تتماثل إلى العافية لأراك.

ذكر راوول ماضي أمره مع هذه الفتاة، فجذب يده من يدها بعنف وقال لها: ماذا تريدين مني بعد ما كان بيننا؟ فإني ما أصبت بهذه النكبة إلّا بسببك.

ـ بسببي أنا؟

ـ نعم، فإني خسرت منصبي واضطريت إلى مبارحة جوانيي بسبب هذه الورقة التي زوّرتها كي أحصل على المال الذي طلبته مني. وقد تدنس اسمي بسببك وضاع مستقبلي، فما ندمت إلّا لأني لم ألقَ الموت بهذا الاصطدام.

ـ إني أستحق هذا اللوم منك يا راوول، فقد أسأت إليك إساءةً عظيمة أسألك عنها الغفران.

ولكني أتيت إليكَ الآن لمباحثتك في أمر خطير أرجو أن يعيد إليك آمالك في المستقبل، فهل تصغي إليّ؟

ـ لا بدّ لي من سماعك ما زلت هنا.

ـ قل لي إذن، أتعرف البارون دي ريس؟

فنظر راوول إليها محدقاً وقال: البارون دي ريس؟

ـ نعم، فهو ذلك الرجل الذي اجتمع بك في جوانيي منذ شهر واحد وأخذ الورقة التي زوّرتها.

فاصفرّ وجه راوول وقال: كيف عرفتِ أنّ الورقة بيده؟

ـ لقد فعل معي نفس ما فعله معك. اشترى سنداً عليّ من الخياطة التي كنت عندها في جوانيي وفيه اعتراف بسرقتي.

أمّا أنا فقد عرفت السبب الذي دعاه إلى تقييدك.

ـ لماذا؟

ـ لأنه يجب أن نكون متضامنين متكافلين، فإنّ هذا الرجل يهددني كما يهددك. ويجب أن نتفق على الدفاع ونوحد القوتين.

اضطرب راوول وقال: إني لا أخافه.

بل إنك تخافه، ويجب أن تخافه. دع البلاهة وقل لي: كيف نال البارون تلك الورقة المزوّرة؟

ـ بدفع قيمتها.

ـ أتعرف هذا الرجل من عهدٍ بعيد؟

أكان من أصحابك؟

ـ إني رأيته في جوانيي لأول مرة.

ـ كيف أراد مساعدتك وهو لا يعرفك؟ وكيف عرف ماضيك؟

ـ لا أعلم. إنه عرض عليّ مساعدته فقبلتها.

ـ كيف تقبل مساعدته قبل أن تعرف أغراضه؟

ـ ذلك أني كنت في أشد حالات النكد، ولم أجد بداً من القبول.

ـ أتريد إقناعي بأنه لم يسألك شيئاً في مقابل هذه الخدمة؟

ـ ماذا تريدين أن يطلب مني؟

قل لي الحقيقة يا راوول بجملتها، ولا تكتم عني أمراً، فإنّ هذا الرجل من أشد أهل الشر، وهو ينذرني وإياك، وما هو ببارون كما تتوهم.

ـ ماذا يدعى؟

ـ أوفيد سوليفو، وهو لص قاتل سفاك، حاول قتلي بالسم منذ بضعة أيام.

ـ لماذا أراد تسميمك؟

ـ لأنه علم أني عرفت حقيقة أمره. إنّ هذا الرجل قد ارتكب كثيراً من الجرائم، وقد ارتكب أخيراً جريمة لم يفلح بها.

ـ ما هي؟

ـ إنّه منذ شهر حاول الفتك بفتاة يتيمة رُبيت في ملجأ اللقطاء، فأصابها بجرح بالغ ولكنها لم تمت.

ـ أواثقة أنّه هو الجاني؟

ـ كلّ الثقة. أنا ينقصني دليل واحد، إذا فزت به انتقمت منه شر انتقام.

ـ أتعرفين اسم هذه اليتيمة؟

ـ نعم، فهي تدعى لوسي.

ـ لوسي.. إنه نفس الاسم المكتوب في السجل الذي طلبه مني.

فاتقدت عينا أماديا ببارق رجاء وقالت:

أخبرني بأمر هذا السجل.

أخبرها راوول بكل ما اتفق له مع أوفيد.

قالت أماديا: لم يبق شك لدي بأنه هو الفاعل وكفى هذا السجل دليلاً. قل لي الآن: ألم يكن لك حق بإعطائه هذا السجل؟

ـ كلا، إذ يجب أن يبقى في خزائن المشيخة.

ـ وإذا عرفوا أنك أعطيته إياه، ماذا يحدث؟

ـ يقضي عليّ قضاءً مبرماً.

ـ ألا ترى أنّه يجب أن تنتقم من هذا الرجل الذي أنقذك من هوّة ليرميك في هاوية؟ ألا يجب عليك أن تسترد منه تلك الورقةَ المزوّرةَ وذلك السجل على الأقل؟

ـ حبذا لو تمكنت من استردادها ومن الانتقام، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

ـ أتثق بي؟

تردد راوول هنيهة ثمّ قال: نعم.

ـ أتدعني أتولى العمل على أن تخضع لي بملء الطاعة؟

ـ نعم، فماذا يجب أن أعمل؟

ـ يجب في البدء مراقبة هذا الرجل.

ـ ولكن ذلك يقتضي كثيراً من النفقات، ولا مال لي.

ـ إني أعطيك ما تحتاج إليه. والآن فإنا أصبحنا شريكي هذا الرجل بآثامه دون أن نريد، ولا بدّ لنا أن نتحد للدفاع.

وهنا قصت على راوول جميع ما اتفق لها مع أوفيد.

فلما أتمت كلامها قال لها:

لقد ظهر جلياً أنّه لم يعاشرك تلك العشرة إلّا للوقوف منك على أخبار تلك الفتاة التي حاول قتلها، وأنه لا يأتي إليك بعد الآن لريبته بك، فكيف السبيل إلى إيجاده؟

قالت: إنه يعرف في باريس رجلاً يدعى بول هرمان من كبار أصحاب المعامل، وله به اتصال، فلا بدّ من مراقبته قرب منزل هرمان وقرب معمله.

ولكني لا أستطيع ذلك قبل أن أشفى.

ـ سننتظر شفائك، فإنّ المهم في الأمر أن نتفق وقد اتفقنا، أليس كذلك؟

ـ دون شك، فهل أراكِ غداً؟

ـ نعم، فإني لا أستطيع مبارحة هذا الفندق قبل بضعة أيام.

وعند ذلك ودّعت أماديا عشيقها القديم، وانصرفت وهي فرحة بهذا الاتفاق لاعتقادها أنها ستقضي به على أوفيد القضاء المبرم.

* * *

وفي صباح اليوم التالي عادت أماديا إلى راوول ودلّته على المكان الذي تشتغل فيه عند مدام أوغستين وودعته بعد أن عقدا محالفة هجوم ودفاع وأقسما اليمين على الوفاء، وعادت إلى باريس.

ولما وصلت إلى باريس علمت أنّ مدام أوغستين طردت لوسي لاختصامها مع ماري هرمان على لوسيان لابرو، وأن ماري ستتزوج بخطيب لوسي، وأن لوسي ابنة امرأة محكوم عليها بالسجن المؤبد.

استنتجت من كلّ ذلك أنّ أوفيد سوليفو كان يشتغل لحساب بول هرمان، وأنه أراد في البدء قتل لوسي ولما لم يفلح بحث عن طريقة تدنس سمعتها وتقصيها عن خطيبها، وقد ظفر بمراده بمساعدة راوول دشمان الذي أعطاه السجل.

وقد انتظرت إلى يوم الأحد فركبت القطار وذهبت إلى قرية غابة الملك، حيث اجتمعت براوول وأخبرته بكل ما علمته عن لوسي.

استاء هذا الفتى استياءً شديداً لأنه كان السبب في شقاء تلك المنكودة، وجدد مع أماديا عهد الاتفاق على الانتقام. تركته أماديا بعد أن اتفقت معه على أن يقيم عندها حين عودته إلى باريس.

* * *

لم تقل ماري هرمان كلمةً لأبيها عما جرى لها في منزل الخياطة مع لوسي، فإنها كانت تعلم أنّ انتصارها على تلك الفتاة العاملة ليس مما يُفتخر به، ولكنها كانت فرحة لأنها ضربت خصيمتها ضربةً هائلةً فلم تعد تكترث لغير ذلك، لا سيما وأنها استنتجت من يأس لوسي أنّها لم تعد تطمع بأن ترى لوسيان.

على أنّ الفرح والرجاء إذا كانا قد أنعشا تلك الفتاة المصدورة، فإنما كان ذلك الانتعاش عرضاً زائلاً بسبب تلك العلة التي لا شفاء لها، فإنها كانت تسير بها إلى درجات القبر.

وكان لوسيان يقول في نفسه كلما رآها: إنّ الزواج بهذه الفتاة مستحيل، فإنها تكاد تبلغ حد الاحتضار.

على أنّه كان يجتنب جهده مقابلتها، فإنّ الأب والبنت قد أمهلاه إلى أن يتمكن من نسيان لوسي.

لكنهما كانا يودان أن يكون ذلك قريباً، فإنهما كانا يشعران أنّه لن ينسى غرامه القديم.

وكان جاك يرى أنّ ابنته آخذة بالذبول، ولكنه كان يصبر ويرجو أن تشفى بالزواج.

في صباح ذلك الأحد، الذي سارت فيه أماديا إلى قرية غابة الملك، كان إتيان المصوّر قد كتب إلى لوسيان لابرو

يدعوه إلى قضاء هذا اليوم عنده مع صديقه جورج، الذي عاد من نورس.

لبى لوسيان الدعوة ووصل قبل جورج، فدار الحديث بينهما. قال المصورّ: لقد فعلت ما سألتني أن أفعله، وبحثت عن حنة فورتيه، فعلمت أنها لم تعد إلى السجن ولم أقف على آثارها.

قال: إذن لم يبقَ لي رجاء بمقابلة هذه المرأة وسؤالها.

ـ هذا الذي أخشاه أيها الصديق، ولكني أعتقد أنّه لا مستحيل في هذا الوجود. كيف أنت مع بول هرمان؟

ـ على ما كنت عليه.

ـ ألم تتقرب من ماري كما أوصيتك أن تفعل؟

ـ لم أجسر على ذلك. وأية فائدة من هذا التقرب؟!

أجابه إتيان بلهجة خطيرة: ربما كان ذلك مفيداً أكثر مما تظن.

نظر لوسيان إليه نظرةَ المنذهل، ومضى إتيان في حديثه فقال:

أظن أنّه يوافق الآن أن تظهر لماري هرمان أنك تريد الزواج بها، بل تظهر لها على الأخص أنّ قلبك بات طليقاً وأنك تستطيع الآن أن تقيده بحبها.

ـ ولكنها سائرة في طريق الموت وفي كلّ يوم تدنو منه.

ـ ذلك يؤيد وجوب نصيحتي، فدعها تموت على اعتقادها أنها ستعيش سعيدة. ما زلت غير قادر على إسعادها، فإنّ الكذب المحرم قد يكون واجباً في بعض الحوادث.

ـ ولكن لماذا يجب أن أكذب في هذه الحادثة؟ إنك تعرف أموراً كثيرة أجهلها، ولا بد أن يكون هناك سبب خطير يدعوك إلى نصحي بتمثيل دور أستهجنه.

أطرق إتيان هنيهة إطراق المفكر، ثمّ قال:

لقد أخطأت بقولك إني أعرف أموراً كثيرة تجهلها، فإني لا أكتم عنك أمراً أعرفه.

ولكن لهذا القلب الإنساني أحاديث لا يمكن العبث بها. ومن هذه الأحاديث ما ينبهني بأننا سنظفر قريباً بقاتل أبيك، وإن هذه الظلمات ستنجلي بواسطة بول هرمان. كما أنّ قلبي يحدثني أيضاً بأن لوسي فورتيه ستغدو امرأتك. وأنا لا اعلم كيف يتفق ذلك، ولكني واثق، فثق ثقتي وانتظر.

ـ أأنتظر واليأس ملء قلبي؟

ـ نعم، وإني أرجوك أن تنتظر، فإنّ لدي الآن واجباً مقدساً تجاه صديقك جورج يستغرق بضعة أيام، فاصبر إلى انقضائه واتبع نصائحي مهما رأيت من غرابتها.

ـ إنك ترعبني بهذه الأقوال، فما هذا السر الذي اكتشفته عن لوسي؟

ـ لم أكتشف سراً. كلّ ما أسعى إليه هو أن أرد إليك لوسي. وكل ما أطلبه إليك أن تطيعني طاعة لا حدّ لها مدة أسبوعين. ولا أسألك غير ذلك. أتعدني بقضائه؟

هز لوسيان رأسه إشارة إلى الموافقة، وأتم إتيان حديثه، فقال:

والآن أحب أن أسألك بعض أسئلة. قد قلت لنا حين كنا أخيراً في منزل جورج إنّ لديك سجلاً يثبت أنّ التي تحبها هي ابنة حنة فورتيه.

ـ هو ذاك. ولا يزال هذا السجل معي.

ـ أهو بول هرمان الذي أعطاك هذا السجل؟

ـ نعم.

ـ أتستطيع أن تعطيني إياه؟

ـ دون شك. وسأذهب الآن لأحضره إذا أردت.

ـ لا حاجة إلى الإسراع، فأتني به غداً.

ـ سأفعل.

ـ أرى أنك ملم. تدرك شيئاً من مقاصدي، فلا تنذهل ولا تحاول البحث عنها. واعلم أني أريد لك ولخطيبتك كلّ خير. وقد فكرت كثيراً بأمرك، وعثرت بكثير من الأدلة، ولكنها لا تزال مبهمة، وهي قد لا تسفر عن نتيجة، ولكني إذا تخلّيت عنها أعدّ نفسي أثيماً.

وفوق ذلك، فقد أخبرتك أنّ لدي كثيراً من الأصدقاء من أهل النفوذ، وسيكونون لي خير عون على إدراك مقاصدي.

ـ أشكرك يا سيدي أجلّ شكرٍ.

ـ اصبر إلى أن أفوز، فتشكرني.

وعند ذلك جاء جورج. وبعد أن تبادلوا التحية، سأله لوسيان قائلاً: هل نجحت مهمتك في رحلتك؟

قال: كلّ النجاح، ولكن ساءني أني فقدت أوراق قضية، وقد كنت حسبت في البدء أني نسيتها في المنزل. سألت خادمتي عنها في التلغراف، فأجابت أنّها غير موجودة. حتّى اضطررت إلى تأجيلها أسبوعين. وعندما رجعت إلى باريس نشرت إعلاناتٍ ووعدت من يجد تلك الأوراقَ بمكافآت جزيلة، فإنّ موكلي يخسر قضيته إذا لم أجدها.

ـ أيمكن لهذه الأوراق أن تفيدك؟

ـ كلا، إنها لا تفيد غير موكلي.

ـ إذن، لا بدّ أن تجدها، فاطمئن.

وأقام الثلاثة على مائدة الطعام إلى الساعة الثانية بعد الظهر، ثمّ قاموا إلى غرفة الرسوم.

وعند ذلك دخل الخادم وأخبر إتيان أنّ مدموازيل هرمان تنتظره في القاعة؟

أسرع إلى استقبالها، وأسرعت إلى الاعتذار بقولها:

أسألك العفو لإزعاجك في هذا اليوم المعين للراحة، ولكن عذري أني أتيتك بشأن خطير.

ـ إنك تأتين على الرحب في أية ساعة أتيت يا سيدتي، فما هو هذا الأمر الخطير؟

ـ هو أنّ أبي سيأتي لزيارتك، وأخشى أن يرى صورتي عندك، فتفوتني غاية المفاجأة، لأني أريد مفاجأته بها يوم عيده كما أخبرتك.

ـ لقد صدقت يا سيدتي. أين أبوك الآن؟

ـ لقد تركته في أحد المخازن، وسبقته لأنتظره هنا. ورجائي أن لا يثقل عليك حضوري.

ـ بل إنك ستسرين يا سيدتي بوجودك، لا سيما إذا تفضلت بالذهاب معي إلى قاعة الرسوم، حيث كنا نتحدث بشأنك.

ذهبت ماري معه إلى قاعة التصوير، وقلبها يخفق سروراً، إذ علمت أنّ لوسيان في تلك القاعة.

ولما وصلت إليها فاجأتهم بقولها: لقد كنتم تتحدثون عني، فعلى ماذا كان مدار الحديث؟

قال جورج: إننا كنا نهني صديقنا لوسيان لما أخبرنا به من عزم أبيك على مشاركته ومصاهرته.

ارتعشت ماري واتقدت عيناها ببارق الرجاء، وقالت للوسيان وهي تمد يدها لمصافحته:

أحق أنك قلت ذلك يا مسيو لابرو؟

وكان لوسيان قد وعد المصوّر باتباع نصحه، فأجابها قائلاً:

نعم، يا سيدتي. إني كنت أحدثهما عما اقترحه أبوكِ بهذا الشأن.

ـ وماذا أضفت إلى ذلك من عندك؟

ـ إني ترددت في البدء لاعتقادي أني غير أهل للحصول على هذه النعمة.

قال المصوّر: ولكنه تمعن في الأمر بعد ذلك ووافق عليه بملء الارتياح. إنّ صديقنا كثير الخجل، يفتكر أكثر مما يتكلم. ولكني وصديقي جورج نعد نفسينا الآن سعيدين لأننا سنكون شاهدي قرانه.

سالت الدموع من عيني ماري، وقالت: أسألكما المعذرة، إنّ هذه الدموع دموع فرح لم أتمالك عن سكبها، وإني أشكركما لأني مدينة لكما بهذه السعادة.

لم يكن جورج يعلم شيئاً من مقاصد إتيان، ولكنه علم أنّ لوسيان وصل إليه قبله، وأنهما تحدثا بهذا الموضوع.

عند ذلك دخل الخادم، وأخبر بقدوم بول هرمان، فأمره إتيان بإدخاله.

وبعد أن دخل وتمت التحيات المألوفة، التفت إلى المصور وقال له: إني أتيتك ملتمساً قضاء مهمة. وهي أنّ أحدهم جاءني بصورة يقول إنها من صنع رافائيل، وطلب فيها ثمناً باهظاً. وإذ كنت غير خبير بهذا الفن الجميل، فقد أتيتك راجياً أن ترى هذه الصورة وتبدي رأيك فيها.

قال: سأفعل يا سيدي بملء الرضا. والآن اسمح لي أن ألتمس منك التماساً بدوري.

ـ إنه مقضي دون شك، فقل ماذا تريد.

ـ أريد أن تعيّن لي اليوم الذي تأذن لي فيه أن أزورك بالنيابة عن صديقي لوسيان، فإنه يتيم كما تعلم، وقد عهد إليّ أن أنوب مناب أبيه.

وقف جاك وقال مبتسماً:

لقد فهمت القصد من هذه الزيارة. وأنتما صديقا لوسيان المخلصان، فلنتحدث بجلاء يا سيدي. إنك تريد زيارتي باسم لوسيان لتخطب له ابنتي، أليس كذلك؟

نظر إتيان إلى لوسيان نظرة ذكّرته عهده السابق، فلم يسعه إلّا الإجابة بالامتثال.

قال جاك: إني راضٍ كلّ الرضا بهذا الطلب، ولم يبق إلّا أن يضع المسيو جورج شروط الزواج.

عانقت ماري أباها، وقالت بصوت خنقته عبرات الفرح:

إني أسعد النساء، وأخشى أن أكون حالمة.

بعد أن تم الاتفاق على ذلك دعاهم جاك إلى مناولة طعام العشاء عنده، فقبلوا الدعوة. استأذنت ماري بالانصراف، فذهبت تاركة أبيها مع الثلاثة.

وبعد انصرافها صافح جاك لوسيان، وهو يقول بصوت مضطرب من التأثر:

لقد جعلتني من أسعد الآباء يا بني. إني أعتبر من هذه الساعة أنّ ماري قد أمنت الأخطار.

ثمّ مسح دمعه وقال: إني أحب ابنتي فوق ما أحب نفسي، وقد كدت أموت لهمّها، أمّا الآن فقد حييت.

وكان إتيان يراقب جاك، وهو يتكلم ويقول في نفسه:

تُرى أيمكن أن يكون هذا الأب الحنون ذلك السفاك الهائل؟!

وعاد جاك إلى الحديث فقال: أرجو أن تعذروني على ما ترونه من اضطرابي. إنّ هذا اليوم من أسعد أيامي.

أجابه إتيان قائلاً: يسرني يا سيدي أن تكون قد لقيت هذا السرور في منزلي.

كان إتيان يتكلم وهو يرفع السجف عن صورة كبيرة، فقال له جورج:

لعلك فرغت أيها الصديق من هذا الرسم الذي وعدتني به؟

قال: نعم، فلم يبقَ منه غيرُ القليل.

قال جاك: لعل هذا الرسم يمثل حادثةً جديدةً؟

أجابه إتيان قائلاً: لا أعلم إذا كنت أعده جديداً، فقد بدأت به منذ واحد وعشرين عاماً، وأنا أتمه اليوم وهو يتضمن حادثة محزنة رأيتها بعيني. وقد جرت بعد مقتل أبيك يا لوسيان بزمن قريب، فرسمت هذه الحادثة في اليوم التالي لحادثة فورتفيل. وكان أهم أعضائها تلك المرأة المتهمة بقتل أبيك.

وكان المصوّر يقول هذا القول وهو ينظر إلى جاك.

أمّا جاك فإنه اضطرب اضطراباً عظيماً، ولكنه تمكن من إخفاء تأثره، فقال:

إذن، حنة فورتيه أهم أعضاء هذا الرسم.

ـ نعم، وأظن أنّ الشبه شديد.

ثمّ كشف الستار عن الرسم فجعل الثلاثة يتمعنون به. وإتيان يراقب جاك فرأى أنّه قطب حاجبيه، ولكنه أخفى تأثره بسرعة عجيبة، وعادت إليه سكينته العادية.

قال المصور: إنّ هذا الرسم يمثل الحادثة التي جرت يوم لجأت حنة فورتيه إلى منزل كاهن شفري، وهو خال جورج وقبض عليها الجنود.

فقال جاك: ومن هذا الغلام الصغير؟

قال: إنه ابن مدام داريه أخت الكاهن وهو جورج داريه، الذي أصبح اليوم من مشاهير المحامين، وهو يلاعب جواداً خشبياً كانت أهدته إليه أمه.

فجعل جورج ينظر إلى رسم مدام داريه معتقداً أنها أمه، وقال لوسيان رباه ما هذا الشبه الغريب.

فأجابه المصور: إنك تريد به شبه حنة فورتيه لابنتها لوسي، وأي وجه للغرابة؟ فإنها بنتها.

قال: كلا، فقد أردت شبهاً آخر، فلولا فرق العمر لكانت تشبه امرأة أعرفها وهي في الخمسين من العمر.

ـ من هي هذه المرأة؟

ـ هي امرأة نشيطة عاملة.

ـ أتقيم في باريس؟

ـ نعم، وذلك من عهدٍ طويل، وقد قالت لي إنها كانت تقيم من قبل في فورتفيل وأنها عرفت أبي.

ـ ماذا كانت تعمل في ذلك العهد؟

ـ ما تعمله الآن، فإنها بائعة خبز واسها لويزا بيرين.

وغطى إتيان الصورة عند ذلك، فقال له جاك: هل تبيع هذا الرسم يا سيدي إتيان؟ فإنه من أفضل ما جادت به الصناعة.

قال إنه ليس لي.

قال: ولكن صاحبه قد يرضى ببيعه؟

ـ لا أظن، بل أؤكد أنّه لا يبيعه، فإنه يحتوي على صورة أمه وخاله، لأنه صديقي جورج.

فقال جورج: يسؤني أنّ سبباً مقدساً عندي يدعوني إلى الامتناع عن اغتنام هذه الفرصة لإرضاء الموسيو هرمان، وعزائي أنّه يقدر هذه العواطف حق قدرها.

أجابه جاك شاكراً واقترح عليهم نزهة في الغابات إلى أن يأتي وقت العشاء.

فوافق الجميع على اقتراحه، ودخل إتيان إلى غرفته لتغيير ملابسه وهو يقول في نفسه:

لقد زادت ريبتي بهذا الرجل، فإنه مع شدة مقدرته على امتلاك نفسه رأيت علائم الاضطراب عليه ثلاث مرات فلا أغير اعتقادي فيه بعد الآن، ولكن يعوزني البرهان، فأين أجده؟

وبعد أن تنزهوا في الغابات ذهبوا إلى منزل جاك، فلبثوا على المائدة إلى الساعة العاشرة.

وبعد ذلك طلب جاك إلى جورج أن يكتب صك الزواج.

أخذ جورج معدات الكتابة، وقال إتيان: يجب في البدء كتابة أسماء أبوي الخطيب والخطيبة.

فأملى جاك جورج ما يلي:

بول هرمان ابن سزار هرمان، وزوجته كلير سوليفو، كلاهما متوفيان وُلد في ريجون في 21 أبريل سنة 1832، وكانت زوجته نومي ابنة مورتيمر المولود في نيويورك، وهو يقيم الآن في باريس في شارع ميريللو.

حفظ إتيان جميع ذلك في ذاكرته، ثمّ ذكر اسم ماري ولوسيان حتّى إذا تمت كتابة الألقاب سأل جورج جاك قائلاً:

ماذا تريد أن تكون الشروط؟

قال: الشروط المألوفة، وإني أهب ابنتي مليون فرنك وخطيبها مليوناً. فقال له لوسيان:

إنك تهبني ثروة عظيمة. لماذا هذه الهبة؟

ـ لتضمن بها سعادة ابنتي، فهي هبة لي، لا لك كما ترى. وفوق ذلك سنوقع معاً على عقد شركة تتناول بها جميع أعمالي، فيكون لك نصف الأرباح.

قال إتيان: إني أشكرك يا سيدي شكراً عظيماً، فقد أرجعت إلى لوسيان ما سلبه منه ذلك السفاك.

فلما سمع جاك هذه الكلمات اصفرّ وجهه، ولكنه تشاغل بالنظر إلى ما كان يكتبه جورج إخفاءً لاضطرابه.

* * *

وفي الساعة الحادية عشرة انصرفوا عائدين إلى منازلهم، فدنت ماري من لوسيان قبل ذهابه وقالت له همساً:

أأنتظرك غداً إلى الغداء؟

قال: نعم، يا سيدتي. ثمّ أخذ يدها ولثمها، فشعرت ماري أنّ قلبها قد وثب من صدرها وتورد خداها وبرقت عيناها وفاجأها سعالٌ جافٌ.

فجعل إتيان وجورج ينظران إليها نظرات إشفاق، فإنّ حالتها كانت تحمل على الشفقة لاعتقادها أنّها على قيد خطوتين من السعادة، وهي لا تعلم أنّها لا تلقى بعد هاتين الخطوتين إلّا الموت.

وبعد انصراف المدعوين دخلت ماري إلى غرفتها، وهي تناجي نفسها بأماني المستقبل. ودخل جاك إلى غرفته وهو يقول في نفسه:

تُرى أي خطر ينذرني بعد؟ وما لخيال الماضي يتمثل لي كلّ حين بشكل حنة فورتيه؟!

وهذا المصور لا شك أنّه يعرف حنة حق العرفان، فإنّ الصورة التي رسمها تشبهها أتم الشبه. ومن هي هذه المرأة التي قال عنها لوسيان إنّها بائعة الخبز وإنها تشبه حنة؟ ألا يمكن أن تكون حنة نفسها متنكرة باسم ليزا بيرين وهي تنذرني في كلّ حين؟

أمّا لوسيان، فإنه حين برح منزل جاك وضع يده على كتف إتيان، وقال له بصوت مضطرب:

ماذا فعلت أيها الصديق؟! وإلى أين أرسلت بي؟! فإنك عجلت الزواج ولا بد أن يكون لذلك سبب من الأسباب.

قال: إني لا أريد بذلك إلّا خيرك، ألا يكفيك هذا السبب؟

ـ ليس هذا السبب الذي دعاك إلى فعل ما فعلت.

ـ ثِقْ بي يا بني كلّ الثقة، واعتمدْ عليَّ، فلا أريد إلّا خيرَك كما أخبرتُك، ولا تنسَ أن تأتيني غداً بالسجل.

وعند ذلك افترقوا، فذهب لوسيان إلى منزله، وسار جورج مع إتيان، فقال له:

الحق أيها الصديق أني أنا أيضاً لم أفهم شيئاً مما فعلته؟

ابتسم إتيان وقال له:

ما الذي أشكل عليك؟

قال: أوّل ما أشكل عليّ أنك خطبت ماري باسم لوسيان من تلقاء نفسك، ثمّ إنّ لوسيان قال لك بلهجة القانطين ماذا فعلت.. وإلى أين سرت بي.

فاستدللت من ذلك أنّ لوسيان غير راضٍ عما فعلته، وأن لك غاية تسعى إليها. ألا يمكن أن تخبرني بهذه الغاية؟ وأنت تعلم أني من خير أصدقاء لوسيان.

ـ إنّ غايتي أن أبحث عن قاتل والد هذا الصديق.

ـ إني لا أفهم أيضاً ما تقول، فهل لديك برهان يثبت براءة حنة فورتيه، فتبحث عن القاتل؟

ـ لم أجد البرهان بعد، ولكني معتقد ببراءتها.

ـ من الذي تتهمه؟

ـ إنك تتسرع أيها الصديق، فإني لا أتهم أحداً الآن، ولكني أبحث عن القاتل.

ـ وهل قادتك أبحاثك إلى منزل بول هرمان؟

ـ هو ذاك.

ـ إذن، أنت مشكك ببول هرمان.

فبدت علائم الجزع على إتيان وقال:

ـ ألم أقل لك إني لا أتهم أحداً بعد؟!

ـ ليكن ما تريد، فإني لا ألح عليك. احتفظْ بسرّك قدر ما تشاء. وكل ما أرجوه منك أن تتمكن من إنقاذ هذه الفتاة المنكودة لوسي فورتيه، فإني أخاف أن يقتلها اليأس حين تعلم بزواج خطيبها بماري.

وفي صباح اليوم التالي أرسل لوسيان إلى المصور ذلك السجل، وبعد أن فحصه ملياً قال في نفسه:

إنّ هذا السجل لا يمكن البحث عنه إلّا بعد معرفة التواريخ المدققة. كيف توصل بول هرمان إلى معرفة هذه التواريخ وهو لم يبرح باريس كما أعلم؟! فلا بد أن يكون أرسل سواه إلى جوانيي، وهذا الرجل لا بد أن يكون شريكه، إذن يجب معرفة هذا الرجل.

وعند ذلك برح منزله وذهب إلى وزارة الداخلية، فدخل إلى سكرتير الوزير وأقام عنده ملياً، ثمّ خرج يحمل غلافاً مختوماً بختم الوزارة، وعاد إلى منزله، فأمر خادمه أن يعد له حقيبة السفر، وأوصاه أن يكتم أمر سفره عن الجميع حتّى عن صديقه جورج.

* * *

كان الطبيب قد أخبر حنة أنّ ابنتها لوسي في خطر. وكادت تلك المنكودة تجن من رعبها فقالت: رباه إني لم أكد أجدها، أتقضي عليّ بفراقها فراق الأبد؟

كانت حالتها مما لا تصفه الأقلام، وهي مع ذلك مضطرة إلى مفارقة ابنتها في النهار لتبيع الخبز، فكانت تسير إلى الزبائن ودموعها تتساقط على الأرض.

وقد مرت بها أربعة أيام وهي على ما وصفناه إلى أن تغلب شباب لوسي على العلة وأخبر الطبيب حنة بزوال الخطر.

ذكرت عند ذلك أنها كانت تريد استشارة المحامي جورج داريه، وأنها تريد أن ترجع إليه ذلك الغلاف الذي فقده.

بعد أن فرغت من أشغالها أخذت ذلك الغلاف وذهبت إلى شارع بونابرت حتّى وصلت إلى منزل جورج وطلبت مقابلته، فأدخلتها الخادمة إليه.

لما وقفت حنة أمام ولدها، وهي لا تعرفه، شعرت بحنوٍ عجيبٍ لم تدرك أسبابه وسالت دموعها.

فقال لها جورج:

أتريدين مباحثتي يا سيدتي؟ تفضلي بالجلوس وقولي ماذا تريدين مني؟

قالت: إنك فقدت غلافاً يا سيدي منذ بضعة أيام.

ـ هو ذاك. وقد كان يتضمن أوراقاً خطيرة، فهل وجدتها؟

ـ هذا هو الغلاف الذي فقدته وقد كان مفتوحاً، فافحص الأوراق التي فيه.

فحصها جورج بلهف وقال: أشكرك يا سيدتي، فلم يُفقد شيء منها. أتأذنين لي بمكافأتك؟

ـ كلا، لا أقبل شيئاً، فإنّ هذه الأوراق لك، وقد وجدتها، فلا بد من إرجاعها إليك ولا سبيل إلى المكافأة.

ـ لا أجسر على الإلحاح يا سيدتي حذراً من الإساءة إليك، ولكني أنحني أمامك بملء الاحترام، ولا أرجو إلّا أن أتمكن من خدمتك ووفاء هذا الدَّين.

ـ إنّ كلامك يشجعني يا سيدي على أن أستشيرك في أمر يهمني.

ـ في أي شأن تريدين استشارتي؟

ـ إنّ الأمر غير خاص بي، بل بفتاة يتيمة مظلومة.

ـ إني أساعدها بملء جوارحي، فكيف أستطيع مساعدتها؟

ـ أيمكن للإنسان أن يؤاخذ فتاة بجريمة أمها؟ أيمكن لهذا الظالم أن يسحق قلبها ويسم حياتها ويقطع سبب ارتزاقها دون أن يعاقبه الشرع؟!

ـ إنّ هذه الجريمة تُعدّ جناية فظيعة، فلا أفظع من قتل البريء قتلاً أدبياً، ولكن الشرع لا يعاقب على ذلك. فما حكاية هذه الفتاة؟

ـ إنّ هذه الفتاة لم تكد تبلغ عاماً من العمر حتّى فصلوها عن أمها المحكوم عليها بالسجن المؤبد.

وكانت هذه الفتاة عند مرضع في الريف، فلما لم يبقَ من يدفع أجرة رضاعها وضعت في ملجأ اللقطاء.

وقد رُبيت فيه دون أن تعلم شيئاً من أسرار حياتها. ولما شبت خرجت من الملجأ وجعلت تشتغل بملء الجد والنشاط، فكانت مثال العفاف والشرف والاجتهاد.

ثمّ التقت بفتى طاهر شريف فقير مثلها، أحبها وأحبته، واتفقا على الزواج دون أن يحسبا حساباً لشرّ الناس. فاصغِ إليّ الآن يا سيدي واحكم.

يوجد رجل وافر الثروة له بنت وحيدة علقت أيضاً بخطيب تلك المنكودة، فقال هذا الغني له:

إني أهبك ملاييني على أن تتزوج ابنتي، فأبى الخطيب إجابته لشغفه بخطيبته ولأنه من أهل الإخلاص.

وذهبت ابنة ذلك الغني إلى تلك الفتاة وعرضت عليها ثروة عظيمة بشرط أن تبرح فرنسا، فأبت الفتاة أيضاً بحيث أحبطت مساعي ذلك الغني السافل. ولجأ إلى الدسائس وأخذ يبحث عن ماضي أم تلك الفتاة، حتّى علم بجريمتها فجاء إلى الخطيب وقال له:

أيها المغرور إنك تحب فتاة حكم على أمها بالسجن المؤبد، لأنها اجترمت جريمة القتل.. أتعرف من الذي قتلته؟ إنها قتلت أباك.

وبعد أن ضرب تلك المنكودة في قلبها وروحها، ضربها في كيانها المادي، فإنها كانت تشتغل في محل خياطة شهيرة، وابنة هذا الرجل من أعظم زبائنها، فضغطت على الخياطة حتّى طردتها.

استولى اليأس على المنكودة، وأصيبت بحمى، فأقامت بضعة أيام طريحة الفراش وهي بين الموت والحياة.

فإذا كانت الشرائع لا تجازي مثل هذا الجاني بما جناه، فهي شرائع فاسدة لا محالة.

تأثر جورج لما سمعه وقال:

عمن تتحدثين يا سيدتي؟

ـ إني أتحدث عن شابة اسمها لوسي فورتيه.

ـ لقد خطر لي اسمها حين كنت تتكلمين، وكنت أجهل

أنهم فعلوا معها كلّ ما ذكرتيه، وبلغت منهم القسوة أنهم حرموها العمل.

ـ ذلك عمل وحشي، ألست ترى ذلك؟

ـ نعم، ولكن الشرع لا يعاقب عليه.

ثمّ حرق جورج أسنانه، وقال:

حقيقةً إنه شرع جائر ناقص.

ـ ولكن لوسي تموت يأساً.

فاصغِ إليّ يا سيدي، فقد قرأت سور المروءة وكرم الأخلاق بين عينيك وأنت خير أصدقاء المسيو لوسيان.

ثمّ إنك مستشار بول هرمان، ألا تستطيع أن تقابل الاثنين وتحدثهما بأمر لوسي؟

إنّ المدموازيل هرمان قطعت رزقها فلترجعها إلى عملها، وإن لوسيان سحق قلبها بغلطة لم ترتكبها فليغفر لها زلة أمها، فهي غير مسؤولة عنها، وفوق ذلك إنّ أمها قد تكون بريئة، فأنقذها يا سيدي.

جعل جورج ينظر إلى بائعة الخبز نظر الفاحص، ثمّ قال لها: أتعرفين الآنسة لوسي من عهدٍ بعيد؟

ـ كلا، يا سيدي.

ـ إنك تدعين لويزا بيرين، أليس كذلك؟

ـ هو ذاك، وإني أحب لوسي كما أحب ابنتي.

وعند ذلك دخلت الخادمة وقالت: إنّ المسيو بول هرمان ينتظرك سيدي في القاعة.

فصاحت حنة صيحة ذعر، وأخذ جورج بيدها وقال لها: هلمي معي إليه، فإنّ سعادة لوسي منوطة به.

ثمّ سار بها إلى القاعة التي كان جاك ينتظر فيها.

وقد دهش جاك في البدء حين رأى المحامي داخلاً إليه تصحبه امرأة من عامة الناس، ثمّ زاد اندهاشه حين رأى تلك المرأة قد ركعت أمامه وبسطت إليه يديها شأن المتوسل.

فقال لها: من أنتِ؟ وماذا تريدين؟

فأجاب جورج عنها قائلاً:

إنها تدعى لويزا بيرين، وهي تحب فتاة أصيبت باليأس وطلبت إليّ أن أشفع لديك بإنقاذ هذه الفتاة.

فقالت حنة بصوت مختنق، نعم نعم، أنقذها.

فلما سمع جاك اسم لويزا بيرين، وسمع صوت تلك المرأة تتكلم، شعر بقشعريرة في جسمه. إنّ جاك جيرود وحنة فورتيه التقيا بعد واحد وعشرين عاماً، ولكن الاثنين تغيرا تغيّراً عظيماً.

ولا سيما جاك، فإنّ حنة نظرت إليه من خلال دموعها، فلم تذكره.

وأما جاك، فإنه سمع صوتها وتمعن في وجهها. تذكر

تلك المرأة التي طالما هام بها في أيام شبابها، فارتعد وخُيّل له أنّ أمره قد افتضح وأن حنة ستعرفه كما عرفها.

ولكن رعبه لم يطُلْ، فإنه تمالك نفسَه وقال:

إني لم أفهم ما تقولانه، فمن هذه الفتاة؟ وكيف أنقذها؟

فقال له جورج: إنّ هذه الفتاة تدعى لوسي فورتيه.

ـ ماذا أستطيع أن أصنع لهذه الفتاة التي قضى عليها نكد طالعها أن تكون أمهُا محكوماً عليها؟

فقالت حنة: إنك تستطيع يا سيدي أن ترد لها الحياة، فإنك سلبتها خطيبها وابنتك سلبتها رزقها.

ـ وأي ذنب لي إذا كانت لوسي هذه ابنة جانية؟!

فقالت له حنة بلهجة المتوعد:

ألا تجد علاجاً لهذا الداء إلّا بتجديد إهانتها؟!

فخطر لجاك خاطر شر، وقال لها:

أرى أنك تتكلمين بلهجة يستدل منها أنك متصلة بهذه الفتاة فوق اتصال الصداقة! وكيف تسألينني نقض هذا الزواج الهنيء وأنا أهنئ نفسي لعدم تمكني من نقضه؟!

والآن فقد بقي لي واجب لا بد من قضائه، وسأستعين عليه بصديقي الموسيو داريه. إنّ مبالغتك بالدفاع عن لوسي دلتني على أنك لست لويزا بيرين كما تدّعين، بل أنت حنة فورتيه، الهاربة من السجن.

ارتعدت حنة حتّى خشيت أن تسقط على الأرض ونظرت إلى من حولها كأنها تبحث عن منفذ.

أمّا جاك، فإنه التفت إلى جورج وقال له:

إننا نحترم الإنسانية والقضاء بالقبض على هذه المرأة، وسأنادي الجنود بنفسي.

وقد سار إلى جهة الباب، ولكن جورج اعترضه وقال:

صبراً يا سيدي، فإنّ هذه المرأة تدعى لويزا بيرين، ولا أعرف لها غير هذا الاسم. ولكنها لو كانت حنة فورتيه نفسها كما تقول، فإني أتولى حمايتها. وقد دخلت إلى منزلي وستخرج منه كما دخلت دون أن يعترضها أحد، فاذهبي يا سيدتي دون خوف.

فقال بول هرمان: ولكن..

قاطعه جورج قائلاً: إنك يا سيدي في منزلي، ولا أسمح لأحد أن يعترضني فيما أفعله فيه. اذهبي يا سيدتي بسلام.

فأخذت حنة يد جورج فقبّلتها إظهاراً لامتنانها، ثمّ انصرفت.

وقد حاول بول هرمان أن يقفو أثرها، ولكن جورج اعترضه أيضاً وقال وهو يبتسم:

إنك قادم لمباحثتي في أشغالك كما أظن؟

فأجابه جاك بحدة قائلاً:

لماذا تركتها تذهب؟

ـ ولكن ماذا يهمك أمرها؟ لعلها تخيفك؟

وجف قلب جاك، وعلم مما سمعه أنّه ارتكب خطأً كان يجب أن يتحاشاه، وقال له:

ـ كيف تخيفني؟ ولماذا أخاف؟

ـ إنّ نهجك كان يدل على ذلك، وفي الحالين فإنّ هذه المرأة يجب أن تُعذر، فإنها إذا كانت حنة فورتيه حقيقةً كما تقول وجب أن نغفر لها وأن نعذرها لدفاعها عن حياة ابنتها. وإذا كانت لويزا بيرين، فقد وجب أن نحترمها لأن المروءة دفعتها إلى الدفاع عن فتاة لا شك أنها مظلومة.

وكان جاك تمكن في خلال ذلك من ضبط نفسه، فقال:

لقد أصبت أيها الصديق، فأرجوك المعذرة لما رأيته من بوادر غضبي، فإني لم أستطع أن أملك نفسي حين علمت أنّ هذه المرأة قاتلة والد لوسيان.

ـ هو ذاك. ولكنك قد تكون مخطئاً. وخطاؤك يضر هذه المرأة.

ـ لقد أصبت أيضاً، وذلك يظهر مضار الغضب.

ثمّ غيّر مجرى الحديث، فقال له: كيف حال الآنسة ماري؟

ـ إنها على أحسن حال، فإنّ سعالها قد انقطع.

ـ يسرني أن أعلم ذلك، فهل عينت يوم الزواج؟ وهل هو قريب؟

ـ دون شك، فإني لا أزال محتاجاً إلى بعض أوراق موجودة في نيويورك، وستصلني بعد أسبوعين. ولكن ذلك لا يحول دون التوقيع على صكّ الزواج.

ـ إذن، لنبحث الآن في الأشغال التي أتيتني فيها؟

ثمّ دخل الاثنان إلى غرفة المحامي وأقفل الباب.

* * *

أمّا حنة، فإنها خرجت من منزل جورج وهي شبه المجانين تركض منذعرة، وتقول في نفسها:

لقد عرفني بول هرمان، ولولا مداخلة هذا الفتى النبيل لقبض عليّ.

رباه، وما عساه أن يصنع بي الآن؟! فإنه إذا لم يبحث عني، أرشد البوليس إليّ، وأخبره بأني أقيم عند لوسي فيقبض عليّ.

رباه، ماذا أصنع؟! فإني لا أستطيع التخلي عن ابنتي وهي لا تزال مريضة.

إذن، لأذهب إليها، وليقبضوا عليّ عندها، فإني أراها على الأقل بضع دقائق قبل أن أعود إلى سجني.

وقد وصلت إلى ابنتها فوجدتها أحسن مما كانت عليه حين فارقتها.

سألتها لوسي قائلة: هل ذهبتِ يا أماه إلى المسيو داريه المحامي؟

قالت: نعم، فإني آتية من عنده.

ـ ماذا قال لك؟

ـ إنه لا سبيل إلى محاكمة من يذكر لبنت عار أمها.

جال الدمع في عيني لوسي، وقالت: مسكينة أمي، فقد تكون جديرة بالشفقة أكثر مني.

فبكت حنة بكاءً مؤلماً، ولكن لوسي لم تنتبه إليها فقد تاهت في مهامة التفكير كما كانت تفعل مذ تخلى عنها لوسيان.

* * *

أمّا جاك، فإنه بعدما فرغ من محادثة جورج فارقه وسار عائداً إلى منزله وهو يقول في نفسه:

لا شكّ أني أخطأت بما بدر مني حين اكتشفت أمر حنة وحاولت القبض عليها.

ومع ذلك، فإنّ وجود حنة فورتيه في باريس خطر عظيم عليّ، فلا بدّ لي من إزالة هذا الخطر.

وعندما خطر له هذا الخاطر، ذهب إلى أوفيد شريكه الأثيم بدلاً من أن يعود إلى منزله.

ارتاح أوفيد إلى قدومه، وقال له: أية صدفة قادتك إليّ؟

قال: ليست الصدفة التي قادتني، فقد أتيت إليك لنتحدث بشأن خطير.

وأخبره بأنه لقي حنة عند جورج داريه المحامي.

ذعر أوفيد وقال: هل عرفتك؟

قال: كلا، لحسن الحظ، ولكن وجودها في باريس خطر عظيم علينا، فإنها إذا لم تعرفني اليوم لاضطرابها، فقد تعرفني غداً، وهناك الفضيحة والسقوط.

قهقه أوفيد ضاحكاً وقال:

إنك تغرق أيها القريب العزيز في نقطة ماء، فأي خطر تخشاه وهي لم تعرفك كما تقول؟!

والآن هي في باريس، ولكنها لا بد أن تكون باسم غير اسمها.

ـ نعم، إنها تدعى لويزا بيرين.

ـ وأين تقيم؟

ـ لا أعلم، ولكن يمكن إيجادها عند ابنتها لوسي.

ـ ماذا تشتغل؟

ـ بائعة خبز.

ـ إنّ هذه المهنة تضطرها إلى التجول كلّ يوم في الأسواق، فلا تخف. إنّ حنة فورتيه لا تثقل عليك منذ الغد.

ـ ماذا عزمت أن تفعل؟

ـ أنا لا أفعل شيئاً وأما أنت، فإنك تستطيع أن تكتب سطرين إلى رئيس البوليس تقول فيهما إنّ حنة فورتيه الهاربة من السجن متنكرة باسم لويزا بيرين، وهي توجد عند لوسي فورتيه في شارع بوربون نمرة 9. ثمّ ترسل هذا الكتاب دون أن توقع عليه إذا شئت.

ـ كلا، لا أفعل ذلك، فإني إذا فعلته على هذا الشكل علموا أني أنا الساعي بالقبض عليها.

ـ من هذا الذي يعلم؟

ـ جورج داريه، فإني حاولت القبض عليها عنده فحال دون قصدي وتولى حمايتها.

ثمّ قص عليه ما كان بينه وبين جورج، وقال:

لقد اتضحت لك الآن خطورةُ الموقف، فإني لا أستطيع أن أولد الشك في نفوسهم. إنّ جورج بات على ريبٍ من أمري، ولوسيان يعتقد أنّ حنة بريئة، وجاك جيرود لا يزال على قيد الحياة.

وكذلك المصور إتيان، فإنه يرتئي رأيه. وعلى ذلك فإنّ شرارة واحدة تضيء هذه الظلمات وتكشف الماضي، وقد بتُّ شديد الخوف، ولا أعلم ماذا أصنع.

ـ لا تخفْ أيها الصديق. إنّ هذه النكبة قد تحل بنا، ولكننا ننجو منها.

وإن حنة قد تعرفك وتشكوك، ولكنك تجيب أنك تدعى بول هرمان، ولديك من الأوراق ما يثبت هذا النسبَ.

ـ هو ذاك، ولكنهم يستطيعون أن يعلموا، كما علمتَ أنتَ، أنّ بول هرمان مات في مستشفى جنيف، وعلى ذلك فإنّ الخطر لا يزال محدقاً بي ما دامت حنة على قيد الحياة.

ـ إذن أنت تريد موتها؟

ـ لا راحة لنا بغير هذا الموت.

ـ تمعّن في الأمر، فإنّ قتلها قد يكون أشد خطراً من إرشاد البوليس إليها.

وما زال جورج داريه ولوسي يعلمان أنّك توعدت حنة، فقد يتهمانك أيضاً بقتلها.

ـ ذلك قد يكون لو كان القتلُ مباشرةً.

ـ إذن، كيف تريد أن يكون؟

ـ أريد أن يكون بالصدفة، فيعزى قتلُها إلى القدر والاتفاق، لأن أوّل ما ننكب به إذا فضح أمرنا أنّه لا يبقى لدينا درهم.

ـ إني أقتل العالم كله في سبيل المحافظة على مركزي، فإني لا أستطيع أن أعيش فقيراً.

ـ إذن أنت عازم على العمل؟

ـ دون شك.

ـ فاحذر القتل بالخنجر أو المسدس، وليكن ظاهر موتها بالاتفاق.

ـ اطمئن، فإني أرجو أن ننجو هذه المرة أيضاً من الخطر.

أخرج جاك عند ذلك لفافةً من الأوراق المالية ودفعها إليه وودعه وانصرف.

وبقي أوفيد وحده، وهو فرح بهذه الجريمة الجديدة التي تؤيد سيادته على جاك وتدرُّ عليه أخلاف النعم.

وفي الساعة الثالثة بعد انتصاف الليل تنكَر وذهب إلى شارع بوربون وكمن فيه قرب منزل حنة.

حتّى إذا كانت الساعة الخامسة رأى امرأةً خرجت من ذلك المنزل، وهي في دور الكهولة، وقد حملت ذلك الوعاء الخاص بوضع الخبز، فقال في نفسه: إنها هي دون شك.

اقتفى أثرها حتّى رآها وقفت عند دكان الخبز، وكانت لا تزال مقفلةً، فعرف أنها تشتغل فيها.

وقف هناك حتّى فتح المخزنَ وسمع أنهم ينادونها باسمها، فلم يبقَ لديه شكٌ أنّها هي حنة فورتيه.

ولبث يتبعها كلّ ذلك النهار حتّى انتهت إلى شارع بوربون، ودخلت إلى منزل لوسي ولم تخرج منه، فأيقن أنها مقيمة هناك.

* * *

ولنعد الآن إلى المصور، فإننا تركناه يتأهب للسفر، وقد سافر في ذلك اليوم إلى ديجون، وذهب تواً إلى إدارة البوليس وطلب مقابلة رئيس البوليس.

وبعد هنيهةٍ اجتمع به وأخبره رئيس البوليس أنّه تلقى الأوامر من نظارة الداخلية بأن يمتثل له وسأله عما يريد.

فقال له: إني أريد أن أعلم بعض أمور عن بول هرمان.

قال: زدني تفصيلاً عن اسمه.

قال: إنه يدعى بول هرمان ابن سزار هرمان وكلير سوليفو، وقد وُلد في 21 أبريل سنة 1832، وهو ميكانيكي.

ـ قال: إنك تريد تفصيلاً تاماً كما يظهر عن حالة هذا الرجل، وسأعيّن في خدمتك رجلاً كان من أشهر رجال بوليسنا، لم تحدث حادثة في ديجون منذ خمسين عاماً إلّا وكان محيطاً بتفاصيلها.

ثمّ أمر بإحضار ذلك الرجل، وهو يدعى روجيت، وقال له: إني أحب أن تخبرني بما تعرفه عن المدعو بول هرمان.

أطرق روجيت هنيهة مفكراً، ثمّ قال:

إنّ هذا الرجل وُلد في ديجون سنة 1832، وأمه من بيت سوليفو كما أظن.

ـ هو ذاك.

إنّ أبويه ماتا في سنة واحدة منذ أربعة وعشرين عاماً،

وكان بول هرمان ابنهما الوحيد. تلقى الدروس الصناعية في مدرسة شالون، ثمّ سافر إلى الخارج.

ـ وهو قد مات، أليس كذلك؟

ـ كلا، بل إنه سافر إلى نيويورك، واشترك مع أحد كبار أصحاب المعامل. وهو الآن في باريس كما علمتُ من الجرائد.

ـ أأنت واثق أنّ بول هرمان المقيم في باريس هو نفس بول هرمان المولود في ديجون؟

ـ دون شك، فلا أعرف أحداً يدعى بهذا الاسم سواه.

ـ ألم يكن له عائلة في ديجون أو في الخارج؟

ـ لم يكن له غير قريب واحد يدعى أوفيد سوليفو، وهو من أهل الشر، فقد سجن ثلاث مرات بتهمة السرقة.

وكان رئيس البوليس قد أرسل حاجباً إلى إدارة الضبط والربط، يسألها عن سوابق بول هرمان.

فدخل الحاجب في تلك الساعة يحمل خلاصة البحث المطلوب، ولم يكن في تلك الخلاصة ما يرمي بول هرمان بشائبة.

وعند ذلك سأل رئيس البوليس إتيان قائلاً:

ألك يا سيدي ما تسأله غير هذا؟

ـ كلا، لم يبقَ لي إلّا أن أشكرك وأودعك، فإني مسافر إلى جوانيي في أوّل قطار.

ثمّ ودعه شاكراً وانصرف، وهو يقول في نفسه:

لم يبقَ سبيل للريب بأن بول هرمان هو غير جاك جيرود، فإني ارتكبت خطأً عظيماً بهذا الظن.

ولكن لماذا هذا الهياج على ابنة حنة؟ وكيف اهتدى إلى ذلك السجل؟ ومن هو شريكه؟ ألا يمكن أن يكون أوفيد سوليفو؟

وبعد أن تمعّن قليلاً قال: بل أرى أني مخطئ بالتسرع إلى الوثوق، فإنّ الظن لا يزال يخامر قلبي.

ولما وصل إلى جوانيي قادته الصدفةُ إلى نفس الفندق الذي أقام فيه أوفيد سوليفو منذ شهر.

وفي صباح اليوم التالي ذهب إلى منزل شيخ البلد، وقال له:

إني أتيت إليك يا سيدي لأسالك عن الرجل الذي جاء إليك، فأخذ منك هذا السجل.

ثمّ أراه السجل الذي أغرى أوفيد دشمان على سرقته، فدُهش الشيخ، وقال له:

كيف وجد هذا السجل معك؟! إنه السجل الأصلي، ولا يمكن لأحد أن يأخذه، بل ولا يأخذ صورة عنه.

ـ لماذا؟

ـ لأنه يجب أن يُحفظ في دار المشيخة. كيف وصل إليك؟

ـ لقد سُرق منك للاستعانة به على ارتكاب جريمة، وأحب أن أعلم من الذي سرقه.

نادى الشيخ سكرتيره، وأخبره بالأمر، فاضطرب. وبحث كلاهما، فعلما أنّ الأوراق التي كان فيها هذا السجل كانت بعهدة راوول، فقال شيخ البلد:

لم يبقَ ريبٌ أنّه هو الذي سرقها وباعها ووفى ديونه. ولا شك أنّ الذي اشتراها منه ذلك الرجل الغريب الذي كان يختلي به في الفندق. هل تعرف اسم هذا الرجل؟

فأجابه السكرتير: إنه كان معروفاً في الفندق باسم البارون دي ريس.

فقال المصور: من هو راوول دشمان.

قال هو فتى ذكي الفؤاد، غير أنّه ارتكب هفوات قضت بإعفائه من الخدمة. سافر إلى باريس، ولكنه لم يصل إلينا، فقد أصيب باصطدام القطار في قرية غابة الملك.

ـ لعله مات؟

ـ كلا، ولكنه أصيب بجرح خطر، وربما يكون قد مات الآن. والآن، فهل تستطيع أن تخبرني عن الغاية من سرقة هذا السجل؟

ـ إنهم سرقوه لارتكاب جريمة كما أخبرتك.

ـ إذن لم يبقَ شكٌ بأن راوول باعه لهذا الرجل، وسأحفظ هذا السجل، وأعطيك نسخة مسجلة منه.

وبعد نصف ساعة ركب المصور القطار وسافر عائداً إلى باريس. نزل في قرية غابة الملك، وسأل عن راوول دشمان في الفندق، وأخبروه أنّه سافر صباحاً إلى باريس.

سألهم عن عنوانه.

فقالوا له: لا نعلم ولكنه، قال لنا إنه سيعود يوم الأحد مع الآنسة أماندا.

ـ من هي أماندا؟

ـ هي فتاة بارعة الجمال، عادته حين كان جريحاً، بعد أن أقامت نحو أسبوعين مع رجل كهل.

ـ من هو هذا الرجل؟

ـ إنه يدعى البارون دي ريس.

ارتعش إتيان، وقال: أكان هذا البارون يعرف راوول دشمان.

ـ لا أظن، فإنّ أماندا صبرت إلى أن سافر، فزارت دشمان.

ـ أتعرف عنوان هذا البارون؟

ـ نعم، فهو مقيد في دفتر الفندق، ولا أزال أذكره، فهو يقيم في باريس في شارع فنتميل نمرة 19.

كتب إتيان هذا العنوان، وأسرع بالعودة إلى باريس، فذهب تواً إلى ذلك الشارع، وبحث عن ذلك البارون فلم

يجد من يعرفه فيه. كاد يقنط من فشله، ورأى أنّه كلما توهم أنّه اقترب من النور اكتنفته الظلمات.

لكنه كان واثقاً أنّ دشمان قد باع السجل إلى هذا البارون متنكراً بهذا الاسم، وأنه من أعوان بول هرمان.

وقد حار في أمره، وعلم أنّه لا يستطيع جلاء هذا الغامض إلّا بواسطة ثلاثة، وهم دشمان وأماندا وهذا البارون المتنكر. وهو لا يعرف عنوان أحد من هؤلاء الثلاثة، فسار إلى منزله وهو يكاد يكون قانطاً.

***

عندما عاد المصور إلى منزله علم أنّ صديقه جورج كان يسأل عنه كلّ يوم، فلا يخبره الخادم أنّه مسافر كما أوصاه. ولم يجد إتيان بداً من الذهاب إليه كي يطمئن.

ذهب إليه وأخبره أنّه سافر ليس لأشغاله الخاصة، بل لشؤون سواه.

قال: لأجل من سافرت؟

قال: لأجل لوسيان ولوسي وحنة.

ـ إني كنت أذهب إليك كلّ يوم لمباحثتك بشأن حنة.

ـ لماذا؟ لعلك اكتشفت أمراً عنها؟

ـ إني رأيتها.

ـ أين ذلك؟

أخبره جورج بجميع ما اتفق له معها، وكيف أنّ بول هرمان عرفها.

ـ أرأته قبل ذلك؟

ـ كلا، فإنها رأته لأول مرة.

وضع المصور رأسه بين يديه وقال: إذا كانت لم تعرفه، فلا سبيل لظنوني.

ـ إنك مرتاب ببول هرمان دون شك، فقل لي ماذا يريبك منه؟

ـ إني أحسبه جاك جيرود قاتل جيل لابرو.

ـ كيف ذلك؟ ومن أين تولّد عندك هذا الظن؟

ـ من كلّ ماضيه.. من سفره إلى نيويورك وزواجه وثروته المريعة والاختراع الذي ربح منه هذا المال.

وهو نفس الاختراع الذي كان يشتغل فيه والد لوسيان ومن إلحاحه بأن يكون لوسيان صهره، ومن بحثه عن ذلك السجل الذي أقصى لوسيان عن خطيبته.

وقد كان كلّ ذلك يدلني على أنّ بول هرمان رجل أثيم، غير أنه اليوم تلاشت ظنوني كلها، وأيقنت أنّ بول هرمان إنما كان يعمل لصالح ابنته ليس إلّا.

ـ ولكن من الذي أعطاه ذلك السجل الذي استخدمه ضد لوسي؟

هذا الذي أسأل نفسي عنه ولا أهتدي إليه.

ـ ولكن لماذا تجهد نفسك هذا الإجهاد في أمور لا تجديك نفعاً؟

فنظر المصور إلى جورج نظرة غريبة دون أن يجيب، ثمّ قال بعد هنيهة: كفانا تحدثاً بهذا الأمر، فقد كان لدي برهان وذهب أدراج الرياح.

ـ أتخليت عما بدأت به؟

ـ ذلك لا بدّ منه.

وكان المصور يقول عكس ما يعتقده، فإنه كان يحاول إخفاء مقاصده عن جورج لأسباب خاصة.

ولما افترق عنه لم يكن يشغله غير فكر واحد، وهو القبض على البارون دي ريس.

* * *

ولنعد الآن إلى راوول دشمان، فإنه بعد أن شفي جرحه دفعت له السكة الحديدية تعويضاً قدره خمسة آلاف فرنك. قبض المال وسار إلى باريس والتقى فيها بأماديا.

وكان الاثنان لا يزالان على سابق عزمهما، وهو الانتقام من أوفيد المتنكر باسم البارون دي ريس. وكان كلاهما يود أن يسترد تلك الورقة التي كان يقيده بها أوفيد.

وفوق ذلك، فإنّ أماديا كانت حاقدة عليه حقداً عظيماً لأنه حاول قتلها بالسم.

لما اجتمعت براوول، كان أوّل ما فعلته أنها بادرته قائلة: هل لا تزال موافقاً على طاعتي في الانتقام من أوفيد؟

ـ دون شك.

ـ إذن ستجري أمورنا في خير مجرى. إني واثقة من أنّ أوفيد سوليفو متصل بوالد ماري هرمان، بدليل أنه أعطاه السجل. لا بد إذن من أن تكمن له قرب منزل هرمان أو قرب معمله، واقضِ كلّ وقتك بمراقبته.

وهناك أمر، وهو أنّ بول هرمان لا يستقبله في منزله أو في معمله حذر الرقباء، بل يذهب إليه، وعلى ذلك فقد وجبت مراقبة الاثنين.

ـ سأبدأ المراقبة منذ الغد.

فتحت أماديا درجاً وقالت:

إني أضع في هذا الدرج كلّ ما اقتصدته، وما أخذته من البارون دي ريس، فأنفق منه.

قال: وأنا سأضع الخمسة آلاف فرنك التي قبضتها في الدرج نفسه، فنشترك بالمال.

وفي صباح اليوم التالي حلق دشمان شاربيه كي لا يستطيع أوفيد أن يعرفه إذا رآه لأول وهلة، وركب مركبة وسار بها إلى معمل جاك في كورفوا. وقف قرب المعمل في مكان يرى منه كلّ من يدخل إليه ويخرج منه، وأقام كلّ

ذلك النهار ينتظر قدوم أوفيد، بينما كان أوفيد يعد وسائل الهلاك لحنة.

وذلك أنّه كان يكمن لها كلّ يوم ويراقبها حتّى علم إلى أين تذهب، وفي أي طريق تسير، ورآها تسير دائماً على الرصيف الأيمن من الشارع الذي كانت مقيمة فيه.

وكان يوجد في ذلك الشارع بناية عظيمة خربة. صعد إلى قمتها وجمع مقداراً من الحجارة الضخمة فوضعها على حافة البناية، وكمن هناك حتّى رأى حنة قادمة تسير على ذلك الرصيف.

لما وصلت إلى تحت الحجارة دفع تلك الأحجار الضخمة بيديه فهوت إلى الأرض وأصابت غلاماً كان يسير أمام حنة فقتلته.

أمّا حنة، فإنها أصيبت بجرح في رأسها أغميت على إثره، ولكن الجرح لم يكن خطراً.

لما استفاقت من إغمائها حملوها إلى منزل ابنتها لوسي، وهي تحمد اللّه لسلامتها من خطر الموت دون أن يخطر لها في بال أنّ ذلك من صنع ذلك الرجل الأثيم. أمّا أوفيد، فقد كان يعتقد أنّه قتلها لأنه وجدها صريعة فركن إلى الفرار.

* * *

في مساء ذلك اليوم الذي كادت حنة تلقى حتفها فيه، كان راوول دشمان لا يزال كامناً قرب المعمل وقد فات الوقت المعين لخروج جاك منه، ولكنه كان لا يزال باقياً فيه.

وفيما هو ينتظر أقبلت مركبةٌ ووقفت أمام الباب، وخرج منها رجل لم يلبث راوول أن رآه حتّى صاح صيحة دهش، إذ عرف أنّه أوفيد سوليفو.

وكان أوفيد بعد أن فعل فعلته المنكرة أرسل نبأ برقياً إلى جاك، يسأله فيه أن ينتظره في المعمل إلى الساعة السابعة.

فجاءه في الساعة المعينة وأخبرها بما فعل فقال له: لعلك واثق من أنها ماتت؟

قال: كيف لا أثق وقد هبطت تلك الحجارة على رأسها ورأيتها ممددة على الأرض؟! فاطمئن أيها الصديق، إنك لن تراها بعد اليوم، ولنبحث الآن في أشغالنا.

ـ أي أشغال؟

ـ أشغالنا الخصوصية، فإنها واحدة فيما أظن. إني أحب تصفيتها اليوم، إذ لم أعد أطيق البقاء في باريس.

ـ لعلك خائف؟

ـ كلا، فقد اتخذت جميع الاحتياطات لوقايتي، ولكن من يعلم ما سيكون؟

ـ ما الذي تخافه؟

ـ ما هذا السؤال البسيط؟

ـ ذلك لأني أظن أنّه بعد موت حنة لم يبق سبيل للخوف.

ـ هو ذاك. غير أني بتّ ميالاً إلى الراحة، ولا أجد راحتي إلّا خارج هذه البلاد.

ـ إلى أين تريد الذهاب؟

ـ إلى أميركا.

ـ إذن سأرسل لك الراتب المعين إلى تلك البلاد.

ـ لا أحب أن يكون لي راتب معين بعد الآن. إنّ المرء معرّض للموت في كلّ حين، وإذا قُضي عليك لا سمح اللّه، فمن يدفع لي هذا الراتب؟

ـ ولكني إذا أعطيتك أصل المال، ستنفقه ببضعة أشهر؟

ـ أشكرك لمروءتك أيها الصديق، ولكني أؤثر المال كله على الراتب.

ـ حسناً، كم تريد أن أعطيك؟

ـ سأقول لك كلمة واحدة، ورجائي أن لا تساومني، فإني أحتاج إلى 500 ألف فرنك.

ـ سأعطيك إياها.

ـ إذن، أسافر يوم السبت إلى الهافر، ويوم الخميس نتغدى معاً، فتعطيني المال.

ـ إلى الخميس، أنتظرك هناك.

وعند ذلك برح الاثنان المعمل، فركبا مركبة وسارت بهما.

وكان راوول لا يزال واقفاً لهما بالمرصاد، فأمر سائق مركبته أن يقفو أثر مركبتهما على مسافة خمسين خطوة.

وبعد هنيهة التفت أوفيد، فرأى مركبة في إثر مركبته، ولم يعرها التفاتاً في البدء.

ولكنه جعل يلتفت من حينٍ إلى حين، ويرى المركبة لا تزال في إثره. أيقن أنها تتبعه، وأمر السائق أن يسير في طريق غير مألوفٍ من باب الامتحان، ورأى المركبة قد سارت أيضاً في ذلك الطريق فلم يبقَ لديه شكٌّ. وكاشف جاك بظنونه، فقال له جاك:

ممن تخاف أن يقفو أثرك؟

قال: من أماديا، وهي التي تقفو أثرنا، بل أثري دون ريبٍ. وعلى ذلك، فلم يبق إلّا أن أستعمل الحيلة لتضليلها.

أعطني رداءك وقبّعتك والبس ردائي وقبعتي. وهي تتبعنا على مسافة خمسين خطوة، وحين نصل إلى قهوة الأوبرا تنزل من المركبة وتقيم في القهوة، بينما أذهب أنا إلى المنزل وأعد لك العشاء.

ـ أية فائدة من نزولي؟

ـ إنها حين تراك على بعد دون أن تتبين وجهك تحسبك أنا، لأنك لابس قبعتي وردائي، فتكف عن مطاردة المركبة وتكمن لك.

ـ وبعد ذلك؟

ـ وبعد ذلك تجلس في القهوة وتعرض لها وجهك، فمتى رأتك علمت أنها منخدعة، وأكون أنا قد تواريت عن الأنظار.

فامتثل جاك ونزل من المركبة حين بلغت قهوة الأوبرا، وانخدع راوول كما توقعه أوفيد.

حتّى إذا رأى جاك في القهوة وتبين له خطؤه كانت مركبة أوفيد قد جرت شوطاً بعيداً وتوارت عن الأنظار.

اغتمّ راوول، وعاد بالخيبة إلى أماديا، فأخبرها بما اتفق له، فاستاءت أماديا وعلمت أنّ الرجل شديد الدهاء كثير الحيلة.

وقال راوول مغضباً: سأعود غداً إلى المراقبة، ولا يستطيع أن يخدعني كما خدعني اليوم.

قالت: ذلك لا يفيد، فإنّ غداً الأحد، وهما لا يجتمعان فيه، غير أني لا يهدأ لي بال قبل أن أعرف منزل عدونا الألد.

* * *

وفي صباح اليوم التالي ذهب راوول وأماديا إلى قرية غابة الملك للنزهة.

وكان المصور قد علم كما تقدم أنهما سيذهبان صباح الأحد إلى تلك القرية، فسار إليها أيضاً وذهب إلى الفندق الذي علم منه تلك التفاصيل، فعرف أنّ راوول وأماديا قد سبقاه إليه وأنهما يتغديان.

أقام في القاعة العمومية، وطلب من صاحب الفندق أن يخبر راوول بوجود رجلٍ في القاعة يريد محادثته في بعض الشؤون.

وبعد هنيهةٍ، جاء راوول إلى القاعة تصحبه أماديا، وتعرّف على المصوّر.

وقد نظر المصور نظرةً معنويةً إلى أماديا أدرك راوول معناها، فقال له: قل يا سيدي ما تشاء أمامها، فإني لا أكتمها أمراً.

وكان راوول يضطرب لخوفه من تلك الورقة التي تثبت تزويره، ولحظ المصور اضطرابه، فقال له:

لا تضطرب يا سيدي، ولا تحسبني من أعدائك، بل إني مستعد لمساعدتك إذا كنتَ محتاجاً إلى المساعدة.

والآن اعلم أنّي أدعى إتيان كاستل، ولا بد لي أن أخبرك عن السبب في البحث عنك.

فقد علمت من جواني أنك أصبت في اصطدام القطار، وأنك كنت تعالج في قرية غابة الملك.

ـ أعرفت ذلك من جوانيي؟

ـ نعم، وقد عرفته من سكرتير شيخ البلد.

فاصفر وجه راوول ولم يجب، ومضى إتيان في حديثه، فقال:

وقد أتيت إلى هنا، فقيل لي إنك ذهبت إلى باريس، وإنك ستعود إلى هذه القرية يوم الأحد، فأتيتُ اليوم إليكَ. وفي ذلك ما يدلك على أني أريد مقابلتك بشأنٍ خطيرٍ.

وكان أوّل ما علمتُه عنك في جوانيي أنك أكرهت على الاستقالة من خدمتك.

وكل ما أريد الآن هو معرفة ذلك الرجل الذي أعطيته السجلَ.

شعر راوول أنّ الدم قد جمد في عروقه، وسال العرقُ الباردُ من جبينه، فقال له المصور:

لقد قلت لك إني لا أريد لك الأذى، فهل ترتاب في كلامي؟

ـ كلا.

ـ إني حين عرضت ذلك السجل على شيخ البلد بحث بحثاً مدققاً، فعلم منه أنّ السجل مسروق.

فصاح راوول، قائلاً:

لقد قُضي عليّ.

ـ إني سأنقذك إذا قلت لي الحقيقة، فهل أنت الذي أخذ السجل؟

ـ نعم.

وقد بعته، أليس كذلك؟

ـ كلا يا سيدي، لم أبعه، ولكني خدمت به رجلاً مقابل خدمة.

ـ لا أجادلك في ذلك وإن كان الأمر واحداً. المهم أن تعرف الرجلَ الذي أعطيته السجلَ، فقد اتصل، بنا، إنّه البارون دي ريس، أتعرف هذا الرجل من عهدٍ طويل؟

ـ إني لم أكن أعرفه قبل أن يلقيني في جوانيي.

ـ كيف ترتكب جناية لخدمة رجل لا تعرفه؟! كيف أغراك على ذلك؟

حكي له راوول جميع ما اتفق له، حتّى إذا تم حديثه قال له المصور:

يظهر أنّ هذا الرجل يعرف أموراً كثيرة. كيف عرفها؟ وكيف السبيل إليه؟ ألا تعرفين عنوانه يا سيدتي؟

أجابته أماديا وقد خامر قلبها الشك: كيف تريد أن أعرف عنوانه يا سيدي؟

ـ تعرفين، لأنك كنت وإياه على أحسن صلات، وقد أقمت وإياه أسبوعاً في هذا الفندق. فدعوا الشك الآن ولنتكلم بجلاء.

فقد قلت لكما إني صديق وقد كتبت مشيخة البلد في جوانيي إلى باريس، وسيبحث بوليس باريس عن راوول دشمان ويجده ويكرهه على الاعتراف.

على أنك إذا أخبرتني بالحقيقة، بذلك كلّ ما لدي من النفوذ في وزارة الداخلية، فمنعت مقاضاتك وأنقذتك من هذا الموقف الصعب. وكل ما أريده أن أعرف هذا الرجل المتنكر باسم البارون دي ريس.

أجابته أماديا: إننا نبحث منذ أيام عن هذا الرجل، فلم نتوفق إلى الظفر به.

ـ لماذا تبحثان عنه؟

فقال راوول: لنسترد أوراقنا التي بيده، رأيته أمس واقتفيت أثره، ولكنه أفلت مني.

وعند ذلك حدثه بما اتفق له، فقال له المصور:

إذن، هو متصل ببول هرمان؟

قالت أماديا: نعم، فإنه لم يأخذ السجل إلّا ليعطيه إياه، ولم يحاول قتل لوسي إلّا بأمره.

ـ قتل لوسي؟

ـ نعم، فقد حاول قتلها وأصابها بجرح خطر.

ـ ألديك برهان يثبت هذه الجناية؟

ـ لو كان لدي برهان لما صبرت على الانتقام منه إلى

الآن، فقد حاول قتلي أيضاً حين علم أني مرتابة به، أمّا هذا الرجل فلا يدعى البارون دي ريس بل أوفيد سوليفو.

أطرق المصور مفكراً، وقال لها: هل تستطيعين إخباري بكل ما عرفتِه عن هذا الرجل؟

ـ نعم، بشرط أن تعدنا بمساعدتنا على الانتقام؟

ـ اعتمدا عليّ، فإنّ فائدتنا مشتركة.

ـ وبشرط أن تنقذ راوول؟

ـ أعدك بذلك أيضاً.

ـ إذن، سأخبرك بكل أمر.

وأخبرته بكل ما تعرفه وبجميع الأسباب التي ولدت الشك عندهان حتّى إذا أتمت حديثها، قال لها:

لقد صدقت، فهو يشتغل لحساب بول هرمان، ولكن لا يزال يعوزنا البرهان للانتقام من هذين الشقيين. فهل أعتمد عليكما؟

أجابه راوول قائلاً:

كلّ الاعتماد.

ـ إذن ابقَ الآن على مراقبة أوفيد. ومتى عرفت المنزل الذي يقيم فيه أخبرك بما يجب أن تصنعه، فإننا سنجد في منزله كلّ ما نحتاج إليه لمقاومة بول هرمان.

ـ ألا تعرف بول هرمان؟

ـ أعرفه حق العرفان، وقد زارني.

ـ ألا يمكن إذن أن تعمل كما نعمل نحن؟

ـ كلا، فإنّ كلمة واحدة تبدر مني في غير مقامها تدعوه إلى الحذر الشديد، وقد يهجر هذه البلاد هارباً فيجب أن ننهج بملء الحكمة. والآن، فهل تحتاجان إلى المال؟

قالا: كلا.

قال: إذن إني مخبركما بعنواني، وأنتما ترشدانني إلى عنوانيكما، فإذا احتجتما إليّ ولو في منتصف الليل تجداني في المنزل.

* * *

وبعد أن عرف كلّ منهم عنوان الآخر افترقوا، وعاد المصور إلى باريس وهو يقول في نفسه:

أرى أنّ الزمان قد حان لتبرئة حنة وإرجاع لوسيان إلى لوسي، وكذلك أماديا وراوول فقد ارتاحا كلّ الارتياح إلى هذا المعاون الجديد، وعاد راوول إلى مراقبة أوفيد.

أمّا أوفيد، فإنه كان قد عزم على السفر وجعل يتأهب له، وهو يحذر كلّ الحذر من الالتقاء بأماديا، فلا يسير في الشوارع إلّا حين تكون في مخزن الخياطة.

وكانت حنة قد شفيت من جرحها وعادت إلى عملها. وبينما كان يسير يوماً في ذلك الشارع الذي كانت تشتغل

فيه رآها تسير بخبزها، فلم يصدِّق عينيه. حتّى إذا وثق أنها هي نفسها، وأن الحجارة لم تقتلها اشتد رعبُه، حتّى أنّه نسي توصية جاك، ولم يعد يتمثل له إلّا التخلص من هذه المرأة. فدخل إلى أوّل قهوة رآها وكتب إلى رئيس البوليس ما يأتي:

«إنّ البوليس يبحث من عهدٍ بعيد عن المدعوة حنة فورتيه الهاربة من يجن كليرمون، فإذا كان يريد القبض عليها فليعلم أنها متنكرة باسم لويزا بيرين، وأنها تشتغل ببيع الخبز، وأنه يجدها في خمارة الخبازين».

* * *

وبعد أن كتب هذه الرسالةَ الشائنةَ، وضعها في غلاف عنونه باسم رئيس البوليس، ووضعه في صندوق البريد.

في ذلك اليوم نفسه اجتمع المصور براوول، وسأله إذا كان عرف شيئاً عن أوفيد، فأجابه سلباً.

فقال: لقد خطر لي خاطر، أرجو أن نوفّق به إلى معرفة منزل أوفيد. وهو أن تكتب تلغرافاً إلى بول هرمان باسم أوفيد يحتوي على هذه الكلمات فقط، وهي:

هذا المساء.. في منزلي.. مستعجل.

فمتى وصل هذا التلغراف إلى بول هرمان، يسرع إلى مقابلته وتكون أنت كامناً له، فتقفو أثره وتعرف منزله. كيف تجد هذا الرأي؟

ـ إنه خير الآراء. ومتى عرفتُ منزله، أترّقب فرصةَ خروجه منه، وأدخلُ إليه، فأستولي على كلّ ما أجد فيه من الأوراق.

ـ ولكنك ترتكب جنايةً يعاقب عليها الشرعُ.

ـ ليعاقبني عليها، وعزائي أني أنتقم من هذا اللص السفاك.

وافقه المصور على ذلك مكرهاً، وأرسلا ذلك التلغراف إلى بول هرمان في معمله، وافترقا، فذهب راوول وكمن لجاك قرب المعمل.

* * *

ولنعد الآن إلى أوفيد، فإنه حين كتب الرسالةَ إلى رئيس البوليس دخل إلى قهوة.

وكانت تلك القهوةُ نفسَ القهوة التي يجتمع فيها الخبازون عادةً وحنة فيهم.

وكان جميع أولئك الخبازين يحبون حنة ويحترمونها. لما علموا أنها سلمت من الخطر وشفيت من الجراح الذي أصابها، أرادوا أن يحتفلوا بهذا الشفاء ويأدبوا مأدبة، فقرروا أن يجمعوا نفقاتها منهم إكراماً لها.

وقد علم أوفيد وهو جالس بينهم يسمع حديثهم ومقصدهم، فاشترك معهم في إعداد هذه المأدبة، ودفع

خمسة فرنكات، وهي القيمة المفروضة، لأنه خطر له خاطر هائل يؤيد شكواه الشائنة.

ذلك أنّه خطر له أن يسقي حنة من ذلك الشراب الذي كان عنده، حتّى إذا فاجأها البوليس ساعة الوليمة كان الشراب قد بلغ منها، فاعترفت بحقيقة اسمها، ولا يبقى سبيل لدفاع الخبازين عنها.

وكان موعد الوليمة في اليوم التالي. جاء إلى تلك القهوة قبل الموعد بساعة، وقد أحضر معه زجاجة الشراب وجلس في القاعة العمومية المشرفة على الشارع، ولها باب من زجاج يرى منه المار في الشارع جميع الجالسين في تلك القهوة.

وقد اتفق في تلك الساعة أن مدام أوغستين أرسلت أماديا بمهمة إلى إحدى زبائنها.

وقد مرت بذلك الشارع فرأت من خلال الزجاج وجه أوفيد، فدخلت إلى تلك القهوة من باب غير باب القاعة العمومية، وجلست في غرفة محاذية للمكان الذي كان فيه دون أن يراها، على رجاء أن تقفو أثره حين خروجه.

وبينما هو جالس جاءته خادمة الخمارة، تسأله عما يشرب. هشَّ إليها ولاطفها وأطنب في مديح لويزا بيرين التي سيحتفلون بشفائها.

سُرّت الخادمةُ بهذا المديح، ووثقت من أنّ هذا الرجل يحترم بائعةَ الخبز كما كان يحترمها الجميعُ.

وعند ذلك أخرج أوفيد من جيبه علبةً تحتوي على قرطين من الفيروز، وقال للخادمة:

إني أعددت هذين القرطين هبة للويزا دي بيرين، وسأقدمهما لها ساعة الاحتفال.

ثمّ أخرج علبةً أخرى تحتوي على قرطين أيضاً، وقال: إنّ هذين القرطين لكِ إذا ساعدتني فيما أريد.

فدهشت الخادمةُ لقوله وللقرطين، وقالت له:

ماذا تريد مني؟

قال: إني أعلم عن لويزا ما لا تعلمون، فإنّ لها صوتاً يفتن الجماد، ولكنها امتنعت عن الغناء منذ عهد بعيد لنكبة أصابتها بمن تحب.

ولما كانت هذه الوليمةُ معدةً لها، وكان صوتُها على ما وصفتُ لكِ، فقد أردتُ أن أحتال على سماع صوتها الرخيم.

فذُهلت الخادم وقالت:

كيف تكون هذه الحيلةُ؟

قال: إنّ لدي شراباً هندياً إذا شرب المرءُ منه بضع نقطٍ نسي همومَه واندفع في الغناء.

فإذا وافقتني على أن أسقيها جرعةً من هذا الشراب، بوضع نقطٍ منه في كأسها، أعطيتك هذين القرطين، فإنّ شوقي إلى صوتها شديد.

فأجابته قائلةً:

ذلك سهل ميسور، ولكني أخاف أن يؤذيها ذلك الشرابُ.

قال: كيف يؤذيها وأنا أريد أن أسقيها إياه؟! وأي مأرب لي في إيذاء هذه المسكينة؟! وكل ما في الأمر أني أريد المباسطة والحيلة على سماع صوتها.

قالت: ولكن كيف أسقيها من هذا الشراب دون الحاضرين؟

قال: إني أعطيك زجاجة صغيرة، فيها سائل تضعين منه ثلاث نقط في كأسها، وهذا كلّ ما أطلبه إليك مقابل هذين القرطين.

وافقته الخادمة على ذلك، وأخذت منه القرطين والزجاجة ودخلت إلى الغرفة التي كانت فيها أماديا. أخذت أماديا بيدها وسارت بها إلى غرفة أخرى بعيدة عن المكان الذي كان فيه أوفيد، وقالت لها:

لقد سمعت كلَّ ما دار بينك وبين هذا الرجل الأثيم من الحديث، فإنه أغواكِ على أن تسقي تلك المرأةَ المسكينةَ من ذلك الشراب، وهو يريد لها الشرَ والأذى. إني أعرف

هذا الشراب كما أعرف مقاصد هذا الرجل. ولا شك عندي بأنك لم توافقيه على مراده إلّا وأنت واثقة من أنّه يريد المزاح، وأنه لا ضرر من هذا الشراب، ولكن الأمر على عكس ما أوهمك.

فغضبت الخادمة، لأنها كانت تحب حنة كما كانت تحبها طائفة الخبازين جميعها، وقالت لها:

إني سأعود إلى هذا الأثيم، فأرمي القرطين في وجهه وأكلمه بما يستحق.

قالت: بل أبقي القرطين عندك وتظاهري بموافقته على ما أراد، وانتقمي منه بنفس شرابه.

ـ كيف ذلك؟

ـ ذلك أن تضعي تلك النقط من الشراب في كأسه بدلاً من أن تضعيها في كأس لويزا.

ـ ماذا يفعل هذا الشراب؟

ـ إنّ من شربه يبوح بكل أسراره، فإذا شربه هذا الأثيم باح بذنوبه وعرف الحاضرون جميع آثامه. وكل ذنب من ذنوبه يجازى عنه بالشنق.

فإذا سقيته من هذا الشراب، عرف الناس كلَّ نواياه، فإنه ألد عدو للويزا.

ـ إذن، اعلمي يقيناً يا سيدتي إنّ لويزا لا تشرب من هذا الشراب.

ولكن من يكون هذا الرجل؟ فإني أريد أن أخبر عنه صاحب القهوة.

ـ احذري أن تفعلي، فإنه يطرده ولا نعلم شيئاً من نواياه.

ـ إذن، سأضع الشرابَ في كأسه وأكتم الأمرَ.

فأخرجت أماندا ورقتين قيمتهما مائتا فرنك، ودفعتهما إليها، ثمّ انصرفت عائدة إلى المخزن.

وعند ذلك جلس الجميعُ على المائدة، ووضعوا حنة في رأس تلك المائدة وأمامها طاقة الأزهار.

وعند ذلك دخل اثنان من رجال البوليس، وكان أوفيد جالساً بقرب حنة، فأيقن أنّ هذين الجنديين قادمان للقبض على حنة، ولكنهما لم يفعلا وصبرا إلى أن ينتهي الغداء.

كان الجميعُ فرحين مستبشرين، ما خلا أماديا، فإنها كانت قد عادتْ من المخزن وجلستْ في تلك الغرفة التي كانت فيها تراقب ما سيجري. وهي تنتظر بفارغ الصبر أن تتحوّل تلك الوليمةُ وأن يعمل الشرابُ عملَه بأوفيد.

وفي الساعة الثالثة فرغوا من الطعام، وقدمت الخادمةُ القهوةَ للجميع، وقد وضعت الشرابَ في فنجان أوفيد، وهو يحسب أنها وضعته في فنجان حنة.

حتّى إذا فرغوا من شربها، وقف أوفيد فامتدح حنة التي يحتفلون بها، وقدّم لها القرطين هديةً، فصفّق الجميعُ استحساناً، ووضع أوفيد يده على جبينه.

فإنّ الشراب كان قد بدأ يؤثر فيه، وبدأ الحاضرون يندهشون لما رأوه منه، فإنّ عينيه قد احمرتا وباتت كعيون السكارى.

فقال له صاحبُ الفندق: ماذا أصابك يا مسيو لوبرين؟

فضحك أوفيد ضحكاً عالياً، وقال: إني لا أدعى لوبرين أيها البُلهاء كما أوهمتُكم، بل إني أدعى أوفيد سوليفو، وأنا عائش من ذلك الإيراد الذي عيّنه لي ابنُ عمي بول هرمان الغني الشهير.

فارتعشت حنة حين سمعت هذا الاسم، ودهش الجميعُ لما سمعوه ولما رأوه من أوفيد، ومضى في حديثه، فقال:

إنكم تعرفون بول هرمان، فهو صاحب معمل كورينو الشهير، وقد قلت لكم إنّه ابن عمي.

ولكني كنتُ كاذباً، فإنّ هذا الرجلَ ليس بقريبي وما هو من أهل الشرف، بل إنه سارق حارق قاتل.

نعم، فقد عرفته منذ واحد وعشرين عاماً، إذ التقينا على باخرةٍ مسافرةٍ إلى نيويورك، وكان هارباً من فرنسا لارتكابه تلك الجرائم الثلاث. تنكر باسم بول هرمان، ابن خالي الذي كان قد توفي، وقد كشفتُ سرّه فبات أطوع لي من البنان من ذلك العهد إلى الآن، أمّا اسم هذا الرجل الحقيقي فهو جاك جيرود.

وقفت حنة منذعرةً، وقبضت على يد أوفيد، فقالت: جاك جيرود! أهو جاك جيرود هذا المتنكر باسم بول هرمان؟

قال: نعم، لقد قلت وأنا أعيد ما قلته. إنّ بول هرمان الحقيقي مات من عهدٍ بعيد، وهذا الرجل المتنكر باسمه يدعى جاك جيرود. وهو الذي قتل رئيسه جيل لابرو منذ واحد وعشرين عاماً في معمله في فورتفيل. وقد سقيته من الشراب الكندي، فباح لي بجميع سرّه كما سقيتك أنتِ يا لويزا بيرين وستبوحين بأسرارك.

فدهشت حنة وقالت: ماذا يعني بما يقول؟

فقالت لها الخادمة: إنّ هذا الشراب الذي أعده لك قد شربه هو دون أن يعلم.

لم ينتبه أوفيد لقول الخادمة، وأتم حديثه مع حنة، فقال:

إنّ هذا الشراب الذي سقيتكِ إياه سيطلق لسانك بأسرارك، فتبوحين أمام الجميع أنك لا تدعين لويزا بيرين، بل حنة فورتيه.

فرعبت حنة رعباً عظيماً، وقالت: اسكتْ.

قال: نعم، أنت حنة فورتيه التي حاولت أن أقتل ابنتها، كما حاولت أن أسحق رأسَها بالحجارة.

نعم، أنتِ حنة الهاربة من سجن كليرمون.

حار الجميع في أمرهم، وجعلوا ينظرون إلى حنة وإلى أوفيد، أمّا حنة فإنها وقفت، وقالت:

ويح لك أيها الشقي، فإنكَ أنقذتني وأنتَ تحاول ضياعي.

نعم، أيها الأصحاب، إني أدعى حنة فورتيه المحكوم عليها والهاربة من السجن.

ولكني عوقبت بالجرائم التي ارتكبها جاك جيرود، وقد سمعتم الحقيقة من فم هذا الشقي، ولكني ما هربت إلّا لأبحث عن ولدي وابنتي الذي حاول هذا السفاك قتلها.

ويح لك أيها الشقي، إنك اعترفت أمام شهود عدول، وسأتبرأ أمام المحكمة بإقرارك، فلا يتلوث ولداي بهذا العار.

وأنتم أيها الرفاق فقد عرفتم الآن من أنا، وما لقيته من المصائب، كما عرفتم حقيقة أمري، فاحكموا عليّ بما ترون.

قام الجميع إلى حنة وصافحوها، أمّا أوفيد فإنه سقط على كرسي، وقد أصيب بتشنّجاتٍ عصبيةٍ شديدةٍ.

وعند ذلك فرّق الجنديان الناسَ عن حنة، ودنا أحدهما منها، فقال لها: يا حنة فورتيه الهاربة من السجن، إني أقبض عليك باسم الشرع.

فقال صاحبُ الفندق: إنه يجب القبض على هذا اللص السفّاك، لا على هذه المرأة الفاضلة.

واشتد تحمّس الناس، فحالوا بين البوليس وبين حنة، وهمس أحدهم في أذنها قائلاً:

أسرعي إلى الفرار، فإنها خير فرصة تغتنم.

فهربت حنة، ولم يستطع الجنديان مقاومة الحاضرين، ولبث أوفيد على حاله.

فقال أحد الجنديين مخاطباً صاحب الفندق: لقد صدقت، إذ يجب أن يعيد هذا الرجل أقواله أمام المحكمة.

وعند ذلك نقلوا أوفيد إلى مركبة، وسار الجنودُ به إلى دائرة البوليس.

ولما تفرّق الناسُ دخلت الخادمةُ إلى الغرفة التي كانت فيها أماديا، فلم تجدها فيها، فإنها كانت قد أسرعت إلى المصور لإخباره بما حدث.

ولكنها لم تجده في المنزل. وعادت إلى منزلها وأقامت فيه تنتظر عودة راوول.

حتّى إذا كانت الساعة الثامنة جاءتها رسالةٌ من راوول يقول فيها إنّه وقف على أثر أوفيد، وإنه قد لا يعود الليلة. فاطمأنت وصعدت إلى السرير كي تنام، ولكنها لم تستطع الرقاد.

* * *

وقد نقلوا أوفيد إلى دائرة البوليس، ووضعوه في غرفة وحده، فلما زال تأثير الشراب عقبه النوم.

وعندما استيقظ في الصباح وجد نفسه نائماً على سرير من الخشب، وبجانبه جندي فدهش، وقال: أين أنا؟

فقال له الجندي: إنك في سجن البوليس.

فذعر ذعراً عظيماً ووثب من السرير، فقال: متى سجنت؟

قال: منذ الساعة الخامسة من مساء أمس، وقد كنت فاقد الرشد.

لم يذكر أوفيد شيئاً من ذلك، وكان جسمه منتهكاً، فعاد إلى سريره ووضع يده على جبينه، فتذكر لفوره وقال في نفسه:

لا شك أنّ الخادمة قد أخطأت فوضعت الشراب في كأسي بدلاً من أن تضعه في كأس حنة.

ويلاه لقد قُضي عليّ قضاءً مبرماً وجنيت على نفسي بيدي.

وبعد هنيهة دخل ثلاثة جنود، وذهبوا به إلى قاضي التحقيق، فبدأ القاضي سؤاله فقال له: ماذا تدعى؟

قال: بيار لابرون؟

فحدق القاضي به وقال: بل أنت كاذب.

فأجابه بلهجة وقحة قائلاً: إذا كنت تعرف اسمي أكثر مما أعرفه أنا، فكيف تسألني عنه؟

ـ نعم، أعرف اسمك، فإنك تدعى أوفيد سوليفو.

ـ إذا كان هذا الاسم يرضيك فقد رضيته لنفسي.

ـ لا تحاول أن تضللنا بكلام لا يجديك، فإنك إذا لم تجبني أجابني عنها بول هرمان.

فارتعش أوفيد، وقال في نفسه: لا شك أني أكثرت الكلام في تلك الخمارة. ثمّ قال مخاطباً القاضي:

أرى يا سيدي أنّه يوجد سوء تفاهم بيننا، فإنك تسألني كما يسألون المتهمين، فما هي هذه التهمة؟

ـ ستعرفها حين الأوان. أجب الآن، هل بول هرمان ابن خالك؟

ـ نعم.

ـ إنك تكذب أيضاً، فقد قلت في خمارة الخبازين إنّ بول هرمان مات، وإن هذا الرجل الذي تدّعي قرابته، متنكر باسم قريبك الميت.

فأيقن أوفيد أنّه باح بكل مكنوناته وقال: إني كنت سكران حين تكلمت في تلك الخمارة، فلا أدري ما قلت.

ـ إذن لقد كنت سكران أيضاً حين اتهمت لويزا بيرين بأنها تدعى حنة فورتيه الهاربة من السجن.

ـ من هي حنة، فإني لا أعرفها.

ـ هي تلك المرأة التي حاولت قتلها بالحجارة، كما حاولت قتل ابنتها بالخنجر.

ـ من يجسر على اتهامي بهذه التهمة؟

ـ الذين اعترفت أمامهم، فإنّ لسانك انطلق بذلك الشراب الذي أغويت الخادمة على أن تسقيه لتلك المرأة فسقتك إياه وبحت بكل أسرارك. والآن قل لنا أين تقيم؟

فضم أوفيد قبضتيه مغضباً وقال: لقد أخطأت إلى نفسي في سبيل خدمة سواي خطأً لا أغتفره لنفسي.

فاعلم الآن أنّي أقيم في شارع كليشي نمرة 17، ولا تسألني غير ذلك، فإني لا أجيب.

ـ إنّ بول هرمان الحقيقي قد مات، وإن المتنكر باسمه الآن يدعى جاك جيرود، أليس كذلك؟

فهز أوفيد كتفيه ولم يجب، فأمر القاضي بإدخاله إلى السجن. وفي المساء جاء رئيس البوليس إلى قاضي التحقيق وقال له: هل تريد أن نكبس منزل أوفيد سوليفو؟

قال: ذلك لا بد منه، وسنذهب عند انتصاف الليل كي لا نستلفت الأنظار فاستعد.

* * *

كان بول هرمان قد ذهب في تلك الليلة بناء على التلغراف إلى منزل أوفيد سوليفو وراوول في أثره فدهش، إذ لم يجده في منزله وصبر ساعة علّه يعود ثمّ انصرف.

وكان ذلك المنزل في جهة مقفرة، فاغتنم راوول هذه الفرصة وكسر باب المنزل.

ثمّ دخل إليه فوجد الصناديق معدةً للتسفير إلى بونس أيرس، ورأى هناك درجاً استلفت نظره فكسره ووجد فيه كثيراً من الأوراق المالية. تركها فيه وبحث في محفظته

فوجد فيها السند الذي زوّره واعتراف أماديا بالسرقة وشهادة المستشفى المثبتة لوفاة بول هرمان.

أسرع إلى وضع هذه المحفظة في جيبه، وقد فرح بها فرحاً لا يوصف وأركن إلى الفرار.

وبعد هنيهة أقبل قاضي التحقيق ورئيس البوليس وبعض الجنود، فوجدوا الباب مكسوراً.

وبعد البحث وجدوا الأوراق المالية لا تزال في موضعها، فعلموا أنّ كاسر الباب لا يريد السرقة وحسبوا أنّه شريك لأوفيد في جرائمه، وأنه جاء لسلب ما عنده من الأوراق التي تؤيد التهمة فحصروا شبهتهم ببول هرمان، وضبطوا جميع ما كان موجوداً في المنزل وانصرفوا.

* * *

بينما كانت أماديا جالسةً في سريرها وهي شديدة الاضطراب، دخل إليها راوول وقال لها: هلمي وأسرعي، لنذهب إلى إتيان المصور، فقد عثرت بالأوراق.

قالت: أوراقنا؟

ـ وأضيفي إليها الشهادة المؤيدة لوفاة بول هرمان، فقد سرقتها من منزل أوفيد، وهو لم يعد إليه إلى الآن.

ـ ذلك لأنهم قبضوا عليه. ثمّ حكت له بإيجاز، وهي

تلبس ملابسها، ما اتفق لأوفيد في تلك الخمارة، وسار الاثنان إلى منزل المصور.

* * *

كان المصور ينتظر بفارغ الصبر عودةَ راوول، وقد جلس على مائدة يكتب كتاباً إلى جورج داريه.

وقد نادى حمّالاً كي يرسل إليه معه ذلك الرسمَ الكبيرَ الذي صنعه لأجله، ووضعه في صندوق كبير وقايةً له من الطوارئ.

وجاء الحمّال وحاول وضعَ الجواد الخشبي فوق الصندوق، فقال له: دعْ هذا الجوادَ على الأرض فسأحمله بيدي. فرفع الحمّالُ الصندوقَ وقدر الاتفاق أن يقع ذلك الصندوق من يده على الجواد فانكسر وتبعثر ما في جوفه من الأوراق.

أسف المصور أسفاً شديداً، فإنّ جورج كان محتفظاً بهذا الجواد منذ حداثته لاعتقاده أنّه هدية من أمه.

ولم يكترث لتلك الأوراق فأرسل الصندوق مع الحمّال، وعاد إلى ذلك الكتاب الذي كان يكتبه إلى جورج. وهو يتضمن تهنئته ببلوغ الخامسة والعشرين من عمره، وأنه سيزوره في الساعة التاسعة لإخباره بأمر خطير بمناسبة بلوغه هذا السن.

وبعد أن أتم الكتابَ وأرسله، نظر إلى الأوراق التي خرجت من بطن الجواد، وقال:

تُرى ما هذه الأوراق؟ ثمّ جعل يبحث فيها، فرأى قطعاً مختلفةً من الجرائد وغير ذلك، إلى أن عثر بورقة ارتجف لها واصفرّ وجهُه، إذ رأى عليها توقيعَ جاك جيرود، فقال في نفسه:

رباه، ألا يمكن أن يكون ذلك الكتاب نفسه الذي كتبه إلى حنة وحسبت أنّ النار أكلته؟ ثمّ أخذ تلك الورقة وقرأ فيها بصوت يتهدج ما يأتي:

«حبيبتي حنة

لقد أخبرتك أمس بأني أعدّ لكِ ولولديكِ وسائلَ المستقبل. والآن أخبركِ بأني صنعت هذا المستقبلَ بطريقةٍ سريعةٍ، فإني غداً سأكون من الأغنياء وسأظفر باختراع تكون لي منه أرباح عظيمة، وبمائتي ألف فرنك لتنفيذ هذا الاختراع.

تشجّعي يا حنة، ولا تخشي عاراً، فإنّ ولديك سيكونان ولدي، وأنا أنتظرك في الساعة الحادية عشرة مساءً عند جسر شارنتون، فنهرب إلى الخارج ونصبح من الأغنياء.

ولا تأسفي لفراق هذا المعمل الذي طردوك منه، واحضري لتعيشي مع من يحبك أفضل عيش، فإذا لم تحضري دفعتني إلى اليأس، ولكنكِ ستحضرين.

سبتمبر سنة 1861».

جاك جيرود

صاح المصور صيحة انتصار، وقال: هذا هو البرهان الجلي الذي نبحث عنه، وستثبت به براءة حنة لا محالة.

وعند ذلك قُرِع البابُ ودخل دشمان، فأخبره بالقبض على سوليفو وبسرقة الأوراق المثبتة لوفاة بول هرمان، وأن والد ماري يدعى جاك جيرود.

فكان اضطراب المصور عظيماً، إذ لم يبقَ لديه مجالٌ للشك. نادى خادمه وقال له: اركب مركبة وأسرع بها إلى لوسيان لابرو في معمل كوريفو، وقل له أن يأتي إليّ في الحال لشأن خطير.

وبعد ساعة أقبل لوسيان وهو مضطرب، فقال له:

ماذا حدث؟

قال: إني ظفرت بقاتل أبيك بفضل هذا الفتى الذي فضح أمره، وأشار إلى راوول.

ـ من هو؟

ـ سأخبرك به قريباً. والآن هلموا بنا جميعاً إلى منزل المحامي جورج داريه.

* * *

كانت لوسي قد تماثلت إلى العافية، وقد انتظرت حنة في تلك الليلة التي كشف فيها أوفيد أمرَها، فلم تحضر. ولذا لم تعرف الرقاد في تلك الليلة. وعند الفجر أرسلت

من يسأل عنها في المخبز، فعاد إليها بأخبار مهمة ملخصها أنّ لويزا بيرين متنكرة باسم آخر، وأنها متهمة بأنها كانت في السجن وهربت منه، وأنهم لا يعلمون أين هي الآن، ويخشون أن تكون في السجن.

فكادت المنكودة تجنّ يأساً، وقالت في نفسها:

رباه، كيف السبيل إلى مساعدة هذه المرأة الحنونة التي كانت لي بمثابة أم؟ فقد كان لي رجاء بلوسيان لأنه يحبها أيضاً، فلم يبقَ غيرُ جورج داريه، فإنّ ليزا أخبرتني أنّه أشفق عليها.

وعند ذلك أسرعت إلى منزل جورج داريه، وأخبرته بما اتفق للأرملة ليزا بيرين، فاضطرب جورج وقال:

أهي تلك المرأة التي جاءتني بالغلاف المفقود؟

قالت: نعم.

ـ وأنت تدعين المدموازيل لوسي، أليس كذلك؟

ـ نعم، يا سيدي.

فظهرت دلائل الاشمئزاز على جورج، إذ أيقن بأن بول هرمان قد وشى بحنة، ثمّ نظر نظرة حنو إلى لوسي وقال لها:

بقيت عليّ مسألة يا سيدتي، فهل أخبرتك تلك المرأة بحقيقة اسمها؟

قالت: لقد أخبرتني أنها تدعى لويزا بيرين.

ـ إنها كانت متنكرة بهذا الاسم، ولا يمكن إيجادها الآن إلّا في السجن.

ـ لقد أرعبتني يا سيدي، فهل كانت بالحقيقة مجرمةً؟

ـ لا أعلم، ولكن لويزا بيرين حُكم عليها منذ واحد وعشرين عاماً بالسجن المؤبد ثمّ هربت من السجن، أمّا اسمها الحقيقي فهو حنة فورتيه.

فصاحت لوسي صيحة يأس، وقالت:

رباه، إنها أمي، ولكن حكم عليها ظلماً وعدواناً. وقد أخبرني لوسيان نفسه أنها عوقبت بذنب سواها.

ويلاه، لقد عرفت الآن سبب حنوها عليّ، فإنها أمي، وما أصنع الآن لإثبات براءتها؟

رحماك يا سيدي، إنك من مشاهير المحامين، وقد عرفت بالمقدرة والشفقة فرد إليّ أمي.

وعند ذلك فُتِحَ البابُ فجأةً ودخل منه لوسيان وإتيان ودشمان، فدهش جورج لقدومهم معاً. ودنا لوسيان من لوسي وضمها إلى صدره وقال: لقد حقّ لنا أن نرجو.

فقال جورج: إنها جاءت إليّ لتخبرني باختفاء لويزا.

فقال المصور بسَكينةٍ: لا بأس فسنجدها.

فحاولت لوسي عند ذلك أن تخرج، ولكن المصور اعترضها قائلاً: ابقي يا سيدتي لتكوني شاهدة على ما سيكون.

ثمّ التفت إلى جورج، وقال له بملء الحنو:

لقد بلغت اليوم يا بني الخامسة والعشرين من عمرك. وهو اليوم الذي يجب عليّ فيه تنفيذ وصية ذلك الكاهن الجليل الذي رباك. خذ هذا الكتاب واقرأه بصوتٍ عالٍ. وأنتما يا لوسي ويا لوسيان أصغيا. ففض جورج الغلاف وقرأ ما يلي:

«أيها الابن الحبيب

في شهر سبتمبر سنة 1861 جاءت إليّ امرأة تحمل طفلاً لا يتجاوز الثالثة من العمر، وكان الجنود يطاردون هذه المرأة المنكودة باتهامها بثلاث جرائم وهي تدعى حنة فورتيه.

على أنّ هذه المرأة أقسمت لي بربها وبولدها أنها بريئة. وكانت الحقيقة تتمثل بين عينيها وفي نبرات صوتها، فوثقت من صدقها ولا أزال واثقاً إلى الآن.

ولكن ما حيلتي؟ فإنّ جميع الأدلة كانت تؤيد التهمة عليها، فحُكم عليها بالسجن المؤبد.

على أني لا أزال معتقداً ببراءتها بالرغم من هذا الحكم. وعندي أنها لم تكن مجرمة، بل كانت شهيدة خطأ القضاء. وما تمكنت من نفعها إلّا بتربيتي ولدها وتبنيه باسم جورج داريه».

فصاح الجميع صيحة اندهاش لما سمعوه، وقال جورج:

أنا ابن حنة فورتيه وأخو لوسي. فأسرعت لوسي إلى معانقته وهي تقول: يا أخي؟

فسالت دموع الحاضرين حنواً لهذا المشهد، وضم جورج أخته إلى صدره، وهو يقول:

نعم إننا ولدا المحكوم عليها. وهي بريئة في عيوننا، ولكنها متهمة في عيون الناس، ولا سبيل إلى تبرئتها واأسفاه.

فأخذ إتيان بيده وقال له: كلا، إنّ براهين براءتها لدي، فخذ واقرأ.

ثمّ دفع إليه كتاب جاك جيرود إلى حنة، فلما قرأ جورج كاد يطير سروراً وقال:

إنه خير برهان يثبت البراءة، فأين وجدته؟

قال: وجدته في بطن جوادك الخشبي.

قال: نعم، لقد ذكرت الآن أني بينما كنت في عهد حداثتي ألاعب هذا الجواد. وقد كان سقط مني وشق بطنه فجعلت أحشوه بأوراق مختلفة، ثمّ رأيت أمي وقد دعكت بيدها ورقة وألقتها مغضبة إلى الأرض، فأسرعت إلى التقاطها ووضعتها في بطن الجواد.

ولكن ما حيلتنا الآن في جاك جيرود وهو من الأموات؟!

قال: بل هو حي يُرزق وهو يدعى بول هرمان.

قال: ماذا يثبت ذلك؟

قال: لا بد أن يكون لديك خط بول هرمان، فقابل بينه وبين خط الكتاب تظهر لك الحقيقة.

ففعل جورج ووجد الخطين واحداً، وكان ذعر لوسيان شديداً فقال: ويح لهذا السفاك.

إنه كان يعرف من أنا، ويحاول أن يزوجني ابنته، وهو قاتل أبي. ثمّ إننا لا نستطيع معاقبته لفوات المدة القانونية بعد ارتكاب الجريمة.

فقال إتيان: إنه إذا سلم من عقاب جريمة فورتفيل، فهو لا ينجو من عقاب محاولته قتل لوسي وحنة.

فقال جورج: لنبحث الآن عن أمي، فماذا جرى لها؟

فقال لوسيان: إننا سنجدها، وتكون أمنا جميعنا.

قال: وماذا نصنع ببول هرمان؟

فقال إتيان: أتعمل بنصحي؟

قال: نعم.

قال: إذن هلموا معي.

وخرج الخمسة من منزل جورج، فركبوا مركبتين، وأوقف إتيان مركبته عند بائع تبغ، فاشترى ورقتين عليهما تمغة الحكومة.

***

كانت حنة بعد أن خرجت من تلك الحانة قد ذهبت

هائمةً على وجهها. وقد أضاع الذعر رشدها، فلم تزل تسير حتّى وصلت إلى محل مقفرٍ. وهناك جلست على حجر، فحملت رأسها بين يديها وجعلت تقول: رباه لقد قُضي الأمر، وقُدّر لي أن أفارق ابنتي إلى الأبد.

ولكن جاك جيرود لا يزال حياً كما قال أوفيد، وهو متنكر باسم بول هرمان. وهذا الرجل لا يمكن أن يكون كاذباً، فإنه ما باح بمكنونات سره إلّا بعد أن شرب ذلك الشراب. وهو قد قبض عليه دون شك، فسيعلمون أنهم حكموا عليّ خطأ ويقضون ببراءتي، فأرى ابنتي وأبحث عن ولدي.

نعم، إنّ جاك قد يكون عرف بالأمر وأركن إلى الفرار. وعند ذلك جعلت تبكي بكاءً أليماً.

ثمّ أغمي عليها، فلم تستفق من إغمائها إلّا في الصباح. وأخذت تسير هائمةً كالحمامة تخشى سهم الصياد، فلا تدري أين تستقر، حتّى وصلت إلى نهر السين. وهناك خطر لها خاطر رهيب جعلت على أثره تتراوح بين حب الانتحار ورغبة في الحياة رغبة القانطين. ذلك أنّه خطر لها أن تذهب إلى جاك جيرود.

* * *

وقد ذهبت إلى باريس، وهناك سألت عن منزل بول هرمان، فاهتدت إليه وطرقت بابه وطلبت مقابلة صاحبه

باسم أوفيد سوليفو، فلم يجد جاك بداً من مقابلتها. وقد شغل باله من قدوم هذه المرأة باسم شريكه بالآثام، فأذن بإدخالها إليه، حتّى إذا رآها تراجع إلى الوراء منذعراً وهوي قول: أجاء يوم النشور والبعث من القبور؟

أما حنة، فإنها مشت إليه متباطئةً، وقالت له بصوت أجش: لم يبقَ شكٌّ في أنك دبرت قتلي بدليل ذعرك الآن حين رأيتني على قيد الحياة.

فرأى جاك أنّه لا بد له من الثبات، فتمالك نفسه وقال:

أأنت هنا أيتها الشقية؟ ماذا جاء بك؟ وماذا تريدين؟

قالت: ويح لك أيها السفاك، أتجسر أن تسألني عما أريد بعد أن علمتُ من أنت؟!

فهز جاك كتفيه وقال: لا شك أنك مجنونة.

قالت: لقد جننت بمساعيك عدة أعوام، وقد شفيت بعد ذلك، وأتيت أناقشك الحساب يا جاك جيرود.

فتكلف جاك الانذهال وقال: ما هذا الاسم؟

قالت: هو اسمك.

قال: بل إني أدعى بول هرمان، فلا شك أنك مجنونة يا لويزا بيرين.

قالت: وأنا لا أدعى بهذا الاسم، فأنت تعلم يقيناً أني أدعى حنة فورتيه. وكفاك تبالهاً، فقد عرفتني عند المحامي، وعرفت أني تلك الشهيدة التي عوقبت بذنبك.

قال: اسكتي.

قالت: كلا، لا أسكت، فإنهم يطاردونني ليعيدوني إلى السجن، ولكني أتيت إليك. ولا أخرج من هنا إلّا وإياك إلى ذلك السجن. وهناك لا بدّ لك أن تعترف بأنك الجاني وأني البريئة.

حاول جاك أن يجيبها، ولكن ابنته دخلت في تلك اللحظة مرتعبة وقالت: ماذا حدث؟

فأجابها أبوها قائلاً:

عودي يا ابنتي إلى غرفتك، فإنّ هذه المرأة مجنونة، وهي تنذر وتتوعد.

قالت: إذن سأنادي الخدم فيطردونها، ثمّ دنت من حنة، فقالت لها: من أنت؟

قالت: سلي أباك.

قالت: ماذا تريدين؟

قالت: أريد العدل وأريد أن يقبض على هذا الرجل معي.

فقال لها أبوها: أترين يا ابنتي؟ إنها مجنونة.

وقالت حنة: أرأيت يا سيدتي؟ إنه لا يجسر أن يستغيث من جنوني.

فذهلت ماري وقالت:

لماذا يا أبي لا تقرع الجرس؟

فقالت لها حنة: ذلك لأنه خائف.

فحاولت ماري أن تقرع الجرس، ولكن أباها أسرع إلى اعتراضها، وقال لها: كلا لا تفعلي.

قالت: لماذا؟

فأجابتها حنة قائلة:

ذلك لأنه لا يريد أن يعلم الناس أنّ بول هرمان هو جاك جيرود اللص السفاك.

فجمد الدم في عروق جاك وقال لها: أيتها الشقية اسكتي رحمةً بابنتي على الأقل.

قالت: أيها الشقي، لعلك رحمتني ورحمت ابنتي؟

إنك سفكت دم جيل لابرو، وأحرقت معمله، وسرقت ماله واختراعه.

ثمّ ألحقت بي تلك التهمة الهائلة، فسجنت بها واحداً وعشرين عاماً بعيدةً عن ولدي وابنتي.

وقد تركتهما طفلين رضيعين. ثمّ إنك تنكّرت باسم رجلٍ غريبٍ، وعدت إلى هذه العامة بعد أن أثريت بالجرائم، وجعلت تستخدم أموالك للإضرار بابنتي، فسحقت قلبها وحاولت قتلها.

ولم يكفِك ذلك حتّى قطعت رزقها، ثمّ تريد بعد ذلك أن أسكت؟!

وكانت ماري تسمع هذه الأقوال وتنظر إلى أبيها، فترى من اضطرابه ما يدل على صدقها. حتّى إذا أتمت حنة حكايتها وأظهرت حقيقة أمر هذا السفاك، غطت ماري وجهها بيديها استحياءً وقالت: رباه، إنّ ذلك هائل فظيع.

وعند ذلك هاج جاك هياج المجانين وقال:

أيتها الشقية، إنك أتيت لتنذريني في منزلي، وستلقين فيه الموت الذريع، ثمّ انقضّ عليها يحاول خنقها.

وعند ذلك قُرِع البابُ، فتراجع منذعراً ودخل الخادم، فأنبأه بقدوم زائرين. دفع حنة إلى غرفته وأقفل بابها ودخل راوول دشمان وإتيان المصور.

فانحنى إتيان أمامه وقال له:

أخشى يا سيدي أن نكون قد أزعجناك بهذه الزيارة على غير موعد؟

فإني أرى وجهك مصفراً ويديك تضطربان، فهل أنت مريض؟

قال: نعم، إني مصاب بصداع أليم، فأهلاً بك وبهذا الزائر الجديد.

فقال إتيان: إنه الموسيو راوول دشمان. وسأخبرك يا سيدي عن السبب في هذه الزيارة، فتفضل بالجلوس لنتحدث.

فجلس جاك بإزائه وبدأ إتيان الحديث، فقال:

ألم تتخرج يا سيدي من مدرسة الصنائع والفنون في شالون؟

قال: نعم.

قال: ألم تسافر بعد ذلك إلى سويسرا؟

قال: نعم.

ـ وقد أقمت فيها عامين؟

قال: نعم.

قال: أريد أن أسألك عن رجل هو اليوم في عداد الأموات، كان يشتغل بصناعتكم، وهو يدعى جاك جيرود فهل عرفته؟

قال: جاك جيرود؟

كلا، لا أذكر أني عرفت رجلاً بهذا الاسم، ولكن أذكر أنّي سمعت بهذا الاسم منذ عهد بعيد. إنّ هذا الرجل، كما قرأت في الجرائد، كان يشتغل في معمل جيل لابرو، وقد اشتهر بغيرته يوم احتراق هذا المعمل.

ـ هو ذاك يا سيدي، فهل عرفت هذا الرجل؟

ـ كلا.

ـ هل أنت واثق مما تقول؟

ـ كلّ الثقة.

ـ وعندما سافرت إلى أميركا، ألم تسمع بهذا الرجل؟

فزاد الشكُّ في قلب جاك، وقال:

كيف أسمع به وهو ميت؟

ـ ذلك لأن كثيرين من الناس يعتقدون اليوم أنّه لا يزال حياً، وأنه خرج من ذلك المعمل المحترق بعد أن سرق اختراع صاحبه وما كان فيه من المال، وبعد أن قتل صاحب ذلك المعمل.

فابتسم جاك، وقال:

إنها خرافة قديمة، فإنّ الذي قتل لابرو امرأة حُكم عليها بالسجن المؤبد.

قال: ولكن هذه المرأة تدّعي أنها بريئة، وأن لديها كتاباً من جاك جيرود نفسه يثبت براءتها.

ـ مما يدلك على فساد هذا الزعم أنّ هذا الكتاب لو كان موجوداً لأظهرته يوم المقاضاة.

ـ بل ما أقوله لك هو الحقيقة بعينها، فإنّ الكتاب موجود.

فلم يسع جاك إلّا الاضطراب بالرغم من سلطانه على نفسه، وقال له: كيف وُجد هذا الكتاب؟ وأين؟

ـ وجد في بطن جواد خشبي.

ـ إنّ ما تقصه عليّ يشبه الرواياتِ الموضوعةَ، فاسمح لي أن لا أصدقك.

ـ إذاً فانظر هذا هو الكتاب، ثمّ قال له:

أتسمح لي أن أقرأه أمامك؟

ـ وماذا يهمني من كلّ ذلك؟

ـ سوف تعلم.

وقد وضع على المائدة ورقتين عليهما تمغة الحكومة. نظر إليهما جيرود فقال:

ما هذا؟

ـ إنك ترى.

ـ نعم، ولكني لا أفهم!

ـ سوف تفهم، لأننا سنبحث في شؤون مالية، وأنت من الماهرين في الحساب يا سيدي. كم تبلغ فائدة مئتي ألف فرنك في مدة واحدة وعشرين عاماً؟

ـ إنها تبلغ ثلاثة أضعاف الأصل.

ـ إذن أنت مدين بستمائة ألف فرنك للوسيان لابرو، وهو المبلغ الذي سرقته من أبيه سنة 1861.

ـ إني أدعى بول هرمان، وإنك تهينني.

بل إنك تدعى جاك جيرود، وإنك لص سفاك، فهذه هي

شهادة المستشفى التي تثبت وفاة بول هرمان، وستناقشك الحكومة الحساب عن ذلك.

أمّا الآن، فيجب أن تدفع ستمائة ألف فرنك.

فهاج جاك كالمجانين، وقال:

لا يوجد معي سلاح للدفاع. ويلاه، لقد سقطت إلى الحضيض وسقطت معي ابنتي البريئة.

ـ ذلك منوط بك، فادفع المال في البدء وسوف نرى.

فدب الرجاء في قلب جاك، وقال:

ليس لي مال هنا.

ـ بل إنك قبضت اليوم أكثر من هذا المبلغ لتعطيه إلى ذلك الأثيم أوفيد سوليفو.

فلم يجد جاك سبيلاً للمقاومة، وأخرج من درج ورقاً مالياً بهذه القيمة ودفعها إلى إتيان.

فأخذها المصور وقال له:

لقد بقي عليك أن تكتب على هذه الورقة ذات التمغة ما أمليه عليك.

فامتثل جاك مكرهاً، وأملى عليه ما يأتي:

«أنا الموقع عليه أدناه، جاك جيرود، أعترف بحضور إتيان كاستل، وراوول دشمان..»

فتوقف جاك عن الكتابة قائلاً:

ولكنك تسألني أن أقر بجريمتي وأعترف بذنوبي، وذلك يثلم شرف ابنتي، فلا أفعل.

فمشت ماري مشياً بطيئاً، وقد كهربتها هذه الحادثة فباتت شبه النائم نوماً مغنطيسياً وقالت:

بل اكتب يا أبي.

فركع أبوها أمامها وسالت الدموع من عينيه وقال:

إنهم يريدون ثلم شرفك يا ابنتي.

وعاد المصور إلى الإملاء، فكتب جاك ما يأتي:

«أعترف أني في سبتمبر سنة 1861 كتبت إلى حنة فورتيه هذا الكتاب الموقع باسمي والموجود في طيه.

وأعترف أيضاً أني سرقت في تلك الليلة مئتي ألف فرنك من صندوق جيل لابرو وسرقت اختراعه وقتلته وأحرقت معمله.

وأعترف أني أغريت أوفيد سوليفو على قتل لوسي فورتيه وأمها حنة فورتيه الشهيرة باسم لويزا بيرين بائعة الخبز».

* * *

وعند ذلك سقط القلم من يد جاك لارتجافها.

وقد فُتح الباب فجأةً فدخلت حنة فورتيه من الغرفة التي حبست فيها، وقد وضعت يدها على عنقها وقالت:

ليعترف أيضاً أنّه حاول خنقي منذ هنيهة أمام ابنته.

فذعر جاك ودهش إتيان، ودنت ماري من أبيها وقالت له: اكتب يا أبي.

فكتب ما أرادته حنة، وتم بذلك الاعتراف، فأمره إتيان أن يوقّع على اعترافه.

حتّى إذا امتثل أخذت ماري منه تلك الورقة فدفعتها إلى حنة وقالت لها:

هو ذا برهان براءتك يا سيدتي.

ثمّ التفتت إلى أبيها، وقالت:

ليغفر لك اللّٰه يا أبي، أمّا أنا فإني سأموت لحسن الحظ.

ثمّ خرجت من تلك الغرفة التي ساد السكوت فيها، ولم يعد يسمَعُ غيرُ تنفّس جاك الذي كان يخرج من صدره كالزئير.

* * *

وبينما هم على ذلك، جاء لوسيان وخطيبته لوسي والمحامي جورج داريه وقاضي التحقيق ورئيس الشرطة وبعض الجنود يقودون أوفيد سوليفو.

فانطرحت لوسي بين ذراعي أمها، وهي لا تصدق أنها تراها. ودنا رئيس البوليس فوضع يده على كتف جاك وقال له:

إني أقبض عليك باسم القانون. ثمّ التفت إلى حنة وقال لها:

أما أنت يا سيدتي، فقد أذن لي بإطلاق سراحك، وستظهر براءتك التامة بأقرب حين بعد أن ظهرت لنا أدلتُها.

ثمّ أخذ من إتيان ذلك الكتاب الذي كتبه جاك إلى حنة.

وهنا عرفت حنة أنّ جورج ولدها، فكان موقفاً شجياً، أجال الدموع من العيون.

وبعد هنيهة ساروا بأوفيد وجاك إلى السجن، وقد مروا بالقاعة العمومية فوجدوا ماري مائتة على مقعد، وقد حملت بيدها ورقة مفتوحة كتبت فيها ما يأتي:

«إلى لوسي فورتيه

لقد أسأت إليك كثيراً، ولكني أحببته كثيراً. وقد انتقم الله لك خير انتقام، فصلي لأجلي واغفري لي».

ماري

بعد ذلك بثلاثة أشهر حكم على جاك وأوفيد سوليفو بالأشغال الشاقة.

غير أنّ جاك لم يتحمل هذا السجن فوجد وسيلة للانتحار، فانتحر.

ولما تمت براءة حنة عقد زواج لوسيان على لوسي وعاشا أهنأ عيشٍ مع جورج وحنة ولقيت تلك المنكودة من الهناء مع ولديها ما أنساها مرارةَ تلك الأيام السابقة.